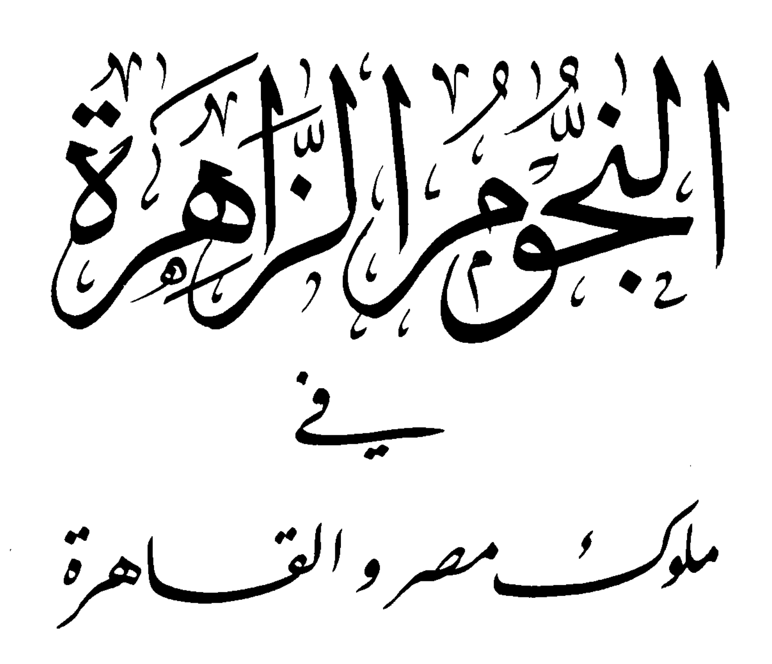


تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

الجزء الحادي عشر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

ذكر سلطنة الملك المنصور محمد [١] على مصر

السلطان الملك المنصور، أبو المعالي، ناصر الدين محمد آبن السلطان الملك المظفّر حاجيّ آبـن السلطان الملك الناصر محمد آبـن السلطان الملك المنصور قلاوون المنصوري، الحادي والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية. جلَس على تخت الملك صبيحة قُبِض على عَمّه الملك الناصر حسن، وهو يوم الأربعاء تاسـع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة، وكان عمره يومئذ نحواً من أربـع عشرة سنة، بعد أن آجتمـع الخليفـة المعتِضد بالله والقضاة والأعيان. ثم فوّض عليه خِلْعة السلطنة، وهو التشريف الخليفتي، في يوم الخميس عاشر الشهر المذكور، ولقّبوه الملك المنصور، وحَلفت له الأمراء على العادة. وركب من باب الستارة من قلعة الجبل إلى الإيوان وعمره ستّ عشرة سنة. قاله العيني. والأصـحُّ ما قلناه.

ثم خَلَـع على الأمير يلبغا العُمريّ الناصري الخاصّكي وصار مدبر مملكته، ويشاركه[٢] في ذلك خشداشه[٣] الأمير طَيْبغا الطويل، على أن كلًّا منهما لا يُخالف الآخر في أمر من الأمور. ثم خلَـع على الأمير قطلوبغا الأحمدي وآستقر رأسَ نوبة النُّوب. وخَلـع على قَشْتمر المنصوري بنيابة السلطنة بالديار المصرية ونَظَر[٤]

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٣/١/٩٤؛ وبدائع الزهور: ١/١/٥٨؛ والجوهر الثمين: ٢/٢١٦؛ والبداية والنهاية: ١٤/٢٩١ وما بعدها؛ وشذرات الذهب: ٦/١٩٦ و٧/١٠؛ والأعلام: ٦/٧٥.

(٢) لم تشر المصادر التي بين أيدينا إلى مشاركة طيبغا للأمير يلبغا العمري في تدبير المملكة. وجاء في السلوك وبدائـع الزهور أن الأمير طيبغا الطويل استقر على عادته أمير سلاح.

(٣) الخشداش: الزميل في الخدمة. ويكون الخشداشية من أصل واحد. وقد سبق الكلام عليه: انظر فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

(٤) في الأصل: «وناظر».

البيمارَستان المنصوريّ عوضاً عن الأمير آقتُمر عبد الغني، وخلَع على الشريف عز الدين عَجْلان بإمْرة مكة على عادته.

ثم كتَب بالإفراج عن جماعة من الأمراء من الحُبُوس وهم الأمير جَرَكْتَمُر المارديني، وطَشْتمر القاسمي، وقُطلوبغا المنصوري.

وخَلَع على طشتمر القاسمي بنيابة الكَرَك من يومه، وعلى مَلِكْتَمر المحمدي بنيابة صَفَد، ونفى أطقتمر(١) المؤمني إلى أُسوان، وخَلع على الأمير أُلْجاي اليوسفي حاجب الحجّاب وآستقرّ أمير جاندار، وأفرج عن الأمير طاز اليوسفي الناصري من اعتقاله بثغر الإسكندرية بعد أن حُبس بها ثلاث سنين وزيادة، وكان السلطان الملك الناصر حسن قد أكْحله، وأَفرج أيضاً عن أخويّ طاز: الأمير جَنْتَمر وكُلْتاي، و[عن] قرابغا وحضروا الجميع إلى بين يدي السلطان، وحضَر طاز، وعلى عينيه شَعْرية،(٢) فأخلع عليه، وسأل أن يُقيم بالقُدس، فأُجيب، وسافر إلى القُدس وأقام به إلى أن مات، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولّما بلغ خبرُ قتل الملك الناصر حسن إلى الشأم عَظُم ذلك على بَيْدَمر نائب الشأم وخرج عن الطاعة في شعبان سنة اثنتين وستين وسبعمائة وعصى معه أسندمر الزينيّ، ومنجك اليوسفي، وحصّنوا قلعة دِمَشق. فلّما بلغ ذلك يلبغا العمري استشار الأمراء في أمرهم، فاتّفقوا على خروج السلطان إلى البلاد الشامية. وتجهّز يَلْبُغا، وجهّز السلطان الملك المنصور إلى السفر، وأنْفَق في الأمراء والعساكر. وخرج السلطان ويلبغا بالعساكر المصرية إلى الرّيْدانية في أواخر شعبان.

ثم رحّل الأمير يلبغا جاليش(٣) العسكر في يوم الاثنين مستهلّ شهر رمضان. ورحّل السلطان الملك المنصور في يوم الثلاثاء، الثاني منه، ببقية العساكر وساروا حتى وصلوا دمَشق في السابع والعشرين من شهر رمضان المذكور، فتحصّن الأمراء

---

(١) في السلوك والجوهر الثمين: «بكتمر المؤمني».

(٢) الشعرية: نسبة إلى الشعر، وهي غشاء أسود رقيق.

(٣) هنا بمعنى طليعة العسكر. ـ وانظر فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

المذكورون بمن معهم في قلعة دمشق، فلم يقاتلهم يلبغا، وسيّر إليهم في الصلح. وتردّدت الرسُل إليهم، وكان الرسُل قضاة الشام، حتى حَلف لهم يلبغا أنه لا يؤذيهم وأمّنهم، فنزلوا حينئذ إليه، فحال وقع بصرُه عليهم أمر بهم، فقُبِضوا وقُيّدوا، وحملهم إلى الإسكندرية إلى الاعتقال بها. وخلع يلبغا على أمير عليّ الماردينى بنيابة دِمَشق على عادته أوّلاً ـ وهذه ولاية أمير عليّ الثالثة على دمشق ـ وتولّى الأمير قُطْلوبُغا الأحمدي رأس نَوْبة نيابة حلب عوضاً عن الأمير شهاب الدين أحمد بن القَشْتَمُري.

وأقام السلطان ويلبغا مدّة أيام، ومهّد يلبغا أمورَ البلاد الشامية حتى استوثق له الأمر. ثم عاد إلى جهة الديار المصرية وصحبته الملك المنصور والعساكر حتى وصل إليها في ذى القعدة من سنة آثنتين وستين وسبعمائة.

وصار الأمر جميعُه ليلبغا. وأخذ يلبغا في عَزْل مَن آختار عزلَه وتولية من اختاره، فأخلع على الطواشي سابق الدين مِثْقال الآنوكي زِمام[1] الدار، واستقرّ في تقدمة المماليك السلطانية عوضاً عن الطواشي شرف الدين مُخلص[2] الموفَّقي.

ثم في شهر رجب آستقرّ الأمير طُغَيْتَمر[3] النِّظامي حاجب الحجاب بالديار المصرية، وكانت شاغرة منذ وُلِّي ألجاي اليُوسفي أمير جاندار[4].

ثم في شعبان استقرّ الأميرُ قُطْلُقْتَمر العلائي الجاشْنكير أميرَ مائة ومقدّم ألف بديار مصر.

---

(١) هذا المصطلح وغيره من المصطلحات المتعلقة بالألقاب والوظائف وغيرها سبق التعريف بها. ولن نثقل الكتاب بإعادة الكلام عليها، فليرجع القارىء إلى فهرس الألفاظ الاصطلاحية للاهتداء إلى مظان شرحها. وقد وضعنا رقم الصفحة المطلوبة بين هلالين () إشارة إلى أنه يجد ضالته فيها.

(٢) في السلوك وبدائع الزهور: «عوضاً عن شرف الدين مختص الطقتمري». وهذا الخبر وما بعده وردت في المرجعين المذكورين في حوادث سنة ٧٦٣هـ.

(٣) في السلوك وبدائع الزهور: «طغاي تمر».

(٤) عبارة السلوك: «. . . استقر حاجب الحجاب عوضاً عن الأمير ألجاي اليوسفي. واستقر ألجاي أمير جاندار».

ثم في شوّال أخلـع على الأمير إشقتَمر الماردِيني أمير مجلس بنيابة طرابُلُس، واستقر طغيتمر النظامي عوضه أمير مجلس، واستقر الأمير أسنبغا الأبُو بكري حاجب الحجّاب عوضاً عن طغيتمر النظامي. ثم أخلـع على الأمير عزّ الدين أيْدَمر الشيخي بنيابة حماة. ثم استقرّ الأمير مَنْكَلي بغا الشمسي في نيابة حلب عوضاً عن قطلوبغا الأحمدي بحُكم وفاته. ثم أمسك الأمير شرف الدين موسى بن الأزْكُشي الأستادار ونفي إلى حماة واستقرّ عوضه في الأستادارية أرُوس المحمودي.

ثم تزوّج الأمير الكبير يلبغا بطُولُوبيه[1] زوجة أستاذه الملك الناصر حسن. وفي هذه السنة[2] بويع المتوكّل على الله أبو عبد الله محمد بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بالله أبي بكر بعهد من أبيه في يوم الأربعاء[3] ثامن عشر جُمادَى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة.

ثم أُشيع في هذه السنة عن السلطان الملك المنصور محمد أمور شنعة نفّرت قلوبَ الأمراء منه. وآتفقـوا على خلعه من السلطنة، فخُلع في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة. وتسلطن بعده ابن عمه الملك الأشرف شعبان بن حسين. وحسين المذكور لم يتسلطن، غير أنه كان لُقِّب بالأمجد من غير سلطنة. وأخذوا الملك المنصور محمداً وحبسوه داخل الدور السلطانية بقلعـة الجبل. وكانت مدّة سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وستة أيام، وليس له فيها من السلطنة إلا مجرّد الاسم فقط. والأتَابك يلبغا هو المتصرف في سائر أمور المملكة.

وسبب خلعه ـ والذي أُشيع عنه ـ أنه بلغَ الأتابك يلبغا أنه كان يدخل بين نساء الأمراء ويَمْزح معهن، وأنه كان يعمل مُكارياً للجواري ويُرْكِبُهنّ ويجري هو وراء الحِمار بالحوش السلطاني، وأنه كان يأخذ زِنْبيلاً فيه كَعْك ويدخل بين النساء ويبيع ذلك الكعك عليهن على سبيل المماجنة، وأنه يفسُق في حريم الناس، ويُخِلّ

(١) كذا أيضاً في بدائع الزهور. وفي السلوك والجوهر الثمين: «طولويه»

(٢) يعني سنة ٧٦٣هـ.

(٣) في السلوك: «يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى».

بالصلوات، وأنه يجلس على كرسي المُلك جُنُباً، وأشياء غير ذلك[١]. فاتّفق الأمراء عند ذلك على خلعه، فخلعوه، وهم يَلْبُغا العمري الخاصّكي وطَيْبُغا الطويل وأرغون الإسعردي وأرغون الأشرفي وطيبغا العلائي وألْجاي اليوسفي وأروس المحمودي وطَيْدَمُر البالسي وقُطْلُوبُغا المنصوري، وغيرهم من المقدّمين والطبلخانات والعشروات.

وآستمرّ الملك المنصور محبوساً بالدور السلطانية من القلعه إلى أن مات بها في ليلة السبت تاسع المحرّم من سنة إحدى وثمانمائة. وزوّج الملك الظاهر برقوق الوالدَ[٢] بابنته خَوَنْد فاطمة في حياة والدها الملك المنصور المذكور، واستولدَها الوالدُ عِدّةَ أولاد، وماتت تحته في سنة أربع وثمانمائة. ولما مات الملك المنصور صلّى عليه الملك الظاهر برقوق بالحوش السلطاني من القلعة، ودُفِن بتربة جدّته أمّ أبيه بالروضة[٣] خارج باب المحروق بالقرب من الصحراء. وكان مُحِبّاً للهو والطرب راضياً بما هو فيه من العيش الطيب. وكان له مَغَانٍ[٤] عدّة، جُوقة كاملة زيادة على عشر جوارٍ يُعرفن بمغاني[٥] المنصور، استخدمهنّ الوالد بعد موته. وكانت العادة تلك الأيام أنّ كل سلطان أو ملك يكون له جُوقة من المغاني عنده في داره. ولم يخلّف الملك المنصور مالاً له صورة، وخلّف عدّة أولاد ذكور وإناث. رأيت أنا جماعةً منهم. انتهى والله أعلم.

---

(١) يذكر المقريزي في السلوك أن خلعه من السلطنة كان بسبب اختلال عقله.

(٢) يعني والد المؤلف، وهو الأمير تغري بردي اليشبغاوي.

(٣) الروضة هي المنطقة التي تعرف اليوم بقرافة المجاورين. (محمد رمزي).

(٤) أي مغنيات.

(٥) في بدائع الزهور: «يعرفن بجوقة المنصور». وذكر ابن إياس نبذة مفيدة عن حال هذه المغنيات، قال: «وكان عنده جوقة مغاني نحو عشرة جوار، يزفون بالطارات عند الصباح وعند المساء؛ وكانت هذه عادة رؤساء أهل مصر، يقتنوا عندهم الجوار المغاني. وآخر من كان يفعل ذلك الأمير جمال الدين محمود الأستادار. ثم بطل ذلك من مصر مع جملة ما بطل من محاسن عيشة الأكابر، ولأجل ذلك اتخذوا الأغاينات التي تشرف على الدور، وجعلوها برسم الجوار المغاني، التي يزفون عند الصباح وعند المساء. ولما مات الملك المنصور استمرت جواريه المغاني يعملون الأفراح للناس، وكانوا يعرفون بجوقة المنصور». (بدائع الزهور: ١/١/٥٩٣، وقد نقلنا النص كما جاء بأخطائه وسقم عباراته).

السنة الأولى [من سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك المظفّر حاجي على مصر]

وهي سنة آثنتين وستين وسبعمائة، ومدبّر الممالك يَلْبُغا العُمَريّ. على أن الملك الناصر حسناً حَكَم منها إلى تاسع جُمادَى الأولى، ثم حكم في باقيها الملك المنصور هذا.

فيها كان خَلْع الملك الناصر حسن وقتله، حسب ما تقدّم، وسلطنة الملك المنصور هذا.

وفيها تُوُفّي الأديب شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ بن محمد، المعروف بآبن أبي طُرْطُور، الشاعر المشهور، بحماة عن بضع وسبعين سنة. وكان ــ رحمه الله ــ شاعراً ماهراً حسن العِشْرة. مدَح الأكابر والأعيان، ورَحَل إلى الشام، ثم آستوطن حَمَاة إلى أن مات. رحمه الله. ومن شعره في مَلِيح اسمه يعقوب، وهو هذا: [الرمل]

يا مليحاً حاز وجهاً حسنا ... أورث الصَّبَّ البكا والحزَنا
غلِطوا في آسمك إذ نادَوْا به ... يوسفُ أنت ويعقوبُ أنا

وتُوُفيّ الحافظ المفتنُّ علاء الدين أبو عبد الله مُغْلَطَاي بن قليج بن عبد الله البَكْجِريّ الحنفيّ الحافظ المصنف المحدّث المشهور في شعبان، ومولده سنة تسعين وستمائة، قاله آبن رافع، وغيره في سنة تسع وثمانين. وسمع من التاج أحمد آبن دَقِيق العيد وآبن الطبّاخ والحسن بن عمر الكُرْديّ، وأكثر عن شيوخ عصره. وتخرّج بالحافظ فتح الدين آبن سيد الناس وغيره، ورَحَل وكَتَب وصنّف، وشرح «صحيح البخاريّ»، ورتب «صحيح ابن حِبّان»، وشرح «[سنن] أبي داود» ولم يكمله، وذَيَّل على «المشتَبه لابن نقطة»، وذَيّل على «كتاب الضعفاء لابن الجَوْزِيّ» وله عدّة مصنّفات أُخر. وكان له اطلاع كبير وباع واسع في الحديث وعلومه، وله مشاركة في فنون عديدة. تغمّده الله برحمته.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام البارع المحدّث العلامة جمال الدين عبد الله بن يوسف الزَّيْلَعيّ الحنفيّ في الحادي والعشرين من المحرّم. وكان ــ رحمه الله ــ فاضلاً بارعاً في الفقه والأصول والحديث والنحو والعربية وغير ذلك. وصنّف وكَتَب وأفتى ودرّس، وخرّج أحاديث«الكَشّاف»(١) في جزء، وأحاديث الهِداية[في الفقه على مذهب أبي حنيفة](٢) في أجزاء وأجاد، أظهر فيه على اطلاع كبير وباع واسع. رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي السيِّد الشريف شهاب الدين حُسين بن محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن زيد الحُسَيْنيّ المصريّ الشافعيّ، الشهير بآبـن قاضي العسكر، نقيب الأشراف بالديار المصرية عن أربع وستين سنة. وكان كاتباً بارعاً أديباً بليغاً. كتب الإنشاء بمصر، وباشر كتابة السِّر بحلب، وله ديوان خُطَب وتعاليق ونظم ونثر. ومن شعره قوله: [المتقارب]

تَلَقّ الأمـورَ بصبـر جميـل ... وصـدر رحيبٍ وخـلِّ الحَـرَج
وسَـلِّم إلى الله فـي حكـمـه ... فـإمّـا الممـاتَ وإمّا الفَـرج

وتُوُفِّي القاضي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن خلف بن بدر، المعروف بابن بِنت الأعز العَلاَمِيّ(٣)، الفقيه الشافعي في يوم الخميس ثامن عشر شهر ربيع الآخر. وكان فقيهاً بارعاً فاضلاً. وَلِيَ نظر الأحباس بالقاهرة ووكالة بيت المال وعِدّة وظائف دينية ــ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بَلَبَان بن عبد الله السِّناني الناصري الأستادار وأحدُ أمراء المقدّمين بالقاهرة. وكان من أعيان أمراء الديار المصرية، وفيه شجاعةٌ ومروءة وكَرَم. تغمّده الله برحمته.

وتُوُفِّي القاضي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عيسى [بن عيسى](٤) بن

---

(١) الكشاف في التفسير للزمخشري.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) في السلوك: «العلائي».

(٤) زيادة عن السلوك.

محمد بن عبد الوهاب بن ذؤيب الآمِدي الدمشقيّ الشافعي، المعروف بابن قاضي شُهْبَة، رحمه الله. كان إماماً بارعاً أديباً ماهراً. باشر الخَطابة بمدينة غزّة سنين، ثم كتب الإنشاء بدمشق، وكان له نظم ونثر وخُطَب.

وتُوُفِّي الشيخ شمس الدين محمد بن مجد الدين عيسى بن محمود[بن عبد اللطيف البَعْلَبكي](١) المعروف بابن المجد الموسوي في سَلْخ صفر. وكان فقيهاً فاضلاً، إلّا أنه كان غَلَبَ عليه الوَسْوَاس، حتى إنه كان في بعض الأحيان يتوضّأ من فسقية الصالحية ببين القصرين، فلا يزال به وسواسهُ حتى يُلْقِي نفسه في الماء بثيابه.

وتُوُفِّي الفقيه الكاتب المنشىء كمال الدين أبو عبد الله محمد بن شرف الدين أحمد بن يعقوب بن فضل بن طَرْخان الزينبيّ الجَعْفَريّ العباسيّ الدمشقيّ الشافعيّ بضواحي القاهرة. كان معدوداً من الرؤساء الفضلاء الأدباء

وتُوُفِّي الشيخ المعمَّرالمعتَقَد أبو العباس أحمد بن موسى الزرعيّ الحنبليّ، أحد الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، في المحرّم بمدينة حبراص من الشأم. وكان قوياً في ذات الله جريئاً على الملوك والسلاطين. أبطل عدّة مكوس ومظالم كثيرة، وقَدِم إلى القاهرة أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون وله معه أمور يطول شرحها. وكان يُخاطِب الملوك كما يُخاطِب بعض الحرافيش، وله على ذلك قوّة وشدّة بأس(٢). رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بُرْناق بن عبد الله، نائب قلعة دمشق بها في شعبان. وكان مشكور السِّيرة في ولايته.

وتُوُفِّي قاضي الكَرَك محي الدين أبو زكريّا يحيى بن عمر الزكيّ الشافعي ــ رحمه الله ــ في أوائل ذي القعدة وهو معزول.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) روي أنه لما قدم على الناصر محمد بن قلاوون، قال له: «يا شيخ، ما جئتنا بهدية؟» فقال: «نعم، جراب ملآن حيات وعقارب». وأخرج جراباً فيه قصص مظالم، فرسم السلطان بإجابته إلى جميع ذلك. (السلوك: ٣/١/٧١).

وتُوُفِّي قتيلاً صاحب فاس من بلاد المغرب السلطان أبو سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المَرِينيّ في ليلة الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة ــ رحمه الله تعالى ــ وكان من أجلّ ملوك الغرب.

وتُوُفِّي الخواجا عِزّ الدين حسين بن داود بن عبد السيّد بن علوان السَّلاَمِي التاجر في شهر رجب بدمشق، وقد حدّث، وكان مُثْرِياً، وخلَّف مالاً كبيراً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع واثنتا عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وعشر أصابع. والله أعلم.

السنة الثانية من سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجّي على مصر

وهي سنة ثلاث وستين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّي الشيخ الإمام العالم الخطيب شمس الدين أبو أُمامة محمد بن علي بن عبد الواحد بن يحيى بن عبد الرحيم الدّكّالي المصري الشافعي، الشهير بآبن النقاش ــ رحمه الله تعالى ــ في يوم الثلاثاء ثالث عشر شهر ربيع الأوّل، ودُفِن آخر النهار بالقُرْب من باب البرقية[١] خارج القاهرة عن ثلاث وأربعين سنة. وكان إماماً بارعاً فصيحاً مفوّهاً، وله نظم ونثر ومواعيد. وخَطَب بجامع أصلم[٢]، ودرّس به وبالآنوكيّة[٣]، وعَمِل عدّة مواعيد بالقاهرة والقُدس والشام، واتّصل بالملك الناصر حسن وحَظِي عنده. وهو الذي كان سبباً لخراب بيت الهِرْماس[٤] الذي كان عمره في زيادة جامع الحاكم وساعده في ذلك العلاّمة قاضي القضاة

(١) أحد أبواب القاهرة في سورها الشرقي.

(٢) جامع أصلم: هذا الجامع داخل الباب المحروق من القاهرة، أنشأه الأمير بهاء الدين أصلم السلاحدار سنة ٧٤٦هـ. (خطط المقريزي: ٢/٣٠٩).

(٣) أي الخانقاه الآنوكية. وذكرها المقريزي باسم خانقاه أم آنوك. وهي الخاتون طغاي أم آنوك زوجة الناصر محمد بن قلاوون. أنشأت تلك الخانقاه سنة ٧٤٥هـ. (خطط المقريزي: ٢/٤٢٥).

(٤) هو قطب الدين أبو عبد الله محمد بن محمود بن هرماس بن ماضي المعروف بالهرماس المقدسي. توفي سنة =

سراج الدين الهنديّ الحنفي. وكان له نظم ونثر وخُطَب، ومن شعره قصيدته التي أوّلها: [الكامل]

طَرقتْ وقد نامتْ عيونُ الحُسَّدِ وتوارت الرقباء غير الفرْقدِ

وتُوُفِّي قاضي القضاة تاج الدين أبو عبد الله محمد ابن القاضي علم الدين محمد بن أبي بكر عيسى بن بَدْران السّعدي الإخنائي المالكيّ ــ رحمه الله ــ بالقاهرة. وكان فقيهاً فاضلاً رئيساً وَلِي نظرَ الخِزانة السلطانية، ثم باشر الأحكام الشرعية إلى أن مات.

وتُوُفِّي الخليفة أمير المؤمنين المعتضد بالله، أبو الفتح ثم أبو بكر، ابن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ابن الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن ابن الخليفة الراشد بالله منصور ابن الخليفة المسترشد بالله الفضل ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد ابن الخليفة المقتدي بالله عبيد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله ابن الخليفة القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق ابن الخليفة المقتدر بالله جعفر ابن الخليفة المعتضد بالله أحمد ابن الأمير الموفَّق طلحة ابن الخليفة المتوكّل على الله جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد بالله هارون ابن الخليفة المهدي محمد ابن الخليفة أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي الهاشمي المصري ــ رحمه الله ــ بالقاهرة في ليلة الأربعاء ثامن عشر شهر جُمَادى الأولى، وعهِد بالخلافة لولده من بعده المتوكّل محمد.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين طاز بن عبد الله الناصريّ، المقدّم ذكره في عدّة أماكن من تراجم أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهو بطّال بالقُدس. وكان

= ٧٦٩هـ. وبيت الهرماس كان بجوار الجامع الحاكمي. وكان الهرماس مقرباً من السلطان الناصر حسن وللسلطان اعتقاد كبير فيه، فلما سعى به عنده ابن النقاش في سنة ٧٦١هـ ركب السلطان إلى باب النصر ووقف تجاه دار الهرماس وأمر بهدمها فهدمت. (انظر خطط المقريزي: ٢/٧٦، والسلوك: ٣/١/١٦٨).

من خواصّ الملك الناصر محمد، ثم تَرَقَّى بعد موته إلى أن صار مدَبِّر الديار المصرية. ثم وَلِي نيابة حلب بعد أمور وقعت له، ثم قُبِضَ عليه وحُبِس وسُمِل، إلى أن أطلقه يَلْبُغا في أوائل سلطنة الملك المنصور محمد هذا وأرسله إلى القدس بطّالاً فمات به. وكان من الشجعان.

وتُوُفِّي القاضي أمين الدين محمد بن جمال الدين أحمد بن محمد بن محمد بن نصر الله، المعروف بآبـن القلانسيّ التميمي الدِّمشقي بها. كان أحد أعيان دِمَشق، معدوداً من الرؤساء. باشر بها عدّة وظائف، ثم ولِي كتابة سِرّ دِمشق أخيراً. وكان فاضلاً كاتباً.

وتُوُفِّي القاضي ناصر الدين محمد آبـن الصاحب شرف الـدين يعقوب بن عبد الكريم الحلبي الشافعي، كاتب سِرّ حلب ثم دِمَشق. وُلِدَ سنة سبع وسبعمائة بحلب ونشأ بها، وبَرَع في عِدّة علوم، وأُذِن له بالإفتاء والتدريس. وَوَلِي كتابة السِّرّ والإنشاء بحلب عوضاً عن القاضي شهاب الدين آبـن القطب، وأُضيف إليه قضاء العسكر بها. ثم نُقِل إلى كتابة سِرّ دِمَشق بعد وفاة تاج الدين بن الزين خِضْر. وكان ساكناً محتملاً مُدارياً كثير الإحسان إلى الفقراء. وكان يكتب خطّاً حسناً، وله نظمٌ ونثر جيِّد إلى الغاية. وكان مستحضراً للفقه وأصوله وقواعد أصول الدين والمعاني والبيان والهيئة والطب. ومن شعره رحمه الله: [الرمل]

وكأنَّ القَطْرَ في ساجِي الدُّجى لُـؤْلُـؤٌ رصّـع ثَـوْبـاً أسـوَدَا
فإذا جادَت على الأرض غـدَا فِضّـة تُشْرِق مـع بُعْد المَدَى

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أَيْنَبَك بن عبد الله، أخو الأمير بَكْتَمُر الساقي. وكان من جُمْلة أمراء الطبلخانات.

وتُوُفِّي الأمير الطواشي صفيّ الدين جوهر الزُّمُرُّدي بقُوص في شعبان. وكان من أعيان الخدّام، وله رياسة ضخمة.

وتُوُفِّي الشيـخ الإمام العالم شمس الدين محمد بن مُفْلـح بن محمد بن مفرّج الدمشقي الحنبلي بِدِمَشق في شهر رجب. وكان فقيهاً بارعاً مصنّفاً. صنّف «كتاب الفروع» وهو مفيد جدّاً، وغيره.

وتُوُفِّي الشيخ المعتقد فتح الدين يحيى بن عبد الله بن مَروان الفارِقِيّ الأصل الدمشقي الشافعي في شهر ربيع الأوّل بدمشق، ومولده بالقاهرة في سنة اثنتين وسبعين وستمائة. رحمه الله تعالى. وكان صالحاً عالماً صُوفِيّاً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ست أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وإصبعان.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك المنصور محمد على مصر

وهي سنة أربع وستين وسبعمائة. وهي التي خُلِع فيها الملك المنصور المذكور بآبن عمه الأشرف شعبان بن حسين في شعبان منها.

فيها كان الطاعون بالديار المصرية والبلاد الشامية ومات فيه خَلْقٌ كثير، لكنه كان على كلّ حال أخفّ[١] من الطاعون العام الذي كان في سنة تسع وأربعين وسبعمائة المقدّم ذكره.

وفيها تُوُفِّي الشيخ عماد الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن[٢] بن علي بن عمر القرشي الإسنائي[٣] الشافعي في ثامن عشرين جُمَادَى الآخرة ودفِن خارج باب النصر من القاهرة. كان إماماً عالماً مفتياً مدرّساً.

وتُوُفِّي الشيخ سراج الدين، أبو حفص، عمر بن شرف الدين عيسى[٤] بن عمر البَارِينيّ الشافعي الحلبي بحلب عن ثلاث وستين سنة. وكان من الفقهاء الأفاضل ــ رحمه الله.

---

(١) ذكر المقريزي أن هذا الطاعون تزايد في الديار المصرية حتى بلغ في شهر رجب عدة من يموت في اليوم الواحد ثلاثة آلاف. (السلوك: ٣/١/٨٢).

(٢) في السلوك: «الحسين».

(٣) هذه النسبة إلى إسنا (أسنا) بمصر. ويقال في النسبة إليها: الإسنائي والأسنائي والإسنوي والأسنوي.

(٤) كذا في السلوك والدرر الكامنة. وفي الأصل: «موسى».

وتُوُفِّي القاضي كمال الدين، أبو العباس، أحمد آبن القاضي تاج الدين محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر[١] بن هبة الله بن عبد القادر[١] بن عبد الواحد بن هِبة الله بن طاهر بن يوسف الحلبي، الشهير بابن النصيبي، بحلب عن تسع وستين سنة. كان كاتباً بارعاً. سمع الحديث وحدث، وعّلق بخطه كثيراً، وباشر كتابة الإنشاء بحلب، ثم ترك ذلك كلّه ولَزِم العُزْلَة إلى أن مات.

وتُوُفِّي الصاحب تقيّ الدين سليمان بن علاء الدين عليّ بن عبد الرحيم[٢] بن أبي سالم بن مَراجِل الدِّمَشقي بِدمشق وهو من أبناء الثمانين. وكان كاتباً رئيساً. ولي نظر الدولة بمصر، ثم ولي وزارة دِمَشق ونظر قلعتها وغير ذلك من الوظائف، ونُقِل في عِدّة خدَم؛ ومن إنشاده لوالده: [الطويل]

أأحبابَنا شَوْقي إلَيْكم مضاعَفٌ وذكرُكُمُ عندي مع البعدِ وافرُ
وقِلْبيَ لمّا غبتُم طار نحوكم وأعْجَبُ شيءٍ واقعٌ وهو طائرُ

وتُوُفِّي القاضي شمس الدين عبد الله بن شرف الدين يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أبي السَّفّاح الحلبي بالقاهرة عن نيّف وخمسين سنة، رحمه الله. كان جليلاً، باشر كتابة الإنشاء بحلب وعِدّة من الوظائف الديوانية، وتنقّل في الخدَم. وقال في مرض موته: [مجزوء الخفيف]

إن قَضى اللهُ مَوْتَتي وفِراقي أحِبَّتي
فعليهم تأسُّفي وإليهم تَلفُّتي
أو يكُنْ حانَ مَصْرَعي وتَدانتْ مَنيَّتي
رَحِم الله مُسلماً زار قبري وحُفْرَتي

وتُوُفِّي الشيخ الإمام البارع الأديب المفتَنّ صلاح الدين، أبو الصفاء، خليل آبن الأمير عِز الدين أيْبَك بن عبد الله الألْبكي الصَّفَدِي الشاعر المشهور بِدمِشْق في ليلة الأحد عاشر شوّال. ومولده سنة ستّ وتسعين وستمائة. وكان إماماً بارعاً كاتباً

---

(١) في الدرر الكامنة: «عبد القاهر».

(٢) في السلوك: «عبد الرحمن».

ناظماً ناثراً شاعراً. وديوانُ شعره مشهور بأيدي الناس، وهو من المكثرين. وله مصنّفات كثيرة في التاريخ والأدب والبديع وغير ذلك وتاريخه المُسمَّى: «الوافِي بالوَفَيات» في غاية الحسن، وقفت عليه وآنتقيتُه ونقلت منه أشياء كثيرة في هذا المؤلّف وفي غيره. وله تاريخٌ آخر أصغرُ من هذا سمّاه «أعوان(١) النصر في أعيان العصر» في عِدّة مجلدات.

وقد استوعبنا من أحواله وشعره ومكاتباته نُبْذَةً كبيرةً في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي والمستَوْفَى بعد الوافي». وتسميتي للتاريخ المذكور «والمستوفَى بعد الوافي» إشارة لتاريخ الشيخ صلاح الدين هذا، لأنه سمّى تاريخه: «الوافي بالوفيات» إشارة على تاريخ ابن خَلِّكان أنه يُوَفِّي بما أخَلّ به ابن خَلِّكان، فلم يحصُل له ذلك، وسَكَت هو أيضاً عن خلائق، فخشيتُ أنا أيضاً أن أقول: «والمستَوْفَى على الوافي» فيقع لي كما وقع له؛ فقلت: «والمستَوفَى بعد الوافي» انتهى.

قلت: وقد خرجنا عن المقصود ولنعد لترجمة الشيخ صلاح الدين ونذكُر من مقطعاته ما تُعْرَف به طبقتُه بين الشعراء على سبيل الاختصار. فمن شعره بسَندنا إليه: أنشدَنَا مُسْنِدُ عصرِه ابن الفُرات(٢) الحنفيّ إجازةً، أنشدَنا الشيخ صلاح الدين خليل الصَّفَديّ إجازةً: [السريع]

الـمُقْلَةُ السـوداءُ أجفـانُهـا … تَـرْشُقُ في وَسْط فؤادي نِبالْ
وتَقْـطَـعُ الـطُّرْق على سَلْوَتي … حتى حسِبْنا في السُّوَيْدَا رجالْ

قال ـ وله أيضاً ـ رحمه الله تعالى: [الوافر]

مُـحَيَّـاه لـه حُـسْـنٌ بـديعٌ … غدا رَوْضُ الخُدود به مُزَهَّـرْ
وعـارِضُه رأى تلكَ الحـواشي … مُـذَهَّـبَـةً فَـزَمَّكَهـا(٣) وشَعَّـرْ

---

(١) التسمية الصحيحة: «أعيان العصر في أعوان النصر».
(٢) هو ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم الحنفي المتوفى سنة ٨٠٧هـ. وهو صاحب تاريخ ابن الفرات. (الأعلام: ٦/ ٢٠٠).
(٣) التزميك والتشعير: من ضروب التزيين بماء الذهب.

وله ــ عفا الله عنه: [مخلـع البسيط]

بِسَهْمِ ألحاظِه رماني فذُبْتُ من هَجْره وبَيْنِهْ
إن متُّ ما لي سواه خَصْمٌ فإنه قاتِلِي بعَيْنِهْ

وقال: [المتقارب]

كؤوس المُدام تُحِبُّ الصَّفَا فكُن لتَصاويرِها مُبْطِلا
ودَعْها سَواذِجَ من نَقْشِها فأحسنُ ما ذُهِّبَت بالطِّلا

وله: [الطويل]

أقولُ له ما كان خَدُّك هكذا ولا الصُّدْغُ حتى سالَ في الشّفق الدُّجى
فمن أين هذا الحسنُ والظَّرْف قال لي تفتَّح وَرْدِي والعذارُ تَخَرَّجَا

وله: [الكامل]

أنفقتُ كنزَ مدائحي في ثَغْرِه وجمعتُ فيه كُلّ معنًى شارِدِ
وطَلَبْتُ منه جزاءَ ذلك قُبْلَةً فأبى وراح تَغَزُّلي في البارِدِ

وله: [المنسرح]

أفْديه ساجي الجُفونِ حين رَنَا أصابَ منِّي الحَشَا بسهمَيْنِ
أعْدَمني الرشدَ في هواه ولا أفلَحَ شيءٌ يصابُ بالعَيْن

وله: [مخلّع البسيط]

سألتمُ عن مَنَام عَيْنَي وقد بَرَاه جَفاً وبَيْنُ
والنومُ قد غاب حين غِبْتُمْ ولم تقع لي عليه عَيْنُ

وتُوُفِّي الأمير بدر الدين حسين، المنعوت بالملك الأمجد، آبن السلطان الملك الناصر محمد آبن السلطان الملك المنصور قلاوون بالقلعة في ليلة السبت رابع شهر ربيع الآخر. وهو آخِرُ من بَقِي من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون من الذكور، وهو والد السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين، وموته قبل سلطنة

ولده الأشرف بنحو خمسة شهور وأيام، ولو عاش لمَا كان يَعْدِل عنه يَلْبُغا إلى غيره. وكان حسين هذا حريصاً على السلطنة فلم يَنَلْها دون إخوته، على أنه كان أمثلَ إخوته.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بَزْدار الخليليّ أمير شكار أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية بها؛ وكان من أعيان الأمراء، عُرِف بالشجاعة والإقدام.

وتُوُفِّي شيخ القراءات مجد الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن يوسف بن محمد الكُفْتِي في نصف شعبان، رحمه الله. وكان إماماً في القراءات، تَصَدّى للإقراء سنين وانتفع الناس به.

وتُوُفِّي السيد الشريف غياث الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن الشريف صدر الدين حَمْزة العراقيّ والد الشريف مُرْتَضى، تغمده الله تعالى. وكان رئيساً فاضلاً نبيلاً.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين جركس بن عبد الله النَّوْرُوزِي أحد أمراء الطلبخانات[١] بالقاهرة. وكان من أعيان المماليك الناصرية.

وتُوُفِّي الشيخ المُعْتَقَد مُسْلم[٢] السلمي المقيم بجامع الفيلة[٣]، رحمه الله. كان صالحاً مجاهداً عابداً قائماً في ذات الله تعالى. وكان يُجاهد [الفرنج][٤] بطرابُلُس الغرب ويُقيم حالَه وفقراءَه من الغنائم. وله كراماتٌ ومناقبُ؛ فمن ذلك كان عنده

---

(١) أمراء الطبلخانات: من أمراء الأجناد، وهم دون أمراء المئين مقدمي الألوف. وكان تحت إمرة أمير الطبلخاناه عدد من الجنود يتراوح بين ثمانين وأربعين. (انظر صبح الأعشى: ٣/٤٨٠ و٤/١٥، ٦١).

(٢) في السلوك: «حسن بن مسلم المسلمي».

(٣) جامع الفيلة: هذا الجامع بناه الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي سنة ٤٧٨ هـ. وقيل له جامع الفيلة لأن في قبلته سبع قباب ذات قناطر إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة كالتي كانت تعمل في المواكب والأعياد وعليها السرير وفوقها المدرعون أيام الخلفاء. (خطط المقريزي: ٢/٢٨٩) وكان موقع هذا الجامع على الجرف المطل على بركة الحبش والمعروف بالرصد. وهو الجبل الذي يشرف اليوم على قرية أثر النبي الواقعة على النيل جنوبي مصر القديمة. (محمد رمزي).

(٤) زيادة عن السلوك.

سَبُعٌ ربّاه حتى صار بين فقرائه كالهِرّ[١] يدور البيوت. فلما مات الشيخ ــ رحمه الله ــ أخذه السَّبَّاعون فتوحَّش عندهم إلى الغاية، حتى أبادهم[٢] وعجزوا عنه.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين قُطْلُوبُغا بن عبد الله الأحمديّ الناصريّ نائب حلب بها. وكان من خواصّ الملك الناصر محمد بن قلاوون، وترقّى من بعده حتى صار أميرَ مائة ومقدّم ألف بديار مصر. ثم ولي حجوبية الحجّاب بها، ثم أمير مجلس، ثم ولي نيابة حلب في أوائل سلطنة الملك المنصور محمد بن المظفّر حاجيّ صاحب الترجمة، فلم تطل مدّته بحلب ومات بها. وكان من الأماثل. رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الطواشي صفيّ الدين جوهر بن عبد الله اللّالا. وكان من أعيان الخُدّام، وله عزٌّ ووجاهة.

وتُوُفِّي خطيب دِمشق جمال الدين أبو الثناء محمود بن محمد بن إبراهيم بن جُمْلة في يوم الاثنين العشرين من شهر رمضان. وكان فصيحاً، مفوّهاً. ولي خِطابة دمَشق سنين.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم لم يُحرّر. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وأربع أصابع. والله أعلم بالصواب.

---

(١) عبارة السلوك: «حتى صار بين فقرائه بمنزلة الهر في البيوت».

(٢) في السلوك: «فتوحش عندهم وعاد إلى ما جبل عليه».

ذكر سلطنة الملك الأشرف شعبان[١] بن حسين على مصر

السلطان الملك الأشرف أبو المفاخر[٢] زين الدين شعبان ابن الملك الأمجد حسين ابن السلطان الملك الناصر محمد آبن السلطان الملك المنصور قلاوون. تسلطن باتفاق الأمير يَلْبُغا العُمَري وطَيْبُغا الطويل مع الأمراء على سلطنته بعد خلع آبن عمه الملك المنصور محمد ابن الملك المظفّر حاجّي. وهو السلطان الثاني والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية.

ولمّا آتّفق الأمراء على سلطنته أحْضِر الخليفة المتوكّل على الله أبو عبد الله محمد والقضاة الأربعة، وأُفيض عليه الخِلعة الخليفتيّة السوداء بالسلطنة، وجلس على تخت الملك وعمرُه عشر[٣] سنين في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة من غير هَرْج في المملكة ولا آضطراب في الرعية، بل في أقلّ من قليل وقَعَ خلعُ المنصور وسلطنةُ الأشرف هذا وآنتهى أمرهما. ونزل الخليفة إلى داره وعليه التشريف، ولم يَعْرِف الناس ما وقع إلا بدّق البشائر والمناداة باسمه، وزُيِّنت القاهرة وتمّ أمره على أحسن الأحوال.

ومولد الأشرف هذا في سنة أربع وخمسين وسبعمائة بقلعة الجبل. وآستقرّ

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٨٣/١/٣؛ وبدائع الزهور: ٣/٢/١؛ والجوهر الثمين: ٢٢٠/٢؛ والبداية والنهاية: ٣١٦/١٤، والخطط التوفيقية: ١٠٦/١؛ والدرر الكامنة: ١٩٠/٢؛ وحسن المحاضرة: ١٠٤/٢؛ وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني: ابتداءً من سنة ٧٧٣هـ؛ والأعلام: ١٦٣/٣.

(٢) كذا أيضاً في حسن المحاضرة؛ وفي أكثر المراجع الأخرى: «أبو المعالي».

(٣) يوافق هذا ما جاء في السلوك والجوهر الثمين وخطط علي مبارك وحسن المحاضرة. وفي بدائع الزهور: «نحو اثني عشرة سنة». وفي البداية والنهاية: «وله من العمر قريب العشرين».

الأتابك يلبغا العمري الخاصّكي مدبّر الممالك ومعه خجداشُه الأمير طَيْبغا الطويل أمير سلاح على عادتهما.

وعندما ثَبّت قواعدَ الملِك الأشرف أرسل يَلْبُغا بطلب الأمير علي المَارِديني نائب الشام إلى مصر، فلمّا حضر أخلع عليه بنيابة السلطنة بديار مصر، وتولّى عِوضَه نيابة دِمشق[١] الأمير مَنْكَلي بغا الشمسي نائب حلب. وتولّى نيابة حلب عوضاً عن الشمسيّ الأمير إِشْقْتَمُر الماردينى. وتولّى نيابة طرابُلُس عوضاً عن إشقتمر الأمير أَزْدَمُر الخازن نائب صفد. وتولّى نيابة صفد عِوضاً عن أَزْدَمُر الخازن الأميرُ قَشْتَمُر المنصوري الذي كان نائباً بالديارالمصرية لأمر وقَع منه في حقّ يَلْبُغا العُمري الأتابكي. وآستقـرّ الأمير أرغون الأحمدي الخازندار «لالا» الملك الأشرف شعبان. وآستقـرّ الأمير يعقوب شاه السَّيْفي [تابع][٢] يَلْبُغا اليَحْيَاوي خازنداراً عوضاً عن أرغون الأحمدي. ثم آستقـرّ الأمير أُرُنْبغا الخاصّكي في نيابة غزّة عوضاً عن تمان تَمُر العُمري بحكم وفاته. ثم ولي الأمير عمر شاه حاجب الحجاب نيابة حَماة عوضاً عن أَيْدَمُر الشيخي. وآستقـرّ الشريف بكتمر في ولاية القاهرة عوضاً عن علاء الدين عليّ بن الكُورانِيّ بحكم آستعفائـه عنها. ثم آستقـرّ الأمير أحمد بن القَشْتَمُري في نيابة الكَرَك.

ثم ورد الخبر بوقوع الوباء بمدينة حلب وأعمالها وأنه مات بها خلق كثير، والأكثر في الأطفال والشبان.

ثم نزل السلطان الملك الأشرف شعبان إلى سِرْياقُوس بعساكره على عادة الملوك.

ثم سَمَّر الأتَابك يَلْبُغا خادمين من خُدَّام السلطان الملك المنصور لكلام بلغَه عنهما، فشفع فيهما، فخُلِّيا ونُفِيا إلى قُوص.

---

(١) عبارة السلوك: «واستقر الأمير منكلي بغا الشمسي في نيابة الشام عوضاً عن الأمير قشتمر».
(٢) زيادة من طبعة دار الكتب.

ثم في سنة خمس وستين أُنْعم على الأمير طَيْدمر البَالسيّ بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية.

ثم أخلَع على الأمير آسن[١] قُجا بنيابة مَلَطْية في ثالث صفر. واستقرّ الأمير عمر بن أرغون النائب في نيابة صفد عوضاً عن قشتمر المنصوري، وحضر قشتمر المذكور إلى مصر على إقطاع عمر بن أرغون المذكور. وآستقر الأمير طَيْنال المَارِدينيّ نائب قلعة الجبل عوضاً عن أَلْطَنْبُغا الشمسي بحكم استعفائه.

ثم أَنعم [السلطان] على جماعة بإمرة طَبْلَخاناه وهم: تَمرْبُغا[٢] العُمَريّ، ومحمد بن قماري أمير شِكار، وأَلْطَنْبُغا الأحمديّ. وآقْبُغا الصَّفَويّ[٣]. وأنعم أيضاً على جماعة بإمرة عشرات وهم: إبراهيم بن صَرْغَتْمِش، وأَرْزَمَك من[٤] مصطفى، ومحمد بن قشتمر، وآقبغا الجوهري، وطَشْتَمُر العلائيّ خازندار طَيْبُغا الطويل، وطاجار من[٤] عوض، وآروس بُغا الخليليّ، ورجب بن كلبك[٥] التركمانيّ.

ثم وقع الفناء في هذه السنة في البقر حتى هَلَكَ منها شيء كثير، وأضرّ ذلك بحال الزرّاع.

ثم في هذه السنة فتح الأمير مَنْكَلي بغا الشمسيّ نائب الشام باب كيسان[٦]، أحد أبواب دِمشق بحضور أمراء الدولة وأعيان أهل دمشق، وذلك بعد بروز المرسوم الشريف إليه بذلك، وعَقَد عليه قَنْطرة كبيرة ومدَّ له إلى الطريق جِسْراً، وعمّر هناك جامعاً. وكان هذا [الباب] مُغْلَقاً من مدّة تزيد على مائتي سنة؛ كان سدّه الملك العادل نور الدين محمود الشهيد لأمر آقتضى ذلك، فيه مصلحة للإسلام.

---

(١) في السلوك: «آسن قجا علي بك الجوكندار».
(٢) في السلوك: «تمرقبا».
(٣) في السلوك: «الصفدي».
(٤) كذا بالميم والنون. وهي صيغة نسبة مستعملة في العصر المملوكي. وهي غير صيغة «ابن».
(٥) في السلوك: «كلفت».
(٦) باب كيسان: أحد أبواب سور دمشق، ويقع في الزاوية الشرقية الجنوبية منه. وينسب إلى كيسان مولى معاوية فيما قيل. ويسميه النصارى باب يونس، وهو على بعد خطوات من مدافن المسيحيين بالقرب من قبر بلال الحبشي. (انظر خطط الشام: ١٥٧/٦).

ثم رُسم في هذه السنة بإبطال الوكلاء المتصرفين في أبواب القضاة[١]. وفي هذا المعنى يقول الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب، رحمه الله تعالى: [السريع]

يقولُ ذو الحقِّ الذي عالَهُ خَصمٌ أَلدُّ ولسانٌ كَليلْ
إنْ صيَّروا أمرَ وكيلي سُدىً فحسبيَ اللهُ ونعم الوكيلْ

ثم استقرّ الأمير يعقوب شاه أمير آخور عوضاً عن الأمير جُرْجي الإدريسيّ بحكم انتقال جرجي إلى نيابة حلب عوضاً عن إشقْتَمُر المَارديني.

ثم في سنة ست وستين وسبعمائة استقرّ الأمير قُطْلُقْتَمُر العلائيّ أمير جاندار في نيابة صَفَد عوضاً عن الأمير عمر بن أرغون النائب، وحضر عمر بن أرغون إلى مصر على إقطاع قُطْلُقْتَمُر المذكور في سابع شهر رجب. ثم استقرّ الأمير عبد الله ابن بَكْتَمُر الحاجب أمير شِكار عوضاً عن الأمير ناصر الدين محمد بن أُلجيبُغا، واستقرّ أَسَنْدَمر العلائي الحُرْفُوش حاجباً عوضاً عن عبد الله بن بَكْتَمُر المذكور.

ثم أنعم السلطان على الأمير أسندمر المظفّري بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية في سلخ شهر رمضان. ثم أنعم على الأمير شعبان ابن الأتَابك يَلْبُغا العمري بإمرة مائة وتقدمة ألف.

ثم استقرّ الأمير قشتمر المنصوريّ في نيابة طرابُلُس، واستقرّ الأمير أزْدَمُر الخازن في نيابة صَفَد عوضاً عن الأمير قُطْلُقْتَمُر العلائيّ.

ثم استقرّ الأمير أَلْطَنْبُغا البَشْتَكي في نيابة غزّة عوضاً عن أُرنبغَا الكاملي بحكم وفاته.

ثم أخلع على الأمير مَنْجَك اليوسفي باستقراره في نيابة طَرَسُوس بعد تلك الرُّتب العالية من تحكمه لمّا ولي الوَزَر بالديار المصرية ونيابة طرابُلُس والشام، وقد تقدّم ذكر ذلك كلّه في عدة أماكن، وإنما أردنا التعريف به هنا لمَا تقدّم له ولمَا هو

---

(١) علل لذلك المقريزي في السلوك بقوله: «لكثرة خداعهم ومكرهم وتخذلقهم في تنوع الشرور».

آت. وكانت ولاية منجك اليوسفي لنيابة طَرَسُوس عوضاً عن قُمارِي أمير شِكار بحكم وفاته في سلخ ذي القعدة.

ثم أنعم السلطان على جماعة بإمرة طلبخاناه وهم: قُطْلُوبُغا البَلَبـانيّ، وكَمُشْبُغا الحمَوي أحد مماليك الأتابك يَلبُغا العمريّ، وآقْبُغا الجـوهري أحـد اليَلْبغاوِيّة أيضاً، وعلى جماعة بإمرة عشرات وهم: سَلْجوق الرومي، وأروس السّيْفي بشتاك، وسُنقر السّيْفي أَرُقْطاي، ثم أنعم السلطان على الأمير أَلْجاي اليُوسفي في حادي عشرين شهر رجب بإمرة جاندار.

وفي هذه السنة وهي سنة ست وستين وسبعمائة عزَلَ قاضي القضاة عزّ الدِّين عبد العزيز بن محمد بن جَماعة نفسه من قضاء الديار المصرية في سادس عشر جُمادَى الأولى، ونزل إليه الأتابك يَلْبُغا بنفسه إلى بيته وسأله بعَوْده إلى المَنصِب فلم يَقبل ذلك، وأشار على يَلْبُغا بتولية نائبه بهاء الدين أبي البقـاء السُّبْكيّ، فولي بهاء الدين [قضاء] القضاة الشافعيـة عِوَضه. ثم آستقرّ قاضي القضاة جمال الدين محمود بن أحمد بن مسعود القُونَويّ الحنفي قاضي قضاة دمشق بعد موت قاضي القضاة جمال الدين يوسف بـن أحمد الكَفريّ (بفتح الكاف)

وفي هذه السنة أسلم الصاحب شمس الدين المقسي، وكان نَصْرانياً يُباشِر في دواوين الأمراء؛ فلما أسلم آستقـرّ مستوفي المماليك السلطانية.

وفي سنة سبع وستين وسبعمائة أخذت الفرنج مدينة إسكندرية في يوم الجمعة ثالث[1] عشرين المحرّم. وخبر ذلك أنه لمّا كان يوم الجمعة المذكور طَرَق الفرنج مدينة الإسكندرية على حين غَفْلة في سبعين قطعة، ومعهم صاحب قُبرس، وعدّةُ الفرنج تزيد على ثلاثين ألفاً. وخرجوا من البحر المالح إلى برّ الإسكندرية، فخرَج أهلُها إليهم، فتقاتلوا، فقُتِل من المسلمين نحوُ أربعة آلاف نفس؛ وآقتحمـت الفرنج

---

(١) كذا أيضاً في الجوهر الثمين. وفي السلوك: «يوم الأربعاء حادي عشرين المحرم». وفي البداية والنهاية لابن كثير ــ وهو معاصر للحدث، وكان بالشام ــ: «أنهم ــ أي الفرنج ــ وصلوا إليها يوم الأربعاء الثاني والعشرين من المحرم.. ودخلوها يوم الجمعة بكرة النهار».

الإسكندريةَ وأخذوها بالسيف، وآستمـرّوا بهـا أربعة أيـام وهـم يقتلون وينهبون ويأسرون. وجاء الخبر بذلك إلى الأتَابك يَلْبُغا، وكان السلطان بِسرْياقوس، فقام من وقته ورَجَع إلى القلعة، ورَسَم للعساكر بالسفر إلى الإسكندرية. وصلّى السلطان الظُّهرَ ورَكِب من يومه ومعه الأتَابكَ يَلْبُغا والعساكر الإسلامية في الحال، وعَدّوا النيل، وجَدّوا في السَّيْر من غير ترتيب ولا تعبية حتى وصلوا إلى الطَّرّانة[1]، والعساكر يتبع بعضُها بعضاً. فلمّا وصل السلطان إلى الطرّانة أرسل جاليشاً[2] من الأمراء أمامه في خِفْية، وهم قُطْلُوبُغا المنصوري، وكَوُنْدُك، وخليـل بن قَوْصـون، وجماعـة من الطبلخانات والعشرات وغيرهم، وجَدّوا في السير؛ وبينما هم في ذلك جاء الخبرُ بأن العدوّ المخذول، لمّا سمعوا بقدوم السلطان، تركوا الإسكندرية وهَرَبوا، ففرح الناس بذلك. ورسم السلطان بعمارة ما تهدّم من الإسكندرية وإصلاح أسوارها.

وأخلع السلطان على الشريف بَكْتَمُر بنيابة الإسكندرية وأعطاه إمرة مائة وتقدمة ألف. وبَكْتَمُر هذا هو أوّل نائب ولي نيابة الإسكندرية من النوّاب، وما كانت أوّلاً إلا ولاية، فمن يومئذ عَظُم قَدرُ نُوّابها وصار نائبُها يُسمى مَلِكَ الأمراء.

ثمّ أمرَ يَلْبُغا فنُودي بمصر والقاهرة بأن البحّارة والنفّاطة كلّهم يَحضُرون إلى بيت الأتابَك يَلْبُغا للعَرْض والنَّفَقة ليسافروا في المراكب التي تُنْشأ. وبدأ يَلْبُغا في عمارة المراكب، وبَعَث مراسيمَ إلى سائر البلاد الشامية والحلبية بإخراج جميع النجّارين وكلّ مَن يعرف يمسك مِنْشاراً بيده، ولا يتركُ واحدٌ منهم، وكلُّهم يخرجون إلى جبل شغلان، وهوجبل عظيم فيه أشجار كثيرة من الصُّنوبر والقرو[3] ونحو ذلك، وهذا الجبل بالقرب من مدينة أنطاكية، وأنهم يقطعون الألواح وينشُرون الأخشاب للمراكب ويحملونها إلى الديار المصرية. فامتثل نائب حلب ذلك، وفعل

---

(١) الطرانة: هي اليوم إحدى قرى مركز كوم حمادة بمديرية البحيرة.

(٢) الجاليش والشاليش: الراية العظيمة، ومقدمة أو طليعة الجيش. ــ راجـع فهرس المصطلحات.

(٣) القرو: شجر حرجي، خشبه له ألياف قصيرة مزركشة، متين جداً، يشيـع استعماله في صنـع الأثاث. (المعجم الوسيط).

ما أُمِرَ به، ووَقع الشروع في عمل المراكب[١].

هذا، وقد ثَقُل على يَلْبُغا وطأةُ خُشداشه طَيْبغا الطويل، فأراد أن يَستبدّ بالأمر وحدَه، وأخذ يَلْبُغا يدبِّر عليه في الباطن. ولقد حَكَى لي بعضُ من رآهما قال: «كانا ينزلان من الخِدمة السلطانية معاً، فتقول العامّة: يا طويل! حِسَّك [٢] من هذا القصير! فكان طيبغا يلتفت إلى يلبغا ويقول له وهو يضحك: ما يقولون هؤلاء! فيقول يلبغا: هذا شأن العامة يثيرون الفِتن.» اِنتهى.

وآستمـرّ يلبغا على ذلك أن خرج طيبغا الطويل إلى الصيد بالعبّاسة، فأرسل إليه يلبغا جماعةً من مُقَدّمي الألوف وهم: أَرْغون الإسْعِرْدي الدّوادار، والأمير آروس المحمودي الأستـادار، وأرغون الأزقي، وطيبغا العلائي حاجب الحجّاب، ومعهم تشريفٌ له بنيابة دِمَشق. فساروا حتى قَدِموا على طَيْبُغا الطويل، وأخبروه بما وقَع؛ فلّما سَمِع طيبغا ذلك غَضِب، وأبى قبولَ الخلْعة، وخامَر. وآتفـق معه أَرْغون الإسْعِرْدي الدوادار، وآروس المحموديّ. وهَرَب طيبغا العلائي وأرغون الأزقي ولَحِقا بالأتابكَ يلبغا وأعلماه بالخبر؛ فركَب يلبغا في الحال، ومعه السلطان الملك الأشرف شعبان، بالعساكر في صبيحة اليوم المذكور. وقد ساق طيبغا الطويل من العبّاسية حتى نَزَل بقبّة النصر خارج القاهرة ليأتيه مَن له عنده غَرَض، فوافاه يلبغا في حال وصوله بالعساكر، وقَاتَله؛ فاقتتلا ساعة، وآنكسر طيبغا الطويل بمن معه، وأُمسِك هو وأصحابُه من الأمراء وهم: أرغون الإسْعِرْدي، وآروس المحمودي، وكَوُنْدُك[٣]

---

(١) ذكر كل من المقريزي وابن كثير تفصيلات وافية عن غزو الفرنـج للإسكندرية وما أحدثوه فيها من نهب وتنكيل. وكذلك الإجراءات التي اتخذتها السلطات المملوكية على أثر ذلك ضد النصارى في بلاد مصر والشام. كما أشار ابن كثير إلى تقاعس السلطات وتتنئٍ عن حماية ذلك الثغر الهام، في حين أشار المقريزي إلى أن تلك الواقعة كانت من «أشنـع ما مرّ بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت أحوالها، واتضـع أهلها، وزالت نعمهم». ــ انظر السلوك: ٣/١/١٠٤ ــ ١٠٨، والبداية والنهـاية: ١٤/٣٢٨ــ ٣٣٢.

(٢) لفظ عامي مصري بمعنى: حذار.

(٣) في السلوك: «الأمير كوكنداي أخو طيبغا الطويل».

أخو طيبغا الطويل، وجَرَكْتَمُر السَّيفي مَنْجَك، وأرغون من عبد الله[١]، وجُمَق الشَّيخوني، وكليم أخو طيبغا الطويل وتُلَك أخو بيبغا الصالحي، وآقبغا العُمري البالسي، وجُرْجِي بن كَوُنْدُك[٢]، وَأَرْزَمك[٣] من مصطفى، وطَشْتَمر العلائي، وأرْسِلوا الجمع إلى سجن الإسكندرية. وأخذ يلبغا إقطاع ولَدَي طيبغا الطويل، وهما علي وحمزة، وكانا أميرَيْ طبلخاناه.

ثم في يوم الاثنين خامس عشرين شعبان من سنة سبع وستين وسبعمائة، باست الأمراء الأرض للسلطان، ويلبغا الأتابك معهم، وطلبوا من السلطان الإفراج عن الأمراء المسجونين بثغر الإسكندرية المقدّم ذكرهم؛ فقَبِل السلطان شفاعتَهم، ورسم بالإفراج عن طَيْبُغا الطويل خاصة، فأُفرج عنه، ورسم بسفره إلى القُدس بطّالاً؛ فسافر إلى القدس وأقام به إلى ما يأتي ذكره.

ثم بعد ذلك في يوم عيد الفطر رَسَم السلطان بالإفراج عمن بَقي في الإسكندرية من أصحاب طيبغا الطويل، فأفرج عنهم، وحضروا، فأُخرجوا إلى الشام متفرّقين بطّالين. وصفا الوقت ليَلْبُغا العُمَريّ، وصار هو المتكلم في الأمور من غير مُشارِك، والسلطان الملك الأشرف شعبان معه آلـةٌ في السلطنة. وأنعم يلبغا بإقطاعات أصحاب طيبغا الطويل على جماعة من أصحابه، فأنعم على الأمير أرْغون بن بلبك الأزقيّ بتقدِمة ألف عوضاً عن قُطْلُوبَغا المنصوريّ، وأنعم على طيبغا العلائي السيفيّ بزلار بتقدِمة ألف عوضاً عن مَلِكْتَمُر الماردينيّ بحكم وفاته، وأنعم على أَيْنَبك البدريّ أمير آخور يلبغا العمريّ بإمرة طبلخاناه واستقرّ أسْتادار أستاذه يلبغا.

ثم استقرّ الأمير إشقْتَمُر الماردينيّ المعزول عن نيابة حلب قبل تاريخه في نيابة طرابلس، عوضاً عن قشتمر المنصوري وطلَب قشتمر المذكور إلى مصر.

ثم استقرّ الأمير طَيْدَمر البالسي أمير سلاح عوضاً عن طيبغا الطويل في سابع

(١) في السلوك: «والأمير أرغون عبد الملك»

(٢) في السلوك: «جرجي بن كوكنداي».

(٣) في السلوك: «أزرمق بن مصطفى».

جمادى الأولى. ثم استقرّ طيبغا الأبوبكري دواداراً كبيراً بإمرة طبلخاناه عوضاً عن الإسْعرْدي، فأقام دواداراً إلى حادي عشرين شعبان وعُزل بأمير بيبغا دوادار أمير علي المارِديني بإمرة طبلخاناه أيضاً.

ثم آستقرّ الأمير أرغون طَطَر رأس نَوْبة النُّوب عِوضاً عن مَلِكْتَمُر العمري المارِديني في آخر جُمادَى الآخرة. وآستقرّ أَرْغون الأزقي أُستاداراً عِوضاً عن آروس المحمودي. وآستقرّ يعقوب شاه أمير آخور مقدّم ألف وحاجباً ثانياً عِوضاً عن قُطْلُوبُغا المنصوري. وآستقرّ طُقْتَمر الحَسَني أمير آخور كبيراً عِوضاً عن يعقوب شاه المُنتقل إلى الحُجوبية الثانية. وآستقرّ قُطْلُوشاه الشَّعباني أمير طبلخاناه وشادّ الشراب خاناه عِوضاً عن أَرْغون بن عبد الملك. وآستقرّ تَمُرقَبَا العُمَري جوكنداراً عِوضاً عن جَرِكْتَمُر السَّيفي مَنْجَك. وأُنعم على آقبُغا الأحمدي المعروف بالجلب بتقدمة ألف، وعلى أَسَنْدَمُر الناصري بتقدمة ألف أيضاً، وكلاهما بالديار المصريّة. وآستقرّ حُسين بن الكُوراني في ولاية القاهرة، وهذه أوّل ولايته.

ثم فرّق على جماعة كبيرة بإمرة طبلخانات وهم: طُغَيْتَمُر العثماني، وآقْبُغَا الجوهري، وقجماس السيفي طاز، وأَلْطَنْبُغا العزي، وأَرْغون كتك العزي، وقراتَمر المحمدي ــ والشهابي هذا قراتمر، رأيته وقد شاخ، وكان بطّالاً يسكن بالقرب من الكبش بعد سنة عشرين وثمانمائة. اِنتهى ــ وآروس بغا الكاملي[١]، وطاجار من عوض، وآقبغا اليوسفي، وألطنبغا المارديني (وهو غير صاحب[٢] الجامع، ذاك متقدِّم على هذا) ورسلان الشيخوني[٣] ــ وآستقرّ حاجباً بإسكندرية على إمرة طبلخاناه ــ وعليّ بن قَشْتَمُر المنصوري، وسُودُون القُطْلُقْتَمُري، وقُطْلُوبُغَا الشعباني، ومحمدّ المهندس التُّرْكماني[٤]. و[أنعم] على جماعة بعشرات، وهم: تنبك

(١) في السلوك: «آروس بغا الخليلي».
(٢) راجع الجزء التاسع، ص ٨٨.
(٣) في السلوك: «رسلان السيفي».
(٤) في السلوك: «محمد الترجمان».

الأزقي، وأَرْغون الأحمدي، وطَيْبُغا[١] السيفي، يلبغا[٢]، وأرغون الأرغوني، وسُودُون الشيخوني ـ وهو الذي صار نائب السلطنة في دولة الملك الظاهر بَرْقُوق كما سيأتي ذكره ـ وأزدمر العِزي أبو ذقن، ويونُس العُمري، ودُرْت بُغا البالسي، وقرابُغا الصَّرْغَتمشي، وطاز الحسني، وقرقماس الصَّرْغتمشي، وطَيْبُغا العلائي، وقُماري الجمالي.

ثم في هذه السنة أبطل يَلْبُغا المكوس من مكة والمدينة ورتّب عوض ذلك من بيت المال مائتي ألف وستين ألفاً.

ثم في سنة ثمان وستينَ طلَب السلطان الأمير مَنْكَلي بغا الشمسي نائب الشام إلى الديار المصرية، فلما حضره أكرمه وأخلع عليه بنيابة حلب عوضاً عن جُرْجي الإِدريسي لعجزه عن القيام بمصالح حلب مع التُركمان؛ فامتنع منكلي بغا من نيابة حلب كونه نائب دِمشق، ثم ينتقل منها إلى نيابة حلب، فأضيف إليه أربعة آلاف نفر[٣] من عسكر دمشق لتكون منزلته أكبر من منزلة نائب دمشق؛ فأذعن عند ذلك وَلبِس الخِلْعة وتوجه إلى حلب. وتولّى نيابة دِمشق عوضه الأمير آقتمر عبد الغني حاجب الحُجّاب بالديار المصرية، وتولّى عوضه حجوبيّة الحُجّاب طَيْبُغا العلائي. وأما جُرْجي الإِدريسي المعزول عن نيابة حلب فإنه ولي نيابة طرابُلُس بعد عزل منجك اليوسفي عنها.

وفي ثامن عشر شهر ربيع الأوّل من سنة ثمان وستين المذكورة آستقرّ أَرغون الأزقي الأستادار في نيابة غَزّة عوضاً عن أَلْطَنبغا البَشْتكي. وفي الشهر أيضاً آستقرّ آقْبُغا الأحمدي المعروف بالجلب لَالَا السلطان الملك الأشرف عوضاً عن أرغون الأحمدي بحكم نَفْيه إلى الشام لأمر اقتضى ذلك، ونُفِي معه تَمُرْبُغا العُمَري.

ثم في آخر الشهر المذكور أمْسَك الأتَابك الأمير يَلْبُغا الطواشي سابقَ الدين

(١) في السلوك: «ككبغا السيفي».
(٢) كذا! وهو غير وارد في السلوك.
(٣) في السلوك: «أربعة آلاف فارس».

مِثْقالاً الآنوكي مقدّم المماليك السلطانية وضَرَبه داخل القصر بقلعة الجبل ستمائة عصاة ونفاه إلى أسوان ــ وسببُه ظهور كَذِبه له ــ وولّى مكانه مختار الدَّمَنْهوري المعروف بشاذروان، وكان مُقدّم الأوْجاقية بباب السِّلسلة.

كلُّ ذلك والعمل في المراكب مستمرّ إلى أن كَمُلَت عمارة المراكب من الغِرْبان[١] والطَّرائد[٢] لحمل الغُزَاة والخيول. وكانوا نحو مائة غُراب وطَرِيدة، عُمِّرت في أقلّ من سنة مع عدم الأخشاب والأصناف يوم ذاك[٣].

وبينما الناس في ذلك قُتِل يَلْبُغا العُمَرِي بيد مماليكه في واقعة كانت بينهم. وخَبَرُ ذلك أنه لمّا كان في مستهل شهر ربيع الآخر نَزَل السلطان من قلعة الجبل وعدّى إلى بَرّ الجيزة ليتوجه إلى الصَّيد بالبحيرة، بعد أن أَلْزَمَ الأمراءَ أن يجعلوا ــ في الشَّواني[٤] التي نَجَزَ عملُها برسم الغزاة ــ العُدَدَ والسلاحَ والرجالَ على هيئة القتال لينظرَ السلطانُ والناسُ ذلك. فامتثلوا الأمراء المرسوم الشريف، وأشحنوا المراكبَ العُدَد والسلاح والرجال المُلْبَسة، وضربوا الطَّبلخاناه بها، وصارتْ في أبْهَى زِيّ، وَلعبوا بها في البحر قُدّامَ السلطان والأتَابك يَلْبُغا. وخَرَج الناس للتفرُّج من كلّ فَجّ، وكان يومٌ من الأيام المشهودة الذي لم يُرَ مثلهُ في سالف الأعصار.

ثم سار السلطان والأتَابك يَلْبُغا بالعساكرْ من بَرّ الجيزة يُريدون البُحَيْرة حتى نزلوا في ليلة الأربعاء سادس شهر ربيع الآخر من ستة ثمان وستين وسبعمائة

---

(١) الغربان: جمع غراب، وهي من المراكب الحربية شديدة البأس. سميت بذلك لرقة حركتها وطولها وسوادها بالأطلية المانعة للماء عنها ــ كالزفت وغيره ــ فصارت تشبه في سوادها الغربان من الطير، أو لأن مقدم هيكلها كان على شكل رأس الغراب. وهي تسير بالقلاع والمجاذيف. وقد تفاوتت أحجامها ومجاذيفها. (الجوهر الثمين: ٢/٢٢٥، حاشية: ١).

(٢) الطرائد والطرادات: جمع طريدة وطرادة وطراد وتطريدة، وهي سفينة صغيرة سريعة السير والجري، مفتوحة المؤخرة بباب يفتح ويغلق؛ وهي معدة لحمل الخيل بسبب الحرب. وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرساً. (المرجع السابق).

(٣) وكان القصد من ذلك مهاجمة قبرس رداً على غزو الإسكندرية ــ انظر تفصيل ذلك في السلوك: ٢/١/١٢٩، وبدائع الزهور: ١/٢/٢٧ ــ ٤٤.

(٤) سبق التعريف بها. ــ راجع فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

بالطَّرّانة وباتوا بها، وكانت مماليك يَلْبُغا قد نَفَرت قلوبهُم منه لكثرة ظُلْمه وعَسْفه وتنوعه في العذاب لهم على أدنى جُرْم، حتى إنه كان إذا غَضِب على مملوك ربما قَطعَ لسانَه. فآتّفق جماعةٌ من مماليك يلبغا تلك الليلةَ على قَتله من غير أن يُعْلِموا الملكَ الأشرف هذا بشيء من ذلك، ورَكِبوا عليه نصف الليل، ورؤوسهُم من الأمراء: آقْبُغا الأحمدي الجلب، وأَسَنْدَمُر الناصري، وقجماس الطازي، وتَغْري بَرْمش العلائي، وآقبغا جَارَكس أمير سلاح، وقَرَابُغا الصَّرْغَتْمشِي، في جماعة من أعيان اليَلْبَغاوِيّة. ولبِسوا آلَة الحرب وكَبَسوا في الليل على يلبغا بخَيْمته بَغْتة وأرادوا قتله، فأحسّ بهم قبل وصولهم إليه، فرَكِب فَرَسَ النَّوبة بخواصِّه من مماليكه، وهَرَب تحت الليل، وعَدّى النيلَ إلى القاهرة، ومنَع سائر المراكب أن يعدّوا بأحد. وآجتمع عنده من الأمراء طَيْبُغا حاجب الحُجاب، وأيْنبك البَدري أمير آخور، وجماعةُ الأمراء المقيمين بالقاهرة. وأمّا مماليك يَلْبُغا فإنهم لمّا علِموا بأن أستاذهم نجا بنفسه وهَرَب، اشتدّ تخوُّفُهم من أنه إذا ظَفِرَ بهم بعد ذلك لا يُبْقِي منهم أحداً. فاجتمعوا الجميعُ بمن آنضاف إليهم من الأمراء وغيرهم وجاؤوا إلى الملك الأشرف شعبان ــ تغمّده الله برحمته ــ وهو بمخيَّمه أيضاً بمنزله بالطَّرّانة وكلّموه في موافقتهم على قتال يَلْبُغا فآمتنع قليلاً ثم أجاب لمافي نفسه من الحَزازة من حجر يلبغا عليه، وعدم تصرُّفه في المملكة. وركِب [السلطان] بمماليك [1] يَلْبُغا وخاصّكِيته، فأخذوه وعادوا به إلى جهة القاهرة، وقد آجتمع عليه خلائقُ من مماليك يَلْبُغا وعساكر مصر، وساروا حتى وصلوا إلى ساحل النيل ببولاق التَّكْرُوري تُجاه بولاق والجزيرة الوسطى. فأقام الملك الأشرف ببولاق التَّكْروري يوم الأربعاء ويومَ الخميس ويوم الجمعة فلم يجدوا مراكب يُعدّون فيها.

وأما يلبغا فإنه لمّا عَلم أنّ الملك الأشرف طاوَع مماليكَه وقَرّبهم، أنزلَ من قلعة الجبل سَيِّدي آنوك آبـن الملك الأمجد حُسين أخي الملك الأشرف شعبان وسلطَنه ولقَّبه بالملك المنصور، وذلك بمخيَّمه بجزيرة أرْوَى المعروفة بالجزيرة

(١) في الأصل: «وركب بمماليكه وخاصكيته» والتعديل والزيادة للتوضيح.

الوسطانية، تُجاه بولاق التَّكْروري حيث الملك الأشرف نازل بمماليك يَلْبُغا بالبرّ الشرقي والأشرف[١] بالبر الغربي، فسَمَّتْه العوامّ سلطان الجزيرة[٢].

ثمّ في يوم الجمعة حضر عند الأتابك يلبغا الأمير طُغَيْتَمر النظاميّ والأمير أرغون طَطَر، فإنهما كانا يتصيّدان بالعباسّة وآنضافا بمن معهما إلى يلبغا فقَوِي أمره بهما. وعدّى إليه أيضاً جماعة من عند الملك الأشرف، وهم: الأمير قرابُغا البدري، والأمير يعقوب شاه، والأمير بَيْبُغا العلائي الدّوادار، والأمير خليل بن قَوْصون، وجماعة من مماليك يلبغا الذين أمّرهم مثل: آقْبغا الجوهري، وكَمَشْبُغا الحَموي، ويلبغا شُقَير، في آخرين.

وآستمـرّ الأتابك يلبغا وآنوك بجزيرة الوسطى، والملك الأشرف ومماليك يلبغا ببولاق التّكْروري، إلى أن حضر إلى الأشرف شخص يُعرف [بمحمد][٣] آبـن بنت لبطة رئيس [شواني] [٣] السلطان وجَهّز للسلطان من الغِرْبان التي عَمّرها برسم الغَزَاة نحو ثلاثين غُراباً برجالها وكسَّر بُروقَها، وجعلها مثل الفلاة لأجل التَّعدِية. فنزل فيها جماعة من الأمراء ومن مماليك يلبغا ليُعَدوا فيها إلى الجزيرة فَرَمى عليهم يلبغا بمكاحل النّفط، وصار هؤلاء يرمون على يلبغا بالسِّهام فيردونهم على أعقابهم. وأخذ يلبغا ومَنْ معه يرمون أيضاً النفط والنُّشّاب، والأشرفية لا يلتفتون إلى ذلك، بل يزيدون في سبّ يلبغا ولَعْنه وقتاله. وأقاموا على ذلك إلى عصر يوم السبت، وقد قَوِي أمرُ الملك الأشرف وضَعُف أمرُ يلبغا.

ثمّ اتّفق رأي عساكر الملك الأشـرف على تَعْدِيـة الملك الأشـرف من الوَرّاق[٤]، فَعَدى وقت العصر من الوَرّاق إلى جزيرة الفيل[٥] وتتابَعْته عساكرهُ. فلما

---

(١) لعل الصواب: «ويلبغا بالبر الغربي» كما يقتضيه السياق.

(٢) الجزائر المذكورة أعلاه يجمعها كلها جزيرة أروى، وهي التي تعرف اليوم بالجزيرة أو الجزيرة الكبرى أو جزيرة بولاق الواقعة وسط النيل تجاه بولاق القاهرة، ويتوصل إليها بواسطة كوبري قصر النيل وكوبري بولاق. (محمد رمزي).

(٣) زيادة عن المنهل الصافي.

(٤) الوراق. بلدة واقعة على شاطىء الغربي للنيل بمركز إمبابة، تجاه ساحل روض الفرج (محمد رمزي).

(٥) مكانها اليوم الأرض التي عليها مساكن قسمي شبرا وروض الفرج من أقسام مدينة القاهرة. (محمد رمزي).

صاروا الجميع في برّ القاهرة، وبلغ ذلك يَلْبُغا، هرب الأمراء الذين كانوا مع يَلْبُغا بأجمعهم وجاؤوا إلى الملك الأشرف وقبّلو الارض بين يَدَيْه. فلمّا رأى يَلْبُغا ذلك رَجع إلى جهة القاهرة، ووقف بسوق الخيل من تحت قلعة الجبل، ولم يبقَ معه غيرُ طَيْبُغا حاجب الحُجاب الذي كان أوّلاً أستادَارَه. فوقف يلبغا ساعة ورأى أمرَه في إدبار، فَنَزل عن فرسه بسوق الخيل تُجاه باب المَيْدَان، وصلّى العصر، وحلّ سَيْفَه وأعطاه للأمير طَيْبُغا الحاجب. ثمّ نزل وقصد بيتَه بالكَبْش فرجمتْه العوامُّ من رأس سُوَيْقةِ[١] مُنْعِمْ إلى أن وصل حيث اتّجه.

وسار الملك الأشرف شعبان بعساكره، حتى طلَع إلى قلعة الجبل في آخر نهار السبت المذكور. وأرسل جماعةً من الأمراء إلى يلبغا، فأخذُوه من بيته ومعه طَيْبُغا الحاجب، وطلَعوا به إلى القلعة بعد المغرب، فسُجِن بها إلى بعد عشاء الآخرة من اليوم المذكور. فلمّا أُذّن للعشاء جاء جماعةٌ من مماليك يَلْبُغا مع بعض الأمراء، وأخذوا يَلْبُغا من سجنه وأنزلوه من القلعة. فلمّا صَار بحدرة القلعة أحضروا له فرساً ليركَبه، فلمّا أراد الركوب ضَرَبه مملوكٌ من مماليكه يُسَمّى قراتَمُر فأَرْمَى رأسَه، ثم نزلوا عليه بالسيوف حتى هَبَّروه تهبيراً، وأخذوا رأسَه وجعلوها في مشعل [النار][٢] إلى أن انقطع الدم؛ فلمّا رآه بعضهم أنكره وقال: «أخفيتموه وهذه رأس غيره» فرفعوه من المشعل، ومسحوه ليعرفوه أنه رأس يَلْبُغا بِسلْعةٍ[٣] كانت خلف أذنه؛ فعند ذلك تحقّق كلّ أحد بقتله، وأخذوا جثته فغيبوها بين العروستين[٤]. فجاء الأمير طَشْتَمر الدوادار فأخذ الرأس منهم في الليل، وآستقصى على الجثّة حتى أخذها، وحَطّ الرأس على الجثّة، وغسَّلها وكفَّنها وصلّى عليه في الليل، ودَفَنه بتربته التي أنشأها بالصحراء بالقُرب من تربة خَوَنْد طُغاي أمّ آنوك زوجة الناصر محمد

(١) تبين للأستاذ محمد رمزي أن سويقة منعم هي بذاتها الطريق التي تسمى اليوم شارع شيخون بقسم الخليفة بالقاهرة.

(٢) زيادة عن المنهل الصافي.

(٣) السلعة: زيادة تحدث في البدن كالغدة. وقد تصغر أو تكبر.

(٤) العروستان: كان اسماً للمكان الذي عليه الآن مبنى دار المحفوظات العمومية بالقلعة بالقاهرة. وكان بهذا المكان بعض القبور المهجورة. (محمد رمزي).

ابن قلاوون. وفيه يقول بعض الشعراء [مخلع البسيط]:

بـدا شـقـا يَلْبُغـا وعَـدّتْ عـدَاه فِـي سُـفْـنِـهِ إلـيـهِ
والكَبْش لـم يَفْـدِهِ وأضحتْ تَـنـوح غِـرْبـانُـه عـلـيـهِ

قلت: لاجرم أنّ الله سبحانه وتعالى عامل يَلْبُغا هذا من جنس فعله بأستاذه الملك الناصر حسن، فسلّط عليه مماليكَه فقتلوه كما قَتَلَ هو أستاذَه الناصر حسناً. فالقصاص قريب، والجزاء من جنس العمل.

ولمّا أصبح نهار الأحد عاشر شهر ربيع الآخر، وهو صبيحة ليلة قُتِل فيها يَلْبُغا العُمَرِيّ الخاصّكي المقدّم ذكرهُ، وطلع جميعُ الأمراء إلى القلعة، وآستقرّ الأمير طُغَيْتَمر النّظاميّ هو المتحدِّث في حلّ المملكة وعَقْدها، ومعه آقبغا جلب الأحمديّ وأَسنْدَمر الناصريّ وقجماس الطازِيّ، وقَبَضوا من الأمراء على تَمُربغا[1] البَدْريّ ويعقوب شاه وبَيْبُغا العلائيّ الدوادار، وقُيِّدوا وأُرْسِلوا عشيَّة النهار إلى الإسكندرية. ورُسِم للأمير خليل بن قوصون أن يلزم بيته بطّالاً.

وفي يومِ الاثنين حادي عشرة آستقرّ قَشْتَمُر المنصوريّ حاجب الحجاب عِوضاً عن طَيْبُغا العلائي. وآستقرّ أَيْدَمُر الشاميّ دوداراً بإمرة مائة وتقدمة ألف وناظر الأحباس ولم يُعلم قبله دوادار أمير مائة ومقدّم ألف.

ثمّ قُبِض على جماعة من الأمراء وهم: أَزْدَمُر العِزّيّ، وآقبغا الجوهريّ، وأَرْغُون كتك العِزّيّ أيضاً، وأَرْغُون الأرغونيّ، ويُونس الرمّاح العُمَريّ، وكَمَشْبُغا الحمويّ، وأُرْسِلوا الجميع في القيود إلى ثغر الإسكندرية فَحُبِسوا[2] بها.

ثمّ آستقـرّ طَيْـدَمُـر البـالِسيّ أستـادار العـاليـة. ثمّ أُخْلع على قجماس الطازيّ وآستقرّ أميرَ سلاح عوضاً عن طيدمر البالسيّ المنتقل إلى الأستادارية. وأنعم على قرابُغَا الصَّرْغتمشيّ بتقدمة ألف دفعة واحدة من إمرة عشرة.

(١) في السلوك: «قرابغا البدري».

(٢) عبارة السلوك: «. . .وسجنوا بالقلعة، ما عدا كمشبغا الحموي وأقبغا الجوهري فإنهما سجنا بخزانة شمايل».

ثمّ في العشرين من الشهر آستقرّ أَسَنْبُغا القَوْصُونيّ لالا السلطان، عوضاً عن آقبغا جلب. وآستقرّ قَرَاتَمُر المحمديّ خازنداراً، عوضاً عن تُلَكْتَمُر المحمديّ. وحضر سابق الدين مِثْقال [الآنوكي](١) من قُوص بطلب من السلطان وقَبلَ الأرض ونزل إلى داره.

وفي [يوم الخميس](١) ثاني[عشر](١) جُمادَى الأولى قبض على فخر الدين ماجد بن قَرَوِينَة وسُلِّم لقَرَابغا [الصَّرْغَتْمشي] ليستخلص منه الأموال، وآستقرّ عوضه في الوزارة الصاحب جمال الدين عبد الله بن تاج الدين موسى بن أبي شاكر، وأُضيف إليه نظر الخاصّ أيضاً، وكان أوّلاً صاحب ديوان يَلْبُغا.

وفي سادس عشر جمادى الأولى أعيد [الطواشي](٢) سابق الدين مثقال إلى تَقْدِمة المماليك السلطانية وصُرف الدَّمَنْهوريّ المعروف بشاذَرْوَان.

وفي يوم الخميس سادس عشر رجب قُبِض على قَرابُغا الصرغتمشيّ. وعندما قُبِض على قرابغا المذكور رَكِب الأمير تَغْرِي بَرْمَش بالسلاح ومعه عدّة من الأمراء والخاصّكية. فرسم السلطان بركوب الأمراء والخاصّكية، فركبوا في الحال وقبضوا عليه، وأمسكوا معه الأمير أَيْنَبك البدريّ وإسحاق الرَّجَبيّ وقرابغا العزّي ومقْبِل الروميّ، وأرسِلوا إلى الإسكندرية. ثمّ أنعم السلطان على كلّ من قُطْلُوبُغا جركس وأَقْطَاي بتقدمة ألف.

ومن هذا الوقت أخذ أَسَنْدَمُر الناصريّ في التعاظم وآنضمام الناس عليه. فاتَّفق جماعة من الأمراء العِزِّية مع طُغَيْتمرُ النظاميّ وآقبُغا جلب على قبض أسندمر، ودَبَّروا عليه. إلى أن كانت ليلة الأحد سابع شهر شوّال من سنة ثمانٍ وستين المذكورةَ، ركِبُوا نصف الليل. وضَرَبُوا الكُوسات، وأنزلوا الملك الأشرفَ إلى الإسطبل السلطانيّ، وقَصَدوا مَسْك أسندمر الناصريّ وبعضَ مماليك يَلْبُغا العُمَرِيّ الأشرار. وبَلَغ ذلك أسندمر، فمَكث في بيته إلى طلوع الشمس. ثمّ رَكِب من بيته

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) زيادة عن السلوك.

بالكَبْش، فإنّه كان سكَن فيه بعد قتل يَلْبُغا، وتوجَّه بمَنْ معه إلى قُبَّة النَّصْر ومنها إلى القرافة(١) إلى باب الدَّرْفيل(٢) من وراء القلعة، فلم يَفْطن به الأمراء إلا وهو تحت الطبلخاناه السلطانية من القلعة؛ وكَبَس عليهم من الصَّوّة(٣) فهرَب أكثرُ الأمراء، وكان غالبهم قد آستخدم عنده جماعةً من مماليك يَلْبُغا. فلما رأى مماليك يَلْبُغا أَسَنْدَمُر ومن معه من خُشداشيتهم توجّهوا إليهم وتركوا أمراءهم. ثمّ خرج إلى أَسَنْدمر آقبُغا جلب، وطردوا الحاجب آبن اخي آل ملك، فقَوِي أَسَنْدَمَر بهم على الأمراء وصدَمهم صَدْمة هائلة كسرهم فيها كَسْرةً شنيعة، وهربوا الجميع إلاّ أُلْجاي اليوسفيّ وأَرْغُون طَطَر فإنهما ثبتا وقاتلا أسندمر، وليس معهما غير سبعين فارساً. فقاتلوا أسندمر وجماعته إلى قريب الظهر، فلم يرجع إليهما أحد من أصحابهما، فآنكسرا، وآنتصر أسندمر الناصريّ عليهم؛ وطلع إلى القلعة، وقبّل الأرض بين يدي الملك الأشرف شعبان، فأخلع عليه الأشرف بآستقراره أتابكاً ومدبِّر المماليك كما كان يلبغا العُمَرِيّ الخاصّكي.

ثمّ قَبضَ أَسَندمر على جماعة من الأمراء وقَيَّدَهم وأرْسِلُوا إلى ثغر الإسكندرية فحُبِسُوا بها وهم: ألجاي اليوسفيّ، وطُغَيْتمر النظامي وأَيْدَمُرٌ الشامي، وآقبُغا جلب، وقُطْلوبُغا جركس، وأَقْطاي، وأرغون طَطَر، وقجماس الطازيّ، وجميع هؤلاء مقدّمو ألوف. ثمّ قبض على جماعة من الأمراء الطبلخانات وهم: طاجار من عَوَض، ويلبغا شُقَيْر، وقَرابُغا شادّ الأحواش، وقَرابُغا الأحمديّ، وقُطْلُوبُغا الشعبانيّ، وأَيْدَمُر الخطائيّ، وتمراز الطازيّ، وآسن الناصريّ، وقَرَاتَمُر المحمديّ.

ثمّ أصبح أَسَنْدَمُر في يوم حادي عشر شوّال أنعم على جماعة من الأمراء وآستقرّوا مُقَدَّمي ألوف بالديار المصرية وأصحاب وظائف؛ فأخلع على أَزْدَمُر العِزِّيّ

(١) أي قرافة المماليك المعروفة الآن بجبانة أبي سبحة في الجهة الجنوبية من قلعة الجبل. (محمد رمزي).

(٢) باب الدرفيل: أحد أبواب القلعة في سورها الشرقي المشرف على جبل المقطم. (خطط المقريزي: ٢/ ٢٠٥).

(٣) الصوة: اسم يطلق على المنطقة الجبلية الواقعة في الجهة الشمالية البحرية من قلعة القاهرة. (انظر خطط المقريزي: ٢/٢١٣، ٤٠٨).

وآستقرّ أميرَ مائة ومقدم ألف وأمير سلاح؛ وآستقرّ جَرَكْتَمُر السيفيّ مَنْجَك أميرَ مائة ومقدَّم ألف وأميرَ مجلس؛ وآستقرّ أَلْطُنْبغا اليَلْبَغَاوِيّ رأس نَوْبة النُّوب من إمْـرة عشرة دفعة واحدة؛ وآستقرّ قطلُقْتَمُر العلائي أميرَ جاندار؛ وآستقرّ سلطان شاه أميرَ مائة ومقدّم ألف وحاجباً ثانياً. وآستقرّ بَيرَم العِزِّيّ دواداراً بتقدمة ألف، وكان جنديًّاً قبل ذلك، فأنْعِم عليه بإقطاع طُغَيْتَمُر النظاميّ ووظيفته وجميـع موجـوده ومماليكـه وحواصله. وأنعم على خليل بن قَوْصُون بتقدمة ألف، وعلى قَبَق العِزّيّ بتقدمة ألف، وعلى أَرْغون القَشْتَمُري بتقدمة ألف، وعلى محمد بن طَيْطق العلائيّ بتقدمة ألف.

ثمّ أنعم على جماعة بإمرة طبلخاناه وهم: بُزْلَار العُمَرِيّ، وأَرْغُون المحمديّ الآنوكيّ الخازن، وأرغون الأرغونيّ، ومحمد بن طقْبُغَا الماجـاري، وبَاكيش السيفيّ يَلْبُغا، وآقْبُغا آص الشَّيخونيّ، وسودون الشيخوني وجُلْبان السَّعديّ، وكَبَك الصَّرْغتمشـي، وإينال اليوسفيّ، وكَمَشْبُغا الطازيّ، وبَكْتَمُر العلميّ، وقُماري الجمالي، وأَرْسلان خَجَـا، ومبـارك الـطازيّ، وتُلَكْتَمـر الكَشْـلاويّ، وأَسَنْبُغـا العِـزيّ، وقـطلوبغـا الحموي[1]، ومأمور القلمطاويّ.

ثمّ أنعم على جمـاعة بـإمرة عشـرات وهم: كُزُك الأرغـوني، وأَلْـطُنْبُغـا المحمودي، وقَرابُغا الأحمدي ـ وهذا غير قرابغا الأحمـدي الجَلب ـ وحاجّى ملك بن شادي، وعلي بن باكيش[2]، ورجب بن خضر، وطَيْطَق الرمّاح.

ثمّ خَلَع على جماعة وآستقرّت جُوكندارية وهم: مبارك الطازي المقدّم ذكرُه، وقرمش الصرغتمشي، وإينال اليوسفي. وأخلع على تِلِكْتَمُر المحمدي وآستقـرّ خازنداراً على عادته، وبهادُر الجمالي شادّ الدواوين، عِوضاً عن خليل بن عَرّام بحكم آنتقال آبن عرام إلى نيابة الإسكندرية. وآستقرّ أَسَنْدَمُر الزيني في نيابة طرابُلُس، عوضاً عن اِشِقْتَمُر الماردیني، وأُمسِك اِشِقْتَمُر وحُبِس بالإسكنـدرية.

---

(١) في السلوك: «قطلوبغا الحلبي».

(٢) في السلوك: «علي بن بكتاش».

وآستقرّ طيبغا الطويل الناصري ــ رفيق يلبغا العمري الخاصكي المقدّم ذكره ــ في نيابة حماة، وكان بطّالاً بالقُدس، في تاسع صفر؛ فلم تَطُلْ مدّته وقبِض عليه منها في ذي القعدة وآعتقل بالإسكندرية ثانياً. وتَولّى نيابة حَماة عُمر شاه على عادته. وآستقرّ بَيبغا القَوْصُوني أمير آخور كبيراً، عوضاً عن آقْبُغا الصَّفَوي بحكم وفاته. وأرسل إلى الأمير منكلي بُغا الشمسي نائب حلب خِلْعة الاستمرار.

وقد كَمُل جامع[1] مَنْكلي بُغا الذي أنشأه بحلب في هذه السنة بقنسرين.

وآستهلت سنة تسع وستين والملك الأشرف شعبان كالمحجور عليه مع أسَندَمُر، غير أن آسمه السلطان، وخليفة الوقت المتوكّل على الله، وأسندمر الناصري أمير كبير أتابك العساكر ومدبِّر المملكة ونائب السلطنة مع أمير عليّ المارِديني آلة يتعاطَى الأحكام لا غير، ونائب دِمَشق آقْتَمُر عبد الغنيّ، ونائب حلب مَنْكلي بُغا الشمسيّ وهو يومئذ يُخْشى شرُّه، ونائب طرابُلُس مَنْجك اليوسُفيّ، ونائب حَمَاة عمر شاه صاحب القنطرة على الخليج خارج القاهرة، ونائب صَفَد أَرْغون الأزقي.

وآستمرّ الأتَابك أسندمر على ما هو عليه إلى يوم الجمعة سادس صفر آتّفقت عليه مماليك يَلْبُغا الأجلاب، وركبوا معهم الأمراء وقت صلاة الجمعة، ودخلوا على أسَنْدَمُر الناصريّ وسألوه أن يُمْسك جماعة من الأمراء، فَمسك أزْدَمُر العزِّيّ أمير سلاح وجَرَكْتَمُر المَنْجكيّ أمير مجلس وبيرم العِزِّيّ الدوادار الكبير وبيبغا القَوْصُونيّ والأمير آخور كبك الصرغتمشي الجُوكندار. وآستمرّت المماليك لابسين السلاح، وأصبحوا يوم السبت ومسكوا خليل بن قَوْصُون ثمّ أطلقوه، وآنكسرت الفتنة إلى عشيّة النهار وهي ليلة الأحد وقالوا لأسَنْدَمُر: «نريد عَزْل الملك الأشرف»، وكان أسندمر مقهوراً معهم.

---

(١) أنشأه سنة ٧٦٨هـ حين كسر الإفرنج على آياس في غرة شهر صفر. وكان يومئذ أتابك الجيوش المنصورة بالديار المصرية. وهذا الجامع يعرف في حلب باسم جامع الرومي. (محمد رمزي) ــ وفي الدر المنتخب لابن الشحنة (ص ٧٣) أن عمارة هذا الجامع كانت سنة ٧٧٨هـ.

وبلغ الخبرُ الملك الأشرف، فأرسل في الحال إلى [خليل] بن قَوْصُون فحضر؛ ورَكب الملك الأشرف ورَكب آبن قوصون ومماليكُ الأشرف الجميعُ مع أستاذهم، وكانوا نحو المائتين لا غير، وكان الذين آجتمعوا من مماليك يَلْبُغا فوق الألف وخمسمائة. ورِكب مع الملك الأشرف جماعةٌ من الأمراء الكبار مثل أَسَنْبُغا ابن الأبو بكري وقَشْتَمُر المنصوري في آخرين، وضُرِبت الكوسات، واجتمع على السلطان خلْقٌ كثيرٌ من العوامّ.

ولمّا بلغ أَسَنْدَمُر الناصريّ ركوبُ الملك الأشرف، أخذ جماعة من مماليك يَلْبُغا، وطلع من خلف القلعة كما فَعَل أوّلاً في واقعة آقبغا الجلب، وتقدّمت مماليك يلبُغا وصدموا المماليك الأشرفية وتقاتلوا. وبينما هم في ذلك جاء أَسَنْدَمر بمن معه من تحت الطبلخاناه كما فعل تلك المرة، فعَلِم به الأشرفية والأمراء، فمالوا عليه فكسروه أقبَح كَسرة وهَرَب أَسَنْدمر، ثم أُمسِك وتمزقت المماليك اليَلْبَغاوية. فلما جيء للأشرف بأَسَنْدمر وحضر بين يديه شفَعت فيه الأمراء الكبار، فأطلقه السلطان ورسم له أن يكون أتابَكاً على عادته. وَرَسم له بالنزول إلى بيته بالكَبْش، ورسم للأمير خليل بن قَوْصون أن يكون شريكه في الأتابكيّة. فنزل أَسَنْدمر إلى بيته ليلة الاثنين، وأرسل السلطانُ معه الأمير خليل بن قَوْصون صفة الترسيم، وهو شريكه في وظيفة الأتابكّية، ليُحضِره في بُكْرة نهار الاثنين. فلمّا نزلا إلى الكبش، تحالفا وخامَرا ثانياً على السلطان. وآجتمع عند أَسَنْدمر وخليل بن قَوْصون في تلك الليلة جماعةٌ كبيرة من مماليك يلبغا، وصاروا مع أسندمر كما كانوا أوّلاً. وأصبحا يوم الاثنين ورَكِبا إلى سوق الخيل. فرَكِب السلطان بمن معه من الأمراء والمماليك الأشرفية وغيرهم، فالْتقَوْا معهم وقاتلوهم وكسروهم، وقَتَلوا جماعة كبيرة من مماليك يَلْبُغا. وهرب أَسَنْدمر وآبن قَوْصون وآشتغل مماليك السلطان والعوامّ بمسك مماليك يَلْبُغا، يُمسكونهم ويحضرونهم عَرَايا مكشَّفِي الرؤوس. وتوجه فرقة من السلطانية إلى أسندمر وآبن قَوْصون فقبَضوا عليهما وعلى أَلطُنْبُغا اليَلبغاوِيّ وجماعة أخر من الأمراء اليلبغاوية، فقُيِّدوا وأُرْسِلوا إلى سجن الإسكندرية.

وفي هذه الواقعة يقول الشيخ شهاب الدين أحمد بن العَطّار: [البسيط]

هلالُ شعبان جَهْراً لاح في صَفَرٍ بالنصرِ حتى أرى عِيداً بِشعبانِ
وأهلُ كبْشٍ كأهلِ الفِيلِ قد أُخِذوا رغْماً وما انتطحتْ في الكَبْشِ شاتانِ

ثمّ جلس الملك الأشرف شعبان في الإيوان وبين يديه أكابر الأمراء، وَرَسم بتسمير جماعة من مماليك يَلْبُغا نحو المائة وتوسيطهم، ونفى جماعة منهم إلى الشام وأُخِذ مال أَسَنْدَمُر وأُنفِق على مماليكه لكل واحد مائةُ دينار، ولكل واحد من غير مماليكه خمسون ديناراً. ورسم للأمير يَلْبُغا المنصوري باستقراره أَتَابك العساكر هو والأمير مَلِكْتَمر الخازندار، وأَنْعم على كل منهما بتقدمة ألف. وأنْعم على تُلَكْتَمُر بن بَرَكَة بتقدمة ألف عوضاً عن خليل بن قَوْصون، وكان ذلك في سادس عشر صفر.

ثم أصبح السلطان من الغد في يوم الثلاثاء سابع عشر صفر قَبَض على يلبغا المنصوريّ المذكور ورَفِيقه تُلَكْتَمُر المحمديّ لأنهما أرادا الإفراج عن مماليك يلبغا [العمري]، وقَصَد يلبغا المنصوريّ أن يسكن بالكَبْش؛ فمسكهما الملك الأشرف وأرسلهما إلى الإسكندرية. ثم أرسل السلطان بطلب الأمير مَنْكَلي بغا الشمسيّ نائب حلب إلى الديار المصرية، فحضرها بعد مدّة وأخلع عليه السلطان خِلْعة النيابة بديار مصر، فأبى أن يكون نائباً، فأنعم عليه بتقدمة ألف وجعله أتابكَ العساكر؛ وتولى نيابة حلب عِوضَه طَيْبُغَا الطويل، وكان أخرجه من سجن الإسكندرية قبل ذلك.

ثم زوّج السلطان أخته(١) للأمير منكلي بُغا الشمسي المذكور، فتزوجها، وأولدها بنتاً تزوّجها الملِكُ الظاهر بَرْقُوق، وعاشت بعد الملك الظاهر إلى أن ماتت في سنة ثلاث وثلاثين [وثمانمائة](٢) بقاعتها بخُطِّ الكعكين من القاهرة.

ثم رسم الملك الأشرف أن يفرج عن طُغَيْتَمُر النظامي وأيدمر الخطائي وأُلْجاي اليُوسفي، وكانوا محبوسين بالإسكندرية؛ فحضروا إلى بين يدي السلطان، وقبّلوا الأرض بين يديه.

---

(١) هي خوند سارة بنت حسين بن محمد بن قلاوون. (السلوك: ٣/١/١٥٧).
(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وخلَع [السلطان] على بَكْتَمُر المؤمني وآستقرّ أمير آخور كبيراً بتقدمة ألف، وهو صاحب المصلّاة والسبيل بالرُّمَيلة.

ثم رسم السلطان بإحضار الأمير آقْتمر عبد الغني؛ فلما وصل آقتمر إلى مصر أخلع عليه السلطان بآستقراره حاجب الحجّاب بالديار المصرية. وكان آقتمر هذا قد ولي نيابة السلطنة بالديار المصرية قبل نيابة الشام، وتولى نيابة دمشق بعده بَيْدَمُر الخُوارَزْميّ قليلاً، ثم عُزِل وآستقرّ عِوضه في نيابة دِمَشق منجك اليوسفي نائب طرابُلُس، وآستقرّ في نيابة طرابلس بعد مَنْجَك أَيْدَمُر الآنوكي.

ثم أخلع السلطان على الأمير الأكز الكشلاويّ بآستقراره شادّ الدواوين، عوضاً عن بهادُر الجمالي. ثم أفرج عن الأمير أرْغون طَطَر وأخلع عليه وآستقرّ أمير شِكار بتقدمة ألف. ثم رسم بإحضار قطلوبغا الشعباني من الشام فحضر بعد مدّة.

ثم في ثامن عشر جُمادى الآخرة آستقرّ الأمير آقتمر الصاحبي دواداراً عوضاً عن آقبغا بن عبد الله بإمرة طبلخاناه. وآستقرّ طُغَيْتَمُر العثماني شادّ الشراب خاناه. وآستقرّ بَشْتَك العُمَري رأسَ نوبة ثانياً.

ثم أخلع الملك الأشرف في تاسع عشرين شهر رمضان على الأمير أرغون الأزقي بآستقراره رأس نوبة كبيراً عِوضاً عن تُلَكْتَمُر بن بركَة، وآستقرّ تلكتمر المذكور أمير مجلس عوضاً عن طُغَيْتَمُر النظامي.

ثم آستقرّ الأمير أُلْجاي اليوسفي أمير سلاح برانيّاً عوضاً عن أَزْدَمُر العِزّي. وآستقرّ آقبغا بن عبدالله دواداراً كبيراً بإمرة طبلخاناة. ثم استقرّ الأكُز أستاداراً عوضاً عن أَلْطُنْبُغا بحكم وفاته.

وفي سابع شوّال آستقرّ الأمير عمر بن أرغون النائب في نيابة الكرك، عوضاً عن ابن القَشْمري. وآستقرّ طيدمر البالسيّ في نيابة الإسكندرية، عوضاً عن صلاح الدين خليل بن عرّام. وآستقرّ خليل بن عرّام حاجباً بثغر الإسكندرية. ثم استقرّ أيدمر الشيخي في نيابة حَماة عوضاً عن عمر شاه. وأخلع على شمس الدين ابن المقسيّ بآستقراره ناظر الخواص الشريفة بالقاهرة عوضاً عن آبن أبي شاكر

في ثالث عشر ذي القعدة. وآستقرّ العلامة سراجُ الدين عمر بن إسحاق الغَزْنَويّ الهنديّ الحنفيّ قاضي قُضاة الحنفية بالديار المصرية، بعد موت قاضي القضاة جمال الدين التُركماني. وآستقرّ الشيخ سِراج عمر بن رَسْلان بن نُصيرْ بن صالح الكِناني البُلقيني الشافعي في قضاء دِمشق عوضاً عن قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب السُّبْكيّ، فلم تَطُل مدّة البُلقيني في قضاء دمشق وعُزل، وأعيد تاجُ الدين السُّبْكي. وآستقرّ القاضي بدر الدين محمد آبن القاضي علاء الدين علي آبن القاضي مُحيي الدين يحيى بن فضل الله العُمَري في كتابة السر بالديار المصرية بعد وفاة والده. وآستقرّ فتحُ الدين محمد بن الشهيد في كتابة سِرّ دمشق عوضاً عن جمال الدين بن الأثير.

ثم وقَعَ الوباء بالديار المصرية حتى بلغت عدّةُ الموتى في اليوم أكثرَ من ألف نفس، وأقام نحو الأربعة أشهر وآرتفع.

وفي هذه السنة أيضاً وهي سنة تسع وستين وسبعمائة قصدت الفرنج مدينة طرابُلُس الشام في مائة وثلاثين مَرْكباً من الشواني والقَرَاقير[1] والغِرْبان والطرائد وصحبتهم صاحب[2] قُبْرُس، وهو المقدّم ذكرهُ عليهم، وكان نائبها وأكثرُ عسكرها غائبين عنها. فاغتنمت الفرنج الفُرْصة وخرجوا من مراكبهم إلى الساحل، فخرج لهم من طرابُلُس بقية عسكرها بجماعة من المسلمين، فترامَوْا بالنِّبال ثم اقتتلوا أشدّ قتال. وتقهقر المسلمون، ودخل المدينةَ طائفةٌ من الفرنج، فنهبوا بعضَ الأسواق. ثم إن المسلمين تلاحقوا، وحصل بينهم وبين الفرنج وقائعُ عديدةٌ استُشْهِد فيها من المسلمين نحو أربعين نفراً، وقُتِل من الفرنج نحو الألف، وألقى الله تعالى الرُّعْبَ في قلوب الفرنج فرجعوا خائبين.

(١) القراقير: جمع قرقور أو قرقورة، نوع من السفن الكبيرة التي كانت تستعمل في تموين الأسطول بالزاد والمتاع والذخيرة. وهي متعددة الشرع والصواري، ومنها ما كان يحتوي على ثلاثة ظهور. وكانت تحتوي على ساحات قتال في المقدمة أو في المؤخرة. (السلوك: ١٤٩/١/٣، حاشية).

(٢) سماه المقريزي: «ربير بطرس بن ريوك» وهو تحريف لاسم بطرس لوزنيان ملك قبرص ابن هيو الرابع. (السلوك: ١٠٦/٣/١، وحاشية رقم: ٥ في نفس الصفحة) ــ وفي نفس المصدر أنه كان على رأس تلك القوة الفرنجية متملك قبرص ومتملك رودس والإسبتار.

وفي هذه السنة قوي أمرُ الملك الأشرف في السلطنة، وصار تدبيرُ مُلكه إليه: يعزل ويُولّي من غير مَشورة الأمراء، وصار في المُلْك من غير مُنازِع ولا مُعانِد، وحسُنت سيرتُه، وأحبته الرعية إلى الغاية، وصار يقصد المقاصدَ الجميلةَ مما سيأتي ذكرُه.

ثم في أوّل جُمادى الآخرة عَزَل الأشرف أَسَنْبُغا بن الأبو بكري عن نيابة حلب بالأمير قَشْتَمُر المنصوريّ. ثم قَبض السلطان على أرغون العجميّ الساقي أحد المماليك السلطانية بسبب أنه سَرَق أحجاراً مثمّنة من الخِزانة السلطانية وباعها على الفرنـج، وفيها حجرٌ يُعرف بوجه الفَرَس؛ فجاء به الفرنـج إلى مَنْجَك اليُوسُفي نائب الشام فعَرفه وأرسله إلى السلطان، وأخبره بخبر أرْغون العجميّ وكيف باعه للفرنـج، فصفَـح السلطانُ عنه ونفاه إلى الشام.

ثم في يوم السبت العشرين من شهر رمضان نَفى السلطان الأمير آقْتَمُر الصاحبـيّ الدوادار الكبيرَ إلى الشام لأمر وقَـعَ بينه وبين الأمير ألجاي اليُوسفيّ.

وفي تاسـع عشر ذي القعدة أُحضر الأميرُ بَيْدَمُر الخُوَارَزمي المعزول عن نيابة الشام قبل تاريخه وأدخِل إلى قاعة الصاحب بقلعة الجبل، وطُلب منه ثلاثمائة ألف دينار؛ وكان متولّي أمره عليُّ بن محمد بن كلبك التُّركماني، فعُصِر يوم الثلاثاء حادي عشرين ذي القَعْدة، ثم أفرج عنه ونُفِي إلى طرابُلُس بعد أن أخذ منه مائة ألف دينار.

ثم قَدِم الخبرُ على السلطان بقتل الأمير قَشْتَمُر المنصوريّ نائب حلب. وخبرهُ أنه لما ولي نيابة حلب في جمادى الآخرة من هذه السنة وتوجّه إلى حلب، فلم يُقِم بها إلا يسيراً، وخرج منها وكَبَس أمير آل فضل بعَرَبِهِ بتل السلطان. فركب العربُ وقاتلته، فقُتل في المعركة هو وولده محمد بن قشتمر. وكان الذي قتله حيّار[1] أمير

(١) هو حيار بن مهنا بن عيسى. آلت إليه إمارة آل فضل في بادية الشام بعد موت أخيه فياض سنة ٧٦٢هـ. وكان موالياً لسلاطين مصر والشام وتابعاً لهم. فنقض طاعتهم سنة٧٦٥هـ وابتعد في القفر يعيث وينهب، وشفـع به نائب حماة فعفي عنه وعاد إلى ولائه. ثم انتقض سنة ٧٧٠هـ، وعاد سنة ٧٧٥هـ معفواً عنه، فاستقر إلى أن مات سنة ٧٧٧هـ. (الأعلام: ٢/ ٢٨٩).

آل فضل وولده نُعَيْر بن حَيّار، وكان ذلك يوم الجمعة خامس عشر ذي الحجة. ولما بلـغ الملكَ الأشرفَ [ذلك] عَظُم عليه، وأرسل تقليداً للأمير اشِقْتَمُر الماريني بنيابة حلب على يد الأمير قطلوبغا الشعباني، وعزل حَيّاراً عن إمرة العـرب وولّاها لزامل[١].

ثمَّ أنعم الملكُ الأشرف في هذه السنة على ألوف بتقادم[٢] وطبلخانات وعشرات فممن أنعم عليهم بتقدمة ألف: الأمير بهادر الجمالي، وبشتك العمري. وممن أنعم عليه بإمرة طبلخاناه: صَراي الإدريسي، وبيبغا القوصوني، وأحمد بن آقتمُر عبد الغني، وأحمد بن قنغلي، وخليل بن قماري الحموي، وطُغَيْتَمر[٣] الحُسَيْني، وحسين بن الكوراني، وأرغون شاه الأشرفي.

وكان أمير الحاج في هذه السنة بهادُر الجمالي. وحجّت في هذه السنة أيضاً خَوَنْد بركة، والدة السلطان الملك الأشرف صاحب الترجمة، بتجمُّل زائد ورَخْت[٤] عظيم وبَرْك هائل، وفي خدمتها من الأمراء الألوف: بشْتَك العُمَري وبهادر الجمالي أمير الحاج ومائة مملوك من المماليك السلطانية الخاصّكية. وكان من جملة ما معها بدرب الحجاز كوسات[٥]، وعصائب سلطانية، وعِدة محفّات بأغطية زَرْكش، وعدّةُ محاير[٦] كثيرة بأفخر زينة. وحُمِل معها أشياء كثيرة يطول الشرح في ذكرها من

---

(١) هو زامل بن موسى بن مهنا. توفي سنة ٧٩١هـ. (السلوك: ٣/٢/٦٨٩) ـ وأورد المقريزي خبر مقتل نائب حلب بأوضح مما هنا ـ انظر السلوك: ٣/١/١٧٥ حوادث سنة ٧٧٠هـ.

(٢) سياق العبارة مضطرب. والمراد أنه أنعم بتقادم على أمراء ألوف وطبلخانات وعشرات. والمراد بأمير ألف: أمير مائة مقدم ألف. ويكون عادة أمير مائة في أيام السلم، ويتقدم ألفاً من العساكر في أيام الحرب.

(٣) في السلوك: «طقتمر الحسني».

(٤) الرخت والبرك بمعنى واحد، وهو متاع البيت من أثاث ورياش، والمتاع الخاص من ثياب الأمراء والسلاطين وقماشهم. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي: ١١٣).

(٥) الكوسات: نوع من الصنوج. والعصائب السلطانية: الأعلام ـ راجـع فهرس الألفاظ الاصطلاحية.

(٦) المحاير: جمع محارة، وهي المحفة ـ راجـع فهرس الألفاظ الاصطلاحية. وانظر خطط المقريزي: ٢/١٠١.

ذلك: قطر جمال عليها مَزْروع خضر(١) وغير ذلك. وحجّت وعادتْ إلى الديار المصرية، بعد أن آحتفل جميع أمراء الدولة إلى ملاقاتها. ولما وصلت إلى القلعة أثنتْ على بهادر الجمالي فأخلع السلطانُ عليه.

ثم بعد مدّة في يوم حادي عشرين المحرّم من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة [خلع السلطان على الأمير بهادر الجمالي و](٢) آستقرّ به أمير آخور كبيراً عوضاً عن الأمير بَكْتَمُر المؤمني بعد موته، وآستقرّ الأميرُ تُلَكْتَمُر [من بَرَكة](٢) أستاداراً عوضاً عن بهادُر [الجمالي](٢) المذكور، وآستقرّ أرغون شاه الأشرفي أمير مجلس عوضاً عن تلكتمر المنتقل إلى الأستادارية، ثم نُقِل أرغون شاه المذكور بعد مدّةٍ يسيرةٍ من وظيفة أمير مجلس(٣) إلى وظيفة رأس نَوْبة النُّوب، بعد موت بَشْتَك العُمَري. وآستقرّ أرغون [الأحمدي](٢) اللاّلا أمير مجلس عوضاً عن أرغون شاه المذكور.

ثم أنعم السلطان على الأمير طَيْنَال الماريديني بتقدمة ألف، وعلى عَلَم دار أيضاً بتقدمة ألف وآستقرّ أستادار العالية عوضاً عن تُلَكْتَمُر.

ثم في سنة آثنتين وسبعين آستقرّ الأمير طَشْتَمُر العلائي دَواداراً كبيراً بإمرة طبلخاناة، اِنتقل إليها من الجندية عوضاً عن مَنْكُوتمُر من عبد الغني. وآستقرّ يَلْبُغا الناصري اليَلْبَغاويّ خازنداراً كبيراً، عوضاً عن يعقوب شاه.

قلت: والناصري هذا هو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر بَرْقُوق الآتي ذكرها في ترجمة الظاهر المذكور.

ثم في سنة ثلاث وسبعين عَزَل السلطان الأمير اِشقَتَمُر الماريديني عن نيابة حلب بالأمير عز الدين أيدمر الدوادار.

---

(١) كذا هي عبارة الأصل، ولا يخفى اضطرابها. وعبارة المقريزي أوضح وهي: وعدة جمال تحمل الخضر المزروعة».

(٢) زيادة عن السلوك للتوضيح.

(٣) أمير مجلس وغيرها من الوظائف الواردة هنا مثل الأستادار أو رأس نوبة سبق التعريف بها، فليرجع إلى فهرس الألفاظ الاصطلاحية. وكذلك يرجع إلى الفهرس المذكور عند وقوع مصطلح غير مشروح فيما يأتي. ويمكن الاهتداء إلى الصفحة المطلوبة من خلال الهلالين اللذين وضعنا بينهما رقم الصفحة.

قلت: وإِشْقَتَمُر الماريدني هذا ومَنْجَك اليوسفي نائب الشام وبَيْدَمُر الخُوارزمي هؤلاء الثلاثة لا أعلم أحداً في الدولة التركيّة وَلِي ولايتهم من الأعمال والوظائف، ولا طال مُكْثُه في السعادة مثلهم، على ما ذكرناه فيما مضى، وما سنذكره فيما يأتي إن شاء الله تعالى. على أن اشِقتمر هذا طال عمره في السعادة حتى ولي نيابة الشام عن الملك الظاهر برقوق، وبرقوق يومئذ في خدمة منجك اليوسفي نائب الشام؛ وإلى الآن لم يتصل بخدمة السلطان ولا صار من جُملة المماليك السلطانية. وقد تقدّم أنّ اشِقْتَمُر وَلِي الأعمال الجليلة من سلطنة الملك الناصر حسن الأولى، وكان يَلْبُغَا العمري أستاذ برَقْوق يوم ذاك خاصَّكيّاً، فأنُظر إلى تقلُّبات هذا الدهر ونَيْل كلّ موعود بما وُعِد. انتهى.

وفي سنة ثلاث وسبعين المذكورة رَسَم السلطان الملك الأشرف أنّ الأشرافَ بالديار المصرية والبلاد الشامية كلَّهم يَسِمُون عمائِمَهم بعلامة خَضْراء بارزة للخاصّة والعامّة إجلالاً لحقِّهم وتعظيماً لقَدْرهم، ليُقَابَلُوا بالقَبول والإِقبال، ويمتازوا عن غيرهم من المسلمين. فوقَع ذلك وَلبِسُوا الأشرافُ العمائم الخُضْر، التي هي الآن مستمرّة على رُؤوسهم. فقال الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الشهير بالمزيِّن في هذا المعنى: [الكامل]

أطرافُ تيجانٍ أتَتْ مِن سُنْدُسٍ   خُضْرٍ كأعلامٍ على الأشرافِ
والأشرفُ السلطان خصَّصَهم بِها   شرفاً لِنعرِفهم مِن الأطرافِ

وقال أيضاً في المعنى الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن جابر الأندلسي: [الكامل]

جَعَلوا لأبْناءِ الرَّسولِ علامةً   إنّ العَلامَةَ شأنُ مَنْ لم يُشْهَرِ
نُورُ النُّبُوَّةِ فِي كَرِيمِ وُجُوهِهِمْ   يُغْني الشَّرِيفَ عن الطِّرازِ الأخْضرِ

وقال أيضاً في المعنى الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب الحلبي: [الرجز]

عمائِمُ الأشرافِ قد تميَّزتْ   بخُضْرةٍ رَقَّت وراقَتْ مَنْظَرا
وهذه إشارةٌ أنّ لهم   فِي جَنّةِ الخُلْدِ لِباساً أخضرا

وقال ولده أبو العِزّ طاهر بن حسن بن حبيب في المعنى أيضاً: [الطويل]

ألا قُـلْ لِمن يَبْغِي ظهور سِيادةٍ تملّكها الزهرُ الكِرامُ بنـو الزَّهـرا
لئِن نَصبـوا للفخرِ أعـلامَ خُضرةٍ فكم رَفَعـوا لِلمجدِ ألْـويةً حُمـرا

وقال الشيخ شهاب الدين بن أبـي حجلة التِّلِمْسانيّ الحنفي ـ تغمدة الله تعالى ـ في المعنى أيضاً: [الطويل]

لآلِ رســولِ اللهِ جـاهٌ ورِفْعَـةٌ بِهـا رُفِعت عَنَّـا جمِيعُ النـوّائبِ
وقد أصبحوا مِثْلَ الملوكِ برَنْكِهِم[1] إذا ما بَدَوْا لِلناسِ تحت العصائِبِ

قلتُ: وبهذه الفعلة يُدَلُّ على حُسن اعتقاد الملك الأشرف المذكور في آل بيت النبوّة وتعظيمه لهم؛ ولقد أحدث شيئاً كان الدهرُ محتاجاً إليه، ولا[2] ألهم الله تعالى الملوكَ ذلك من قبله؛ ولله درّ القائل: «كم ترك الأوّلُ للآخر».

وفي أوّل سنة أربـع وسبعين وسبعمائة آستقرّ الأميرُ أُلْجاي اليُوسُفي أمير سلاح أتابك العساكر بالديار المصرية عِوَضاً عن مَنْكَلي بُغَا الشمسي بحكم وفاته ـ إلى رحمة الله تعالى ـ وأخلـع عليه أيضاً بنظر البِيمَارِستان المنصوريّ؛ فعند ذلك عَظُم قَدْرُ أُلْجاي المذكور من كونه زَوْج أمّ السلطان وصار أَتَابَك العساكر، وبهذا آستطـال ألجاي في المملكة، فإنّه قبل زواجه بأمّ السلطان خَوَنْد بَرَكة كان من جملة الأمراء المقدّمين لا غير اِنتهى.

ثم أخلـع السلطان على الأمير كُجُك من أرطق شاه باستقراره أمير سِلاح برانيّاً[3] عوضاً عن ألجاي اليوسفي المذكور. وآستقرّ يَلْبُغا الناصري شاد الشراب خاناه عوضاً عن كجك. وآستقرّ تُلَكْتَمُـر الجمالي خـازنداراً عـوضاً عن يلبغـا الناصري.

(١) الرنك: الشعار، فارسية.
(٢) الصواب أن يقول «ما» بدلاً من «لا».
(٣) البرانيون من الأمراء والمماليك الذين لا يكونون من خاصكية السلطان، ويقال لهم أيضاً الخرجية. أما الخاصكية فهم المقربون إلى السلطان والذين يلازمونه، أو الذين يكونون من مشترواته. وكانوا يسمون أيضاً الجوانية.

ثم توجّه السلطان إلى سَرْحة الأهرام بالجيزة، وعاد بعد أيام، وعند عَوْده إلى قلعة الجبل أخلع على الطَّواشِي سابق الدين مِثْقال مقدَّم المماليك السلطانية قَبَاء حرير أزرق صاف بطَرْز زركش عريض أُسوة بالأمراء الخاصّكيّة، وهذا شيء لم يلبسه مقدَّم قبله. وكان السلطان الملك الأشرف قبل ذلك قد آستجدَّ في كلّ سنة عند طلوعه من هذه السَّرْحة، وهي توجُّه السلطان إلى ربيع الخيل، أن يُلْبِس الأمراءَ الخاصّكية مقدّمي الألوف أَقبِيَة حرير بفرو سَمُّور بأطواق سَمُّور بطُرُز زَرْكَش، والطَّبْلخانات والعشرات أَقْبِيَة حرير بطُرُز زَرْكش منها ما هو بفَرْو قَاقِم ومنها ما هو بِفَرو سِنْجاب.

ثم بعد ذلك نَزَل السلطان في يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة سنة أربع وسبعين، ووالدتُه معه وهي متمّرضة، إلى الرَّوْضة[١] تُجاه مصر القديمة بمَنْظَرَة الأمير طَشْتَمر الدَّوادار، فأقام فيها يوم الثلاثاء والأربعاء وصحبتُه جميع الأمراء، وطلع يوم الخميس إلى القلعة. وآستمرّت أمُّ السلطان متمرّضة إلى أن ماتت في ذي الحجّة وهي في عصمة ألْجاي اليُوسفِي، وصلّى عليها آبنها السلطان الملك الأشرف، ودُفِنَت بمدرستها[٢] التي عمّرتها بخُطّ التَّبَّانة خارج القاهرة بالقُرب من باب الوزير. ووَجِد عليها ولدُها الملك الأشرفُ وجْداً عظيماً، لأنها كانت من خِيار نساء عصرها دِيناً وخيراً وصَدَقة ومعروفاً. ومن الاتفاق العجيب بعد موتها البيتان اللذان عَمِلهما الأديبُ شهاب الدين السعديّ الأعرج وتفاءل بهما على ألجاي اليوسفيّ وهما: [الكامل]

في مستَهَلّ العَشْرِ مِن ذِي الحِجةِ كانتْ صبيحةُ مَوْتِ أمِّ الأشرفِ
فـالله يـرحمهـا ويُعـظِمُ أجـرهَـا ويكون في عاشورَ موتُ اليُوسفِي

فكان الأمر على ما ذُكِر؛ وهذا من الاتفاق الغريب، وهو أنه لمّا ماتت خَوَنْد بركة المذكورة، وآستهلّت سنة خمس وسبعين، وقع بين الملك الأشرف وبين زَوْج أمّه أُلجاي اليوسفي كلامٌ من أجل التَّركة المتعلقة بخَوَنْد بركة المذكورة، وكان ذلك

(١) أي جزيرة الروضة.
(٢) ذكرها المقريزي باسم مدرسة أم السلطان. ـ انظر الخطط: ٢/ ٣٩٩.

يوم الثلاثاء سادس المحرّم من السنة المذكورة. وكثُرُ الكلام بين السلطان وبين أُلْجاي اليُوسفي، حتى غَضِب ألجاي، وخرج عن طاعة الملك الأشرف، ولبِس هو ومماليكه آلةَ الحرب، ولبِست مماليكُ السلطان أيضاً. وركِب السلطان بمَنْ معه من أمرائه وخاصَّكيِّته، وباتوا الليلة لابسين السّلاح إلى الصّباح. فما كان نهارُ الأربعاء سابع المحرّم كانت الوقعة بين الملك الأشرف شعبان وبين زَوْج أمّه الأتابك أُلجاي اليُوسفي، فتواقعوا إحدى عشرة مرة، وعَظُم القتال بينهما حتى كانت الوقعة الحاديةَ عَشْرة اِنكسر فيها ألجاي اليوسفي وآنهـزم إلى بركة الحَبَش.

ثم تراجـع أمرُه وعاد بمَنْ معه من على الجبل الأحمر إلى قُبّة النَّصر، فطَلبَه السلطان الملك الأشرف، فأبـى، فأرسل إليه خِلْعة بنيابة حماة فقال: «أنا أروح، بشرط أن يكون كلّ ما أملكه وجميـع مماليكي معي»، فأبـى السلطان ذلك، وباتوا تلك الليلة. فهرَب جماعةٌ من مماليك أُلجاي في الليل وجاؤوا إلى الملك الأشرف.

فلما كان صباحُ يوم الخميس ثامن المحرّم أرسل السلطان الأمراء والخاصّكية ومماليكَ أولاده وبعضَ المماليك السلطانية إلى قُبَّة النصر إلى حيث أُلجاي، فلمّا رآهم أُلجاي هرَب، فساقوا خلْفه إلى الخرقانية[1]. فلما رأى أُلْجاي أنه مُدْرَك رمى بنفسه وفَرِسه إلى البحر، ظنّاً أنه يُعدّي به إلى ذلك البرّ؛ وكان ألجاي عَوّاماً، فثَقُل عليه لُبسه وقماشه، فغَرِق في البحر وخرج فرسُه. وبلـغَ الخبرُ السلطانَ الملك الأشرف فشقَّ عليه موته وتأسَّف عليه. ثم أمر بإخراجه من النيل، فنزل الغوّاصون وطلعوا به وأحضروه إلى القلعة في يوم الجمعة تاسـع المحرّم في تابوت وتحته لُبَّاد أحمر، فغُسِّلَ وكُفِّن، وصَلَّى عليه الشيـخ جلال الدين التَّباني، ودُفِن في القُبَّة التي أنشأها بمدرسته[2] برأس سُوَيْقة[3] العِزِّي خارج القاهرة، والمدرسة معروفة وبها خُطبة. وكان ألْجاي من أجلّ الأمراء وأحسنها سيرة.

---

(١) الخرقانية: من القرى القديمة بمصر، وهي إحدى قرى مركز قليوب بمديرية القليوبية بمصر. (محمد رمزي).

(٢) مدرسة ألجاي: خارج باب زويلة، بالقرب من قلعة الجبل. أنشأها ألجاي اليوسفي سنة ٧٦٨هـ. (خطط المقريزي: ٢/٣٩٩).

(٣) تعرف اليوم باسم شارع سوق السلاح. (محمد رمزي).

ثم قبض السلطان على مماليك أُلْجاي، ونُودِي بالمدينة أنّ كل من لَقِي أحداً منهم يحضِره إلى السلطان ويأخذ له خِلْعة. ثم أخذ السلطان أولاد أُلْجاي وهم إخوته لأمّه ورتب لهم ما يكفيهم، واحتاط على سائر موجود أُلْجاي، وأخذ جميع مماليكه وصَفَح عنهم وجعلهم في خدمة ولديه: أمير عليّ وأمير حاج.

ثم قَبَض السلطان على جماعة من الأمراء ممن كان يَلُوذ بالأمير أُلْجاي وهم: صَرَاي العلائيّ، وسلطان شاه بن قراجا[1]، وطَقْتَمُر الحَسَني، وعليّ بن كلبك[2] وصادره. ثم أمسك بَيْبُغا القَوْصُوني وخليل بن قُماري الحَموي، فشفَع فيهما الأمير طَشْتَمُر الدوادار.

ثم في آخر صفر رَسَم السلطان بنفي جماعة إلى البلاد الشامية، وهم: محمد شاه دوادار أُلْجاي، وخليل بن عَرّام المعزول عن نيابة الإسكندرية، وعليّ بن كلبك[2]، وآقْبُغا البَشْمَقْدار خازندار أُلْجاي.

وكان السلطان في تاسع المحرّم رَسَم لبُورِي الحلبي الخازندار أن يتوجَّه إلى طرابُلُس لإحضار نائبها الأمير عزّ الدين أيْدَمر الدوادار الناصري إلى مصر، فتوجّه بوري إليه وأحضره. فلمّا مَثل بين يدي السلطان أخلعَ عليه باستقراره أتابَك العساكر بالديار المصرية، عوضاً عن ألجاي اليوسفي، وتَوَلَّى عِوضَه نائب طرابلس الأمير يعقوب شاه.

وبعد موت ألجاي أنعم السلطان على جماعة من الأمراء بإقطاعات ووظائف، فأخْلَع على الأمير صَرغَتْمش الأشرفي باستقراره أمير سلاح خاصّكياً يجلس بالإيوان في دار العدل، وآستقرّ أرغون الأحمدي اللّالا أميراً كبيراً برانيّاً وأُجلِس بالإيوان، قاله العيني في تاريخه ووافقه غيره.

قلت: فيكون على هذا الحكم تلك الأيام أمير كبير خاصّ وأمير كبير بَرّاني،

---

(١) في السلوك: «سلطان شاه بن قرا الحاجب».

(٢) في السلوك: «علاء الدين علي بن كلفت».

وأمير سلاح خاص وأمير سلاح بَرّاني، وهذا شيء لم يُسمَع بمثله[١]. اِنتهى

ثم أنعم السلطان على قُطْلُوبُغا الشعباني بتقدمة ألف وآستقرّ رأس نوبة ثانياً.

قلتُ: وهذه الوظيفة الآن هي وظيفة رأس نوبة النُّوَب. ورأسُ نَوْبة نُوب تلك الأيام قد بَطَلت من الدولة الناصرية فَرَج بن بَرْقُوق. وكانت تسمى رأس نوبة الأمراء؛ وآخِرُ مَنْ وَلِيهَا آقْبَاي الطُّرُنْطاوي الحاجب.

ثم أخْلَع على جماعة وأنعمَ عليهم بإمرة طبلخانات وهم: أحمد بن يَلْبُغا العُمَري الخاصّكي، وأقْتَمُر الصاحبي، وتُمُرْباي الحَسَني، وإينال اليُوسفي وعلي بن بهادُر الجمالي، وبلُّوط الصَّرغتْمشي، ومُختار الطواشي الحسامي مقدّم الرَّفْرف[٢].

---

(١) لعل هذه الثنائية في الوظيفة الواحدة ما بين خاص وبراني كانت تعكس واقعاً نامياً في وضع الأمراء والمماليك وعلاقتهم بالسلطان. فبعد موت الناصر محمد بن قلاوون أخذت الفوضى تعم تدريجياً في النظام العسكري المملوكي لوجود سلاطين ضعفاء في رأس السلطة. وفي نفس الوقت كان الأمراء الكبار يتجاوزن سلطاتهم ويتطلعون دائماً للوصول إلى السلطنة. من هنا كان الأمراء يزيدون دائماً من أعداد مماليكهم ليكونوا لهم عوناً في الشدائد. فقرا سنقر النائب كان في خدمته ستمائة مملوك، وأسندمر ملك خمسمائة مملوك، وقوصون الناصري سبعمائة مملوك، ويلبغا الناصري ألف وخمسمائة مملوك. وزادت مماليك يلبغا العمري عن ثلاثة آلاف مملوك. هذا في حين أن النظام المملوكي كان يحدّد عدد المماليك الخاص بكل أمير، وهذا العدد لا يتجاوز المائة لأعلى رتبة وهي أمير مائة مقدم ألف. أي يحق له اتخاذ مائة مملوك خاص يكونون بمثابة الحرس الخاص له ويحكم في الحرب على ألف فارس. وفي ذلك الخضم من الفوضى ازدادت أعداد الفرق المملوكية وتنازعت على النفوذ والبقاء ولا أدل على ذلك من تعاقب اثني عشر سلطاناً ما بين سنتي ٧٤٢ و٧٨٤هـ. وفي تلك الفترة قلت مكانة ومهابة المماليك السلطانية (الخاصكية ـ الجوانيون) تجاه طغيان مماليك الأمراء (البرانيون ـ الخرجية) الذين زادت أعدادهم أضعافاً عن أعداد المماليك السلطانية، وفتح أساتذتهم أمامهم أبواب التسلط والترقية، فحقدت الفرقتان الواحدة على الأخرى. من هنا فإن تقديرنا أن ثنائية أمير كبير خاص وأمير كبير براني، أو ثنائية أمير سلاح خاص وأمير سلاح براني، إنما تعكس رغبة السلطان في الاحتفاظ لخاصكيته بنفوذ هذه الوظيفة، كما أنها من جهة ثانية تعكس واقعاً فرضه نفوذ الأمراء البرانيين وازدياد عدد مماليكهم مما جعلهم يفرضون وجود وظائف موازية تكون بيد أتباعهم مقابل تلك التي بيد أتباع السلطان. وهذا الأمر لا يخلو من الصراع، بل يشير إلى احتدامه. لذلك نرى مثلاً أن الظاهر برقوق سوف يسارع إلى اقتناء المماليك السلطانية. بحيث بلغ عدد مماليكه خلال فترتي حكمه حوالي خمسة آلاف مملوك.

(٢) الرفرف: من جملة دور القلعة عمره الأشرف خليل بن قلاوون. وكان مجلساً يجلس فيه السلطان حتى هدمه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٠هـ وعمل بجواره برجاً نقل إليه المماليك. ولعل المقصود بمقدم الرفرف مقدم هذا البرج وما به من مماليك، بمعنى أن التسمية القديمة للرفرف انسحبت على البناء الجديد. (انظر خطط المقريزي: ٢١٣/٢، ٢١٤. والسلوك: ٢١٥/١/٣، حاشية).

قلتُ: وأيضاً هذا شيءٌ لم يُسْمَعْ بمثله من أن يكون بعضُ خُدّام الأطباق[1] أميرَ طبلخاناه. وأغربُ من ذلك أنّ مقدّم المماليك في زماننا هذا إقطاعُه إمرةُ عشرة ضعيفة. انتهى

و[خلع] على أُلْجيبغا المحمدي وحاجى بك بن شادِي. وأنعم على اثنين بعشرات وهم أَلْطُنْبُغا من عبد الملك وطشْتَمر الصالحيّ.

ثم في عاشر شهر ربيع الآخر آستقرّ أحمد بن آل مَلك في نيابة غزة عِوضاً عن طشْبُغَا المُظفَّري. وأنعم على مُبارك الطّازِي بتقدمة ألف، وعلى سُودون جَرَكْس المَنْجكي بتقدمة ألف. وآرتجع السلطان من طَيْنال الماردِيني تقدمته وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه، ثم استقر مَنْكلي بُغا البلدي الأحمدي في نيابة الكَرَك. واستقر ناصر الدين محمد بن آقْبُغا آص أستاداراً بتقدمة ألف. ثم أنعم السلطانُ على أَلْطُنْبُغا طَطَق العثماني بتقدمة ألف واستقر أمير سلاح برانياً عِوضاً عن طَيْدَمُر البالِسي. وأنعم على طُغَيْتَمُر اليلْبغاوي الدوادار الثاني بإمرة طبلخاناه، وهو أوّل من لَبِس الدوادارية الثانية. ثم نُقلَ مَنْكَلي بغا البلدي من نيابة الكَرَك إلى نيابة صَفَد. واستقرّ آقْتَمُر عبد الغني النائب بديار مصر في نيابة طرابُلُس، وقد تقدّم أن آقتمر هذا كان ولي نيابة الشام سنين.

وفي رابع عشرين ذي القعدة استقرّ يَلْبُغا الناصري اليلْبَغاوي، صاحب الوقعة مع برقوق الآتي ذكرها، حاجباً ثانياً بإمرة مائة وتقدمة ألف. ثم عزل السلطان سابقَ الدين مِثْقالاً الآنُوكي مقدّم المماليك وأمرَه أن يَلْزم بيتَه، واستقرّ عِوضَه في تقدمة المماليك الطواشي مختار الحُسامي مقدّم الرّفْرف المقدّم ذكرهُ.

ثم نَدبَ السلطانُ الأميرَ يَلْبُغا الناصري للسفر إلى دِمَشق لإحضار نائبها الأمير مَنْجك اليُوسفي؛ فسار من وقته إلى أن وَصَل إلى دمشق، وأحضر الأمير منجك المذكور. ووصل مَنْجك إلى الديار المصرية وصحبته أولاده ومملوكه جَرَكْتَمر وصِهْرُه

(١) الأطباق والطباق: كانت بمثابة بيوت سكن وثكنات عسكرية لإيواء وتربية وتدريب المماليك السلطانية ــ راجع فهرس المصطلحات.

آرُوس المحمودي بعد أن احتَفَل أهلُ الدولة لملاقاته وخَرجَت إليه الأمراءُ إلى بين الحوضين[١] خارج قُبَّة النصر. وطَلع إلى القلعة من باب السرّ، وسائر الأمراء والخاصّكيّةُ مُشاة بين يديه في ركابه، مثل أيَدَمُر الدوادار ومَنْ دُونه بإشارة السلطان. فلما دخَلَ منجك على السلطان وقبّل الأرض، أقبل عليه السلطانُ إقبالاً كلياً وخَلَع عليه باستقراره نائب السلطنة بالديار المصرية خاصّكياً عوضاً عن آقتمر عبد الغني المُنتقل إلى نيابة طرابُلُس، وفوّض إليه السلطان النظر في الأحباس والأوقاف والنظر في الوزارة ـ فإنه كان وليها بعد موت أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون كما تقدّم ذكرُه ـ والنظر على ناظر الخاص، وقُرىء تقليدُه بالإيوان[٢]، وأن السلطان أقامه مُقام نفسه في كل شيء، وفوّض إليه سائر أمور المملكة، وأنه يُخرِج الإقطاعات التي عَبْرتُها[٣] سبعمائة دينار إلى ما دونها، وأنه يعزل من شاء من أرباب الدولة، وأنه يُخرِج الطبلخانات والعشرات بسائر المماليك الشامية، ورسم للوزير أن يجلس قُدّامه في الدركاه[٤] مع الموقّعين.

ثم بدأ الغلاء بالديار المصرية في هذه السنة وتزايد سعر القمح إلى أن أبيع بتسعين[٥] درهماً الإردب، وزاد النيل بعد أن نقَص في شهر هاتور، وهذا أيضاً من الغرائب. وهذه السنة تسمى سنة الشراقيّ كما سنبينه في حوادث السنين من سلطنة الملك الأشرف هذا.

ثم في أوّل سنة ست وسبعين عَزَل السلطان الأمير آقتمر عبد الغني عن نيابة طرابُلُس بالأمير مَنْكلي بغا البلدي نائب صَفد وولّاه نيابة صفد.

---

(١) هما حوضان للمياه مخصصان لشرب الناس والداوب. وكانا من ضمن بناء قبة النصر. (محمد رمزي).
(٢) هو الإيوان الكبير أو دار العدل بالقلعة.
(٣) أي متحصل خراجها.
(٤) الدركاه: لفظ فارسي بمعنى الساحة أو الفناء أو الحوش المؤدي إلى بناء كبير مثل قصر السلطان أو القلعة.
(٥) في السلوك: «وبيع الإردب من القمح بستة وثلاثين درهماً سوى كلفه». ـ وقد أورد المقريزي تفصيلات هامة عن ذلك الغلاء الذي وقع بسبب توقف ماء النيل عن الزيادة، كما قدم وصفاً حياً لما كان يفعله الناس في مثل هذه الأحوال. وكان المقريزي نفسه ممن شهد تلك الحالة وخرج مع الناس ـ انظر السلوك: حوادث سنة ٧٧٥هـ. وفي حوادث سنة ٧٧٦هـ. أورد أيضاً مشاهداته من آثار الجوع الذي حل بالديار المصرية.

قلت: درجة إلى أسفل.

ثم مَرِض الأمير منجك اليوسفيّ النائب فنزل السلطان لعيادته، ففرَشَ منجك تحت رجلي فرسه الشُّقَق الحرير، وقدّم له عشرة مماليك وعشرة بقـج وعدّة خيول، فقبلها السلطان ثم أنعم بها عليه. وكان ذلك في يوم الثلاثاء سابـع عشرين ذي الحجة. ومات منجك بعد يومين.

ثم ورد الخبر على السلطان بأن القان حسين آبـن الشيخ أويْس آبـن الشيـخ حسن بن حسين بن آقبغا بن أيلكان، تولى مملكة تِبْريز وبغداد بعد[١] وفاة أبيه.

وفي هذه السنة فُتَحت سيس ــ وهي كرسي الأرمن ــ على يد الأمير اِشِقْتَمُر المارديني نائب حلب، بعد أن نازلها مدّة ثلاثة شهور حتى فتَحها وآنقرضـت منها دولة الأرمن ــ ولله الحمد ــ فدُقّت البشائر لذلك وفَرِح الملك الأشرف فرحاً عظيماً بهذا الفتـح العظيم.

وفي هذه السنة ــ أيضاً وهي سنة ست وسبعين المذكورة ــ وقـع الفناء بالديار المصرية من نصف جُمَادَى الآخرة وتزايد في شعبان، ثم في شهر رمضان حتّى صار يموت في كلّ يوم من الحَشْرِيَّة[٢] نحو خمسمائة نفس ومن الطّرْحَى[٣] نحو الألف. وأبيـع كلّ فرّوج بخمسة وأربعين درهماً، وكل سفرجلة بخمسين درهماً، وكل رُمّانة بعشرة دراهم، والعشرة دراهم يوم ذاك كانت أزيد من نصف دينار وكل رمانة حُلْوة بستة عشر درهماً، وكلّ بطيخة صيفية بسبعين[٤] درهماً.

ولما تُـوُفِّي مَنْجك شَغَرت نيابة السلطنة بديار مصر إلى العشرين من شهر ربيـع الأوّل وآستقرَّ فيها الأمير آقْتَمُر الصاحبـي الحنبلي.

---

(١) في السلوك أنه تولى الحكم في حياة والده.

(٢) الحشرية: هم الذين توفوا ولم يكن لهم وارث شرعي فترد أموالهم إلى ديوان المواريث الحشرية. (انظر صبح الأعشى: ٣/٤٦٠، وخطط المقريزي: ١/١١١).

(٣) الذين يطرحون في الطرقات وليس من يتكفل دفنهم.

(٤) في السلوك: «بتسعين درهماً». ويستحسن المقارنة بما ذكره المقريزي، فقد كان شاهد عيان على ذلك.

وفي محرّم سنة سبع وسبعين خَتَن السلطان أولادَه وعَمِل المهّم سبعة أيام. وفي العشر الأوسط من صفر هذه السنة آبتدأ الملك الأشرف بعمارة مدرسته[١] التي أنشأها بالصوّة تُجاه الطبلخاناه السلطانية التي موضعها الآن بيمارستان[٢] الملك المؤيد شيخ، وهو كلا شيء، فاشترى الملك الأشرف بيت الأمير شمس الدين سنْقر الجمالي وشرع في هدمه.

وفي هذه السنة تزايد الغلاء بالبلاد الشامية، حتى جاوز الحدّ وجعل الغني فقيراً، وأُبيع فيه الرطل الخبز بدرهمين. وفي هذا المعنى يقول بدر الدين بن حبيب: [الخفيف]

لا تُقِيمنّ بِي على حلب الشَّهْـ ـباء وآرحل فأخضر العيش أدهمْ
كيف لِي بالمُقامِ والخبزُ فِيها كلُّ رطلٍ بِدِرهمينِ ودرهم

وفي سنة ثمان وسبعين عَزَل السلطان الملك الأشرف آقتمر الصاحبيّ الحنبليّ عن نيابة السلطنة بالديار المصرية وآستقرّ به أتابك العساكر، وعَزَل الأمير آقتمر عبد الغنيّ عن نيابة صَفَد وآستقرّ به أميرَ [٣] مائة ومقدّم ألف بالقاهرة.

ثم في العشرين من شهر ربيع الآخر غَرِقت الحُسينية[٤] خارج القاهرة وخرب فيها أزيدُ من ألف بيت. وكان سببُ هذا الغرق أنّ أحمد بن قايماز أستادار محمد ابن آقْبُغا آص آستأجر مكاناً خارج القاهرة بالقرب من آخر الحسينية وجعله بِركة [ليجتمع فيه السمك][٥] وفتح له مَجْرى من الخليج، فتزايد الماءُ وغَفِلوا عنه، فطَفَح على الحسينية فغرّقها. فقبض السلطانُ بعد ذلك بمدّة على محمد بن آقبغا آص وصادره وعَزَله عن الأستادارية؛ هذا والسلطان في تأهُّب سَفَر الحجاز.

---

(١) المدرسة الأشرفية: انظر خطط المقريزي: ٢/٤٠١،٤٠٨.

(٢) المارستان المؤيدي: انظر خطط المقريزي: ٢/٤٠٨.

(٣) عبارة السلوك: «وخلع على الأمير آقتمر عبد الغني واستقر حاجب الحجاب». ولا تناقض بين العبارتين لأن حاجب الحجاب كان عادة من بين كبار الأمراء ورتبته أمير مائة مقدم ألف.

(٤) الحسينية: من الحارات الكبيرة بالقاهرة ويخترقها اليوم شارع الحسينية.

(٥) زيادة عن السلوك.

فلما كان يومُ الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان [١] سَفَّر السلطان إخوَته وأولاد أعمامه إلى الكرك صُحبة الأمير سودون الفخري الشيخوني ليُقيم عندهم بالكرك مدّة غَيْبة السلطان في الحجاز. كلُّ ذلك والسلطان متضعِّف، وحركة الحجاز عَمّالة، وحواشيه وخواصّه يَنْهَونه عن السفر في هذه السنة وهو لا يلتفت إلى كلامهم.

ثم توجه السلطان إلى سِرْياقُوس على عادته في كل سنة، وعاد وقد نصل عن ضعفه إلى يوم السبت الثاني عشر من شوّال خرجت أطلاب الأمراء المتوجّهين صحبة السلطان إلى الحجاز.

وفي الأحد ثالث عشره خرجَ السلطان بتجمّل زائد وطُلْب عظيم إلى الغاية، جُرّ فيه عشرون قِطاراً من الهُجُن الخاص بقماش ذهب، وخمسة عشر قطاراً بقماش حرير، وقطارٌ واحد بلبس[٢] خليفتيّ، وقطار آخر بلبس أبيض برسم الإحرام، ومائة فرس مُلبسة، وكَجاوتان[٣] بأغْشِية زَرْكش وتسع محِفّات، غِشاء خمس منهن زَرْكش، وستة وأربعون زَوْجاً من المَحاير، وخِزانة[٤] عشرون جمَلاً، وقطاران من الجمال مُحّملة خضر مزروعة كالبَقْل والشّمار والنّعناع والسلق والكُسبرة وغير ذلك. وأما أحمالُ المطاعم والمشارب والمآكل فلا تدخل تحت حَصْر كثرة: منها ثلاثون ألف عُلْبة حلاوة في كل عُلْبة خمسة أرطال كلُّها معمولة من السكر المكرر المصريّ وطُيِّبت بمائة مِثقال مسك، سوى الصَّنْدل والعُود؛ هذا خلاف ما كان للأمراء والخاصّكِية. وإنما كان هذا للسلطان خاصّة نفسه، وأشياء من هذا النَّمُوذَج كثيرة؛ ومع هذا كلّه لم يتغيَّر سعرُ السكّر بمصر.

وسار السلطان بأمرائه في أُبَّهة عظيمة حتى نزل سِرْياقوس، فأقام بها يوماً. وفي هذا اليوم أخلع السلطان على الشيخ ضياء الدين القِرمي الحنفيّ باستقراره

(١) في السلوك: «شعبان».
(٢) في السلوك: «بقماش أسود خليفتي».
(٣) الكجاوة: هودج النساء. فارسية.
(٤) عبارة السلوك: «وخزانة المال على عشرين جملاً».

شيخ شيوخ المدرسة التي أنشأها بالصُّوّة وقد أشرفت على الفراغ وجاءت من أحسن البناء.

ثم رحل السلطان من سِرْياقوس حتى نزل بالبركة على عادة الحُجّاج، فأقام بها إلى يوم الثلاثاء ثاني عشرين شوّال. ورَحَل [منها] بعساكره وأمرائه إلى جهة الحجاز، وكان الذي صَحِبه من أمراء الألوف تسعة وهم: الأمير صرغتمش الأشرفي، وأرْغُون شاه الأشرفي، ويَلْبُغا الشاميّ ـ وهؤلاء الثلاثة أشرفيّة مماليكُه ـ والأميرُ بهادُر الجماليّ، وصَرَاي تَمُر المحمديّ، وطَشْتَمُر العلائي الدّوادار، ومُبارك الطازي، وقُطْلُقْتَمُر العلائي الطويل، وبَشْتَك من عبد الكريم الأشرفيّ أيضاً. ومن أمراء الطبلخانات خمسةٌ وعشرون أميراً وهم: بُوري الأحمديّ، وأيدَمر الخطائيّ من صديق، وعبد الله بن بَكْتَمُر الحاجب، وبَلوط الصرغتمشي، وآروس المحمودي، ويَلْبُغا المحمدي، ويَلْبُغا الناصريّ ـ على أنه كان أنعم عليه بتقدمة ألف، غير أنه أُضيف إلى الطبلخانات كونه كان حاجباً ثانياً ـ وأرغون العِزّي الأفرم، وطُغَيْتَمُر الأشرفي، ويلبغا المَنْجَكّي، وكزل الأرْغُوني، وقُطْلُوبُغَا الشعبانيّ، وأمير حاج بن مُغْلطاي، وعليّ بن مَنْجَك اليوسفي، ومحمد بن تَنْكِز بُغَا، وتَمُرباي الحَسَني الأشرفيّ، وأسَنْدَمر العثماني، وقَرَابُغا الأحمديّ، وإينال اليُوسفي، وأحمد بن يلبغا العُمَري، وموسى بن دَنْدار بن قَرمان، ومُغْلطاي البدري وبَكْتَمُر العلمي وآخر. ومن العشرات خمسة عشر أميراً وهم: آقْبُغا بُوز الشيخوني، وأبو بكر بن سُنْقُر الجمالي، وأحمد بن محمد بن بِيبَرْس الأحمدي، وأسَنْبُغا التُّلكيّ، وشَيْخون، ومحمد بن بَكتَمُر الشمسي، و[محمد بن][1] قُطْلُوبُغا المحمدي، وخِضر بن عمر بن أحمد بن بَكْتَمُر الساقي، وجُوبان الطَّيْدَمُري، وألْطُنبُغا من عبد الملك، وقُطْلُوبُغا البُزْلارِي، وطُوغان العُمَري الظهيري، وتُلَكْتَمُر العِيسويّ، ومحمد بن سُنْقر المحمدي.

وعَيَّن الملك الأشرف جماعة من الأمراء ليُقيموا بالديار المصرية. عَيَّن الأميرَ أيدمُر الشمسيّ نائب الغَيْبة بالقلعة وأميرين أُخر تسكن بالقلعة أيضاً، وعيَّن الأمير

---

(١) زيادة عن السلوك.

ذلك، طَلَعوا جميعاً وكسَرُوا شُبّاك الزِّمام المُطِلّ على باب الساعات، ودخلوا منه ونَهبوا بيتَ الزمام وقماشَه. ثم نزلوا إلى رَحْبَة باب السِّتارة ومسكوا مثقالاً الزِّمام وجُلْبان اللّالا وفتحوا الباب. فدَخَلت بقيَّتُهم وقالوا: «أخرجوا أمير عليّ، حتى نسلطنَه، فإن أباه تُوُفِّي إلى رحمة الله تعالى» فدخل الزمام على رغم أنفه، وأخرج لهم أمير عليّ، فأقعِد في باب الستارة. ثم أحضِر الأميرُ أيدمر الشمسي فبوّسوه الأرض لأمير عليّ. ثم أرْكبوا أمير عليّ على بعض خيولهم وتوجَّهوا به إلى الإيوان الكبير. وأرسلوا خلف الأمراء الذين بالقاهرة، فرَكبُوا إلى سوق الخيل وأبَوْا أن يطلعوا إلى القلعة، فأنزلُوا أميرَ عليّ إلى الإسطبل السلطاني حتى رأوْه الأمراء؛ فلما رأوْه طلعوا وقبَّلوا له الأرض وحَلَفوا له. غير أنّ الأمير طَشْتَمُر الصالحي وبلاطَ السّيفي ألجاي[1] الكبير وحَطَط رأس نَوْبة النُّوَب لم يوافقوا ولا طلعوا فنزلوا إليهم المماليكُ ومَسكُوهم وحَبَسوهم بالقصر، وعَقَدوا لأمير عليّ بالسلطنة ولقّبوه بـ «الملك المنصور» على ما يأتي ذكره في محله، ونسوق الواقعة على جلِيّتها.

ثم نادَوْا بالديار المصرية بالأمان والبيع والشراء، بعد أن أخذوا خطوطَ سائر الأمراء المقيمين بمصر. فأقاموا ذلك النهارَ وأصبحوا يوم الأحد رابع ذي القَعْدة من سنة ثمانٍ وسبعين وسبعمائة وهم لابسون آلةَ الحرب، واقفون بسوق الخيل، يتكلمون في إتمام أمرهم. وبينما هم في ذلك جاءهم الخبر أنّ شخصاً يُسمَّى قازان اليَرْقَشِيّ كان مسافراً صحبةَ السلطان الملك الأشرف إلى الحجاز الشريف وجدوه متنكراً، فمسكوه وأتَوْا به إلى الأمراء فسألوه عن خَبَر قدومه وعن أخبار السلطان، فأبَى أن يُخبرهم بشيء، وأنكر أنه لم يتوجّه إلى الحجاز. فأوهموه بالتوسيط فأقرّ وأعلمهم الخبرَ بقدوم السلطان الملك الأشرف شعبان وكَسْرته من مماليكه بالعَقَبة فقالوا له: «وما سببُ هزيمة السلطان من عقبة[2] أيْلا؟» قال: «لما نزل السلطان الملك الأشرف بمن معه من أمرائه وعساكره إلى العقبة، وأقام بها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء سَلْخ

---

(١) في السلوك: «الأمير بلاط الكبير السيفي». وفي الجوهر الثمين: «بلاط الألجاوي».

(٢) أو عقبة أيلة وهي بلدة العقبة المعروفة اليوم.

شوّال، فطلب المماليك السلطانية العلِيق، فقيل لهم اصبروا إلى منزلة الأزلم؛[١] فغَضِبوا وامتنعوا من أكل السمّاط عصر يوم الأربعاء واتفقوا على الركوب. فلما كانت ليلة الخميس المذكورة ركبوا على السلطان ورؤوسهم الأمير طَشْتَمُر العلائيّ ومبارك الطازيّ وصَرَاي تمُر المحمديّ وقُطْلُقْتَمُر العلائيّ الطويل وسائر مماليك الأسياد وأكثر المماليك السلطانية. فلما بلغ السلطان أمرُهم ركب بأمرائه وخاصَّكِيته وتواقعوا فانكسر السلطان وهَرَب هو ومَنْ كان معه من الأمراء وهم: صرغتمش الأشرفيّ وأرْغُون شاه الأشرفيّ وبَيْبُغا الأشرفي وبَشْتَك الأشرفيّ وأرْغُون كتك ويلبغا الناصريّ. وصار السلطان بهؤلاء إلى بركة عجرود[٢]، فنزلَ بها، وهو مقيمٌ بها.

فقالوا له: «كَذَبْتَ قل لنا حقيقةَ أمره،» فامتنع وحلَف. فأرادوا توسيطَه حقيقة، فقال: «أطلقوني أنا أدلُّكم عليهم». فأطلقوه، فأخذهم وتوجّه بهم إلى قُبّة النصر خارج القاهرة إلى محل كان الأشرف نزل فيه بجماعته، فوجدوا بالمكان أرْغُون شاه وصرغتمش وبَيْبُغا وبَشْتَك وأرْغُون كتك. وكان الذي توجّه مع قازان اليَرقشيّ من القوم أَسَنْدُمر الصرغتمشيّ وطُولُو الصرغتمشيّ ومعهما جماعةٌ كبيرة من المماليك الذين ثاروا بالقاهرة. فَقَبضوا على الأمراء المذكورين وسألوهم عن الملك الأشرف، فقالوا: «فارَقَنا وتوجّه هو ويَلْبُغا الناصريّ إلى القاهرة ليختفي بها» فقتلوا الأمراء المذكورين في الحال، وحزوا رؤوسهم، وأتَوْا بها إلى سوق الخيل، ففَرح بذلك بقيّةُ الأمراء الذين هم أصلُ الفتنة وعلموا أنّ الأشرف قد زال مُلْكُه.

وأمّا الملك الأشرف فإنه لما وصل إلى قُبّة النصر توجّه منها نحو القاهرة ومعه يلبغا الناصري، واختفى عند أستادار يَلْبُغا الناصريّ، فلم يأمن على نفسه، فتوجّه تلك الليلة من عند أستادار يلبغا الناصريّ إلى بيت آمنة زوجة المشتوليّ[٣] فاختفَى

---

(١) منزلة الأزلم: كانت محطة من محطات الحجاج في الطريق بين القاهرة ومكة المشرفة. بها قلعة خربة وآبار غير صالحة للشرب. (الخطط التوفيقية: ٩/٢٦).

(٢) بركة عجرود: المراد بها المنطقة الصحراوية الواقعة عند محطة عجرود إحدى محطات الحاج القديمة على الطريق ما بين القاهرة والسويس. (محمد رمزي).

(٣) كذا أيضاً في السلوك. وفي الجوهر الثمين: «زوجة ابن المشتولي». وفي إنباء الغمر لابن حجر العسقلاني: ١/١٩٤ «استخفى السلطان عند آمنة بنت عبد الله امرأة ابن المستوفي المغنية. كان يعرفها قبل ذلك فأخفته».

عندها. فقَلِق عند ذلك الأمراء الذين أثاروا الفتنةَ وخافوا عاقبةَ ظهور الأشرف، وهم: قُرطاي الطازيّ وطَشْتَمُر اللفّاف وأسندمر الصرغتمشيّ وقُطْلُوبغا البدريّ وأَلْطُنبغا السلطانيّ وبَلَاط الصغير ودِمْراش اليُوسفيّ وأينَبَك البدريّ ويَلْبُغا النظاميّ وطُولو الصرغتمشيّ ـ وهؤلاء الأمراء، وأمّا الأجناد فكثير ـ فاشتد قلقُهم. وبينما هم في ذلك في آخر نهار الأحد يوم قتلوا الأمراء المذكورين بقُبّة النصر، وقبل أن يَمْضي النهار، جاءت آمرأة إلى الأمراء وذكرتْ لهم أنّ السلطان مُخْتَفٍ عند آمنة زوجة المشتوليّ في الجُودَرِية[1] فقام أَلْطُنبغا[2] من فوْره ومعه جماعةٌ وكَبَسوا بيت آمنة المذكورة، فَهَرب السلطان وآختفى في بادهنج[3] البيت فطلَعوا فوجدوه في البادهنج وعليه قماش النساء. فمسكوه وألْبَسوه عِدّة الحرب، وأحضروه إلى قلعة الجبل، فتسَلّمه الأمير أيْنَبَك البدريّ وخلا به. وأخذ يُقرّره على الذخائر، فأخبره الملك الأشرف بها وقيل إنّ أينبك المذكور ضَرَبه تحت رجليه عدّة عصيّ[4]. ثم أصبحوا في يوم الاثنين[5] خنَقوه، وتَوَلّى خنقه جاركس شادّ عمائر أُلجاي اليُوسفيّ، فأعْطى جاركس المذكور إمرة عشرة وآستقرّ شادّ عمائر السلطان.

ثم بعد خَنْق الملك الأشرف لم يدفِنوه، بل أخذوه ووضعوه في قُفّة وخَيّطوا عليها ورَمَوْه في بئر. فأقام بها أياماً إلى أن ظهرت رائحتُه؛ فاطّلَع عليه بعضُ خُدّامه من الطواشيّة، ثم أخرجوه ودَفَنُوه عند كِيمان السيدة نفيسة، وذلك الخادِم يتبعهم من بُعْد حتى عرف المكان. فلما دخل الليل أخذ جماعة من إخوته وخدمه ونقلوه في تلك الليلة من موضع دَفَنُوه المماليك ودفنوه بتربة والدته خَوَنْد بركة بمدرستها التي بخُطّ التَّبّانة في قُبّة وحدَه، بعد أن غسّلوه وكفّنُوه وصلوا عليه.

---

(١) كذا أيضاً في الجوهر الثمين. وفي السلوك: «بحارة المحمودية» وكلاهما من أحياء القاهرة.

(٢) في السلوك: «فركب الأمير قرطاي في عدة وافرة..» وفي الجوهر الثمين: «فتوجه صحبتها ألطيبغا السلطاني ومعه جماعة..».

(٣) البادهنج: كلمة فارسية تعني منفذ التهوية الذي يوجد وسط المبنى.

(٤) في الجوهر الثمين وإنباء الغمر: «ضربه تحت رجليه نحواً من سبعين ضربة بالعصي».

(٥) كذا أيضاً في الجوهر الثمين وإنباء الغمر. وفي السلوك وبدائع الزهور: «يوم الثلاثاء سادس ذي القعدة».

وقيل غير ذلك، وهو أنهم لمّا وجدوه في البيت المذكور وعليه قُماش النِّسوة أركبوه على هيئة بازار[١] خَلْف مملوك، ومشَوْا خلفَه، وطلعوا به من على قنطرة باب الخرق[٢] وطلعوا به على معدّية[٣] فُريج، وطلعوا به من على الصّليبة وقت الظهر. وكان من رآه يحسبه أميراً من الأمراء؛ وفعلوا ذلك خوفاً من العامّة، فإنهم لو عَلِموا أنه السلطان خلّصوه منهم، ولو ذَهَبت أرواحُهم الجميع، لمحبة الرعية في الأشرف المذكور.

ثم دخلوا بالأشرف إلى إسطبل بالقرب من الصليبة، مخافةً من العامّة لا يعرفون به لمّا تكاثروا لِلفُرْجَة عليه، فأقَام بالإسطبل ونزل إليه قُرْطاي وقرّره على الذخائر، فقرّ له. ثم قتله ودفنه بمصْطَبة بالإسطبل المذكور. فهذه روايةٌ أخرى غير ما ذكرنا أوّلاً، والأوّلُ أشهرُ، وأظنه الأصحّ والأقوى.

وأمّا الذين تخلّفوا بالعقبة من الذين وَثَبوا على الملك الأشرف وكسَروه وهرب الأشرفُ إلى جهة الديار المصرية ولم يُدْركوه، فإنهم آتفقوا الجميع ـ الأمراء وغيرهم ـ وتوجّهوا إلى الخليفة المتوكّل على الله، وكان أيضاً في صحبة السلطان الملك الأشرف وقالوا له: «يا أمير المؤمنين تَسلْطَنْ ونحن بين يديك»، وكانت العصائب السلطانية حاضرة فامتنع الخليفةُ من ذلك.

هذا وهم لا يعلمون بما وقع بالديار المصرية من ركوب هؤلاء وسلطنة أمير عليّ، فإنّ كلّ طائفةٍ وثبتْ على السلطان، وليس للأخرى بها علم ولا كان بينهم آتّفاقيّة على ذلك، وهذا من غريب الاتفاق، كونُ الواقعة تكون في العقبة وينكسر السلطان.

---

(١) كذا. والبازار هو السوق. ولا نرى وجهاً لاستعمالها هنا. ولعله: «على هيئة بازيار» أو «بازدار» أي الذي يتولى تربية طيور السلطان والعناية بها، فتأمل.

(٢) هذه القنطرة إحدى قناطر الخليج المصري بالقاهرة. وقيل لها قنطرة باب الخرق لأنها كانت تجاه أرض زراعية تخترقها الرياح لاستوائها. وكان الميدان الذي فيه القنطرة يعرف بميدان باب الخرق. (خطط المقريزي: ١٤٧/٢). وفي أيام الخديوي إسماعيل أطلق على الميدان اسم ميدان باب الخلق لكثرة ازدحام الناس المارين فيه، كما أطلق على القنطرة اسم قنطرة باب الخلق. (محمد رمزي).

(٣) هذه المعدية كانت واقعة في الخليج المصري بين قنطرة باب الخَلق وقنطرة سنقر بالقاهرة. وعرفت هذه القنطرة في عصرنا الحاضر باسم قنطرة «اللي كفر» أي «الذي كفر». (محمد رمزي).

ثم بعد ثلاثة أيام أو أقلّ تكون بمصر أيضاً ويُخْلَع الملك الأشرف ويتسلطن ولده وكلاهما من غير مواعدة الأخرى، فنعوذ بالله من زوال النعم.

ثم إنّ الأمراء والمماليك أقاموا بالعقبة بعد هروب السلطان يومين، وقد جهزوا للخليفة قماش السلطنة وآلة المَوْكِب، وألَحُّوا عليه بالسلطنة وهو يمتنع. وتوجّهت القضاةُ إلى القدس للزيارة، ورُدّ الحاجّ بأسْره إلى أبيار[1] العلائيّ، وقد قصدوا العود إلى القاهرة وإبطال الحاج في تلك السنة، فنَهَضَ الأمير بهادُر الجماليّ أمير الحاجّ وردّهم وحجّ بهم. ولما تحقّقت الأمراء والمماليك أنّ الخليفة آمتنع من السلطنة، رَجَعوا نحو الديار المصرية حتى وصلوا إلى عجرود، فأتاهم الخبر بما جرى من مَسْكِ السلطان الملك الأشرف وقتله، فاطمأنوا. فإنهم كانوا على وَجَل، ومنهم من نَدِم على ما فَعَل، فإنه كان سبباً لزوال دولة الملك الأشرف ولم يَنلهُ ما أمل، وخرج الأمر لغيره. ثم ساروا الجميع من عجرود إلى أنّ وصلوا إلى بركة الحاجّ، فسار إليهم جماعة من القائمين بمصر بآلة الحَرْب فتعبُّوا لقتالهم. فأرسل طشتمر العلائي الدوادار طليعة عليها قطلقتمر الطويل، فقاتلوه المصريون فكسرهم قطلقتمر، وسار خَلفْهَم إلى قلعة الجبل. فلما قَرُب إلى القلعة تكاثروا عليه ومسكوه. وفي ذلك الوقت حضر إلى الديار المصرية الأمير آقتمر الصاحبي نائب السلطنة بالديار المصرية، وكان قد توجّه إلى بلاد الصعيد قبل توجّه السلطان الملك الأشرف إلى الحجاز، فتلقاه أمراءُ مصر وعظّموه وقالوا له: «أنت نائب السلطنة على عادتك وأنت المتحدّث وكلّنا مماليكك»، فلم يسعْه إلا مطاوعتهم على ما أرادوا. وكان كلامُ الأمراء لآقتمر الصاحبي بهذا القول، خوفاً ممَّنْ أتى من الأمراء والخاصكيّة من العقبة.

ثم آتفق المصريون على قتال طشتمر الدوادار ومَنْ أتى معه من العقبة من المماليك الأشرفية وغيرها، فنزلوا إليهم من القلعة بعد المغرب في جمع كبير وآلتقوا معهم على الصوّة من تحت القلعة، تجاه الطبلخاناه السلطانية. وتقاتلوا،

(١) أبيار العلائي أو آبار العلائي: محطة من محطات الحجاج بعد نخل والقرنص وقبل نقب العقبة في وادي التيه على بعد ٤٠ ميلاً شرقي نخل (محمد رمزي).

فانكسر طشتمر ومَنْ معه من الأمراء والمماليك الأشرفية، وانهزموا بعد المغرب إلى ناحية الكيمان. فلما كان الليلُ أرسلَ طشتمر طَلَبَ الأمان لنفسه، فأرسلوا له الأمان. فلما حضر مسكوه وقيّدوه هو وجماعته وحبسوهم بالقلعة. وفيه يقول الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار: [مجزوء الكامل]

إن كـان طَشْتَمُـرُ طَغَـى وأتَـى بحـربٍ مُسـرِعْ
وبغَى سيُؤخَـذ عـاجِـلاً ولِـكـلِّ بـاغٍ مـصـرَعْ

قلتُ: ما أشقى هؤلاء القوْم العصاة بالعقبة، فإنهم كانوا سبباً لزوال مُلْكِ أستاذِهم الملك الأشرف وذهاب مُهْجَته من غير أن يحصلَ أحدُهم على طائل. بل ذهبت عنهم الدنيا والآخرة، فإنهم عصوْا على أستاذهم وخَلَعوا طاعَتَه من غير موجب. وشمل ضَررُهُم على الحجاج وغيرهم، وارتكبوا أموراً قبيحة، فهذا ما حصلوه من الإثم.

وأما أمرُ الدنيا فإنها زالتْ عنهم بالكلية، وخرج عنهم إقطاعاتهمُ ووظائفُهم وأرزاقُهم، ومنهم من قُتِل أشرّ قِتْلة، ولم يُقرّ بهم ملكٌ من الملوك بعد ذلك، بل صاروا مَبعودين في الدُّول وماتوا قهراً مما قاسوه من الذل والهوان، حتى إنني رأيت منهم من كان عُمِّر واحتاج إلى السؤال، وما ربك بظّلام للعبيد.

وكان السلطان الملكُ الأشرف ـ رحمه الله تعالى ـ من أجلّ الملوك سماحة وشهامة وتجملاً وسؤدداً.

قال قاضي القُضاة بدر الدين محمود العيْني ـ رحمه الله ـ في تاريخه[1]: كان ملكاً جليلاً لم يُر مثلهُ في الحلم. كان هيناً ليّناً محبّاً لأهل الخير والعلماء والفقراء، مُقتدياً بالأمور الشّرعية، واقفاً عندها، مُحسناً لإخوته وأقاربه وبني أعمامه. أنعَمَ عليهم وأعطاهم الإمريات والإقطاعات، وهذا لم يعهد من مَلك قبله في ملوك الترك ولا غيرهم. ولم يكن فيه ما يُعاب، سوى كونه كان محبّاً لجمع المال. وكان كريماً

(١) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان للقاضي بدر الدين محمود العيني المتوفى سنة ٨٥٥هـ.

يُفرق في كلّ سنة على الأمراء أقبيةً بِطَرْز زركش، والخيول المسوّمة بالكنابيش الزركش والسلاسل الذَّهب والسروج الذَّهب، وكذلك على جَميع أرباب الوظائف؛ وهذا لم يَفعله ملكٌ قبله. انتهى كلام العيني باختصار ـ رحمه الله تعالى ـ.

وقال غيره ـ رحمه الله: وكان ملكاً جليلاً شجاعاً مهاباً كريماً هيِّناً ليِّناً مُحبّاً للرعية. قيل إنه لم يل المُلك في الدولة التركية أحلم منه ولا أحسن خَلْقاً وخُلُقاً. وأبطل عدّة مكوس في سلطنته. والله أعلم.

قلت حدّثني العلامة علاء الدِّين علي القلقشندي ـ تغمده الله تعالى ـ الشافعي، قال: حدّثني العلاَّمة قاضي القضاة شمس الدين محمد البساطيّ المالكيّ أنّ الملك الأشرف شعبان هذا كان من فطنته وذكائه يَعْرِفُ غالب أحوال القلاع الشامية وغيرها، ويعرف كيف تُؤخذُ ومن أين تحاصرُ معرفةً جيِّدة.

قلت هذا دليلٌ على الذكاء المفرط والتيقّظ في أحوال مملكته. انتهى.

ورأيتُ أنا كثيراً من المماليك الأشرفيَّة وبهم رَمَقٌ وقوةٌ في أوائل الدولة الأشرفية برسباي، منهم الأمير آق سنقر الأشرفيّ الحاجب وغيره. وكانت أيام الملك الأشرف شعبان المذكور بِهجةً، وأحوال الناس في أيامه هادئة مطمئنَّة، والخيرات كثيرة على غلاَء وَقع في أيامه بالديار المصرية والبلاد الشامية؛ ومع هذا لم يختلّ من أحوال مصر شيءٌ لحسن تدبيره، ومشى سوقُ أرباب الكمالات في زمانه من كل علم وفن. ونَفقتْ في أيامه البضائعُ الكاسدةُ من الفنون والمُلَح، وقَصَدْتهُ أربابُها من الأقطار، وهو لا يكلّ من الإحسان إليهم في شيء يريده وشيء لا يريده، حتى كلّمه بعضُ خواصّه في ذلك، فقال ـ رحمه الله ـ: «أفعلُ هذا لئلا تموتَ الفنون في دولتي وأيامي».

قلت: لعمري إنه كان يَخْشَى موتَ الفنون والفضائل؛ ولقد جاء من بعده مَن قَتلها صَبْراً، قبل أوانِ موتها، ودَفَنها في القبور وعفّى أثرها. وما أحسن قول أبي الطيب [المتنبي] أحمد بن الحسين حيث يقول: [الطويل]

على قدر أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ [وتأتي على قَدْر الكِرام المَكارِمُ]

وخَلَّفَ الملك الأشرف[رحمه الله] من الأولاد ستَّة بنين، وهم الملك المنصور عليّ الذي تَسَلْطَن من بعده ــ على ما يأتي ذِكرهُ وذِكرُ من قام بسلطنته مُفَصَّلاً ــ والملك الصالح أمير حاج، وقاسم، ومحمد، وإسماعيل، وأبو بكر. وولدت بعده خوَنْد سمراء جاريته ولداً سَمّوه أحمد فصاروا سبعةً.

وخَلَّف سَبْع بناتٍ رأيت إحداهنّ بعد سنة عشرين وثمانمائة.

وكانت مدّةُ سلطنة الملك الأشرف أربع عشرةَ سنةً وشهرين وعشرين[1] يوماً. ومات وعُمره أربعٌ وعشرون سنةً. وقد تقدّم مولدُه في أوّل ترجمته. ورثاه الشعراءُ بعد موته بعدّة قصائد، وَحزِنَ الناسُ عليه حُزْناً عظيماً وكَثُر تأسُّفُهم عليه. وعُمِل عزاؤه بالقاهرة عِدّة أيام. وفيه يقول الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطار: [البسيط]

للملكِ الأشرفِ المنصورِ سيِّدِنا مناقبٌ بعضها يبدو به العَجبُ
له خلائق بيضٌ لا يغيّرها صرفُ الزمان كما لا يصدأ الذهبُ

وقال غيره: [زجل]

كوكب السعد غَابْ مِن القلعهْ وهلالُو قد انطَفَا بأمانْ
وزُحلْ قد قارن المِرّيخْ لكسوف شمسِ الضُّحى شعبانْ

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الاشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة خمس وستين وسبعمائة. على أنه حَكَم في السنة الماضية من شعبان إلى آخرها.

وفيها (أعني سنة خمس وستين) تُوُفِّي الشيخ الإمام العالم ناصر الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز القُونَويّ الحنفيّ الشهير بآبن الرَّبْوةَ، رحِمه الله. كان إماماً عالماً بارعاً خطيباً فصيحاً فقيهاً مُناظراً. أفتى ودَرَّس وأعاد وشَرَح «الفرائض

---

(١) في السلوك والجوهر الثمين وإنباء الغمر: «وشهرين ونصف».

السراجيّة»[١] و «كتاب المَنَارة»[٢] وله عدّة مصنّفات أُخَر. ومات بدمَشْق في هذه السنة، وقيل في الخالية.

وتُوُفّي قاضي القضاة نجم الدين عبد الرحيم ٱبن القاضي شمس الدين إبراهيم بن شرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن المسلم بن عبد الله بن حسّان المعروف بالبَارزيّ الجُهَنِيّ الحمويّ الشافعيّ قاضي قضاة حَمَاة بها، بعد أن وَلِيَ قضاءَها ستّاً وعشرين سنة. وكان مشكور السِّيرة في أحكامه ــ رحمه الله ــ.

وتُـوُفّي الأديب عِز الدين أبو محمد الحسن بن عليّ بن الحسن بن عليّ العبّاسيّ الشهير بٱبن البَنّاء الحلبيّ الشاعر المشهور. قَدِم إلى حلب وبها مات، وسِنّه زيادة على سبعين سنة. ومن شعره قصيدة أوّلها: [الرجز]

أنفقتُ عُمْري في رجاءِ وَصْلِكم والعَصْرِ إنّي بِكم في خُسْرِ

وتُوُفّي القاضي شهاب الدين أحمد ٱبن الصاحب جمال الدين محمد ٱبن الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد الحنفيّ الحلبيّ الشهير بٱبن العدِيم بحلب، عن بِضْع وسبعين سنة. وكان فقيهاً عارفاً بالتاريخ والأدب.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين قُطْلُوبُغَا الأحمديّ نائب حلب بها عن نيِّف وثلاثين سنة ــ رحمه الله ــ وكان أميراً جليلاً شجاعاً كَرِيماً. نشأ في السعادة وولي نيابة حلب مرّتين.

وتُوُفّيت خَوَنْد طُولُوبيه[٣] الناصريّة التَّتَريّة، زوجة السلطان الملك الناصر حسن، ثم من بعده زوجة مملوكه يَلْبُغَا العُمَريّ، في الرابع والعشرين من شهر ربيع

(١) الفرائض السراجية، ويقال لها فرائض السجاوندي، للإمام سراج الدين محمد بن محمود بن عبد الرشيد السجاوندي الحنفي. (كشف الظنون).

(٢) منار الأنوار في أصول الفقه للشيخ أبي البركات عبد الله بن أحمد المعروف بحافظ الدين النسفي المتوفى سنة ٧١٠هـ. (كشف الظنون).

(٣) راجع ص٦، حاشية (١).

الآخر، ودُفِنت بتربتها[١] التي أنشأتها بجوار تُربَة خَوَنْد طُغاي الناصريّة أمّ نُوك خارج باب البرقيّة بالصحراء. وكانت من أجمل نساء عصرها.

وتُوُفِّي القاضي تاج الدين أبو عبد الله محمد بن بهاء الدين إسحاق بن إبراهيم السُّلَمِيّ المُناوِيّ الشافعيّ، خليفة الحُكْم بالديار المصرية، وقاضي العسكر، ووكيل بيت المال والخاصّ بها، في يوم الجمعة سادس شهر ربيع الآخر.

وتُوُفِّي القاضي صلاح الدين عبد الله بن عبد الله بن إبراهيم البُرُلُّسِيّ المالكيّ محتَسِب القاهرة بها في يوم الخميس خامس عشرين صفر. وهذا المحتَسِب هو الذي أمر المؤذِّنين أن يقولوا في ليلة الجمعة بعد أذان العشاء الآخرة، وقبل الفجر: «الصلاةُ والسلامُ عليك يا رسول الله» فاستمرّ ذلك إلى سلطنة الملك الظاهر بَرْقُوق، [حيث] أَمَر مُحتَسِبُ القاهرة نَجْمُ الدِّين الطَّنْبَذِيّ أن يقولوا ذلك عَقِيب كلِّ أذان إلّا المغرب. وآستمرّ ذلك أيضاً إلى يومنا هذا، على ما سنبيِّنه في وقته ــ إن شاء الله تعالى ــ ونذكر سَبَبه، ولم يكن قبل ذلك إلّا الأذان فقط.

وتُوُفِّي قاضي مكَّة تقيّ الدين محمد بن أحمد بن قاسم العُمَرِيّ الحَرَازِيّ[٢] الشافعيّ معزولاً.

وتُوُفِّي بالمدينة النبوّية ــ على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام ــ الحافظ عفيف الدين أبو السيادة عبد الله بن محمد بن أحمد بن خلف في سادس عشرين شهر ربيع الأوّل، رحمه الله. وكان إماماً حافظاً مُتْقِناً، سَمِع الكثير ورَحَلَ البلاد وكَتَبَ وحصّل.

وتُوُفِّي السلطان الملك الصالح شمس الدين صالح آبن الملك المنصور نجم الدين غازِي آبن الملك المظفر قرا أرسلان ابن الملك السعيد غازِي بن

---

(١) هذه التربة لا زالت إلى اليوم بقرافة المجاورين بالقاهرة باسم تربة خوند طلباي، تجاه تربة خوند طغاي أم أنوك، ويفصل بينهما شارع خوند طغاي (محمد رمزي).

(٢) نسبة إلى حَرَاز، مخلاف باليمن قرب زبيد. (معجم البلدان).

أُرْتُق بن أَرِسْلان بـن إيل بن غازِي بن أَلْبِي بن تمرداش بن إِيل بن غازِي بن أُرْتُق الأَرْتُقيّ صاحب مارِدين بها، وقد ناهز السبعين سنة من العُمُر، بعد أن دام في سلطنة ماردين أربعاً وخمسين سنة. وتَوَلّى ماردين بعده ابنـه الملك المنصور أحمدُ. وكان الملك الصالح من أَجَلّ ملوك بني أُرْتُق حَزْماً وعَزْماً ورأياً وسُؤْدُداً وكَرَماً ودَهاءً وشجاعةً وإقداماً. وكان يُحِبُّ الفقهاء والفضلاء وأهلَ الخير، وكان له فضلٌ وفَهْمٌ وذَوْقٌ للشعر والأدب. وكان يُحِبّ المَدِيح ويُجِيز عليه بالجوائز السنيَّة. ولصَفِّي الدين عبد العزيز الحِلّي فيه مدائحُ وغُرَر في مخلص بعض قصائده ـ رحمه الله ـ.

و[منها: الكامل]

لم أَشْكُ جَوْرَ الحادِثاتِ ولم أَقُل حالتْ بيَ الأيامُ عن حَالاتِهَا
مالي أَعُدُّ لهـا مساوِىءَ جمـة والْصالِـحُ السلطانُ مِن حَسَناتِهَا
مَلِكٌ تُقِـرُّ لـه الملوك بـأنـه إنسـانُ عَيْنَيْهَـا وعينُ حَيـاتِهـا

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وستة أصابع. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وآثنـا عشر إصبعاً. وكان الوفاء ثاني عشرين توت. والله أعلم.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة ست وستين وسبعمائة

فيها تُوُفِّي العلاَّمة قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن أحمد بن الحسين بن سليمان بن فَزارة الكَفْرِي (بفتح الكاف) الدِّمَشْقيّ الحنفيّ قاضي قضاة دِمَشق بها. وكان ـ رحمه الله ـ إماماً بارعاً في مذهبه، ماهراً في علم العربيّة، بصيراً بالأحكام. باشر مدّة طويلة نيابة عن والده، ثمّ استقلّ بها إلى أن مات. وكان مشكورَ السِّيرة وأفتى ودرَّس سنين.

وتُوُفِّي فاضي القضاة زين الدين محمد بن سراج الدين عمر بن محمود الحنفي المعروف بابن السِّراج بالقاهرة في ذي القعدة عن تسع وستين سنة، ودُفِن بتربته خارج باب النصر بالقرب من تربة الصوفية ــ رحمه الله. وكان فقيهاً بارعاً عالماً مُفْتِياً يحفظ «الهداية» في الفقه. ودرّس بالجامع الحاكمي، وأعاد بجامع أحمد بن طولون والأشرفية وغيرهما، وناب في القضاء عن قاضي القضاة جمال الدين التُّرْكماني الحنفي. وكان معدوداً من الفقهاء العلماء.

وتُوُفِّي الخطيب أبو المعالي تقيّ الدين محمد بن الخطيب محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن ناصح الحموي ثمّ الحلبي الشافعي الشهير بابن القوّاس بحلب عن نِّيف وخمسين سنة، رحمه الله.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم العلاّمة قطب الدين محمد بن محمد الرازي الشافعي الشهير بالقطب التحتاني(١) ــ رحمه الله بِدِمَشْق عن نيِّف وستين سنة. كان بحراً في جميع العلوم لا سيما في العلوم العقلية وله تصانيف مفيدة، منها: شرح «الشمسية»(٢) وشرح المطالع(٣) والحواشي على كشاف الزمخشري. وكانت تصانيفه أحسن من تصانيف شيخه العلامة شمس الدين الأصفهاني ــ رحمه الله.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أَرُنْبُغَا بن عبد الله الكاملي نائب غزَّة. كان أصله من مماليك الملك الكامل شعبان ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون وكان خصيصاً عنده إلى الغاية.

وتُوُفِّي الأمير الشريف أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن بن عليّ بن الحسن بن زهرة الحسنيّ الحلبيّ. ولي نقابة الأشراف بحلب بعد والده ــ رحمهما

---

(١) قيل له التحتاني تمييزاً له عن قطب آخر كان ساكناً معه بأعلى المدرسة. (الدرر الكامنة).

(٢) الشمسية: متن مختصر في المنطق لنجم الدين عمر بن علي القزويني المتوفى سنة ٦٩٣هـ. ألفه لخواجه شمس الدين محمد وسماه بالنسبة إليه. (كشف الظنون).

(٣) مطالع الأنوار في الحكمة والمنطق للقاضي سراج الدين محمود بن أبي بكر الأرموي المتوفى سنة ٦٨٩هـ. (كشف الظنون).

الله تعالى ــ وآستقـرّ أمير طبلخاناه بحلب مدّة ثمّ صُرف عن الوظيفتين، ومات بظاهر حلب عن ثلاث وخمسين سنة.

وتُوُفّي الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الهادي الفُوِّيّ الفقيه الشافعيّ في يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى وقد تصدّر للتدريس والإقراء ــ رحمه الله.

وتُوُفّي الشيخ شرف الدين محمد بن أحمد بن ابي بكـر المِزّيّ الـدمشقيّ الحريريّ المحدّث بمصر في شعبان. رحمه الله تعالى.

وتـُوُفّي الأمير آسن قجـا بن عبد الله من علي بـك الناصـريّ أحد أمـراء الطبلخانات، بعد ما تنقّل في عدّة أعمال مثل البيرة وطَرَسُوس وغيرهماــ رحمه الله.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين قماري بن عبد الله الحمويّ الناصري الحاجب، وهو على نيابة طَرَطُوس. وكان من أعيان الأمراء ومـن أكابر المماليك الناصرية.

وتُوُفّي الشيخ المعمَّر الرُّحْلة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن إبراهيم بن يعقوب الأنصاريّ الخزرجيّ المَقْدِسيّ البياني الشاهد. كان أبوه يعرف بابن إمام الصَّخرة وآشتهـر هو بالبياني. وُلد سنة ستّ وثمانين وستمائة فأحضر على زينب بنت مكي في الثانية من عمره، وعلى الفخر ابن البخاري في الثالثة، وأسمع على أبي الفضل بن عساكر وغيـره، وأجاز لـه جماعـة، وحدّث بالكثير. وعُمِّر وصار مُسنِد عصره ورُحلة زمانه. وخرّج له الحافظ تقيّ الدين بن رافع مشيخةً وذيَّل عليها الحافظ زين الدين العراقيّ. وكانت وفاته يوم الاثنين تاسع عشرين ذي العقدة. و[هو] آخِرُ من تأخّر ممن سَمع عليه شيخنا الرُّحلة زين الدين عبد الرحمن الزَّرْكَشيّ الخيليّ، رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وأربعة أصابع. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وستةَ عشر إصبعاً. والله أعلم.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة سبع وستين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّي الشيخ الإمام العالم العلاّمة قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز آبن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكِنانيّ الحموي المصري الشافعيّ بمكة المشرفة في يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة، ودُفِن بباب المعلاة بين الفُضَيل بن عِياض وأبي القاسم القُشَيريّ ونجم الدين الأصبهانيّ. ومولده بالعادلية بدمشق في سنة أربع وتسعين وستمائة، رحمه الله. وكان إماماً عالماً فاضلاً ديِّناً صالحاً. سَمِع بمصر والشام والحجاز وأخذ عن الأبَرْقوهِيّ والدِّمياطيّ وغيرهما من الحُفَّاظ. وجَمَع وكتب وحدّث وخَطَب وأفتى ودرّس وتولى القضاء تسعاً وعشرين سنة. ثمّ استعفى وتوجَّه إلى مكة مجاوراً بها إلى أن مات.

وتُوُفِّي القاضي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم أيوب العَيْنتابيّ الحنفيّ قاضي العسكر بدمَشق ــ رحمه الله تعالى ــ وبها كانت وفاته، وقد جاوز ستين سنة. وكان إماماً بارعاً في المذهب، وأفتى ودرّس وشرح مجمع البحرين في الفقه في المذاهب الثلاثة في عشرة مجلدات وسماه «المنبع».

وتُوُفِّي الشيخ الرضّى شيخ خانقاه بيبرس الجاشَنْكِير في ليلة الجمعة حادي عشر شهر رجب ودفن بمقابر الصوفية. وتَولّى مكانه الشيخ ضياء الدين العفيفي المعروف بقاضي قِرْم(١). رحمه الله.

وتُوُفِّي السلطان الملك المجاهد سيف الدين أبو يحيى علي آبن السلطان الملك المؤيد هِزَبْر الدين داود آبن السلطان الملك المظفر يوسف آبن السلطان الملك المنصور عمر بن نور الدين علي [بن] رسُول التُّرْكمانيّ الأصل اليمنيّ المولد والمنشأ والوفاة، صاحب اليمن بعَدن ــ رحمه الله ــ في يوم السبت الخامس والعشرين من شهر جمادى الأولى من هذه السنة، وقيل سنة أربع وستين، وولي بعده آبنه الملك الأفضل عباس. ومولد المجاهد هذا في سنة إحدى وسبعمائة بتَعز. ونشأ بها وحَفِظ

---

(١) سيذكره المؤلف في وفيات سنة ٧٨٠هـ.

«التنبيه» في الفقه وبحثه وتخرّج على المشايخ منهم: الشيخ الإمام العلامة الصاغانيّ، وتأدّب على الشيخ تاج الدين عبد الباقي وغيرهما. وشارَك في علوم، وكان جيِّد الفهم ــ رحمه الله ــ وله ذَوق في الأدب، وله نظم ونثر. وهذا المجاهد الذي ذكرنا في ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون أنه أرسل إليه نَجْدةً إلى بلاد اليمن، لما خَرَج عليه ونازعه الملك الناصر بن الأشرف صاحب زَبيد، وسُقْنا حكايته هناك مفصلاً. وطالت مدّة المجاهد في مملكة اليمن وفَعَل الخيرات وله مآثر: عمر مدرسة عظيمة بِتَعز وزيادة أخرى وغير ذلك وعَمّر مدرسة بمكة المشرفة بالمسجد الحرام بالجانب اليمانيّ مُشْرِفة على الحَرَم الشريف. وقد آستوعبنا ترجمته في المنهل الصافي بأطول من هذا إذ هو كتاب تراجم. والله أعلم.

وتُوُفِّي الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الظاهر المعروف بابن الشرف الحنفيّ الفقيه خطيب جامع شَيْخُون. وكان من أعيان الفقهاء وله مُشاركةٌ وفضل. رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بُطَا بن عبد الله أحدُ أمراء الطبلخانات، وقُرِىء على قبره بعد موته ألفُ خَتْمة شريفة بوصيَّته هكذا نَقَل الشيخ تقيّ الدين المَقْريزي. رحمه الله.

وتُوُفِّي الشيخ المحدِّث العالم العلاَّمة شمس الدين أبو الثناء محمود بن خليفة بن محمد بن خلف المنبِجيّ ثمّ الدِّمَشْقيّ التاجر. ومولده في سنة سبع وثمانين وستمائة ومات في ذي الحجة. رحمه الله.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام، أحد فُقَهاء المالكيّة، خليل بن إسحاق المعروف بابن الجُنْدِي الفقيه المالكيّ ــ رحمه الله ــ في يوم الخميس ثاني عشر شهر ربيع الأول. وكان فقيهاً مُصنِّفاً. صَنَّف المُخْتَصر في فقه المالكيّة وغيره.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وأربعة أصابع. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وستة عشر إصبعاً. والله سبحانه أعلم.

السنة الرابعة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة ثمان وستين وسبعمائة.

وفيها كانت وقعة يلبغا العمريّ الخاصكي صاحب الكبش ومقتلته وسلطنة آنوك بجزيرة الوسطى؛ ولم يتم أمره ولا عّد من السُّلاطين؛ وقد تقدم ذكر ذلك كله مفصلاً في ترجمة الملك الأشرف هذا فلينظر هناك.

وفيها تُوُفِّي قاضي القضاة أمين الدين أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن وَهْبان الدمشقيّ الحنفيّ قاضي قضاة حَمَاة، وبها تُوُفِّي وهو من أبناء الأربعين، رحمه الله. وكان فقيهاً عالماً مشكورَ السيرة.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالِم المسلِّك[١] العارف بالله تعالى عفيف الدين أبو محمد، وقيل أبو السيادة، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فَلَاح اليمانيّ اليافعيّ، نزيل مكة وشيخ الحرم وإمام المسلِّكين وشيخ الصوفية، في ليلة الأحد العشرين من جمادى الآخرة بمكة المشرفة، ودُفِن بالمعلاة بجوار الفُضَيل بن عِياض. ومولده سنة ثمان وستين وستمائة تقريباً، وسمع الكثير، وبرع في الفقه والعربية والأصلين واللغة والفرائض والحساب والتصوُّف والتسليك، وغير ذلك. وكان له نظم جيدّ كثير، دوّن منه دِيوان. وله تصانيف كثيرة منها: «روض الرياحين» [في حكايات الصالحين][٢] وتاريخ[٣] بدأ فيه من أوّل الهجرة وأشياء غير ذلك ذكرناها مستوفاة في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي» وما وقع له مع علماء عصره بسبب قصيدته التي أولها حيث قال في ذلك: [الطويل]

ويا ليلةً فِيها السعـادَةُ والمُنى لقد صَغُرتْ في جنبِها ليلةُ القدرِ

---

(١) المسلِّك: اسم فاعل من تسليك الطريق وهو تعريفها. والمراد تعريف المريدين الطريق إلى الله تعالى. وهو من ألقاب الصوفية. وكان يستعمل أحياناً مضافاً إلى ياء النسب للمبالغة فيقال: المسلكيّ. (صبح الأعشى: ٦/٢٨).

(٢) زيادة عن كشف الظنون.

(٣) هو كتاب «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان» مطبوع في أربعة مجلدات. (الأعلام: ٤/٧٢).

قال: ومن شعره أيضاً قصيدته التي أوّلها: [الطويل]

قفا حدِّثاني فالفؤادُ عليلُ عسَى منه يُشْفَى بالحديث غليلُ
أحاديثُ نَجْدٍ علّلاني بذِكرها فقَلْبي إلى نَجْدٍ أراه يَميلُ
بتَذْكَارِ سُعْدى أسْعِداني فلَيْس لِي إلى الصّبْرِ عنها والسُّلوِّ سبيلُ
ولا تَذْكُرا لِي العامِرِيّةَ إنها يُولِّهُ عقلِي ذكْرُها ويُزِيلُ

ومنها المخلص:

ألَا يا رَسُولَ اللّه يا أكرَمَ الورَى ومَنْ جُودُهُ خير النَّوالِ يُنِيلُ
ومَنْ كفُّهُ سَيْحُونُ مِنها وجَيْحُنٌ ودِجلةُ تَجْرِي والفراتُ ونِيلُ
مَدَحْتُكَ أَرْجُو مِنْكَ ما أنتَ أهلُه وأنت الذي فِي المكرماتِ أصِيلُ
فَيا خَيرَ مَمدوحٍ أثِبْ شرّ مادِحٍ عَطَا مانحٍ مِنهُ الجزاءُ جَزِيلُ

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم المُسلِّك الصوفيّ العارف بالله تعالى المعتقد جَمَال الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الله بن عمر بن علي بن خضر الكُورانيّ الأصل المصريّ الدار والوفاة المعروف بالشيخ يوسف العجميّ بزاويته بقرافة مصرالصُّغرى في يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الأوّل وقيل: جمادى الأولى وقيل: يوم الأحد النصف من جُمادى الأولى، ودفن بزاويته المذكورة، وقبره يُقْصدُ للزيارة. وكان ــ رحمه الله ــ شَيْخاً حقيقة ومقتدى طريقة. كان إمام المُسلِّكين في عصره، وكان على قَدَم هائل. كان غالب علماء عصره يقتدون به، وكان له أوراد وأذكار هائلة. انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء، وكان لا يأخذه في الله لومةُ لائم، مع فضيلة غزيرة، ومعرفة تامة بالتصوّف. وله رسالة سمَّاها «رَيْحان القلوب والتوصُّل إلى المحبوب». وقد شاع ذكرُ الشيخ يوسف في الدنيا وأثنى عليه العلماء والصلحاء.

حُكِي أنّ الشيخ يوسف هذا دَخل مرةً إلى الشيخ يحيى بن عليّ بن يحيى الصنافيري، فقام إليه الشيخ يحيى، وكان لا يلتفت إلى أحد، وتَلَقَّاهُ وهو يُنْشِد بقوله: [الوافر]

أَلَم تَعلمْ بأنِّي صَيْرَفيٌّ بلوتُ ٱلعالمِينَ على مِحَكّي
فمِنهم زائفٌ لا خيرَ فِيهِ ومِنهم جائزٌ تجويز شَكِّ
وأنت الخالِصُ الإبريزِ منهم بِتْزكِيتِي وحَسْبُك من أُزكِّي!

فحصل للشيخ يوسف بهذا الكلام غاية السرور والفرح. وكان مع الشيخ يوسف ولده محمد فأقبل عليه الشيخ يحيى وأنشده فقال: [الكامل]

إنّ السَّرِيّ إذا سَرَى فبِنَفسِهِ وٱبنِ السّرِيِّ إذا سَرَى أسْرَاهُما

قال: فازداد الشيخ يوسف سروراً على سروره بهذا القول. رحمهما الله تعالى ونفعنا ببركاتهما.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام الأديب البارع المُفْتَنّ جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن صالح بن علي بن يحيى بن طاهر بن محمد بن الخطيب أبي يحيى عبد الرحيم بن نُباته (بضم النون) الفارقيّ الأصل، الجُذَامي، المصريّ، المعروف بابن نُباتة، بالقاهرة ــ رحمه الله تعالى ــ بالبيمارستان المنصوريّ في ثامن شهر صفر من السنة المذكورة. ومولده في مصر في شهر ربيع الأوّل سنة ست وثمانين وستمائة «بزقاق القناديل». ونشأ بمصر، وبرع في عدّة علوم، وفاق أهلَ زمانه في نظم القّريض. وله الشِّعر الرائق والنَّثر الفائق. وهو أحدُ من حَذَا حَذْوَ القاضي الفاضل، وسلك طريقه، وأجاد فيما سلك. وكان خطه في غاية الحسن، وديوان شعره مشهور. وقد مدح الملوك والأعيان، ورَحَل إلى البلاد، وٱنقطع إلى السلطان الملك المؤيّد إسماعيل صاحب حَماة، وله فيه غُررُ مدائح. وكان مع ما ٱشتمل عليه من المحاسن قليل الحظ. ومن شعره في المعنى: [الكامل]

أَسَفِي لِشِعرٍ بارعٍ نظَمْتُهُ تحتاجُ بهجته لِرِفْدٍ بارع
درٌّ يتيمٌ قد تَضَوّعَ نشرُهُ يا مَنْ يرقُّ على اليتيم الضَّائعِ

ومن شعره أيضاً قوله: [السريع]

مُقَبَّل الخدِّ أدارَ الطِّلا فقالَ لِي فِي حُبِّها عائِبِي
عن أحمرِ ٱلمشروبِ ما تَنْتَهِي قلتُ: ولاَ عَنْ أخضَرِ ٱلشاربِ

وله أيضاً: [السريع]

وتــاجِــرٍ قــلتُ لــه إذْ رَنَــا ... رِفْقــاً بِقلبٍ صَبْــرُهُ خــاسِــرُ

ومُقْلةٍ تَنْهَبُ طِيب آلكَـرَى ... مِنهـا على عينِك يـا تـاجِـرُ

وله أيضاً: [الكامل]

قَبَّلْتُــه عِنـد النَّــوى فَتمرّرت ... تِلك آلحلاوةُ [بالتفرّق وآلجَوى][1]

ولَثمتُــه عِنـدَ القُــدُوم فحَبَّـذَا ... رُطْبُ الشِّفاهِ السُّكَّرِيُّ بلا نَوَى

وله أيضاً ــ عفا الله عنه ــ: [البسيط]

أهْلاً بِطَيْفٍ على آلجرعاءِ مختلِسِ ... وآلفجرُ فِي سَحَرٍ كالثّغْرِ فِي لَعَسِ

وآلنَّجْمُ في الأُفُق آلغَرْبِيِّ منحدِرٌ ... كَشُعْلة سقـطت من كَفِّ مُقْتَبِسِ

يـا حَبَّذَا زَمَنُ آلجَرْعاءِ مِن زَمَنٍ ... كُـلُّ الليـالي فِيــه ليلةُ العُـرُسِ

وحبَّذا آلعيشُ مـعْ هَيْفاءَ لو ظَهرت ... لِلبدْرِ لم يَزِهُ أو للغُصْنِ لَم يَمسِ

خَوْدٌ لها مِثلُ ما في آلظَّبْـي مِنْ مَلَحٍ[2] ... ولَيْسَ لِلظَّبْـي ما فيها مِن آلأنَسِ

محـروسةٌ بِشعـاعِ آلبيض ملتمِعاً ... ونـورُ ذاكَ آلمُحَيّا آيـةُ آلحـرَسِ

يَسْعَى ورَا لَحظها قلبـي ومِنْ عَجَبٍ ... سَعْيَ آلـطَّرِيدةِ فِي آثـار مُفْتَرِسِ

لَيْتَ آلعذولَ على مرْأى مَحاسِنها ... لَوْ كان ثَنَّى عَمَى عَيْنَيه بآلخَرَسِ

وقد آستوعبنـا من شعره وأحواله نبذة كبيرة في المنهل الصافي. انتهى والله أعلم.

وتُوفّي الوزير الصَّاحب فخر الدين ماجد بن قَرَوينةَ القبطيّ المصري تحت العقوبة، بعد أن أُحرقت أصابعه بالنار. وكان ــ رحمه الله ــ وزيراً عارفاً مكيناً عفيفاً رزيناً ذا حُرْمَة ونهضة. لم يَلِ الوزارة في الدولة التركية من يشابهه. عَمَّر في أيام وزارته بيوت الأموال بالذهب والفضة، وترك بالأهراء مُغَلَّ ثلاث سنين وبعض

(١) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن ديوانه.

(٢) الملح (بالتحريك) بياض يخالطه سواد. وهو مما توصف به الظباء.

الرابعة، وذلك فوق ثلاثمائة ألف إردبّ، وبالبلاد مُغَلّ سنتين، بعد ما كان يقوم بالكُلَف السلطانية وكُلفة الأتَابَك يلبغا العمريّ الخاصّكي. وبعد هذا كله كان يحمل إلى الخزانة الشريفة في كل شهر ستين ألف دينار. وكان فيه محاسنُ كثيرة غيرَ أنه كانت نفسُه نفساً شامخةً، وفيه تَهكُّم على الناس مع تكبُّر، هذا مع الكرم الزائد، والإحسان للناس، وقلّة الظلم بالنسبة إلى غيره، رحمه الله تعالى؛ والله أعلم.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين دَرُوط[١] ابن أخي الحاج آل مَلَك. كان أحد أمراء الألوف بالديار المصرية وحاجباً ثانياً بها.

وتُوُفّي الأمير علاء الدين آقْبُغا بن عبد الله الصَّفَوِي أحد الأمراء الطبلخانات بالديار المصرية وأمير آخور. وكان ــ رحمه الله ــ من أعيان الأمراء.

وتُوُفّي الأمير علاء الدين آقْبُغا بن عبد الله الأحمدي اليَلْبغَاوي المعروف بالجَلَب في أواخر السنة المذكورة وهو مسجون بثغر الإسكندرية، من جُرْح أصابه في شهر ذي القَعْدة؛ وقد تقدّم ذكرُه في عِدّة مواطن. والله أعلم.

وتُوُفّي الأمير علاء الدين ألْطُنْبُغَا بن عبدالله العِزّي أحد أمراء الطبلخانات في يوم الاثنين رابع شهر ربيع الآخر. وكان مُثيراً للفتن.

وتُوُفّي القاضي بهاء الدين حسن بن سليمان بن أبي الحسن بن سليمان بن رَيّان ناظر الجيش بحلب في دِمَشق عن ثمان وستين سنة. وكان رئيساً نبيلاً كاتباً بارعاً. وَلِيَ عِدّة وظائف؛ وله نظمٌ ونثرٌ؛ ومن شِعره ــ رحمه الله تعالى ــ [الرجز]

نحنُ الموقِّعون فِي وظائفٍ قلوبُنا مِن أجْلِها فِي حَرَقِ
قِسْمَتُنا فِي الكُتْبِ لا فِي غيرِها وقطْعُنا ووصلُنا في الوَرَقَ

وتُوُفّي القاضي تقيّ الدين محمد بن محمد بن عيسى بن محمود بن عبد اللطيف[٢] البَعْلَبكي الشافعي الشهير بابن المجد، رحمه الله. كان فقيهاً فاضلاً وَلِيَ قضاء طرابلس وغيرها.

(١) في السلوك: «ضروط».
(٢) في السلوك: «عبد الضيف».

وقد تقدم أنّ يَلْبُغا العُمَري قُتِل في هذه السنة؛ انتهى، والله أعلم.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم ستة أذرع وثلاثة أصابع. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وستة أصابع.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين صاحب الترجمة على مصر

وهي سنة تسع وستين وسبعمائة.

فيها كانت الوقعة بين الملك الأشرف صاحب الترجمة وبين الأتَابك أسَنْدَمر الزَّيْني الناصري، وآنتصر الأشرف حسب ما تقدّم ذكرهُ.

وفيها تُوُفّي العلاّمة قاضي القضاة جمال الدين عبد الله بن قاضي القضاة علاء الدين عليّ آبن العلامة فخر الدين عثمان بن إبراهيم بن مصطفى بن سليمان الحنفيّ المَارِدِينيّ، الشهير بابن التُّرْكمانيّ بالقاهرة، في ليلة الجمعة حادي عشر شهر شعبان، ودُفِن بتربة والده خارج باب النصر من القاهرة؛ وتَوَلَّى بعده القضاءَ العلاّمة سراج الدين عُمَر الهِنْدي. ومولده في سنة تسع عشرة وسبعمائة وقيل سنة خمس عشرة وسبعمائة وتفقه على والده وغيره، حتى بَرَع في الفقه والأصول والعربية وشارَكَ في فنون كثيرة. وكان من جملة محفوظاته «الهداية في الفقه» حتى إنه كان يُمْليها في دروسه من صدْرِه، وكَمّل شرحَ أبيه لها، وتَوَلَّى القضاء بعد وفاة أبيه، وباشر القضاء بعفّة وحشمة ورئاسة، وتَصَدّى للإفتاء والتدريس والإقراء سنين في حياة والده إلى أن مات. وكان له عبادة وأورادٌ هائلةٌ ومحاسنُ كثيرة. رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي قاضي القضاة موفّق الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الملك ابن عبد الباقي الحجّاوي المقدسيّ الحنبليّ قاضي قضاة الديار المصرية بعد أن

حكم بها ثلاثين سنة ــ رحمه الله تعالى ــ وتولّى بعده القاضي ناصر الدين نصرالله العَسْقلاني الحنبليّ. وكان موفَّق الدين مشكورَ السّيرة جَميلَ الطريقة.

وتُوُفّي قاضي القضاة جمال الدين يوسف بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمود المرداوي المقدسي الحنبليّ قاضي قضاة دِمشق بها عن نيّف وسبعين سنة، مصروفاً عن القضاء ــ رحمه الله تعالى ــ

وتُوُفِّي قاضي قضاة طرابلس شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن الشيخ تقي الدين عبد الله الشِّبْليّ الدمَشقيّ الحنفيّ وهو من أبناء السبعين، رحمه الله. وكان عالماً دنيّاً مجاهداً مُرابطاً، يَلبسُ السّلاح في سبيل الله ويَغْزُو. وسَمِع الكثير وجمع وألّف وأفتى ودرّس وآنتفع الناس به وباشر الحكم خمس عشرة سنة. رحمه الله.

وتُوُفّي قاضي قُضاة حلب صدر الدين أحمد بن عبد الظاهر بن محمد الدّمِيري المالكي ــ رحمه الله ــ عن نيّف وسبعين سنة وكان فقيهاً فاضلاً مشكورَ السِّيرة.

وتُوُفِّي الشيخ العلاّمة قاضي القضاة بَهاء الدين أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عَقِيل المصري الشافعيّ قاضي قضاة الديار المصريّة وفقيه الشافعية ــ تغمّده الله برحمته ــ بالقاهرة في ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الأوّل ودُفِن بالقرافة بالقرب من قُبّة الإمام الشافعي، رضي الله عنه. ومولده في المحرّم سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة. ونَسَبُه يتّصل إلى عَقِيل بن أبي طالب رضي الله عنه. ونشأ بالقاهرة، وقرأ على علماء عصره، وبَرَع في علوم كثيرة، وصَنَّف التصانيف المفيدةَ في الفقه والعربيّة والتفسير، منها «شرح الألْفِيّة» لابن مالك و «شرح التسهيل»(١) أيضاً. وباشر قضاء الديار المصريّة مدّة يسيرة، وباشر التداريس الجليلة والمناصب الشريفة. وكتَبَ إليه قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء السّبكي من دِمَشق يقول: [الطويل]

---

(١) هو الشرح المسمى «المساعد على تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد» (كشف الظنون). والألفية والتسهيل كتابان في النحو لابن مالك الطائي الجياني المتوفى سنة ٦٧٢هـ.

تَقَضَّت شهورٌ بِالبِعادِ وأحوالُ جَرَت بعَدكُم فِيها أمورٌ وأحوالُ
فإنْ يَسر الله التّلاقِي ذكرتُها وإلا فَلِي فِي هذِهِ الأرضِ أمثالُ

وتُوُفِّي الشيخ عِزّ الدين أبو يَعْلَى حمزة بن قُطْب الدين موسى بن ضياء الدين أحمد بن الحسين الدِّمَشْقي الحنبلي الشهير بآبن شيخ السلامية بدمشق وقد جاوز ستين سنة. وكان ـ رحمه الله ـ إماماً عالماً فاضلاً كتب على «المنتقى».

وتُوُفِّي الإمام العالم شهاب الدين أحمد بن لُؤْلُؤ الشهير بابن النَّقِيب المصري الشافعي في يوم الأربعاء رابع عشر شهر رمضان. وكان ـ رحمه الله ـ مُفْتَنّاً في علوم، وله مصنَّفات ونَظْمٌ حسن.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام المحدّث صلاح الدين عبد الله آبن المحدّث شمس الدين محمد بن إبراهيم بن غنائم[1] بن أحمد بن سعيد الصالحيّ الحنفي الشهير بابن المهندس ـ رحمه الله ـ بحَلب عن نيِّف وسبعين سنة. وكان مُحَدّثاً مُسْنِداً. سَمِع الكثير بمصر والشام والحجاز والعراق، وكَتَب وحدّث، وحَجّ غيرَ مرة، وطاف البلادَ ثم آستوطن حلب إلى أن مات. رحمه الله.

وتُوُفِّي القاضي علاء الدين عليّ آبن القاضي مُحْيي الدين يَحْيي بن فضل الله القُرَشي العُمَري كاتب السِّر الشريف بالديار المصريّة بالقاهرة في ليلة الجمعة تاسع عشرين شهر رمضان عن سبع وخمسين سنة. وكان قبل موته نزل عن وظيفة كتابة السِّر لولده بدر الدين محمد فتمَّ أمرُه من بعده. وكان القاضي علاء الدين ـ رحمه الله تعالى ـ إماماً في فَنِّه، كاتباً عاقلاً. طالت أيّامُه في السعادة، حتّى إنه باشر وظيفة كتابة السِّر نيِّفاً وثلاثين سنة لأحد عشر سلطاناً من بني قلاوون. إستوعبنا ذلك كلّه في «المنهل الصافي».

قلتُ: ولا أعلم أحداً وَلِي كتابةَ السِّر هذه المدّة الطويلة من قبله ولا من بعده سِوى العلاّمة القاضي كمال الدين محمد بن البَارزي ـ رحمه الله ـ فإنّه وَلِيها أيضاً نحواً من ثلاث وثلاثين سنة؛ على أنه عُزِلَ منها غير مَرّة وتعطَّل سنين، كما سيأتي

(١) في الأصل: «ابن غنام» وما أثبتناه عن السلوك والدرر الكامنة.

ذكرُه في ترجمته إذا وصَلْنا إليه، إن شاء الله تعالى. وكان للقاضي علاء الدين ــ رحمه الله ــ نظمٌ ونثرٌ وترسُّلٌ وإنشاءٌ. ومن شعره: [البسيط]

بَانُ الحِمَى لم يَمِسْ مِن بَعْدِ بُعْدِكُمُ ... ولا تغنَّتْ بـهِ وَرْقـاؤه طَـرَبَـا
يـا جِيرةً خَلَّفـوني فِي دِيـارهمُ ... أُجرِي الدمـوع على آثارِهِم سُحُبَا
قـد كان يحـزُنُنِي واشٍ يُـراقِبُني ... واليـومَ يحزُنني أن ليس لِي رُقَبَا

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين طَيْبُغا بن عبد الله الناصري المعروف بالطويل نائب حلب بها في يوم السبت وقت الظهر سَلْخ شوّال ودُفن خارج باب المقام؛ قيل: إنه سُمّ، لأنّه كان أراد الخروج عن الطاعة، فعاجلَتْه المنيّةُ. وقد تقدم ذكره مـع خُشْدَاشه يَلْبُغا العُمَري الخاصَّكي وما وقَـعَ له معه في ترجمة الملك الناصر حسن وكيفية خروجه مِن الديار المصرية والقبضُ عليه، فلا حاجةَ للإعادة ها هنا.

وتُوُفِّي الأتَابك سيفُ الدين أَسَنْدَمُر بن عبد الله الناصريّ، صاحب الوقعة مـع الملك الأشرف شعبان، محبوساً بثغر الإسكندرية في شهر رمضان. وقد تقدّم أيضاً ذكرُ واقعته مفصَّلاً في ترجمة الملك الأشرف.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين قُنق بن عبد الله العزِّي أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية على هيئة عجيبة، نسأل الله تعالى حسن الخاتمة بمحمد وآله. وخبرُه أنه كان قد عَصَى مـع أَسَنْدَمُر الناصري المقدّم ذكره؛ رَكِب معه من جملة اليلبغاويّة، فلما آنكسرت اليلبغاويّة ساق قنق هذا فرسه إلى بركة الحبش، ونزل بشاطىء البركة، وبَقِي يشرب الماء ويَسْتَفُّ الرمل إلى أن مات؛ فانظر إلى هذا الجاهل وما فعل في نفسه.

وتُوُفِّي السلطان الملك المنصور أحمد آبـن الملك الصالـح آبـن الملك المنصور غازي بن قَرَا أَرْسِلان بن أُرْتُق الأرْتُقِي صاحب مَارِدِين بها وقد جاوز الستين سنة من العمر. وكانت مدّةُ مُلْكه ثلاثَ سنين؛ وكان صاحب همّة عليّة وحرمة سنية. رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الشاب الفاضل تاج الدين محمد بن السُّكَّري، رحمه الله. وكان فاضلاً

عالماً ودرس وبَرَع، رحمه الله. وفيه يقول آبن نُبَاتة: [السريع]

سـألـتُـه فِـي خَـدِّهِ قُـبْـلَةً فـقـال قـولاً ليس بـالـمُنْـكَـرِ
عليـك بـالصبـرِ ومَنْ ذا آلـذي ينفعُـه الصبـرُ عن آلـسُّكَّـرِي

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين أَلْطُنْبُغا بن عبد الله البَشْتكي، نائب غَزّة وأستادار السلطان كان[1]، في رابع عشر شعبان.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين باكِيش بن عبد الله اليَلْبغَاويّ الحاجب في صفر وكان من رؤوس الفِتَن وممنّ قام على أستاذه يَلْبُغَا.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بِيلِيك بن عبد الله الفقيه الزرّاق، أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، رحمه الله تعالى. كان فاضلاً فقيهاً، ويَكْتُب المنسوب[2]، وعنده مشاركة في فنون.

وتُوُفي الأمير سيف الدين تُلكْتَمُر بن عبد الله المحمدي الخازندار أحد أمراء الألوف بالديار المصرية مسجوناً بثغر الإسكندرية. وكان ممن قام مـع أَسَنْدَمُر الناصري.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين جُرْجي بن عبد الله الإدريسيّ الأمير آخور، ثم نائب حلب، وهو بدِمَشق. وكان من أجلّ الأمراء، وتنقّل في عِدّة وظائف وولايات، رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين جَرْقُطْلُو بن عبدالله أمير جانْدَار في صفر؛ وكان من الأشرار.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربعة أذرع وأربعة عشر إصبعاً. مبلـغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً سواء. والله أعلم.

* * *

(١) من الصيغ الشائعة الاستعمال في العصر المملوكي وما قبله للدلالة على أن صاحب الترجمة كان سابقاً في تلك الوظيفة.

(٢) أي الخط المنسوب الذي ينتمي إلى إحدى المدارس أو أحد أعلام الخط العربي.

السنة السادسة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حُسين على مصر

وهي سنة سبعين وسبعمائة.

وفيها تُوُفِّي الشيخ بدر الدين محمد بن جمال الدين محمد بن كمال الدين أحمد بن جمال الدين محمد بن أحمد الشَّريشِيّ البكريّ الوائليّ الدِّمشقي الشافعي بدِمَشق عن ستّ وأربعين سنة، رحمه الله. وكان عالماً فاضلاً فقيهاً. درّس بالإقبالية(١) بدمشق إلى أن مات.

وفيها تُوُفِّي قاضي القُضاة جمال الدين محمود بن أحمد بن مسعود القُونَوِيّ الحنفيّ قاضي قضاة دِمَشق بها عن ستّ وسبعين سنة. وكان ـ رحمه الله ـ من العلماء الأماثل. كان رَأْساً في الفقهاء الحنفية، بارعاً في الأصول والفروع؛ ودَرّس بدمشق بعدّة مدارس، وأفتى وجَمَع وأَلَّف، رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي القاضي شمس الدين محمد بن خَلَف بن كامل الغَزِّي الشافعيّ بدِمَشْق عن بضع وخمسين سنة. وكان عالماً، درّس بدمشق وأفتى، وباشربها نيابة الحكم إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الطواشي ناصر الدين شفيع بن عبد الله الفُوِّيّ نائب مقدّم المماليك السلطانيّة في يوم الأحد ثامن شعبان. وكان من أعيان الخُدَّام، وطالت أيامُه في السعادة.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أَرْغُون(٢) بن عبد الله بن غلبك الأزقي رَأْس نَوْبة النُّوَب بالديار المصريّة في العشر الأوّل من جمادى الآخرة. وكان من أعيان الأمراء، وهو أحد من ثار على يَلْبُغا.

---

(١) المدرسة الإقبالية: من مدارس الشافعية بدمشق، داخل باب الفرج وباب الفراديس، شمالي الجامع والظاهرية الجوانية. أنشأها جمال الدولة إقبال الخادم، عتيق ست الشام وأحد خدام السلطان صلاح الدين. وهما مدرستان: الكبيرة للشافعية، والصغيرة للحنفية. (الدارس في تاريخ المدارس: ١/١١٨).

(٢) في السلوك: «أرغون علي بك الأزقي نائب غزة وأحد أمراء الألوف».

وتُوُفِّي الأمير صلاح الدين خَلِيل بن أَمير علي آبن الأمير الكبير سَلَّار المنصوري. وكان أَحَدَ أمراء الطبلخانات بالديار المصريّة، وهو أحد من رَكِب مع الأتابك أَسَنْدَمُر.

وتُوُفِّي الأمير ناصر الدين محمد بن طُقْبُغَا الناصري أحد أمراء الطبلخانات أيضاً.

وتُوُفِّي الأمير صارم الدين إبراهيم آبن الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري. وكان أيضاً من أمراء الطبلخانات، وله وجَاهةٌ في الدولة، وفيه شجاعةٌ وإقدام؛ ودُفِن بمدرسة أبيه. رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأديب المـوَّال شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بالفار الشِّطْرَنْجيّ العالية. وكان بارعاً في المَوَاليَا، وله شِعرٌ جيِّد، وكان ماهراً في الشِّطْرَنج.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين قَشْتَمُر بن عبد الله المنصوري نائب حلب بها مقتولاً بيد العرب في وقعة كانت بينه وبينهم على تَلّ[1] السلطان، وقُتِل معه ولدُه؛ وقد تَقَدّم أنّ قشتمر هذا وَلِيَ نيابة طرابُلُس ونيابة دِمَشق ونيابة السلطنة بالديار المصريّة. ثم أُخْرِج من مصر إلى نيابة حلب، فلم تَطُل مدّته على نيابة حلب وقُتِل، رحمه الله. وكان شجاعاً مقداماً عارفاً مدبِّراً سَيُوساً. دَبَّر أمْرَ السلطنة سنين، وحمدت سيرتُه.

وتُوُفِّي القاضي عِماد الدين محمد بن شرف الدين موسى بن سليمان الشهير بالشيرجي بدمشق. كان ولي حسبة دمشق ونظر خزانتها. وكان له ثروة ولديه فضيلة وعنده سياسة.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين آقتمر بن عبد الله مِنْ عبد الغني الصغير في شهر رمضان. وآقتمر هذا غيرُ الأمير الكبير آقتمر عبد الغني. وكان آقتمر هذا من جملة أمراء الطبلخانات. والله أعلم.

(١) تل السلطان: موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق، وفيه خان ومنزل للقوافل. (معجم البلدان).

وتُوُفِّي السلطان، صاحب تُونُس وما والاها من بلاد الغرب، أبو إسحاق إبراهيم ابن أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى في العشرين من شهر رجب بعد ما مَلَك تسع عشرة سنة، رحمه الله. وكان من أجلّ ملوك الغرب. كان شجاعاً وله مواقف وفتوحات هائلة.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم خمسة أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ لزيادة سبعة عشر ذراعاً وستة أصابع. والله أعلم.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة إحدى وسبعين وسبعمائة.

وفيها تُوُفِّي قاضي القضاة شرف الدين أبو العبّاس أحمد آبن الشيخ شرف الدين حسن بن الخطيب شرف الدين أبي بكر عبد الله آبن الشيخ أبي عُمر محمد بن أحمد بن محمد بن قُدامة الشهير بآبن قاضي الجبل الحنبليّ المقدسيّ الصالحيّ قاضي قضاة دِمَشْق بها في ثالث عشر شهر رجب عن ثمانٍ وسبعين سنة، رحمه الله. وكان إماماً عظيمَ القَدْر آنتهت إليه رياسة مذهبه، وكان صحب آبن تَيْمِيّة وسَمِع منه وتفقّه به وبغيره. وفي هذا المعنى يقول: [الوافر]

نَبِيّي أحمدُ وكذا إمامي ... وشَيْخِي أحمدُ كالبحرِ طامِي
وإسمي أحمدُ أرجو بِهذا ... شفاعةَ سيّد الرسْلِ الكِرامِ

وتُوُفي قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب آبن قاضي القضاة تَقِيّ الدين عليّ آبن عبد الكافي بن عليّ بن تَمّام بن يوسف بن موسى بن تَمَّام الأنصاريّ السلمِيّ السُّبْكِيّ الشافعيّ قاضي قضاة دِمشق بها، في عصر يوم الثلاثاء سابع شهر ذي الحِجّة، ودُفِن بسَفْح قَاسيون، تغمّده الله برحمته، عن أربع وأربعين سنة. وكان إماماً بارِعاً مُفْتَنّاً في سائر العلوم، وله تصانيفُ شَتّى: منها «شرح المِنْهاج» في

الفقه للنَّوَويّ «وشَرْح مختصر آبن الحاجب» ومِنْهاج البَيْضَاوِيّ، وغير ذلك. ودَرّس «بالعادلية»[١] و«الغزاليّة[٢]» و«الأمينية[٣]» و«الناصرية[٤]» و«دار الحديث الأشرفيّة[٥]» «والشامية البرانيّة[٦]». وباشر قضاءَ دِمَشق أربعَ مرّات، وخَطَب بالجامع الأمَوِيّ. وقَدِم القاهرة وتَوَلّى مكانه أخوه أبو حامد بهاء الدين؛ وآستقر تاج الدين هذا مكان أخيه أبي حامد المذكور في تدريس «الشّيْخونية[٧]» بمصر. وقيل: إنه كان أفقه من أخيه أبي حامد المذكور.

وتُوُفّي قاضي القضاة جمال الدين أبو عبد الله محمد آبن الشيخ زين الدين عبد الرحيم بن علي بن عبد الملك المسلاتي السُّلَمي قاضي قضاة دِمَشق بالقاهرة وهو من أبناء السبعين سنة. وكان ــ رحمه الله ــ عالماً فاضلاً. سَمِع بالإسكندرية ومصر والشام، وأخَذ عن القُونَوِيّ وأبي حيانٍ وغيرهما، وولي نيابة الحكم بدِمَشْق. ثم آستقل بالقضاء أكثر من عشرين سنة.

وتُوُفِّي الأديب شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد المَارديني الشهير بابن خطيب المَوْصِل، رحمه الله. مات بحَمَاة وهو من أبناء الستين سنة. وكان أديباً فاضلاً. كان يَتَنقَّل في البلاد، وكان يكتب المنسوب، وله مشاركة. ومن شعره: [المتقارب]

---

(١) هناك مدرستان باسم العادلية: العادلية الكبرى داخل دمشق شمالي الجامع بغرب وشرقي الخانقاه الشهابية. والعادلية الصغرى داخل باب الفرج شرقي باب القلعة قبلي الدماغية والعمادية. (الدارس: ١/٢٧١، ٢٧٨).

(٢) المدرسة الغزالية: منسوبة إلى الإمام الغزالي. وتنسب إلى الشيخ نصر المقدسي. (الدارس: ١/٣١٣).

(٣) المدرسة الأمينية: منسوبة إلى أمين الدولة (أو أمين الدين) كمشتكين بن عبد الله الطغتكيني أتابك العساكر بدمشق. (الدارس: ١/١٣٢).

(٤) المدرسة الناصرية: نسبة إلى الناصر يوسف بن صلاح الدين يوسف بن أيوب. (الدارس: ١/٣٥٠).

(٥) دار الحديث الأشرفية: بناها الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل الأيوبي. (الدارس: ١/١٥).

(٦) المدرسة الشامية البرانية: بالعقيبة بمحلة العونية. بانيها والدة الملك الصالح إسماعيل، ست الشام أخت صلاح الدين الأيوبي. (الدارس: ١/٢٠٨).

(٧) راجع الجزء العاشر، ص ٢٦٩، حاشية (١).

لَيهنِكَ ما نِلتَ مِن مَنْصِبٍ شَرِيفٍ لَه كنتَ مُسْتوجِبَا
وما حسنٌ أن تُهنَّى بِه ولكِن نُهَنِّي بكَ ٱلمَنْصِبَا

وتُوُفِّي الأمير ناصر الدين محمد آبن الأمير تَنْكِز الحسامي الناصريّ نائب الشام. كان أحَد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية وله وجاهةٌ في الدولة. رحمه الله.

وتُوُفِّي الوزير الصاحب شمس الدين موسى بن أبي إسحاق عبد الوهاب بن عبد الكريم القِبْطي المصريّ. أسلم أبوه وتولّى نَظَر الجيش والخاص بعد كريم الدين الكبير؛ وآستناب آبنه هذا، وكان يوم ذاك ناظر الخِزانة الشريفة. فلمّا مات أبوه في سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، آستقرّ مكانه في نظر الخاصّ، فباشر فيه مدّة، وصُرِف بالنشو، وآستقرّ في نظر الجيش عِوضاً عن الفخر؛ فلم تَطُل مدّته وأُمْسِك بسعي النَّشْو، وسُلِّم هو وأخوه علَم الدين ناظر الدولة إلى النَّشْو، فأوقع الحَوْطَة على موجودهما، فوجد لهما ما لا يُوصف: من ذلك أربعمائة سراويل لزوجته. وآستقرّ عِوضَه في نظر الجيش مكين الدين إبراهيم بن قَرَوينة. وآستمرّ موسى في المصادرة، وأُجْري عليه العذابُ ألواناً. وأمْرُه أعجب من العجب؛ وهو أنه كان قبل مُصادرته نحيفَ البَدَن قليل الأكل، لا يزال سَقيماً بالرَّبْو وضِيق النَّفس. [وكانت] تلزمه الحمّى الصّالبة[١]، فلا يَبرح مُحْتَمِياً ويَلْبَس الفِراء شتاء وصيفاً، فَبَنى له أبوه بيتاً في الروضة ووكّل به الأطباء، يدبِّرون له الأغذية الصالحة ويعالجونه، وهو على ما هو عليه، إلى أن قبض عليه وصُودِر وسُلِّم لوالي القاهرة ناصر الدين محمد بن المحسني. ثم نُقِل إلى لؤلؤ شادّ الدواوين، وكان النَّشْوُ يُغريهما على قتله، فضَمن لؤلؤ للنشو قتله. فضربه أوّل يوم مائتي شيب[٢]، وسعَطه[٣] بالماء والمِلح وبالخَل والجير حتى قَوِي عنده أنه مات؛ فأصبح سَوِيّاً، فضربه بعد ذلك حتى أعياه أمرُه، وعقَد له المقْرَعة التي يضربه بها؛ فكانت إذا

(١) صَلَبت الحمّى على فلان صلباً: اشتدت وطالت.
(٢) الشِّيب: سير في رأس السوط، وهو ما كان يعرف برخو الكرباج. (معجم متن اللغة).
(٣) أي أدخله في أنفه.

نزلت على جَنْبه تُثْقِبه. فكان يضربه بتلك المقرعة حتى يقولوا مات، فيُصْبح، فيعيدون العذاب والتَّسْعيط. فصار يُقيم اليوم واليومين والثلاثة لا يُمَكَّن فيها من أكل ولا شرب. وكانوا إذا عاقبوه وفَرَغوا رَمَوه عُرياناً في قوة الشتاء على البلاط، فيتمرّغُ عليه بجسده وهو لا يَعِي من شدّة الضرب والعقوبة. كل ذلك والنَّشْو يَسْتَحِثُّ على قتله. ثم عَصَرُوه في كَعْبَيْه وصُدْغَيْه، حتى لَهِجُوا بموته، وبَشَّرُوا النشو بموته غيرَ مرة. ثم يتحرّك فيجدوه حَيّاً. وآستمرّ على ذلك أشهراً. ثم تُرِك نحو الشهر لمّا أعياهم أمرُه، وأعادوا عليه العقوبة وعلى زوجته بنت الشمس غبريال ـ وكانت كَحَاله في ضعف البَدَن والنّحافة ـ وكانت حاملاً، فولدت وهي تُعَصر، فعاش ولدُها حتى كَبِر. وما زالا في العقوبة حتى هَلَك النَّشْوُ وهو يقول: «أموتُ وفي قلبي حَسْرة من موسى بن التاج». فمات النشُو ولم يَنَلْ فيه غَرَضَه. قيل: إنّ مجموع ما ضُرب موسى هذا ستة عشر ألف شِيب؛ حتى أنه ضُرب مرة فوقع من ظهره قِطْعَةُ لحم بَقْدر الرغيف. وأعجبُ من هذا كلِّه أنه لَمّا أُطْلِق تَعافَى مما كان به من الأمراض المُزْمِنة القديمة، وصار صحيح البَدَن. ثم أفرَجَ عنه الملك الناصر محمد وأكرمه وأنعم عليه ببغلة النشو، وردّ عليه أشياء كثيرة، ووَلّاه نَظَر جيش دِمَشق، ثم وَلِي نظر الخاصّ ثانياً، وأُضيف إليه نظرُ الخزانة الشريفة. وساءت سيرتُه وآستعفى وأُعيد إلى دِمشْق وزيراً. ولم يزل يتنقَّل في الوظائف إلى أن مات في هذا التاريخ. وقد أطلنا في ذكره لِمَا أوردناه من الغرائب. انتهى.

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين طَيْبُغا المحمديّ في شهر صفر. وكان أحدَ مُقَدّمي الألوف بالديار المصرية.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بَكْتَمُر بن عبد الله المؤْمِني الأمير آخُور الكبير بالديار المصرية، رحمه الله. وكان من أجل الأمراء فضلاً ومعرفة ودِيناً وعِفَّة عن الأموال. وتَولّى عِدّة وظائف وتنقَّل في الولايات، مثل نيابة حلب والإسكندرية، ثم اسْتقرّ أمير آخور إلى أن مات. وهو صاحب المُصَلّاة بالرُّمَيْلة، والسبيل المعروف بسبيل المُؤْمِنيّ. رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين، أَسَنْدَمُر بن عبد الله الكامليّ، زوج خَوَنْد القُرْدمية بنت الملك الناصر محمد بن قلاوون. وكان أحدَ مقدّمي الألوف بالديار المصرية، ومات بالقاهرة.

وتُوُفي الأمير سيف الدين آروس بُغَا بن عبد الله الخَلِيليّ أحد أمراء الطبلخانات بالقاهرة في شهر رجب؛ وهو أحدُ مَنْ قام على يَلْبُغَا.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أسن بن عبد الله الصرغتمشيّ أحدُ أمراء الطبلخانات بالديار المصريّة بدِمَشق بعدما نُفِيَ إليها؛ وكان من الأشرار.

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين أَلْطُنْبُغَا بن عبد الله العلائي المعروف: «فُرْفُور». كان أحدَ أمراء الطبلخانات بمصر، وكان خَصِيصاً عند الملك الأشرف. رحمه الله.

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين آقْبُغَا بن عبد الله اليُوسفيّ الناصريّ الحاجب في شعبان بمدينة مَنْفَلُوط[1]، وقد توجَّه إلى لقاء هدية صاحب اليمن إلى السلطان الملك الأشرف.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أَيْنبَك[2] بن عبد الله الأزَقِيّ أحد أمراء الطبلخانات ورأس نَوْبة ثاني بها؛ وكان من الشجعان.

وتُوُفِّي الأمير الأُكُـز بن عبد الله الكَشْلاوِيّ وهو منفيّ بحلب في شهر ربيـع الأوّل. وكان من أعظم الأمراء وأوجههم. وَلِي الوَزَر والأستدارية بمصر، ونالتْه السعادة، وعَظُم في الدُّوَل، إلى أن تغيَّر عليه الملك الأشرف شعبان وعزله، ثم نفاه إلى حلب لأمر آقتضى ذلك.

وفيها كان بدِمَشق طاعون عظيم، وآنتشـر إلى عِدّة بلاد، ومات فيه خلائق لا تُحْصى كثرةً. والله أعلم.

أمر النيل في هذه السنة:

(١) منفلوط: بلدة بصعيد مصر في غربي النيل. (معجم البلدان).
(٢) في السلوك: «تنبك».

الماء القديم أربعة أذرع وخمسة وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ستة عشر ذراعاً وثمانية عشر إصبعاً.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة.

وفيها تُوُفي الشيخ العالم المفتن جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن بن عليّ بن عمر القرشيّ الأمَويّ الإسنائيّ الشافعيّ شيخ الشافعية بالديار المصرية. مات فجأةً في ليلة الأحد ثامن عشرين جُمادى الأولى عن سبع وستين سنة، رحمه الله تعالى.

وكان إماماً عالماً مصنِّفاً بارعاً. دَرّس بالأقبغاوية[١] والفاضلية[٢] والفارسية[٣]، ودرّس التفسير بجامع أحمد بن طولون، وتصدّر «بالملكية[٤]» وأعاد «بالناصرية[٥]» «والمنصورية[٦]» وغيرهما. وله مصنَّفات كثيرة مفيدة: منها «كتاب المُهِمَّات على الرافعيّ» و«شرح المِنْهاج في الفقه» و«شرح منْهاج البيضاويّ في الأصول». وله

(١) المدرسة الآقبغاوية: بجوار الجامع الأزهر. أنشأها الأمير آقبغا عبد الواحد أستادار الناصر محمد بن قلاوون. (خطط المقريزي: ٢/٣٨٣).

(٢) المدرسة الفاضلية: بدرب ملوخيا من القاهرة. أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني سنة ٥٨٠هـ. (خطط: ٢/٣٦٦).

(٣) المدرسة الفارسية: بخط الفهادين من أول العطوفية بالقاهرة. بناها الأمير فارس الدين ألبكي قريب الأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار سنة ٧٥٦هـ. (خطط: ٢/٣٩٢).

(٤) المدرسة الملكية: بخط المشهد الحسيني من القاهرة. بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار. (خطط المقريزي: ٢/٣٩٢).

(٥) المدرسة الناصرية: بجوار الجامع العتيق بالقاهرة. وهي أول مدرسة عملت بالديار المصرية. أنشأها الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٦هـ. (خطط: ٢/٣٦٣).

(٦) المدرسة المنصورية: كانت مجاورة للناصرية السابقة. منسوبة للمنصور قلاوون. (خطط: ٢/٣٧٩). والتصدير والإعادة من وظائف التدريس في تلك المدارس. فالمتصدِّر هو الذي يتولى شرح الدروس ويأتي بعده المعيد، كما هي الحال في النظام الجامعي في أيامنا.

«كتاب طبقات الفقهاء الشافعية»، و«كتاب تخريج الفروع على الأصول» وسمّاه «التمهيد»، و«كتاب تخريج الفروع على العربية» وسماه «الكَوْكَب»، و«شرح عَرُوض ابن الحاجب»، و«مختصر الإمام الرافعيّ»، و«كتاب الجمع والفرق». وكان له نظم ليس بذاك؛ من ذلك ما قاله يَمْدَح كتاب الرافعيّ في الفقه: [الكامل]

يأمن سَمَا نفساً إلى نَيْلِ العلا ونحا إلى العِلْم الغزيرِ الرافِعِ(1)
قَلِّدْ سَمِيَّ المصطفى ونسيبَه والزَمْ مطالعةَ العزيز الرافِعِي

وتُوُفِّي القاضي شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ الصالح برهان الدين إبراهيم العُمَريّ الصالحيّ الحنفي، قاضي قُضاة الإسكندرية، وبها تُوفي ـ رحمه الله ـ وقد قارب سبعين سنة. وكان فاضلاً عالماً. أفتى ودَرّس وخطب وأفاد وأعاد وأقام بحلب مدّة يُقْرِىء ويُفْتي. ثم قَدِم إلى مصر وأقام بها أيضاً إلى أن وَلِي قَضاء الإسكندرية مسؤولاً في ذلك.

وتُوُفِّي الأمير الكبير علاء الدين عليّ المَارْدينيّ، ثمّ الناصري، نائب السلطنة بدِمَشق، ثم بالديار المصرية في العشر الأوّل من المحّرم عن بضْع وستين سنة. وكان أميراً جليلاً ديناً خيراً عفيفاً عاقلاً. تنقل في الأعمال الجليلة سنين عديدة، وطالت أيامه في السعادة. وكان ـ رحمه الله ـ مُنقاداً إلى الشريعة في أحكامه وأفعاله، مشتغلاً بالفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ مُستحضراً له. وكان قريباً من الناس مُحَبّباً للرعية. وأجلُّ أعمال وليها نيابة حلب ثمّ دمشق ثلاث مرّات فيما أظنّ. والله أعلم. ثم نيابة السلطنة بالديار المصرية. وأمّا الولايات التي دون هذه(2) فكثير.

وتُوُفي الأمير سيف الدين جُرجي بن عبد الله الإدريسيّ الناصريّ بدِمَشق عن بضع وخمسين سنة. وكان أصلُه من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، وترقّى إلى أن ولي نيابة حلب. ثمّ عُزِل بعد مدّة وأُنْعم عليه بإمرة بدِمَشق، فتوجّه

(1) لعل الصواب: «النافع».
(2) في الأصل: «دون هؤلاء».

إليها وأقام بها إلى أن مات، رحمه الله. وكان عالِي الهِّمة، غَزير النعمة، وله سعادة وافرة؛ وقد تقدّم[١] وفاتُه، والأصحّ أنه تُوُفِّي في هذه السنة.

وتُوُفِّي قاضي قضاة المدينة النبوية ـ على الحالّ بها أفضلُ الصلاة والسلام ـ نور الدين أبو الحسن عليّ بن عز الدين أبي المحاسن يوسف بن الحسن [بن محمد ابن محمود][٢] الزَّرَنْدِيّ[٣] الحنفيّ المدنيّ، رحمه الله. كان عالماً فاضلاً. ولي قضاءَ المدينة سنين.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أرْغُون بن عبد الله من قيران السَّلَّاريّ، أحد أمراء الطبلخانات ونقيب الجيوش المنصورة، في شهر جُمادى الأولى. وكان قديمَ هجِرْة، وله كلمة في الدولة وحُرْمة وقُربٌ من الملوك.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أسندَمُر بن عبد الله العلائيّ الحاجب المعروف «حَرْفُوش» بعدما أنْعِم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمَشق على هيئة النَّفْي؛ فإنه كان من أكابر أمراء الألوف بالديار المصرية، وكان ممن يُخَاف شرّه.

وتُوُفِّي القاضي بدر الدين أبو عليّ الحسن بن محمد بن صالح [بن محمد بن محمد][٤] النابلسيّ الفقيه الحنبليّ ـ رحمه الله ـ مفتي دار العدل في شهر جمادى الآخرة.

وتُوُفِّي الشيخ علاء الدين أبو الحسن عليّ بن عماد الدين إسماعيل بن برهان الدين إبراهيم الفقيه المالكيّ، المعروف بابن الظريف، في رابع[٥] عشر شهر جمادى الأولى. رحمه الله.

وتُوُفِّي الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد الزَّرْكَشِي الحنبليّ في

---

(١) تقدّمت وفاته في أخبار سنة ٧٦٩هـ.

(٢) زيادة عن السلوك والدرر الكامنة.

(٣) نسبة إلى زَرَنْد بين أصبهان وساوة. (معجم البلدان).

(٤) زيادة عن السلوك وشذرات الذهب.

(٥) في الأصل: «في أربع عشر».

رابع عشرين جمادى الأولى أيضاً، رحمه الله تعالى. وكان من أعيان الفقهاء الحنابلة.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين مَنْكوتَمُر بن عبد الله من عبد الغني[١] الأشرفي الدّوادَار في شهر جُمادى الأولى. وكان من خواصّ السلطان الأشرف شعبان ومن مماليكه.

وتُوُفِّي القاضي تاج الدين أبو عبد الله محمد بن البَهاء المالكي المعروف بآبن شاهد الجمالي[٢]، تغمده الله تعالى. كان فقيهاً، وتولّى إفتاء دار العدل، وشاهد الجيش، وناظر البيمارستان المنصوري، ووكيل الخاصّ. وتوجّه إلى الحجاز فمات في عوده بمنزلة العقبة.

وتُوُفِّي الشيخ المعتقد الصالح صاحب الكرامات الخارقة أبو زكرياء يحيى بن علي بن يحيى المغربي الأصل الصّنافيري الضرير المجذوب. قَدِم جَدُّه يحيى من الغرب، ونزل عند الشيخ أبي العباس البصير بزاويته[٣] بجوار باب الخرق، وولد له عليّ أبو يحيى هذا؛ وكانت له أيضاً كرامات، وقدِم في التجريد، وكان الغالب عليه الوله، وذكر له الموفّق[٤] كرامات جَمَّة. ثم وُلد له يحيى هذا صاحب الترجمة مكفوفاً مجذوباً، إلا أنه له كلام خارق وأحوال عجيبة. وكان الغالب عليه الوَلَه، كما كان أبوه، وكان لا يفيق من سَكْرته. لا يزال مغموراً في نشوته، لا يُفَرّق بين مَن هو في حضرته من سلطان ولا أمير ولا غنيّ ولا فقير، والناس كلُّهم عنده سواء. وكان يُقيم أوّلاً بالقرافة عند ضريح أبي العباس البَصِير، وبنى له هناك

(١) في السلوك: «منكوتمر عبد الغني الأشرفي الدوادار».

(٢) في السلوك: «محمد بن بهاء الدين المالكي المعروف بابن شاهد الجمال».

(٣) زاوية الشيخ أبي العباس البصير التي كانت بباب الخرق بشارع قنطرة الأمير حسين. وهذه الزاوية أصلها مسجد أبي الفتح يانس الأرمني وزير الحافظ بالله الفاطمي. (الخطط التوفيقية الجديدة لعلي مبارك: ٣/٧٩ ـ ٨٠، وفيها ترجمة الشيخ أبي العباس البصير).

(٤) هو الموفق بن عثمان، أحد مؤرخي قرافة مصر. اعتمد عليه ابن الزيّات صاحب «الكواكب السيّارة في ترتيب الزيارة» (النجوم الزاهرة: ١١/١١٨، حاشية: ٥، طبعة دار الكتب المصرية).

قُبّة وجعل لها بابين: باباً ظاهراً وباباً في الأرض نازلاً. وكان أذَا أحّس بالناس هَرَب من ذلك الباب الذي في الأرض. فلّما كَثُر تردادُ الناس إليه للزيارة من كلّ فَجًّ، صار يَرْجُمُهم بالحجارة، فلم يردّهم ذلك عنه رغبةً في التماس بركته. ففَرّ منهم وساح في الجبال مُدّة طويلة. ثم نزل صنافير بالقليوبية من قرى القاهرة، فكان كل يوم في أيام الشتاء يغطس في الماء البارد صبيحة نهاره، وفي شدّة الحرّ يجلس عرياناً مكشوف الرأس في الشمس، وليس عليه سوى ما يستر عَوْرته. فكان يُقيم على سَقِيفَة طابونة[1] سوداء، أقام على ذلك ثلاث سنين، لا ينزل عنها، وبَنَى له بعضُ الأمراء زاوية، فلم يسكنها ولا التفت إليها. وكان الناس يتردّدون إليه فَوْجاً فوجاً، ما بين قاضٍ وعالم وأمير ورئيس، وهو لا يلتفت إلى أحد منهم.

ومن كراماته ــ نفعنا الله به ــ أنه أُتِي مرة بمِنْسَف[2] خشب فيه طعام أُرْز، فقال لهم: «سخّنوه»، فلم يَسعْهم إلا موافقته، ووضعوا المنسف الخشب على النار، حتى آشتدّت سخونة الطعام ولم تُؤثِّر النار في الخشب. ثم عاد إلى القرافة فمات بها في يوم الأحد سابع عشرين شهر شعبان، وصُلِّي عليه بمصلّاة خَوْلان، فَحُزِر عِدّةُ مَنْ صلّى عليه من الناس، فكانوا زيادةً على خمسين ألفاً. والله أعلم.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وخمسة وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وأربعة أصابع.

* * *

(١) الطابونة والطابون: الموضع الذي تطبن فيه النار، أي تدفن فيه لئلا تطفأ. ويطلق على المخبز أو الفرن. ويجمع على طوابين. (المعجم الوسيط).

(٢) المنسف: الغربال الكبير. ووعاء متسع يوضع فيه الأرز.

السنة التاسعة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة.

فيها رسم السلطان الملك الأشرف للأشراف بسائر الأقطار أن يَسِمُوا عمائمَهم بعلائم خُضْر؛ وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلّه في ترجمة الأشرف. والله أعلم.

وفيها تُوُفِّي القاضي كمال الدين أبو الغيث محمد ابن القاضي تقيّ الدين عبد الله ابن قاضي القضاة نور الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن [عبد الخالق بن][(١)] عبد القادر الأنصاريّ الدمشقّي الشافعيّ الشهير بابن الصائغ بدِمَشق عن بِضْع وأربعين سنة. رحمه الله. وكان ولي قضاء حلب مرتين، ثم ولي قضاء حمص، ثم عاد إلى دِمشق، وبها كانت وفاته.

وتُوُفِّي الشيخ العالم العّلامة قاضي القضاة سراج الدين أبو حفَص عمر آبن الشيخ نجم الدين إسحاق بن شهاب الدين أحمد الغَزْنويّ الهنديّ الحنفيّ قاضي قضاة الديار المصرية بها في ليلة الخميس سابع شهر رجب، بعد أن ولي القضاء نحو خمس عشرة سنة، رحمه الله. وتولّى بعده القضاء صَدْر الدين محمد بن جمال الدين التُّركْمانيّ؛ ومولد السراج هذا في سنة أربع أو خمس وسبعمائة تخميناً. وقدِم القاهرة قبل سنة أربعين [وسبعمائة]، رحمه الله. وكان إماماً عالماً بارعاً مفتناً في الفقه والأصلين والنحو وعلمي المعاني والبيان وغيرهم. وناب في الحكم بالقاهرة، وتصدّى للإفتاء والتدريس والإقراء سنين. ثمّ تولّى عدَة وظائف دينيّة؛ وهو أحد مَنْ قام مع آبن النقّاش في قضية الهرماس حتى وغّرا خاطر السلطان عليه ووقع له معه ما وقع.

وكان السراج - رحمه الله تعالى - إماماً مصنفاً: منها «شرح المغني» في مجلدين و«شرح البديع» لابن السّاعاتى وغيرذلك. وقد ذكرنا من علوّ همّته وغَزير فضله في «المنهل الصافي» نبذةً كبيرة جيدّة تُنظر هناك.

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة وإنباء الغمر. وهو في الدرر: «كمال الدين» وفي إنباء الغمر: «جمال الدين».

وتُوُفِّي الشيخ الأديب أبو زكرياء يحيى بن محمد بن زكرياء بن محمد بن يحيى العامريّ الحمويّ الشهير بالخبّاز بدمشق وهو من أبناء الثمانين. وكان بارعاً في النّظم. نظم سائر فنون الأدب، وكان فيه تَشَيُّع كبير. ومن شعره: [الوافر]

بِعيشك هاتِها صفراء صِرفاً ... صَباحاً وٱطّرحْ قولَ ٱلنَّصوح
فإنّ ٱلشَّمْسَ قَدْ بَزَغَتْ بِعينٍ ... تُغامِزنا على شرْبِ الصَّبُوح

وله أيضاً: [السريع]

باكِرْعَروسَ ٱلرَّوض وٱسْتَجْلِها ... وطَلِّق الحُزْن ثلاثاً بتاتْ
بقهوةٍ حلّت لنا كُلّما ... حلّت لآلِي ٱلقطرِ جيدَ ٱلنبات

وتُوُفِّي العلاّمة قاضي القُضَاة بهاء الدين أبو أحمد ٱبن قاضي القضاة تقيّ الدين أبـي الحسن عليّ ٱبن الشيخ زين الدين عبد الكافي بن علي بن تَمام بن يوسف ابن موسى بن تمام الأنصاريّ السُّبْكي الشافعيّ بمكة المشرفة عن ست وخمسين سنة، رحمه الله. وكان إماماً عالماً بارعاً في عِدّة من الفنون. وسَمِع من الحُفّاظ، وأَخذ من والده وعن أبـي حَيَّان ــ وهو أسنُّ من أخيه تاج الدين المقدّم ذكره ــ ودَرّس بقُبّة الشافعيّ والجامع الطولونيّ والمنصورية والشَّيْخُونية. وباشر قضاء العسكر وإفتاء دار العدل بمصر، وخَطَب وأَلَّف وصنّف، وتَولّى قضاء الشام عِوضاً عن أخيه تاج الدين، وتَولّى أخوه تاج الدين وظائِفَه بمصر؛ وقد تَقدّم ذلك. ثم تَركَ قضاء دِمَشق عفّةً ورَجَع إلى مصر يُدرّس وَيُفتِي. ثم جاورَ بمكّة وبها مات، رحمه الله.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أَيْدَمُر بن عبد الله الشَّيْخِي أحدُ أمراء الألوف بالديار المصريّة، ثم نائب حماة. وكان من أعيان الأمراء؛ وقد تقدَّم ذكْره في عدّة أماكن.

وتُوُفِّي الشيخ الفقير المُعْتَقَد عبد الله دَرْويش ــ رحمه الله ــ في سابع عشر شهر رجب. وكان فقيراً مبارَكاً؛ وللناس فيه محبة واعتقادٌ حسن.

وتُوُفِّي الأديب الشاعر شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان بن

شيخان، المعروف بآبن البَكْري التَّيْمِيّ القرشيّ البغداديّ، في عاشر شهر رمضان بمُنْية آبن خَصيب من صعيد مصر. ومن شعره: [الوافر]

أَتَى المحبوبُ فِي السَّنجابِ يَسْعى ... وطلعتُه لِنَاظِره تَرُوقُ
فُتْبصر طوقَه السِّنجاب سُحْباً ... وفِيها من تَبَسُّمِه بُرُوقُ

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبعة أذرع وخمسة وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وأربعة أصابع.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة أربع وسبعين وسبعمائة.

وفيها آستقرّ الأمير أُلْجاي اليوسفيّ أَتَابَك العساكر بديار مصر بعد موت مَنْكَلِي بُغَا الشَّمسي.

وفيها تُوُفِّي الشيخ الإمام الحافظ المؤرِّخ عِماد الدين أبو الفِداء إسماعيل آبن الخطيب شهاب الدين أبي حفص عُمَر بن كَثِير القُرَشِيّ الشافعيّ، صاحب «التاريخ» و«التفسير»، في يوم الخميس سادس عشرين شعبان بدِمَشْق. ومولده بقرية شرقيّ بُصْرى من أعمال دِمَشق في سنة إحدى وسبعمائة، رحمه الله تعالى.

قال العينِيّ رحمه الله: كان قُدوةَ العلماء والحُفَّاظ، وعُمْدة أهل المعاني والألفاظ. وسَمِع وجَمَع وصنَّف ودَرَّس وحَدَّث وأَلَّفَ. وكان له اطِّلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، وآشتهر بالضبط والتحرير، وآنتهى إليه علمُ التاريخ والحديث والتفسير، وله مُصَنَّفات عديدة مفيدة. اِنتهى كلام العينِي ــ رحمه الله.

قلت: ومن مُصَنَّفاته «تفسيرُ القرآن الكريم» في عشر مجلدات، وكتاب «طبقات الفقهاء» و«مناقب الإمام الشافعي» رضي الله عنه، والتاريخ المسَمَّى «بالبداية والنِّهاية» حذا فيه حَذْوَ آبن الأثير ــ رحمه الله ــ في «الكامل» (والتاريخُ

أيضاً[١] في عشرة مجلدات، وخَرَّج أحاديث «مختصر آبن الحاجب» وكتب على «البخاري» ولم يُكمله، رحمه الله تعالى. ولما مات رثاه بعضُ طَلَبته رحمه الله بقوله: [الطويل]

لِفَقْدِك طُلاَّبُ العلومِ تَأَسَّفُوا وجَادُوا بدمْعٍ لا يَبِيدُ غَزِيرِ
ولو مَزَجُوا ماءَ المَدَامِعِ بِالدِّما لكان قليلاً فِيك يا آبنَ كَثِيرِ

وتُوُفِّي الشيخ الحافظ تَقِيّ الدين محمد بن جَمال الدين رافع بن هِجْرِس بن محمد بن شافع بن السَّلاَّميّ المصريّ الشافعيّ بدِمشْق عن ستين سنة. وكان ـ رحمه الله ـ إماماً في الحديث، رَحَل البلاد، وسَمِع بمصر والشام وحلب والحجاز، وكتب لنفسه مشيخة، وذَيّل على تاريخ البخاري[٢]، رحمه الله.

وتُوُفِّي الأديب زين الدين أبو محمد عبد الرحمن بن الخضْر بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن يوسف بن عثمان السِّنْجاريّ. قَدِم حلب وباشَرَبها توقيع الدَّرْج[٣] إلى أن مات بها عن نيِّف وخمسين سنة. ومن شعره في مُغَنٍّ، ورأيتُه لغيره: [الكامل]

أضحى يَخِر لوجْهه قمرُ السَّما وغداً يَلِينُ لصَوْتِهِ الجُلْمُودُ
فإذا بدا فكأنَّما هو يوسفٌ وإذا شَدَا فكأنَّه داوودُ

وتُوُفِّي الأمير مظفَّر الدين موسى آبن الحاج أَرُقطَاي الناصريّ نائب صَفَد بها،

---

(١) لعل هذه العبارة زائدة.

(٢) لم تذكر المصادر التي بين أيدينا أنه ألف ذيلاً على تاريخ البخاري ـ والمراد بتاريخ البخاري الصحيح ـ وإنما ألف ذيلاً على تاريخ بغداد لابن النجار، وذيلاً على تاريخ البرزالي سماه «الوفيات». (انظر الأعلام: ٦/١٢٤، وإنباء الغمر: ١/٦٠، وذيل تذكرة الحفاظ للحسيني: ص ٥٢، وشذرات الذهب: ٦/٢٣٤).

(٣) موقّع الدرج أو كاتب الدرج: من موظفي ديوان الإنشاء. وكتاب الدرج هم الذين يكتبون ما يوقّع به كاتب السر أو كتاب الدست أو إشارة النائب أو الوزير أو رسالة الدوادار، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم وغيرها. وسموا كتّاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات في دروج الورق. قال القلقشندي: «ويجوز أن يطلق عليهم كتاب الإنشاء، ولا يجوز أن يطلق عليهم لقب الموقعين لما تقدّم أن المراد من التوقيع الكتابة على جوانب القصص ونحوها» وهو من اختصاص كاتب السرّ أو كاتب الدست. (انظر صبح الأعشى: ٥/٤٦٤ ـ ٤٦٥؛ ١/١٣، ١٣٧).

وتَوَلّى عِوضَه نيابة صَفَد الأمير علم دار المحمديّ. وكان مظفّر الدين من الأماثل، وله وجاهة في الدُّول وثروة.

وتُوُفِّي الأمير الكبير سيف مَنْكَلِي بُغَا بن عبد الله الشمسيّ أَتَابَك العساكر بالديار المصرية بها في شهر جُمادَى الأولى عن بِضْع وخمسين سنة. كان من أجلّ الأمراء وأعظمهم حُرْمةً وهَيْبَةً ووقاراً، وكان فيه ديانة، وله معرفة بالأمور، وله آشتغال جَيِّد في علوم متعدِّدة ولي نيابة صَفَد وطَرَابُلُس وحلب ودِمشق، ثم أعِيد إلى حلب لإصلاح البلاد الحلبيّة، فعاد إليها ومَهّد أمورَها ثم طلبه الملك الأشرف إلى الديار المصرية وسأله أن يَلِي النيابة بها فامتنع من ذلك، فَأَخْلَع عليه باستقراره أَتَابَك العساكر بالديار المصرية وزوّجه الأشرف بأخته «خَوَنْد سَارة»، فاستمرّ على ذلك إلى أن مات في التاريخ المذكور، رحمه الله.

وتُوُفِّيت خَوَنْد بَرَكة خاتُون والدة السلطان الملك الأشرف هذا وزوجة الأمير أُلْجاي اليُوسفي في شهر ذي القعدة، ودُفنت بمدرستها التي أنشأتها بخُط التّبّانة وبسبب ميراثها كانت الوقعة بين آبنها الملك الأشرف وزَوْجِها أُلْجاي اليوسفي؛ وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلِّه مفصَّلاً في أوائل هذه الترجمة. وكانت خَيِّرةً دِيِّنة عفيفةً جميلةَ الصورة. ماتت في أوائل الكُهُولية. رحمها الله تعالى.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم العَلامة وَلِيّ الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الملّوِيّ[١] الدِّيباجيّ الشافعيّ ـ رحمه الله ـ ذو الفنون بالقاهرة في ليلة الخميس خامس عشرين شهر ربيع الأوّل عن بضع وستين سنة. وكان من أعيان فقهاء الديار المصرية.

وتُوُفِّي الشيخ العارف بالله تعالى المعتَقَد المُسَلِّك بهاء الدين محمد بن الكَازَرُونيّ في ليلة الأحد خامس شهر ذي الحجّة بزاويته[٢] بالمشتهى بالرَّوضة.

---

(١) نسبة إلى ملّوى بمديرية أسيوط بمصر.

(٢) ذكرها المقريزي باسم رباط المشتهى (خطط: ٢/٤٢٨) والرباط هو الدار التي يسكنها أهل الطرق الصوفية.

وكان ــ رحمه الله تعالى ــ رجلًا صالحاً مُعْتَقَداً، وللناس فيه مَحبّةٌ زائدة وآعتقادٌ حسن.

وتُـوُفِّي القاضي بـدر الدين محمـد بن محمد بـن العـلامة شهـاب الـدين محمود بن سليمان بـن فهد الحَلَبِـيّ ثمّ الدِّمَشْقَي الحنبليّ ناظر جَيْش حلب بها، رحمه الله. وكان رئيساً كاتباً فاضلاً من بيت كتابة وفَضْل ــ رحمه الله تعالى ــ والله أعلم.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم لم يُحرَّر لأجل التحويل[١]. حُوِّلت هذه السنة إلى سنة خمس وسبعين.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة خمس وسبعين وسبعمائة.

فيها كانت وقعة الملك الأشرف المذكور مـع زوج أمّه الأتَابَـك أُلْجَاي اليوسفي، وغَرِق أُلْجَاي في بحر النيل، حسب ما تقدّمَ ذِكْرُه.

وفيها تُوُفِّي قاضي القضاة بدر الدين أبـو إسحاق إبـراهيم بن صدر الـدين أحمد بن مجد الدين عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن المخزوميّ المصريّ الشافعيّ الشهير بابن الخَشّاب وهو في البحر المالـح بالقرب من الأزْلم[٢] عائداً إلى الديار المصريّة وهو من أبناء الثمانين سنة، رحمه الله. وكان عالماً مُفْتِياً مدرّساً شاع

---

(١) المراد تحويل السنة العربية إلى السنة التي بعدها في حساب استحقاق الخراج. وكان الموكلون بأمور الخراج في البلاد الإسلامية يقومون بذلك التحويل كل ثلاث وثلاثين سنة هلالية، لما هنالك من التفاوت بين السنة القمرية المعتمد عليها في استخراج الخراج والسنة الشمسية التي تضبط بها الزروع والثمار ومواعيد استحقاق الجباية؛ إذ تنقص السنون القمرية عن السنين الشمسية سنة واحدة تقريباً كل ثلاث وثلاثين سنة. (انظر صبح الأعشى: ٥٤/١٣ وما بعدها).

(٢) راجـع ص ٦٠، حاشية (١) من هذا الجزء.

ذكره في الأقطار، وآنتفع الناس بعلمه، وولي نيابةَ الحكم بالقاهرة، وباشر قضاء حلب استقلالاً. ثم ولِي القضاء بالمدينة النبويّة، وأراد التوجُّهَ إلى نحو مصر فأدركتْه المَنيّةُ في طريقه، رحمه الله.

وتُوُفّي الشيخ الإمام العالم العلّامة أَرْشَد الدين أبو الثناء محمود بن قُطْلُوشَاه السَّرَائِيّ الحَنَفِيّ بالقاهرة في جُمادَى الآخرة عن نَيِّف وثمانين سنة، رحمه الله تعالى. وكان بحراً في العلوم لاسِيَّما العلوم العقلية والأدبية. وأقام بالقاهرة سنين كثيرة يَشْتَغِلُ ويُقْرِىء، وآنتفع به عامّة الطلبة من كلّ مذهب. وتَوَلّى مَشْيَخَة الصَّرغتمشيّة[1] بعد وفاة الشيخ العلّامة قوام الدِّين أَمِير كاتب الإتْقَانيّ، فباشر تَدْريسَها إلى أن مات في التاريخ المذكور.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين طَيْبُغا بن عبد الله الفقيه الحنفيّ، أحد أمراء العشرات بالديار المصرية، بالقاهرة وقد ناهزَ الستين سنة. وكان فقيهاً مُسْتَحْضِراً لفروع مذهبه، ويُشارِك في فنون كثيرة، رحمه الله تعالى.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين تَمرقَيَا بن عبد الله العُمَرِيّ الجُوكَنْدار، أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، وسنُّه نحو الخمسين سنة؛ وهو خشداش يلبغا العمريّ الخاصّكي. وتمرقيا باللغة التركية: جبل حديد؛ فتمر هو الحديد، وقَيَا بفتح القاف هو الصخر العظيم.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين تُلَكْتَمُر بن عبد الله الجماليّ، أحدُ أمراء الطبلخانات بالقاهرة. مات بمنزلة قاقون من طريق الشام في شهر ذي الحجة، وكان الملك الأشرف أرسله في مهمّ.

وتُوُفّي الأمير سيف الدين آل ملك بن عبد الله الصرغتمشي، أحدُ أمراء الطبلخانات بالقاهرة، وكاشفُ الوجه البحري، ونقيب الجيوش المنصورة، في شهر شوّال. وكان أصله من مماليك الأمير صرغتمش الناصريّ صاحب المدرسة بالصَّليبة

---

(١) المدرسة الصرغتمشية: خارج القاهرة بجوار جامع أحمد بن طولون. بناها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري ما بين ٧٥٦ و٧٥٧هـ. (انظر خطط المقريزي: ٤٠٣/٢).

المقدّم ذكرُه. وكلّ مَنْ نذكره في هذه السنين بالصرغتمشي فهو منسوب إليه، ولا حاجة للتعريف به بعد ذلك.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين آقبغا بن عبد الله من مصطفى اليَلْبَغاويّ، أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية، وهو مجرّد بالإسكندرية؛ وهو ممن قام على أستاذه يلبغا.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أرْغُون بن عبد الله الأحمديّ، أحدُ مقدّميّ الألوف بالديار المصرية، ولالا الملك الأشرف شعبان صاحب الترجمة. وكان معظماً في الدول، وله همة ومعرفة وشجاعةٌ وحرمةٌ وافرة في الدولة الأشرفية؛ وقد مرّ ذكره في عِدّة حكايات. ولمّا ثَقُل على الملك الأشرف، أخرجه إلى نيابة الإسكندرية، فمات بها في خامس عشر ذي القعدة.

وتُوُفِّي الشيخ نور الدين عليّ بن الحسن بن عليّ الإسنائيّ الشافعيّ، أخو الشيخ جمال الدين عبد الرحيم المتقدّم ذكُره مات في شهر رجب، رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي القاضي شمس الدين شاكر القِبطيّ المصريّ، المعروف بابن البَقَريّ، ناظر الذخيرة[1]، وصاحب المدرسة البقريّة[2]، بالقاهرة في ثالث عشر شوّال. وكان معدوداً من رؤساء الأقباط.

---

(١) الذخيرة: هي ممتلكات السلطان من ذهب وفضة وما شابه ذلك. (انظر السلوك: ٢/٣/٥٨٧، ٦١٨) وناظر الذخيرة هو المشرف على هذه الممتلكات. والظاهر أن وظيفته قريبة من وظيفة ناظر خزانة الخاص، أو أنهما واحد.

(٢) المدرسة البقرية: تقع في الزقاق الذي تجاه باب الجامع الحاكمي. بناها شمس الدين شاكر بن غزيل (تصغير غزال) المعروف بابن البقري، أحد مسالمة القبط في أيام الناصر حسن بن محمد بن قلاوون. وأصله من قرية تعرف بدار البقر إحدى قرى الغربية. (خطط المقريزي: ٢/٣٩١) وعيّن الأستاذ محمد رمزي تاريخ بنائها بسنة ٧٤٦هـ، كما هو ثابت إلى اليوم بالنقش على بابها. وتعرف اليوم باسم جامع البقري.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين بَيْبُغا بن عبد الله، المعروف بحارس طير، أحدُ أمراء الطبلخانات؛ وهو غير بَيْبُغا طَطَر حارس طير الذي ولي نيابة السلطنة في سلطنة الملك حسن.

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين أَلْطُنْبُغَا بن عبد الله الماردينيّ في ثاني جُمادى الآخرة؛ وهو أيضاً غير أَلْطُنْبُغا الماردينيّ صاحب الجامع؛ وقد تقدّم ذكر هذاك في محلّه.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين آروس بن عبد الله المحموديّ، أحدُ أمراء الألوف بالقاهرة، وزوج بنت الأمير مَنْجك اليوسفيّ، في ذي القعدة. وكان أصله من مماليك الناصر محمد، وترقّى في الدول إلى أن صار أمير مائة ومقدّم ألف. ثم ولي الحجوبية، ثم أمير جاندار، ثم ولي الأستدارية العالية مدّة طويلة. ووقع له أمور وحوادث، وأُخْرج إلى الشام. ثم قَدِم إلى مصر صحبةَ حمِيه مَنْجَك اليوسفيّ، فأقام بها إلى أن مات.

وتُوُفِّي الأمير الكبير سيف الدين أُلْجاي اليوسفيّ، أحدُ مماليك الملك الناصر حسن، غَريقاً بالنيل بساحل الخرقانية، بعد وقعة كانت بينه وبين الملك الأشرف شعبان، حسب ما ذكرناه أنه آنكسر في الآخر. وتوجّه إلى الجهة المذكورة وآقتحم البحر بفَرَسه، فغَرِق في يوم الجمعة تاسع المحرّم، ودُفِن بمدرسته بسُوَيْقة العِزِّيّ خارج القاهرة. وكان من أجلّ الأمراء شجاعة وكَرَماً وهمّة وسؤدداً؛ وقد تقدّم ذكره في عِدّة تراجم من هذا الكتاب.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وعشرة أصابع. مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعاً وتسعة عشر إصبعاً؛ وهي سنة الشراقي[1] العظيم.

* * *

(١) انظر في ذلك السلوك: ٣/١/٢١٨ ــ ٢١٩. وقد تقدّم في أصل ترجمة الأشرف شعبان شيء من ذلك.

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة ست وسبعين وسبعمائة.

وفيها كان ابتداء الغلاء العظيم بسائر البلاد.

وفيها فُتحت سيس على يد نائب حلب الأمير إشْقَتَمُر المارِدِيني؛ وقد تقدّم ذكر ذلك كلّه في أصل الترجمة.

وفيها تُوُفِّي العلّامة قاضي القضاة صدر الدين أبو عبد الله محمد ابن العلامة قاضي القضاة جمال الدين عبد الله ابن قاضي القضاة علاء الدين عليّ بن عثمان بن الماردِيني الحنفيّ، الشهير بآبن التُّركُمانيّ، قاضي قضاة الديار المصرية بها في ليلة الجمعة ثالث ذي القعدة عن نحو أربعين سنة، بعد أن باشر ثلاث سنين وأشهراً. وكان سلَكَ في العدل طريقة أبيه وجَدِّه. وكان عالماً بارعاً ذكياً فَهِماً عفيفاً. وله نظمٌ ونثر، ومن شعره وقد حصل له رَمَد: [الوافر]

أفِـرُّ إلى الـظلام بِكُـلِّ جهْـدِي … كـأنّ الـنـورَ يَـطلُبُنِي بِـدَيـنِ
ومـا لـلِنـور من ظِـلٍّ وإنِّـي … أراه حـقيـقـةً مـطلوبَ عَـيْنِـي

وقد تقدّم ذكر أبيه وجدّه كلّ واحد منهما في محلّه.

وتُوُفِّي قاضي القُضاة شرف الدين أبو العباس أحمد بن الحسين بن سليمان بن فزارة الكَفرِي (بفتح الكاف) الحنفيّ بدِمَشق، بعد أن كُفَّ بصرُه، عن خمس وثمانين سنة. وكان من العلماء الأعلام، ماهراً في مذهبه. أفتى ودرّس وأفاد وأتقن روايات القُرّاء[1] السبعة، وناب في الحكم بدِمَشق مدّة من الزمان. ثم استقلّ

(١) القـرّاء السبعة هم: عبـد الله بن كثير الـداري (ت ١٢٠هـ) ونـافـع بن عبـد الرحمن بن أبـي نعيم (ت ١٦٩هـ)، وعبد الله اليحصبي المشهور بابن عامر (ت ١١٨هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ)، ويعقوب بن إسحاق الحضرمي (ت ٢٠٥هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات (ت ١٨٨هـ)، وعاصم بن أبـي النجود الأسدي (ت ١٨٧هـ).
وعبارة القراء السبعة والقراءات السبع لم تكن قد عرفت في الأمصار الإسلامية حين بدأ العلماء يؤلفون في القراءات. والسابقون منهم كأبـي عبيد القاسم بن سلام، وأبـي جعفر الطبري، وأبـي حـاتم =

بالوظيفة مدّة طويلة، ثم تركها لولده متنزّهاً عن ذلك، ولَزِم العبادةَ إلى أن مات.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم العلامة جمال الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد بن عَمّار الحارثي الدِّمَشقيّ الشافعيّ، الشهير بابن قاضي الزّبَداني، بدِمَشق عن سبع وثمانين سنة. وقد آنتهت إليه رياسة الفتوى بالشام في زمانه، ودرَّس بظاهرية(١) دِمشق وعادليتها(٢) الصغرى، وكَتَبَ وصَنَّف.

وتُوُفِّي الشيخ أمين الدين أبو عبد الله محمد آبن القاضي برهان الدين إبراهيم بن عليّ بن أحمد بن عليّ بن يوسف بن إبراهيم الدمشقيّ الحنفيّ، الشهير بابن عبد الحق. دَرّس بدمَشق بعدّة مدارس، وباشر بها الوظائف الجليلة؛ وكان معدوداً من أعيان أهل دِمَشق إلى أن مات بها عن بضع وستين سنة.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العلاّمة الأديب المُفْتَنّ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد التِّلمْسانيّ المغربيّ الحنفيّ، الشهير بابن أبي حجلة، نزيل الديار المصرية بها في يوم الخَميس مستهلّ ذي الحجّة عن إحدى وخمسين سنة. ومولده بالمغرب بزاوية جَدّه أبي حجلة عبد الواحد. ثم رَحَلَ إلى الشام، ثم استوطن مصر، وولي مشيخة خانقَاه مَنْجك اليوسفيّ إلى أن مات. وكان إماماً بارعاً فاضلاً ناظماً ناثراً وله مصنّفاتٌ كثيرة تبلغ ستين مصنّفاً، رحمه الله. ومن شعره في مليح له خال على خَدّه: [البسيط]

= السجستاني ذكروا في مصنفاتهم أضعاف تلك القراءات. وإنما بدأت هذه العبارة تشتهر على رأس المائتين بإقبال الناس في الأمصار الإسلامية على قراءة بعض الأئمة دون بعض. والحق إن ثمة ضابطاً إذا توفرّ في قراءة ما وجب قبولها. وبتوفر هذا الضابط وجد ما يسمى بالقراءات العشر والقراءات الأربع عشرة وأكثر من ذلك. (انظر قضايا لغوية في ضوء القراءات القرآنية للشيخ صبحي الصالح: ٤٣ ــ ٤٤؛ والمعارف لابن قتيبة: ٢٩٤ ــ ٢٩٦؛ والكليات للكفوي: ٢/٩٥).

(١) المدرسة الظاهرية: بجوار جامع دمشق. أنشأها الظاهر بيبرس ودفن بها سنة ٦٧٦هـ. (الدارس في تاريخ المدارس: ١/٢٦٣؛ وخطط الشام: ٦/٨٣).

(٢) المدرسة العادلية الصغرى داخل باب الفرج شرقي باب القلعة. أنشأتها زهرة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة ٦٥٥هـ. (الدارس: ١/٢٧٨).

تفرّد الخالُ عن شَعرٍ بوجنتهِ فليس فِي الخدِّ غيرُ الخالِ والخَفَرِ
يا حُسنَ ذاك مُحيّا ليس فِيه سِوَى خالٍ من آلمِسْك في خالٍ مِن الشَّعَرِ

وله: [السريع]

وعاذلٍ بالَغَ في عَذْلهِ وقال لمّا هاجَ بِلْبالِي
بِعارِض المحبوبِ ما تنتهي قلتُ ولا بالسَّيفِ والوالِي

وله مُضمِّناً، وهو أحسنُ قوله في المعنى: [الكامل]

يا صاحِ قد حضر الشَّرابُ وبُغيتي وحَظِيتُ بعد الهَجْر بالإيناسِ
وكساَ العِذارُ الخدّ حُسناً فاسْقِني وآجعل حدِيثَك كُلَّه في الكَاسِ

وتُوُفِّي الصاحب الوزير فخر الدين عبد الله بن تاج الدين موسى بن أبي شاكر بالقاهرة، ودُفِن بالقرافة بتربته بجوار تربة قاضي القضاة شمس الدين الحَريري. وكان في مبادىء أمره صاحب ديوان يَلْبُغا العُمَريّ، ثم تَولّى الوَزَرَ بعد موته ثلاثَ مرات، وجَمع في بعض الأحيان بين الوزارة ونظر الخاصّ معاً كما كان ابن قَزوِينة من قبله. وكان حَسَنَ السِّيرة، مليح الشكل بَشوشاً متواضعاً، ليِّن الجانب، قليلَ الأذى، محُبباً للناس.

وتُوُفِّي التاجر ناصر الدين محمد بن مسلّم الكارِميّ[1] المصريّ في يوم الجمعة ثاني عشر شوّال. وقد خَلَّفَ أموالاً كثيرة من المَتْجَر، وعَمِل الكِيميا بحيثُ إنه لم يكن أحدٌ من أهل عصره أكثرَ مالاً منه.

وتُوُفِّي القان أُوَيْس ابن الشيخ حسن بن حسين بن أقْبُغَا بن أَيْلكان صاحب تِبْريز وبغداد وما والاهما. وفي مَوْتته غريبةٌ وهي أنه رأى في منامه قبل موته أنه يموتُ في يوم كذا وكذا، فخلَع نفسَه من الملك ووَلّى عوضَه ولدَه الكبير الشيخ حسين بن أُوَيْس، وآعتزلَ هو عن المُلْك، وصار يَتَعَبَّد ويُكْثِر من الصلاة والصدقة والبِرّ إلى

(١) نسبة إلى تجارة الكارم، وهي ما كان يجلب من الهند من البهار والفلفل وغيرها. ـــ وقد سبق الكلام عليها فانظر فهرس المصطلحات.

الوقت الذي عَيّنَه لهم أنه يموتُ فيه فمات فيه. وكان مَلِكاً حازماً عادلاً، ذا شَهامةٍ وصَرامَة، قليل الشرّ كثير الخير، محُبَّباً للفقراء والعلماء. وكان مع هذا فيه شجاعةٌ وكرمٌ. ومات في عُنْفُوان شبيبته؛ وكان تَسلطن بعد أبيه، فمكثَ في المُلْك تسعةَ عشرَ سنة، ومات بِتبْريز عن نِّيف وثلاثين سنة.

وتُوُفِّي الأميرُ الكبير سيف الدين مَنْجَك بن عبد الله اليُوسُفي الناصري، أتابَك العساكر ونائب السلطنة الشريفة بالديار المصرية، بداره من القاهرة بالقرب من سُوَيْقة العِزِّيّ المُلاصقة لمدرسة السلطان حسن، بعد عصر يوم الخميس تاسع عشرين شهر ذي الحجة، ودُفِن صبيحة يوم الجمعة بتربته التي أنشأها عند جامعه وخانقاته، خارج باب الوزير بالقرب من قلعة الجبل. وكانت جنازته مشهودة. وكان عمرُه يوم مات بضعاً وستين سنة. وقد مَرّ من ذكره ما يُستغنَىَ به عن التكرار هنا. وكان ابتداءُ أمره وظهور اسمه من سلطنة الملك الناصر أحمد آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون وهَلُمّ جَرًّا إلى يومنا هذا، حتى إنه لم يُذْكَر سلطانٌ بعد موت محمد بن قلاوون، إلا ومَنْجك هذا له فيه أمرٌ وذكرٌ وواقعة. وقد طالت أيامه في السعادة، على أنه قاسى فيها خُطوباً وأهوالاً، وأمسك وحُبِس، ثم أُطْلِق، وآختفى مدّة ثم ظهر. وقد تكرر ذلك مفصلاً في عدّة تراجم من سلاطين مصر. وأمّا ما عمّره من المساجد والجوامع والمآثر فقد ذكرنا كلَّه في ترجمته في «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» فلينظر هناك.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين يَلْبُغا بن عبد الله الناصريّ، حاجب الحّجاب بالديار المصرية وأحد أمراء الألوف بها. وكان من أماثل الأمراء وأعيان المماليك الناصرية. تَرَقّى بعد موت أستاذه الملك الناصر محمد، وولي عِدّة وظائف أعظمها حُجوبيّة الحُجّاب.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أَيْدَمُر بن عبد الله الناصريّ الدّوادار بالقاهرة عن نيِّف وستين سنة. وكان أميراً عالي القَدْر، ظاهرَ الحِشْمة، وافرَ المَهَابة، حسَنَ السياسة والتدبير، يبدأ الناس بالسلام ويُكثِر من ذلك، حتى إنه لمّا وَلِي نيابة حلب لقّبه أهلُها «بِسلامُ عليكم». وكان أوّلاً أميرَ مائة ومقدّم ألف بديار مصر. ثم ولي نيابة طرابُلُس،

ثم نيابة حلب، ثم عُزل وطُلب إلى ديار مصر، وآستقـرّ بها أمير مائة ومقدّم ألف أيضاً إلى أن مات؛ وهو أجل أمراء عصره.

وتُوُفِّي الأمير الطواشي سابق الدين مِثْقال بن عبد الله الحبشي الآنوكيّ، مقدّم المماليك السلطانية وأحدُ أمراء الطبلخانات. وكان أصلُه من خدّام سيدي آنوك آبـن الملك الناصر محمد، وترقّى إلى أن وَلِي تَقدمةَ المماليك السلطانية؛ وهو الذي ضربه يَلْبُغا العمري داخل القصر ستمائة عصاة ونفاه إلى أُسوان وولّي مكانه مختار الدمنهوريّ شاذروان. فلما قُتل يلبغا أعاده الملك الأشرف هذا إلى رتبته ووظيفته تقدمة المماليك السلطانية إلى أن مات، وَوَلِي التّقدمة بعده مختار الدمنهوريّ شاذروان المقدّم ذكرُه ثانياً. وأظن مثقالاً هذا هو صاحب المدرسة[1] السابقيّة داخل بين القصرين من القاهرة. والله أعلم.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم أربعة أذرع وآثنا عشر إصبعاً. مبلـغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وخمسة أصابـع.

* * *

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة سبـع وسبعين وسبعمائة.

فيها كان الغلاء المفرط بالبلاد الشامية حتى أكل الناس الميتات والكلاب والقطط.

وفيها تُوُفِّي الشيـخ الإمام العالم العّلامة قاضي القضاة برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم آبـن القاضي علم الدين محمد بن أبـي بكر بن عيسى بن بدران الهيذباني السعدي الإخنائي المالكي قاضي قضاة الديار المصرية بها في يوم الأربعاء ثالث

(١) هو ذاته صاحب المدرسة السابقية، كما ذكر المقريزي في خططه: ٢/٣٩٣.

شهر رجب بعد أن مكث في القضاء خمس عشرة سنة. وكان ــ رحمه الله ــ من أعيان الفقهاء المالكية.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم العلامة قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء محمد ابن قاضي القضاة سديد الدين عبد البر بن صدر الدين يحيى السُّبكيّ الأنصاريّ الشافعيّ ــ رحمه الله تعالى ــ قاضي القضاة بالديار المصرية ثم بدمشق المحروسة في شهر ربيع الأوّل. ومولده في سنة سبع وسبعمائة. وكان إمام وقته وعالم زمانه. رَوَى البخاري عن الوزيرة[1] والحجار، وتولّى القضاء بدمشق ثم بمصر، ثم عزل وعاد إلى قضاء دمشق إلى أن مات ــ رحمه الله ــ بعد أن أفتى ودرّس وكتب وألّف ونظم ونثر. ومن شعره، رحمه الله تعالى: [الكامل]

وَدّعتُـهُ ولثمتُ بـاسِـمَ ثـغْـرِهِ ... مع خَدِّهِ وضَمَمْتُ مائسَ قَدِّه
ثُمّ أنْتَبهتُ ومُقلَتِي تَبْكي دمـاً ... يـا رَبِّ لا تَجْعَلْهُ آخِـرَ عَهْـدِهِ

قلت: ويعجبني في هذا المعنى قول الأديب المُفْتَنّ علاء الدين عليّ كاتب آبـن وداعة: [مخلّع البسيط]

إذا رأيـتَ آلـوَدَاعَ فـآصْبـر ... وَلاَ يَـهُـمّـنّـكَ الـبِـعـادُ
وانـتـظِرِ العَـوْدَ عـن قـريبٍ ... فـإن قـلـب آلـوداع عـادوا

وتُوُفِّي القاضي شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن القاضي علاء الدين علي ابن القاضي محيي الدين يحيى بن فضل الله بن المجلى بن دعجان. ينتهي نسبة إلى الإمام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. مات بدِمَشق ودُفِن بسفح قاسيون عن نيف وثلاثين سنة بعد أن باشر نيابة كتابة سر مصر عن والده. وكان إماماً بليغاً كاتباً ناظماً ناثراً. أخذ العربية عن الشيخ كمال الدين ابن قاضي شهبة ثم عن قاضي القضاة شمس الدين محمد بن مُسَلّم، رحمهم الله تعالى. وتوجّه القاضي شهاب الدين المذكور إلى دمشق وآستوطنها إلى أن مات. وشهاب الدين هذا سَمّي

(١) هي ست الوزراء بنت عمر بن أسعد التنوخية الحنبلية، أم محمد، وتدعى بوزيرة: فقيهة محدثة. توفيت سنة ٧١٦هـ. (الأعلام: ٣/٧٨).

على اسم عمّه شهاب الدين أحمد صاحب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» وقد مرّ ذكره وذكر جماعة من آبائه وأقاربه.

وتُوُفِّي الشيخ المعتقد أحمد بن مسعود المجذوب، ودُفِن بالقرافة بالقرب من قبّة الإمام الشافعيّ، رضي الله عنه. وكان يجلس في المريس[1] دائماً، وللناس فيه آعتقاد.

وتُوُفِّي الإمام العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي الشهير بـآبن الصائغ الحنفيّ ـ رحمه الله ـ في يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر شعبان. وكان إماماً في القراءات، وسَمِع الحديث، وأخذ النحو عن أبي حَيّان، وبَرَع في الفقه، وأعاد، ودرّس، وأفاد، وأفتى، وبَرَع في النحو والأدب، ودرّس بجامع آبن طُولُون بالقاهرة، وتَوَلّى قضاء العسكر بمصر. وكان أديباً لطيفاً ظريفاً بارعاً في النظم. ومن شعره: [الطويل]

بِرُوحيَ أفْدِي خالَه فوق خَدِّهِ ... ومَنْ أنا فِي الدنيا فأفديه بالمالِ
تبارك مَنْ أخلى من الشَّعْرِ خَدّه ... وأسكن كُلَّ الحُسنِ في ذلك الخالِ

وله عفا الله عنه: [الرجز]

قاسَ الوَرَى وجهَ حبيبي بِالقمرْ ... لجامِع بينهما وهو الخَفَر
قلت القياسُ باطِلٌ بِفَرْقِهِ ... وبعدذَا عِندِيَ فِي الوجهِ نَظَرْ

وله: [السريع]

وشادِنٍ ظَلَّتْ عيونُ الربَا ... لَمَّا رأتْهُ مُقبِلًا ساجِدَهْ
سألْتُه من رِيقِهِ شَرْبةً ... فقال ذِي مسألة بارِدَهْ

وتُوُفِّي السيِّد الشريف عزّ الدِّين عَجْلان بن رُمَيْثَة بن أبي نُمَيّ محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة بن إدريس المكيّ الحسنيّ أمير مكة. وكان قبل موته نزل لولده السيّد الشريف أحمد بن عَجْلان عن نصف إمْرة مكة التي كانت

(١) هو حكر الست حدق. ـ انظر خطط المقريزي: ٢/١١٦.

بيده، فإنه كان قبل ذلك نَزَل له عن النِّصف الأوّل قديماً. وكان وَلِي إمْرة مكة غير مرة نحو ثلاثين سنة، مستقلاً بها مدّة، وشريكاً لأخيه ثقبة مدة، وشريكاً لابنه أحمد هذا مدّة. وكانت وفاته في ليلة الأثنين الحادي عشر من شهر جُمادى الأولى ودُفن بالمعلاة ــ رحمه الله ــ وقد قارب السبعين سنة من العُمر. وكان ذا عقل ودَهَاء ومعرِفة بالأمور وسياسة حسنة. وكان بخلاف آبائه وأقاربه يُحِبُّ أهلَ السُّنّة ويَنْصُرهم على الشِّيعة، ورُبما كان يَذْكُر أنه شافعيّ المذهب، وهذا نادرة في السادة الأشراف، فإنّ غالبهم زَيْديّة يتجاهرون بذلك. قيل: إنه ذُكر عنده مرة معاوية بن أبي سُفْيان لينظروا رَأْيَه فيه، فقال عجْلان: «معاوية شيخٌ من كِبار قريش، لاح له المُلك فَتَلقَّفَهُ».

قلت: لو لم يكن من محاسنه إلا اتباعُـهُ للسنّة النبوية لكفاه ذلك شرفاً. وكان ممدوحاً مدحه النَّشْو أحدُ شعراء مكة بقصيدة طَنَّانة أوّلها: [الكامل]

لـولا الغَـرَامُ ووَجـدُهُ وتُحُـولُـه ... مـا كنتَ تَـرْحمـه وأنت عَـذُولُـهُ
إن كنتَ تُنْكـره فَسَلْ عن حـالِـهِ ... فـالـحبُّ داءٌ لا يُـفِـيق عـليـلُهُ
يا مَنْ يَلُومُ على الهَوى أهلَ الهَوى ... دَعْ لَـوْمَهُم فالصبـرُ مـات جَمِيلُهُ

وتُوُفيِّ الأمير سيف الدين أَسَنْبُغَا بن بَكْتَمُر الأبو بكري في يوم الأربعاء خامس المحرّم؛ وكان من عظماء أمراء الديار المصرية. كان خَصِيصاً عند الملك الناصر محمد بـن قلاوون وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه، ثم تَرَقى بعد موته حتى ولي الأمير آخورية الكبرى للسلطان حسن، ثم للأشرف. ثم ولي نيابة الإسكندرية، ثم نيابة حلب، ثم حُجُوبيّة الحجَّاب بديار مصر. وطالت أيامه في السعادة. وأظنُّه صاحب الأبُوبَكْرِية[١] داخل القاهرة. والله أعلم.

وتُوُفيِّ الشيـخ الإمام المعتَقَد العالم العلاّمة جمال الدين عبد الله بن محمد بن أبـي بكر بن خليل بن إبراهيم بن يحيـى بن أبـي عبد الله بن يحيى بن إبراهيم بن سعيد بن طلحة بن موسى بن إسحاق بن عبد الله بن محمد بن أبَان بن عثمان بن عَفَّان ــ رضي الله عنه ــ في يوم الأحد ثالث شهر جُمَادَى الأولى بخَلْوته بسطح

(١) المدرسة البوبكرية. (خطط المقريزي: ٢/ ٣٩٠).

جامع الحاكم. وكانت جَنازته مشهودة جدّاً، اِجتمع فيها خلائقُ لا تُحْصى، رحمه الله. ومولده في سنة أربع وتسعين وستمائة. وكان فقيهاً شافعياً صاحب فنون وعلوم.

وتُوُفيِّ الأمير ناصر الدين محمد آبن الأمير قيران الحُساميّ كان أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصريّة، رحمه الله تعالى. وكان كريماً شجاعاً مِقْداماً، وله وجاهةٌ في الدُّوَل وحُرْمَةٌ وافرة.

وتُوُفيِّ تاج الدين أبو غالب الكلبشاوي[١] الأسلَمِيّ القِبْطِيّ ناظر الذَّخِيرة في نصف شهر شوّال، وإليه تُنْسَب المدرسة المعروفة بمدرسة أبي غالب تجاه باب الخوخة[٢] ظاهر القاهرة.

وتُوفي شيخ الكُتّاب غازي بن قُطْلُوبغَا التركي في شهر رجب وقد آنتهت إليه الرياسة في الخط المنسوب، وتصدّر للإفادة سنين عديدة، وآنتشر خطه في الآفاق.

وتُوُفِّي الشيخ نور الدين عليّ بن محمد بن محمد بن عليّ بن أحمد الكنانيّ العسقلانيّ الشافعيّ، الشهير بآبْن حجر، والد الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر، في يوم الأربعاء عاشر شهر رجب. وكان تاجراً بمدينة مصر القديمة، وتفقّه على مذهب الإمام الشافعيّ ــ رضي الله عنه ــ وحَفِظَ الحاوِي، وأخذ الفقه عن بهاء الدين محمد بن عَقِيل ــ رحمه الله ــ وقال الشعر. ومن شعره يُشير إلى المَتْجر: [المجتث]

إِسكندريّة كم ذا يسمو قُماشُكِ عِزًّا
فَطَمتُ نَفْسِيَ عنها فلستُ أطلُبُ بَزًّا

وله أيضاً: [الكامل]

يا ربِّ أعضاء السُّجودِ عَتَقْتَها من فضلِك آلوافِي وأنت آلواقِي
وآلعِتْقُ يُشْرَى بِآلغِنَى ياذا الغِنى فآمْنُنْ على آلفانِي بِعتْقِ آلباقِي

أمر النيل في هذه السنة:

(١) نسبة إلى بلدة «كلبشو» إحدى قرى مركز السنطة بمديرية الغربية بمصر. (محمد رمزي).
(٢) باب الخوخة: أحد أبواب القاهرة القديمة في سورها الغربي (خطط المقريزي: ٢/ ٤٥).

الماء القديم خمسة أذرع وأربعة أصابع. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وثلاثة عشر إصبعاً. والله أعلم.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر

وهي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وهي التي قُتل فيها في ذي القعدة.

فيها تُوُفيِّ القاضي مُحبُّ الدين أبو عبد الله محمد آبن القاضي نجم الدين أبي المحاسن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم التَّميميّ المصري، ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية بها في يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر ذي الحجة عن إحدى وثمانين سنة. وكان في آبتداء أمره تولّى ديوان جَنْكَلي بن البابا، ثم خدم عند الأمير مَنْكَلي الفخريّ، فكتب إليه الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِيّ يقول: [السريع]

مِن جَنْكَلِي صِرْتَ إلى مَنْكَلِي فكلَّ خيرٍ أرتَجِى منك لِي
وأنت لِي كهفٌ وما مَقْصِدي مِن هذِهِ آلدنيا سِوى أنتَ لِي

وكان القاضي مُحبُّ الدين المذكور رجلاً صالحاً فاضلاً، وله سماعٌ عالٍ، وله مصنّفات ــ رحمه الله ــ منها «شرح التسهيل» في أربعة مجلدات و«شرح التلخيص في المعاني والبيان» وغير ذلك.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم العلّامة تقيّ الدين أبو الفِداء إسماعيل بن نور الدين عليّ بن الحسن القَلْقَشَنْدِيّ الشافعيّ المصريّ، مفتي المسلمين بالقُدس الشريف، عن نحو سبعين سنة. وكان فقيهاً بَرَع في عِدّة علوم وأفتى ودرّس واستقل. رحمه الله.

وتُوُفِّي الشيخ المُسْنِد المُعَمَّر الرُّحلة أبو حفص عمر بن الحسن بن مَزْيَد، الشهير بابن أُمَيلة، المَرَاغيّ الحلبي ثم الدمَشْقي بها عن ثمان وتسعين سنة، بعد أن صار رُحْلَةَ زمانه، وقُصِد من الأقطار للسماع عليه، فسَمِع منه خلائقُ كثيرة.

وتُوُفِّي الشيخ الأديب جمال الدين أبو الربيع سليمان بن داود بن يعقوب

المصريّ ثم الحلبيّ بحلب، وقد قارب الخمسين سنة. وكان معدوداً من الكُتَّاب الأدباء الفضلاء ومن شعره: [الطويل]

رِياضٌ جَرتْ بِٱلظُّلم عادات رِيحِها وسار بِغيرِ ٱلعدلِ فِي ٱلحُكْم سَيرُها
ففَرّقتِ ٱلاغصانَ عِنـد ٱعتِنـاقِهـا وَسَلْسلَتِ ٱلانهـارَ إذ جنّ طيرُهـا

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين يعقوب شاه بن عبد الله، الحاجب الثاني وأحدُ مُقَدّمي الألوف بالديار المصرية. وكان ممن قام مع الملك الأشرف في واقعة أسَنْدَمُر وأظهر شجاعة عظيمة، فَقرّبه السلطان الملك الأشرف مِن ثَمّ ورقّاه وأنعم عليه، حتى جعله من جملة الأمراء الألوف بالديار المصرية إلى أن مات، رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي السلطان الملك الأفضلُ عباس ٱبن الملك المُجاهد عليّ ٱبنِ الملك المؤيّد داود ٱبنُ الملك المظفّر يوسف بن عمر [بن علي] بن رَسُول التُّرْكمانيّ الأصل اليمنيّ صاحب اليمن وٱبن صاحبها ـ رحمه الله تعالى ـ في شعبان. وتسلطن بعده ولده السلطان الملك الأشرف إسماعيل. وكان الملك الأفضل وَلي السلطنة بعد موت أبيه المجاهد في شهر جمادى الأولى سنة أربع وستين وسبعمائة. ولمّا ولِي اليمن خرج في أيامه ٱبن ميكائيل[1] فوقع له معه وقائع، حتى أباده الأفضل وزالت دولة ٱبن ميكائيل في أيامه. وكان الأفضل ـ رحمه الله ـ شجاعاً مهاباً كريماً، وله إلمامٌ بالعلوم والفضائل، ومشاركة جيّدة في عدّة علوم وتصانيف منها: «كتاب العطايا السنية في ذكر أعيان اليمنية» و«كتاب نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون» و«مختصر تاريخ ٱبن خَلِّكان» و«كتاب بُغْية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم» وكتاب آخر «في الألغاز الفقهية» وغير ذلك. وكان فيه بِرٌّ

---

(١) هو نور الدين محمد بن ميكائيل: من أمراء الدولة الرسولية في اليمن. كان عالي الشأن في مدة انقياده للدولة الرسولية. وثار على الملك المجاهد في مقاطعة حرض وادعى السلطنة فحاربه المجاهد. واستفحل أمره بعد موت المجاهد فجهز له الملك الأفضل جيشاً كثيفاً فتغلب عليه، ولجأ ابن ميكائيل إلى الإمام علي بن محمد الهدوي فأعطاه حصن المفتاح وما يضاف إليه، فأقام به إلى أن توفي سنة ٧٧٩هـ. (الأعلام: ١٢١/٧).

وصدقة وله مآثرُ حسنة، رحمه الله تعالى. بَنَى مدرسة عظيمة بتعِزّ، وله أيضاً بمكة مدرسة معروفة به بالصفا. وقيل: إن هذه التصانيف المذكورة إنما هي لقاضي تَعِز رضيِّ الدين أبي بكر بن محمد بن يوسف الجرائي الصبريّ [الناشري]، رحمه الله. عَمِل ذلك على لسان الأفضل، والله أعلم.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين جَرَكْتَمُر بن عبد الله الخاصّكي الأشرفيّ، أحد مقدّمي الألوف، بالقاهرة مقتولاً في هذه السنة. وكان من خواصّ الملك الأشرف هذا ومن أجل مماليكه.

وتُوُفِّي السلطان الملك المظفّر فخر الدين داود ابن الملك الصالح صالح ابن الملك المنصور غازي بن ألْبي بن تَمُرتاش بن إيل غازي بن أُرتق الأرْتقيّ صاحب مارِدِين وآبن صاحبها بماردين في هذه السنة، بعد أن حكمها نحو عشرين سنة. وتَولّى سلطنة ماردين من بعده آبنه الملك الظاهر مجد الدين عيسى الآتي ذكره في محّله، إن شاء الله تعالى. وكان الملك المظفر هذا ولي ملك ماردين بعد آبن أخيه الملك الصالح محمود الذي أقام في سلطنة ماردين أربعة أشهر عوضاً عن والده الملك المنصور أحمد آبن الملك الصالح صالح. وخُلِع [الملك الصالح محمود] وتسلطن الملك المظفر هذا، فأظهر العدل، وآقتفى أثَر والده الملك الصالح في الإحسان إلى الرعية وإصلاح الأمور إلى أن مات، رحمه الله.

وتُوُفِّي في هذه السنة جماعةٌ كبيرة من الأمراء الأشرفية ممن مرّ ذكُرهم في أواخر ترجمة الملك الأشرف، قُتِلوا بالسيف عند كَسرة الأشرف من العَقَبة، وهم: الأمير سيف الدين أَرْغون شاه بن عبد الله الجَماليّ الأشرفي، أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، وأجّل أمراء الأشرف، بعد أن قَدِم معه من العَقَبة. والأمير سيف الدين صَرْغتمش بن عبد الله الأشرفيّ، رأس نوبة في[1] النُّوَب، وأحد مقدّمي الألوف أيضاً بالديار المصرية. والأمير سيف الدين يَلْبُغا بن عبد الله السابقيّ الأشرفي، أحد مقدّمي الألوف أيضاً. والأمير سيف الدين بَشْتَك بن عبد الله

(١) كذا. ولعله يريد «رأس نوبة النوب». وقد مرّ التعريف بهذه الوظيفة، فانظر فهرس المصطلحات.

الأشرفيّ، أحد مقدّمي الألوف أيضاً، وهو غير بَشْتَك الناصري صاحب القَصْر والحمّام. والأمير سيف الدين أرْغُون بن عبد الله العِزِّي الأشرفيّ الأفْرَم، أحد مقدّمي الألوف أيضاً. وغيرهم من أمراء الطبلخانات والعشرات.

وهؤلاء الذين ذُكِرُوا هم أعيان الأشرفية القادمون صحبةَ أستاذهم الملك الأشرف من العَقبة إلى مصر. قُتِلوا الجميع في ساعة واحدة، وأتَوْا برؤوسهم من قبة النصر إلى الأمراء الذين ثاروا بالقاهرة وهم يقولون: «صَلُّوا على محّمد» ووضعوها بين أيديهم. وقد تقدّم ذِكْر ذلك في أواخر ترجمة الملك الأشرف شعبان، وتأتي بقيّة ما وقع في ترجمة الملك المنصور علي ابن الملك الأشرف شعبان هذا.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع وأثنتا عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وإصبعان. والله أعلم.

ذكر سلطنة الملك المنصور عليّ[١] على مصر

السلطان الملك المنصور علاء الدين عليّ آبن السلطان الملك الأشرف زين الدّين شعبان آبن الأمير الملك الأمجد حسين آبن السلطان الملك الناصر محمد آبن السلطان الملك المنصور قلاوون الألفيّ الصالحيّ؛ وهو السلطان الثالث والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية. تسلطن في حياة والده حسب ما تقدّم ذكره [وذلك] أنّ الأمير قَرطاي وطشتمر اللّفّاف وأينبك البدري، لمّا ثاروا بمن معهم بالدّيار المصرية، وطلعوا إلى القلعة وأخذوا أمير عليّ هذا من الدور السلطانية وسلطنوه في حياة والده، أرادوا بذلك انضمام الناس عليهم ـ فإنهم كانوا أشاعوا موت الملك الأشرف شعبان في العقبة ـ حتى تمّ لهم ما أرادوه، وسلطنوا أمير عليّ هذا من غير حضور الخليفة والقُضاة، فإنهم كانوا صُحبة السلطان الملك الأشرف بالعقبة. فلمّا زالت دولة الملك الأشرف، وقُبِض عليه، وقُتِل، ثم حضر الخليفة المتوكِّل على الله أبو عبد الله محمد من العقبة، وكان القضاة بالقُدس الشريف توجّهوا إليه من العقبة بعد واقعة الملك الأشرف وهروبه إلى مصر.

فلما كان يوم الخميس ثامن شهر ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وذلك بعد قتل الملك الأشرف شعبان بثلاثة أيام، اِجتمع الأمراء القائمون بهذا الأمر بالقلعة، وآستدعوا الخليفة ومَنْ كان بمصر من القضاة ونوّاب من هو غائب من القضاة بالقدس، وحضر الأمير آقتمر الصاحبيّ نائب السلطنة بالديار المصرية،

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٢٨٤/١/٣؛ وإنباء الغمر: ١٩٥/١ وما بعدها؛ والجوهر الثمين: ٢٤٣/٢؛ وخطط علي مبارك: ١٠٨/١؛ والأعلام: ٢٩٣/٤.

وقعدوا الجميع بباب الآدر الشريفة من قلعة الجبل، وجدّدوا[١] البَيْعَة بالسلطنة للملك المنصور عليّ هذا بعد وفاة أبيه الملك الأشرف. وقَبِل له البيعة آقتمر الصاحبيّ المذكور، ولَبّسوه السواد، خلعةَ السلطنة، وكانت فرجيّة حرير بَنَفْسِجيّ بطرز ذهب، وبدائرها تركيبة زَرْكش بحاشية حرير أزرق خطائي وشاش أسود خليفتي، وقبعاً أسود بعذبة خليفتيّاً زَرْكش[٢]. وركب بأبّهة السلطنة وشِعار المُلك من باب الستارة، والأمراء مشاة بين يديه، إلى أن وصل إلى الإيوان وجلس على تخت المُلك في يوم الخميس المذكور. وقبّلت الأمراء الأرض بين يديه، وحلفوا له على العادة، وأخْلَع على الخليفة وعلى الأمراء وعلى مَنْ له عادة بلُبْس الخِلَع، ومُدّ السِّماط. وكان عُمْرُ السلطان الملك المنصور يوم تسلطن نحو سبع[٣] سنين تخميناً.

ثم قام الملك المنصور من الإيوان، ودخل إلى القصر، وأخلع على الأمير طَشْتَمُر اللفَّاف [المحمدي][٤] باستقراره أتَابَك العساكر بالديار المصرية، وأنعم عليه بكل مال أَرْغُون شاه الأشرفيّ بعد قتله. وخَلَع على الأمير قَرطاي الطازيّ، واستقرّ رأسَ نَوْبة كبيراً وأَطابَكاً[٥]، وأنْعَم عليه بكل مال صَرغَتمش الأشرفيّ بعد قتله أيضاً، وَرَسم لهما أيضاً أن يجلسا بالإيوان في الميمنة. وخَلَع على أسنْدَمُر الصَّرغتمشيّ، وآستقرّ أمير سلاح، ورَسَم له أن يجلس في الميسرة. وخلع على قُطْلُوبغا البَدْريّ، وآستقرّ أمير مجلس. وخلع على طَشْتَمُر العلائي الدوادار، وآستقرّ في نيابة دَمشق، ورَسَم له أن يخرج من يومه. وخلع على إياس الصرغتمشيّ، وآستقرّ

(١) كانوا أقاموه في الملك، وأبوه حيّ، يوم السبت ثالث ذي القعدة. وفي هذا اليوم الخميس ثامن ذي القعدة جددوا له البيعة.

(٢) عبارة السلوك في وصف الخلعة: «ثم أفيضت عليه الخلعة الخليفتية، وهي فرجيّة حرير بنفسجي بطرازين ذهب، ودايرها من رأس كميها وعاتقيها وذيلها تركيبة ذهب، وتحتانية حرير أزرق خطائي، وألبس عمامة عربية من حرير أسود على قبع حرير أسود، وأرخى لها عذبة حرير مزركش».

(٣) في إنباء الغمر والجوهر الثمين: «وهو ابن ثمان سنين».

(٤) زيادة عن السلوك.

(٥) الأطابك والأتابك هو أمير العسكر وقائد الجيش. راجع فهرس المصطلحات.

دويداراً[١] كبيراً عوضاً عن طشتمر العلائيّ بإمرة طبلخاناه. ثم أنعم على أينبك البدريّ، وآستقرّ أمير آخور كبيراً. و[أنعم على][٢] بلاط السيفي ألجاي الصغير [بتقدمة ألف][٢] و[كذلك على] دِمِراش اليُوسفيّ وآستقرّ رأس نوبة ثانياً؛ وهذه الوظيفة هي الآن وظيفة رأس نوبة النُّوب في زماننا هذا. [وأنعم على] يلبغا النظاميّ وألْطنبغا السلطانيّ [بتقدمة ألف][٣]. وكان الجميع أجناداً ما عدا أيْنَبَك البدريّ فإنه كان أمير طبلخاناه، وطَشْتَمُر اللَّفاف فإنه كان أمير عشرة فانتقل للأتابَكيّة دفعة واحدة.

وأنعم على جماعة بإمرة طبلخاناه، وهم: الأمير طُغَيْتمر الناصري، وقُطْلُوبغا البَيْسَريّ، وبِيخَجا[٤] الكامليّ، وصَرْبُغا الناصريّ، وطُولُو الصَّرغتمشيّ، وأُطْلَمش الأرْغُونيّ، ومُقبل الروميّ، وألجيبغا السيفي أُلجاي، وقُطْلُوبُغا النظاميّ، وأحمد بن يحمر[٥] التُّرْكُمانيّ، وقُطْلُوخَجا أخو أَيْنَبَك البدريّ، وتَمربُغا البدريّ، وألْطُنْبُغا المُعَلِّم، وتُلَكْتَمُر بن عبد الله المنصوري، وأسنبغا الصارميّ، وأطْلَمش الطازيّ، وإبـراهيم بن قُطلُقْتَمُـر العـلائي، وأُرُنبغـا[٦] السيفيّ أُلجيبغَـا، وعليّ بن آقْتَمُـر عبد الغنيّ، وأسنبغا النظاميّ، ومأمور القَلْمَطاويّ.

وأنعم على جماعة بإمرة عشرات وهم: تُكَا الشمسيّ، ومحمد بن قَرَطاي الطازيّ، وخضر بن ألْطُنْبُغا السلطاني، ومحمد بن شعبان بن يلبُغا العمريّ، وأسَنْبُغا المحموديّ، وطُبُج المحمديّ، وألْطُنْبُغا شادي، وسُودون العثمانيّ شادّ السلاح خاناه، وتُلَكْتَمُـر المنجكيّ، وآقبغا السيفيّ أُلجـاي، وجَرْكَس السَّيفيّ أُلجـاي، وطُقْتَمِش السيفيّ يلبغا، وطُوغان العُمَريّ الظهيريّ، وبَكْلَمُش الإبراهيميّ، ويَلْبُغَا

---

(١) الدويدار والدوادار والدويتدار هو حامل دواة السلطان. ـ انظر فهرس المصطلحات.

(٢) زيادة عن السلوك والجوهر الثمين.

(٣) زيادة عن السلوك والجوهر الثمين.

(٤) في السلوك والجوهر الثمين: «بيقجا الكمالي».

(٥) في السلوك والجوهر الثمين: «أحمد بن همر».

(٦) في السلوك: «وأربغا السيفي». وفي الجوهر الثمين: «وأربغا السيفي الجبغا».

العلائي دوادار أمير عليّ النائب، ويوسف بن شـادي أخو حـاج ملك، وخِضْر الرسوليّ، وأسَنْدَمُر الشـرفيّ، ومغلطاي الشرفيّ، وخليـل بن أَسَنْدَمُـر العلائيّ، ورمضان بن صرغتمش، وحسن أخو قُطْلُوبُغا حاجِّي أمير علم، ومَنْكَلي الشمسي، وأُلجيبغا السيفيّ جَنْقَرا(١).

ثم رُسِم بالإفراج عن جماعة من السجن بقلعة الجبل في يوم السبت عاشر شهر ذي القعدة وهم: الأمير آقْتَمُر عبد الغني نائب السلطنة بديار مصر ونائب الشام كان، والأمير عَلَم المحمديّ، وأَيْدَمُر الشمسيّ، وسودُون جَرْكس المَنْجكيّ، وطيبغا الصَّفَويّ أُلْجاي، ومُغلطاي البدريّ الجماليّ، وصَرْبُغَا السيفيّ، وطَشْتَمُر الصالحيّ، وبـلاط الكبير السيفيّ ألجـاي، وحَطَط اليَلْبغـاويّ، وإياس المـارِدينيّ، وبَلُّوط الصَّرغتمشيّ، ويلبغا المَنْجكيّ، وقرابغا أبو جَرْكَتَمُر، وحاجيّ خَطاي والد غريب. ثم من الغد أُمِر بمسكهم ثانياً وتقييدهم وإرسالهم إلى سجن الإسكندريه، فقُبِض عليهم وأُرسلوا في تلك الليلة ما خلا آقْتَمُر عبد الغنيّ وسودُون المَنْجكيّ (٢).

ثم في يوم الأحد ثامن عشر ذي القعدة قَبَضُوا على جماعة من مُباشِري الدولة، وطلعوا بهم إلى القلعة وهم: الصاحب الوزير شمس الدين المقسِي، وتاج الدين موسى ناظر الخواصّ الشريفة، وأمين الدّين [مين](٣)، وعلاء الدين بن السائس، وشهاب الدين بـن الطُّولوني، وأُدخِلُوا قاعة الصاحب، وصُودِرُوا حتى قُرِّر عليهم ما يقومون به من الأموال، ثم أُفرِج عنهم.

ثم أُحْضِر الأمير صلاح الدين خليل بن عَرّام من الإسكندرية وصُودِر وقُرِّر عليه ألف درهم، ثم خُلِـع عليه باستقراره في نيابة الإسكندرية على عادته.

ثُمّ مَسكوا من الطواشية والخدّام جماعةً كبيرة، وهم: مختصّ الأشرفيّ،

---

(١) في الجوهر الثمين: «جنغرا».
(٢) في السلوك: «سودون جركس».
(٣) زيادة عن السلوك.

وجَوْهر الإسكندريّ، وسُنْبُل رأس نوبة الجَمدارية[١]، وأُدْخلوا قاعة الصاحب [على مال ألزموا بهً][٢].

ثم أصبحوا من الغد قَبَضوا على جماعة أخر وهم: دينار اللآّلا، وشاهين دست، وسُنْبُل الّلفاف أحد الجَمدارية، وأُدخلوا أيضاً إلى قاعة الصاحب.

ثم أصبحوا من الغد ورسموا لمثقال الجماليّ الزِّمام بحمل ثلاثمائة ألف درهم، ثم آستقـرّت مائة ألف درهم.

ثم في يوم الاثنين تاسـع عشر ذي القعدة خُلِـع على الأمير آقتمر الصاحبـيّ وآستقـرّ على نيابة السلطنة بالدّيار المصرية، كما كان في أيام الملك الأشرف شعبان، وفُوِّض إليه أن يُخْرِج الإقطاعات للأمراء والأجناد والنوّاب وألاّ يكون لأحد معه تَحكُّم، وذلك بعد أن رَضِيَت الأمراء والخاصّكية والبّرانيُّون بذلك.

ثم أخلـع على الأمير أَرْغُون الإسْعِرديّ بنيابة طرابُلُس عوضاً عن الأمير مَنْكَلي بغا الأحمديّ البلديّ. ثم أُخْلـع على القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السِّر باستمراره على وظيفته.

ثم أخلـع على الصاحب تاج الدين المَكِّيّ بإعادته إلى الوزارة ثانية. وهي وزارته الرابعة. وأُخْلِـع على القاضي كريم الدين بن الرُّويهـب باستقراره ناظر[٣] الدولة. وآستقـرّ القاضي تقيّ الدين عبد الرحمن آبـن القاضي محب الدين محمد في نظر[٤] الجيوش المنصورة عوضاً عن والده محبّ الدين المذكور بحكم وفاته.

---

(١) رأس نوبة: هو الذي يحكم على جماعة من المماليك السلطانية. ورأس نوبة الجمدارية هو رأس المماليك الذين يقومون على إلباس السلطان ثيابه. (انظر صبح الأعشى: ١٨/٤، ٦٠ ـ و ٤٥٩/٥).

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) ناظر الدولة: هو ناظر الدواوين. ويشارك الوزير في التصرف والنظر في المالية وأرزاق أصحاب القلم (أي الموظفين غير العسكريين). ويسمى أحياناً ناظر النظار أو الصاحب الشريف؛ ومقرّه ديوان النظر. ويعاونه في أعماله متولي الديوان، وهو ثاني رتبة الناظر. (صبح الأعشى: ٤٦٥/٥).

(٤) كان على رأس ديوان الجيش موظف مدني كبير يسمى ناظر الجيش. وكان عمل ديوان الجيش هو تسجيل أسماء الجنود وأعدادها ونفقاتها. وكان قيدهم عادة تحت أسماء أمرائهم وهم القواد، بحيث إن أي جندي لا يستطيـع أن ينقل من قيد أمير إلى أمير آخر. (انظر صبح الأعشى: ٣٢٣/١١، ٣٢٥؛ وخطط المقريزي: ١٤١/١).

ثم شَرَع الأمراء في النفقة على المماليك السلطانية، فأعطُوا كلّ نَفَر عشرةَ آلاف درهم.

وفي ثاني عشر شهر ذي الحجة قُرِىء تقليدُ السلطان الملك المنصور علي بالإيوان من قلعة الجبل، وعَلَّم عليه الخليفة المُتوكّل على الله، وشَهِدت عليه القضاة بتفويض السلطنة للملك المنصور. وخُلع على الخليفة وأُنعِم عليه بألف دينار، وهي رَسْمُ المبايعة.

ثم بعد أيام دخَلَ أَسنَدْمَر الصرغتمشيّ ودِمِرْداش اليُوسفيّ إلى الدُّور السلطانيّة وفرّقوا جَوارِيَ الملك الأشرف شعبان على الأمراء.

ثم آستقرّ في خامس المحرّم من سنة تسع وسبعين وسبعمائة الأمير قَرطَاي الطازِيّ أَتابكاً بعد موت طَشْتَمُر اللَّفّاف، وأُخلع عليه بعد أيام بنظر البيمارستان المنصوريّ. وأخلع على الأمير مُبارك الطازيّ وآستقرّ رأسَ نَوْبة كبيراً عوضاً عن قَرطَاي المذكور. ثم بعد ذلك بمدّة يسيرة آستقرّ الأمير أَيْنبَك البدرِيّ الأمير آخور الكبير في نظر البيمارستان، عوضاً عن قَرطَاي، برغبة قرطاي عنه. وآستقرّ سُودُون جَرْكس أُستاداراً.

ثم في العشرين من المحرّم خُلع على الأمير سودون الفخريّ الشّيخونيّ وبلُّوط الصرغتمشيّ وآستقرّا حاجبَيْن بالديار المصريّة.

ثم في صفر حضر الأمير يلبغا الناصريّ إلى القاهرة، وكان قد نفِي إلى بلاد الشام بعد قتل السلطان الأشرف، فأُنْعِم عليه بإمرة طبلخاناه. وكانوا أيضاً قبل تاريخه قد عَزَلُوا الأمير مَنْكَلِي بغا الأحمديّ عن نيابة طَرابُلس وتَمرُباي نائب صَفَد عن نيابة صفد، فجاء الخبر بأنّ مَنْكَلِي بغا حَلّ سيفَه وأطاع، وأنّ تَمُرباي عَصَى وآمتنع بصَفَد، فخلع على الأمير أرغون الإسعرديّ ثانياً بنيابة طرابلس عوضاً عن منكلِي بغا المذكور، وتولى نيابة حماة تمراز الطازيّ.

ثم في هذه الأيام بدت الوحشة بين قَرطاي الطازيّ الأتابك وبين صهره أَيْنبَك البَدْرِيّ الأمير آخور الكبير في الباطن، كلُّ ذلك في هذه المدّة اليسيرة، وصار كلّ

واحد يُدبِّر على الآخر مع أصحابه وحواشيه. فلمّا كان يوم الأحد العشرون من صفر، عَمِل الأمير الأتابك قَرطَاي وليمةً، فأهدَى له أَيْنَبَك مشروباً يقال له الشُّشْش[١] وعمل فيه بنجاً، فلما شربه قرطاي تبنج وكان لأينبك عند قرطاي عيون فأخبروه أنَّه تبنّج، فركب أينبك من وقته بالسلاح ومعه جماعة كبيرةٌ ملبسين، وأنزل السلطان الملك المنصور علِيّا إلى الإسطبل السلطانيّ، ودُقَّت الكوسات، فجاءت الأمراء إلى السلطان، وأقامَ أيْنبك راكباً من عصر يوم الأحد إلى صبيحة يوم الاثنين، وسببه أنه كان عند قَرطَاي في بيته جماعةٌ من الأمراء من أصحابه: منهم سُودون جَرْكَس، وأَسَنْدَمر الصرغتمشيّ، وقُطْلُوبُغَا البدريّ، وقطلوبغا جَرْكَس أمير سلاح، ومبارك الطازيّ رأس نَوْبة كبير، وجماعةٌ أُخَر من أمراء الطبلخانات والعشرات؛ فرِكَبوا الجميع ومنعوا أينبك من الوصول[٢] إلى قرطاي، وحَمَوْه إلى أن آستفاق قرطاي من بَنْجه، وقد ضَعُف أمر أصحابه وقَوِي أمرُ أينبك. فبعث قرطاي يسأل أينبك أن يُنْعِم عليه بنيابة حلب ويُرْسِلَ إليه مِنْدِيل الأمان، فأجابه أينبك إلى ذلك. فخرج قرطاي من وقته إلى سِرْياقوس.

وقَبضَ أينبك على من كان عند قَرطَاي من الأمراء، فإنّهم كانوا قاتلوه وأبادوه[٣] من أخذ قرطاي، وقيَّدهم وأرسلهم إلى الإسكندرية فسُجِنوا بها.

ورُسم للأمير آقتمر الصاحبيّ نائب السلطنة بمصر بنيابة دِمَشق عوضاً عن طَشْتَمُر العلاَئيّ الدوادار، فَلبس آقتمر الخِلعة وخرج من وقته.

ونُودِي بالقاهرة ومصر في الوقت بالأمان، ومن كان له ظُلامة فعليه بباب المقرّ الأشرَف العزيّ الأتابك أَيْنبَك البدريّ.

---

(١) الشُّشْش: ضرب من المسكر مثل البشتكي والتمربغاوي. (النجوم: ٧٩٨/٦، ٧٩٩ ـ طبعة كاليفورنيا) ـ وذكر المقريزي في السلوك أن تلك الوليمة كانت بمناسبة زواج الأمير قرطاي بابنة أينبك. قال: «وحمل الأمير أينبك تقدمة برسم عرس الأمير قرطاي... ومن جملتها عدة جرار خمر قد عمل فيه بنج». ـ انظر أيضاً إنباء الغمر: ٢٣٠/١.

(٢) في السلوك أن جماعة الأمراء المذكورين مع قرطاي قد كانوا جميعهم في غيبة من السكر لا يعون ولا يفيقون. ولم يذكر أنهم حموا صاحبهم قرطاي.

(٣) كذا! ولعل الصواب: «وأبعدوه».

وسافر قرطاي، فلمّا وصل إلى غزَّة نُفِيَ إلى طرَابُلُس[١]؛ ثم حُمل منها إلى المَرْقَب[٢] فحُبِس به. ثم خُنِق بعد مدّة يسيرة.

وصَفا الوقت لأينبك، فأخلع السلطان عليه خِلْعة سنيّة في خامس عشرين شهر صفر بآستقراره أتابك العساكر ومُدِّبر الممالك. وخَلَع على الأمير آقْتمر عبد الغني وآستقرّ نائب السلطنة بالديار المصريّة عِوَضاً عن الأمير آقتمر الصاحبيّ المُنْتَقِل إلى نيابة دِمَشق. وكلاهما قديمُ هجِرْة من أكابر الأمراء المشايخ.

وآستقرّ الأمير بهادر الجماليّ أستاداراً عوضاً عن سودون جَرْكَس. وآستقرّ بلاط السيفي أُلْجاي أمير سلاح، عوضاً عن قطلوبغا جركس. وآستقرّ أَلْطُنْبغا السلطانيّ أمير[٣] مجلس. وآستقرّ دِمرداش اليوسفيّ رأس نوبة كبيراً.

وأُنعم على يَلبُغا الناصريّ بإمرة مائة وتقدمة ألف، وآستقرّ رأس نوبة ثانياً. ويلبغا الناصريّ هذا هو صاحب الوقعة المشهورة مع السلطان الملك الظاهر برقوق، وإلى الآن برقوق لم يتأمّر عشرة.

ثم أُنعِم على أطلمش الأَرْغونيّ بإمرة طبلخاناه، وآستقرّ دواداراً كبيراً عوضاً عن إياس الصرغتمشيّ. وأُخلع على قُطْلوخَجا وآستقرّ أمير آخور كبيراً عوضاً عن أخيه أينبك البدريّ.

وصار الأمر في المملكة لأينبك البدريّ وحده من غير منازع. وأخذ أينبك في المملكة وأعطى، وحكم بما آختاره وأراده. فمن ذلك أنه في رابع شهر ربيع الأوّل رَسَم بنفي الخليفة المتوكّل على الله تعالى إلى مدينة قُوص، فخرج المتوكل على الله، ثم شُفِع فيه فعاد إلى بيته. ومن الغد طَلَب أينبك نجمَ الدين زكريا بن إبراهيم آبن الخلفية الحاكم بأمر الله وخلع عليه وآستقرّ به في الخلافة عوضاً عن

---

(١) المراد بها طرابلس الشام، على الساحل اللبناني.

(٢) المرقب: بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بلنياس. (معجم البلدان).

(٣) أمير مجلس: هو الذي يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم. ومن عمله أيضاً أنه يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير في الترتيب وغيره. (صبح الأعشى: ٤/١٨ و ٥/٤٥٥).

المتوكِّل على الله من غير مبايعة ولا خلع المتوكل من الخلافة نفسَه، ولُقِّب زكرياء المذكور بالمعتصم بالله. ثم في العشرين من شهر ربيع الأوّل المذكور تكلّم الأمراء مع أينبك فيما فعله مع الخليفة، ورغّبوه في إعادته، فطلبه وأخلع عليه على عادته بالخِلافة، وعَزَل زكرياء. ومن الناس من لم يُثْبِت خلافة زكريا المذكور، فإنّه لم يَخْلع المتوكل نفسه من الخلافة حتى يبايع زكريا المذكور.

ثم بدأ لأيْنبَك أن يُسْكِن جماعةً من مماليكه بمدرسة السلطان حسن وبمدرسة الملك الأشرف شعبان، ويجعل في كل مدرسة مائة مملوك. ثم أَعْطَى أينبك لولديه تقدمتي ألف، وهما الأمير أحمد وأبو بكر. ثم نَفَى أرغُون العثماني إلى الشام بطالاً. وخَلَع على مُقْبِل الدوادار الطواشيّ الروميّ وآستقرّ زماماً بالآدر الشريفة عوضاً عن مثقال الجماليّ. ثم خلع على بهادر الجماليّ الأستادار وآستقرّ في نظر[1] البيمارَسْتان المنصوريّ.

وبينما أَينَبك في أمره ونهيه، ورد عليه الخبرُ بعصيان نوّاب الشام. ففي الحال عَلّق أينبك جاليش السفر في تاسع عشر شهر ربيع الأوّل المذكور، ورَسَم للعساكر بالتجهيز إلى سفر الشام. وأسرع بالنفقة على العساكر وتجهّز في أسرع وقت. وخرج الجاليشُ من القاهرة إلى الريدانية في سادس عشرين شهر ربيع الأوّل المذكور، وهم خمسة من أمراء الألوف أوّلهم: قُطْلوخَجا الأمير آخور الكبير أخو أينبك الأتابك، وأحمد ولده، ويلبغا الناصريّ، والأمير بلاّط السيفيّ أُلجاي، وتَمُر باي الحسنيّ. ومن الطبلخانات: بُورِي الأحمديّ، وآقبغا آص الشيخونيّ في آخرين، ومائة مملوك من المماليك السلطانية، ومائة مملوك من مماليك الأتابك أينبك.

وفي تاسع عشرين شهر ربيع الأوّل المذكور من سنة تسع وسبعين وسبعمائة خرج طُلْب السلطان الملك المنصور، وطُلْب الأتابك أينبك البدريّ، وأطلاب بقيّة

---

(١) كانت وظيفة نظر البيمارستان المنصوري من أجلّ الوظائف وأعلاها. ويتولى النظر فيه عادة أكابر الأمراء من العسكريين. والبيمارستان المنصوري هو الذي أنشأه المنصور قلاوون بين القصرين. وكان دار ست الملك أخت الحاكم بأمر الله الفاطمي، فغيرّ معالمه وزاد فيه. (صبح الأعشى: ٣٨/٤).

العساكر من الأمراء وغيرهم إلى الرَّيْدانية فأقاموا بالريدانية إلى يوم السبت مستهلّ شهر ربيع الآخر. [ثم] استقلّوا بالمسير قاصدين البلاد الشامية، وساروا حتى وصلوا بلبيس، [ثم] رجعوا على أعقابهم بالعساكر إلى جهة الديار المصرية.

وخبرُ ذلك أن قطلوخجا أخا أينبك مقدّم الجاليش بلغه أن الجماعة الذين معه مخامرون، وأنهم أرادوا أن يكبسوا عليه. فـآستقصّ الخبر حتّى تحقّقه، فركب من وقته وساعته وهرب في الحال، وهو في ثلاثة أنفس، عـائداً إلى أخيـه أينبك فآجتمـع بـه وعرّفه الخبر. ففي الحال أخذ أيْنَبك السلطان ورجـع به إلى نحو القاهرة حتّى وصلها في يوم الاثنين ثالث شهر ربيـع الآخر، وطَلَـع به إلى قلعة الجبل، وأنزل الأتابك أينبك السلطانَ الملك المنصور إلى الإسطبل السلطاني، وجاءه بعض أمراء من أصحابه.

ثم أخذ أينبك في إصلاح أمره. وبينما هو في ذلك بَلَغه أن الأمير قُطْلُقْتَمُر العلائيّ الطويل والأمير أَلْطُنْبُغَا السلطانيّ، وكـانا رجعـا معه من بلبيس، ركبـا بجماعتهما في نصف الليل، ومعهما عدّة من الأمراء وسائر المماليك السلطانية، وخرج الجميـع إلى قبّة النصر موافقة لمن كان من الأمراء بالجاليش المقدّم ذكره. فجهز أينبك الأمير قطلوخجا في مائتي مملوك لقتال هؤلاء؛ فخرج بهم قطلوخجا إلى قُبَّة النصر، فتلقّاه القوم وحملوا عليه، فآنكسـر ومُسِك.

فلما بَلـغ أينبك ذلك، جهّز الأمراء الذين كانوا بقلعة الجبل، وأرسلهم إلى قبة النصر وهم: آقْتَمُر من عبد الغنيّ نائب السلطنة، وأَيْدَمُر الشمسيّ، وبهادُر الجماليّ الأستادار، ومُبارك الطازيّ. هذا وقد ضعُفَ أمرُ أينبك المذكور وخارت قواه؛ فإنّه بلغه أن جميـع العساكر آتّفقت على مخالفته، حتى إنه لم يعلم مَنْ هو القائم بهذا الأمر لكثرة مَنْ خرج عليه. فلمّا رأى أمره في إدبار، ركب فرسَه ونزل من الإسطبل السلطانيّ من غير قتال، وهَرَب إلى ناحية كيمان مصر. فتَبِعه أيدمر الخطائيّ وجماعةٌ من العسكر فلم يقف له أحدٌ على أثر. كلُّ هذا وإلى الآن لم يجتمـع مَنْ بالجاليش مـع مَنْ هو بقُبّة النصر من الأمراء، غَير أنّ الفِتْنة قائمة على

ساق، والغَوْغاءَ ثائرةٌ، والسعد قد زال عنه من غير تدبير ولا عَمَـل. وآختفـى أَيْنَبك بتلك الجهة، ثم وجدوا فرسَه وقَبَاءَه ولُبْسَه.

ولمّا آستولـت الأمراء على القلعة ــ على ما سَنَحْكيه، إن شاء الله تعالى، بعد أن نذكرَ قِتْلَةَ أينبك المذكور ــ ألزموا واليَ القاهرة ومصر بإحضاره، فنُودِي عليه بالقاهرة ومصر، وهُدِّد مَنْ أخفاه بأنواع النَّكَال، فخاف كلُّ أحد على نفسه من تقريبه. فلم يَجِد [أينبك] بُداً من طلب الأمان من الأمير يَلْبُغا الناصريّ الآتي ذكره، فأمّنه بعد مدّة، فطلـعَ أَيْنَبك إليه. فحال وقـع بَصَرُ القوم عليه، قَبَضُوه، وأرسلوه مقيَّداً إلى سجن الإسكندرية؛ وكان ذلك آخرَ العَهْد به، كما سيأتي ذكره بعد آستيـلاء الأمراء على القلعة. ــ قلتُ: «وكما تَدين تُدَان. وما من ظالم إلاّ سيبلى بظالم».

وفي أَيَنَبك هذا يقول الأديب شهاب الدين بن العَطّار: [المنسرح]

من بعـدِ عِزٍّ قَـد ذلَّ أَيْنَبَكـا وآنحطّ بعـد السُّمُوِّ مَنْ فتكـا
وراح يَـبْكـي الـدِمـاءَ منفـرِداً والنـاس لا يعـرِفـون أَيْنَ بكَى

وأمّا الأمراء فإنهم لمّا بلَغهم هروبُ أَيْنَبك من قلعة الجبل رَكِبوا الجميـع من قُبّة النصر وطلعوا إلى الإسطبل السلطانيّ من القلعة، وصار المتحدّث فيهم قُطْلُقْتَمُر العلائي الطويل، وضربَ رَنْكه[١] على إسطبل[٢] شيخون بـالرميلة تجـاه باب السلسلة، وأقام ذلك اليوم متحدثاً فأشار عليه مَنْ عنده من أصحابه أن يُسلطن سلطاناً كبيراً يرجـع الناس إلى أمره ونهيه، فلم يفعله وقال: «حتى يأتي إخواننا» يعني الأمراء الذين كانوا بالجاليش مـع قطلوبغا، وهم الذين ذكرناهم فيما تقدّم عند خروج الجاليش ومعهم من الأمراء الطبلخانات والعشرات جماعة، منهم: برَقْوق

(١) الرنك: الشعار الذي يتخذه الأمير وهو لفظ فارسي. ــ راجـع فهرس المصطلحات.
(٢) دار أو إسطبل شيخون، هي بذاتها دار قوصون. وقد كانت مخصصة لسكنى كل من صار أتابك العساكر. ولذلك كان يسكنها أينبك. ــ وعبارة السلوك: «وضرب رنكه على بيت أحمد بن أينبك بالرميلة ليستولي عليه بما فيه».

العثمانيّ اليلبغاويّ، وبركة الجُوبانيّ اليَلْبُغَاويّ. وكان أيْنَبك قد أنعم على كل واحد منهما بإمرة طبلخاناه، بعد واقعة قَرَطاي، دفعة واحدة من الجندية، قبل خروج السفر بأيام قليلة. وهذا أوّل ظهور برقوق وبركة في الدُّوَل.

ثم حضرت الأمراء الذين كانوا بالجاليش إلى الإسطبل السلطانيّ، وهم جمعٌ كبير ممّن أنشأه أينبك وغيرهم، وتكلّموا فيمن يكون إليه تدبير الملك، وآشتوروا في ذلك، فاختلفوا في الكلام. وظهر للقادمين الغدر ممّن كان بالإسطبل السلطانيّ ممّن ذكرناه، فقبَضُوا على جماعة منهم وهم: قُطْلُقْتَمر العلائي الطويل المذكور الذي كان دبَّر الأمر لنفسه، وأَلْطُنبغا السلطانيّ، ومبارك الطازيّ في آخرين؛ وقُيِّدوا الجميع، وأرسلوا إلى الإسكندرية صحبة جمال الدين عبد الله بن بَكْتَمُر الحاجب. وآتّفقوا على أن يكون المتكلم في المملكة الأمير يَلْبُغا الناصريّ، فصار هو المتحدّث في أحوال الملك، وسَكَن الإسطبل السلطانيّ، وأرسل بإحضار الأمير طَشْتَمر العلائيّ الدوادار نائب الشام.

ثم في يوم الأحد تاسع شهر ربيع الآخر، لمّا تزايد الفحص على أَيْنَبك، حضر أينبك بنفسه إلى عند الأمير بلاط، فطلع به بلاط إلى يلبغا الناصريّ بعد أن أخذ له منه الأمان حسب ما تقدّم ذكره.

ولم تطل أيام يلبغا الناصريّ في التحدث، وظهر منه لِينُ جَنْب. فآتّفق برقوق وبركة ــ وهما حينذاك من أمراء الطبلخانات، لهما فيها دون الشهرين ــ مع جماعة أُخر وركبوا في سادس عشر شهر ربيع الآخر المذكور، وركبت معهم خُشْداشِيَّتُهم من المماليك اليلبغاوِية، ومسكوا دِمِرداش اليوسفيّ، وتَمُرباي الحَسنِيّ، وآقبغا آص الشيخونيّ، وقُطْلُوبغا الشعبانيّ، ودِمِرْداش التمان تمريّ المعلّم، وأسَندمر العثمانيّ، وأَسَنْبُغا تُلَكي، وقُيِّدوا وأُرْسِلوا إلى سجن الإسكندرية فسُجِنوا بها.

وقد أضربنا عن أشياء كثيرة من وقائع هذه الأيام لاختلاف نُقُول الناس فيها؛ لأنّ غالب مَنْ وثب وأثار الفتنة، من واقعة الملك الأشرف شعبان إلى هذه الأيام،

كان فيما قيل في العام الماضي إمّا جندياً وإما أمير عشرة، لا يُعْرَف من أحواله إلا القليل. وأيضاً لم يكن في هذه الواقعة رجلٌ عظيم له شأن قام بأمر وتبِعته الناس، بل كل واقعة من هؤلاء تكون فيها جماعة كبيرة، كلٌّ منهم يقول: أنا ذاك! ولهذا آختلفت النقول. وقد ذكرنا المقصود من ذلك كلّه وما فيه كفاية. إن شاء الله تعالى.

ولنشرع الآن في سياق ما وقع في أيام الملك المنصور، إلى أن يتوفّى إلى رحمة الله تعالى، فنقول:

ثم في النهار المذكور (أعني اليوم الذي مُسِك فيه الأمراء) قُبِض أيضاً على الطواشي مختار الحساميّ مقدّم المماليك السلطانية وحُبِس بالبرُج من القلعة، ثم أُفرِج عنه بعد أيام قلائل وأُعيد إلى تقدمة المماليك على عادته.

ثم بعد مدّة يسيرة آستقرّ برقوق العثماني اليلبغاويّ أمير آخور كبيراً دَفْعة واحدة وسكَن بالإسطبل[١] السلطانيّ، وأنزل معه الأمير يلبغا الناصريّ. وآستقرّ الأمير زين الدين بركة الجوباني اليلبغاويّ أمير مجلس.

ثم حضر الأمير طَشْتَمر الدوادار نائب الشام إلى الديار المصرية بطلب من يلبغا الناصريّ، لما كان متحدّثاً في أمور المملكة، فخرج السلطان الملك المنصور وسائر الأمراء لتلقيه إلى الرَّيْدَانية خارج القاهرة. فلمّا رأى السلطانَ نزل عن فرسه وقبَّل الأرض بين يديه وبكى، وطلع في خدمة السلطان إلى القلعة، وخُلِع عليه بآستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية. وحَضَر مع طَشْتَمر من الشام الأمير تمرباي التمرتاشيّ، والأمير تَغْري بَرْمش، وسُودون الشيخونيّ ـ وكان أينبك قد نقله

---

(١) ورد في الصفحة السابقة أن مدبّر المملكة يلبغا الناصري سكن الإسطبل السلطاني. والمراد بذلك دار قوصون التي كانت قد تحولت ـ بما ضم إليها من دور وإسطبلات ـ إلى سكنى لكل من صار أتابك العساكر مدبر المملكة، كما ذكرنا سابقاً. والمراد هنا بالإسطبل السلطاني الذي سكن فيه برقوق العثماني بصفته أمير آخور كبير هو إسطبل السلطان على وجه الحصر، أي المكان الذي كان فيه خيل السلطان وما يتعلق بذلك. والإسطبل السلطاني كان قبالة دار قوصون؛ ولعله دخل ضمنها. (راجع خطط المقريزي: ٢/٧٢).

إلى الشأم ــ والأمير طَقْطَمش. ونزل طَشْتَمر إلى بيت شيخون بالرُّمَيْلة وسكن به ليحْكُم بين الناس.

فلمّا كان في ثالث جُمادَى الأولى أَمَرَ طشتمر أن يُنادَى بالقاهرة ومصر «مَن كان له ظُلامة فعليه بباب المقرّ الأشرف طشتمر العلائيّ».

ثمّ في خامس جمادى الأولى المذكور أخلع السلطان على تمر باي التمرداشيّ باستقراره رأس نَوْبة كبيراً عوضاً عن دمرداش اليوسفيّ. وخلع على برقوق العثمانيّ بآسْتمراره على وظيفة الأمير آخورية، وعلى بركة الجُوبانيّ بآستمراره في إمرة مجلس. وأُنعِم على الأمير أَطْلَمش الأرغونيّ بتقدمة ألف، وآستقر دواداراً كبيراً. وآستقرّ يلبغا المَنْجَكيّ شاداً لشراب خاناه[1]. ورسم للأمير بلاط أمير سلاح أن يجلس بالإيوان. ثمّ آستقرّ دينار الطواشي الناصريّ لالا السلطان الملك المنصور عوضاً عن مُقبل الكَلْبَكيّ بحكم نفيه.

وفي سلخ جمادى الآخرة عُزِل الأمير آقتمر عبد الغنيّ من نيابة السلطنة بديار مصر.

ثمّ آستقرّ الأمير تَغْرِي بَرْمش حاجب الحجّاب بالقاهرة. وآستقرّ أمير عليّ آبن قَشْتَمر حاجباً ثانياً بإمرة مائة وتقدمة ألف ويقال له: حاجب مَيْسرة.

ثمّ في يوم الأحد ثاني شهر رجب توجّه الأمير أَيْتَمُش البَجَاسيّ إلى الإسكندرية بالإفراج عن جميع مَن بها من الأمراء المسجونين خلا أربعة أنفس: أَيْنَبك وأخوه قُطلوخَجا وأسندمر الصَّرْغتمشي؛ وقيل جَرْكَس الجاولي الرابع، وأنّ أَيْنَبك كان قُتِل. فلما أحضروا الأمراء من الإسكندرية أُخرِجوا إلى بلاد الشام.

---

(١) شاد الشراب خاناه: هو الذي يتحدث في أمر الشراب خاناه السلطانية، وهي تحتوي على أنواع المشروبات التي تقدم إلى السلطان، ومنها السكر اللازم لذلك، وكذلك الفواكه وغير ذلك. وهذه الوظيفة لم تكن موجودة إلا بالقاهرة. والشدّ ترادف كلمة التفتيش. (انظر صبح الأعشى: ٢١/٤، ١٨٨).

ثمّ ولي الأمير بَيْدَمَر الخُوارَزميّ نيابة الشام بعد موت الأمير آقتمُر الصاحبيّ الحنبليّ. وكان آقتمُر أحد من نُفي من أكابر الأمراء المشايخ.

وأخلِع على مبارك شاه المشطوب بنيابة غزة.

وفي مستهلّ شعبان آستقـرّ قُطْلُقْتَمر العلائيّ نائب ثغر الإسكندرية عوضاً عن خليل بن عرّام. ثمّ نُفِي بيبغا الطويل العلائيّ أحد أمراء الطبلخانات إلى الشام بطّالاً. ثمّ نُقِل الأمير مَنْكَلِي بغا الأحمديّ البلديّ من نيابة طَرابُلُس عوضاً عن أَرْغُون الإسعرديّ. ونُقِل أرغون الإسعرديّ إلى نيابة حماة عوضَه لأمر آقتضى ذلك. ونُقِل الأمير آقبغا الجوهريّ حاجب حجّاب طَرَابُلُس إلى نيابة غزّة عوضاً عن مبارك العلائيّ. ونُقِل مبارك العلائيّ عوضه في حجوبيّة طَرَابُلُس. ثمّ أخلع على الأمير صلاح الدين خليل بن عَرَّام المعزول عن نيابة إسكندرية بآستقـراره وزيراً بالديار المصرية عوضاً عن القاضي كريم الدين بن الرُّوَيْهِب. وقُبِض على آبـن الرُّويهب وصُودِر.

وفي شوّال توجَّه بلاط أمير سلاح إلى [مـرابط](١) خيله بالجيـزة [ليتنزه هناك](١) فأُرْسِل إليه خِلْعةٌ بنيابة طرابُلُس، فأجاب وخرج من القاهرة، فرُسِم له بأن يتوّجه إلى القدس بَطَّالاً(٢)، وآستقرّ عوضه يلبغا الناصريّ أمير سلاح.

وأُخلِع على إينال اليوسفيّ اليَلْبُغاويّ وآستقـرّ رأس نوبة ثانياً بتقدمة ألف، عوضا عن يلبغا الناصريّ المذكور. وأخلِع على القاضي بدر الدين محمد آبـن القاضي بهاء الدين أبى البقاء السبكيّ الشافعيّ قاضي قضاة الديار المصرية عوضاً عن قاضي القضاة برهان الدين آبـن جماعة بحكم توجُّهه إلى القدس بحسب سؤاله على ذلك.

ولمّا صار الأمر للأتابك طَشْتمر العلائي الدوادار أخذ في تنفيذ الأمور على القواعد، فعظُم ذلك على بَرْقُوق وآتّفـق مع بركة الجوبانيّ خجداشه ومع جماعة

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) سياق الخبر بهذا الشكل لا يوضـح السبب في هذه العقوبة. ـ قارن بالسلوك: ٣٢١/١/٣.

أُخر على الركوب على طَشتَمر. فلما كان ليلة تاسع ذى الحجة من سنة تسع وسبعين المذكورة رَكِب برقوق العثمانيّ وخجداشه بركة الجوبانيّ بمن وافقهما من الأمراء وغيرهم، وأَنْزلُوا[1] السلطان الملك المنصور بُكْرة النهار، وهو يوم عرفة، ودُقت الكوسات. وقَصَد برقوق مَسْك طشتمر الأتابك، فركبت مماليك طشتمر وخرجوا إليهم، وتقاتلوا معهم قتالاً عظيماً، حتى تكاثر جمعُ بَرقُوق وبَرَكَة وقَوِي أمرُهم، فحينئذ آنكسـرت مماليك طشتمر. وأرْسَل طَشْتَمر يَطلب الأمان، فأرسل السلطانُ إليه منديل الأمان؛ فطَلع إلى القلعة فمُسِك في الحال هو والأمير أطلمش الأرْغونيّ الدوادار، وأمير حاج بن مغلطاي، ودَوادار الأمير طشتمر المذكور، وأُرسِل الجميع إلى سجن الإسكندرية فآعْتُقِلوا بها.

ثمّ في يوم الاثنين ثالث عشر ذى الحجّة اِستقرّ بَرقوق العثمانيّ أتَابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن طَشتَمُر العلائي المقدّم ذكره. وآستقـرّ بَركة الجُوبانيّ رأس نَوْبة كبيراً أطابَكاً ــ وهذه الوظيفة الآن مفقودة في زماننا ــ وسكَن بركةُ في بيت قَوْصون تُجاه باب السلسلة. وآستقـرّ الأمير أَيْتَمُش البَجاسيّ أمير آخور كبيراً بتقدمة ألف عوضاً عن برقوق. وآستقـرّ برقوق بسكنه بالإسطبل السلطانيّ. وصار هؤلاء الثلاثة هم نظام المُلْك، وإليهم العَقْدُ والحلُّ، وبَرْقُوق كبيرهُم الذي يُرجع إليه، والمعوّل على الاثنين: برقوق وبركة، حتى لَهِجت الناس بقولهم: «برقوق وبركة، نصبا على الدنيا شبكة»[2].

ثمّ بعد يومين مُسِك الأمير يلبغا الناصريّ أمير سلاح، وأُرسِل إلى سجن

---

(١) الواضح أن السلطان كان أداةً طيعّة في أيدي الأمراء المتنافسين على السلطة. فكل من أراد ضرب منافسه يستدعي السلطان ويقوده أمامه، دون أن يكون للسلطان قدرة على الاعتراض بسبب ضعفه وصغر سنّه. وهو لا يستطيع إلا أن يزكيّ أي أمير متغلّب.

(٢) قارن بالسلوك: ٣٢٤/١/٣، وفيه مزيد من التفصيلات الهامة حول تقاسم السلطة بين هؤلاء الثلاثة. وعلّق المقريزي على ذلك بقوله: «وفي الظاهر كان صاحب الأمر الأمير برقوق، غير أن الولايات كلها من القضاء والحسبة وولاية الحرب والأعمال وسائر الوظائف لا سبيل أن ينالها أحد إلا بمال، يقوم به أو يلتزم بأدائه ويكتب به خطه. . . فدهي الناس من ذلك بداهية دهياء أوجبت خراب مصر والشام، كما ستراه فيما يمر بك على طول السنين».

الإسكندريّة ومعه الأمير كُشْلي أحدُ أمراء الطبلخانات. ثمّ أخرِج يَلْبُغا الناصريّ بعد مدّة إلى نيابة طَرَابُلُس؛ ويَلْبُغا الناصريّ هذا هو صاحب الوقعة مع بَرْقوق الآتي ذكرها في سلطنته، إن شاء الله تعالى.

ثمّ في العشرين من ذي الحجّة خُلِع على الأمير إينال اليوسفيّ وآستقرّ أمير سلاح عوضاً عن يَلْبُغا الناصريّ.

ثمّ في مستهل شهر المحرّم سنة ثمانين وسبعمائة أُنعِم على آقتمر العثمانيّ بتقدمة ألف وآستقرّ دواداراً كبيراً عوضاً عن أطلمش الأرْغونيّ. ثمّ بعد أيام قُبض على صراي تَمُر نائب صَفَد وسُجِن بالكَرَك وآستقرّ عوضه في نيابة صَفَد آقبغا الجوهري نائب غَزّة، وآستقرّ عوضه في نيابة غَزّة مبارك شاه.

ثمّ في سادس صفر تولّى كَريم الدين عبد الكريم بن مكانِس الوزرَ والخاصّ معاً ووكالة(١) بيت المال ونظر الدواوين. ثمّ آستقرّ بَرقوق بالأمير مَنْكلي بغا الأحمديّ البلديّ نائب طَرَابُلُس في نيابة حلب عوضاً عن إشِقْتَمُر الماردينيّ بحكم عزله بالقبض عليه بمدينة بلبيس وسجنه بالإسكندرية. وقد قدّمنا أنّ إشِقْتَمُر هذا كان ممن ولي الأعمال الجليلة من سلطنة السلطان حسن وبرقوق يوم ذاك من صغار مماليك يلبغا العمريّ. انتهى.

ثمّ أَخْرجَ برقوق يلبغا الناصريّ وولاّه نيابة طَرَابُلُس عوضاً عن مَنْكلي بُغا الأحمديّ البلديّ المنتقل إلى نيابة حلب. ثمّ بعد مدّة يسيرة قُبِض على منكلي بُغا المذكور وآعتُقِل بقلعة حلب وتَوَلّى حلب عوضَه الأمير تَمُرباي الأفضليّ التمرداشي. ثمّ رُسِم بالإفراج عن إشْتَقُمر الماردينيّ من سجن الإسكندرية وأن يتوجّه إلى القُدس بطّالاً.

---

(١) وكالة بيت المال: وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر. وكان لمن يتولى هذه الوظيفة التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض ودور وغير ذلك. وكانت هذه الوظيفة لا تسند إلا لذوي الهيبة من شيوخ العدول ويفوض إليه عن الخليفة بيع ما يرى بيعه من كل ما يمتلك ما يملك ويجوز التصرّف فيه شرعاً. كما كان يفوض إليه عتق المماليك وتزويج الإماء وتضمين ما يقتضي الضمان وابتياع ما يرى ابتياعه وإنشاء ما يرى إنشاءه من البناء والمراكب وغير ذلك مما يحتاج إليه في التصرف عن الخليفة. وكان مجلس من يتولى هذه الوظيفة بدار العدل، وتارة يكون أرقى رتبة من المحتسب وأحياناً أقل منه. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٦١).

ثمّ في هذه الأيام رُسِم بعزل الأمير بَيْدَمُر الخُوارَزْمِيّ عن نيابة الشام بالأمير كَمَشْبُغَا الحمويّ اليَلْبُغاويّ.

قلت: وبَيْدَمر هذا أيضاً ممّن ولي نيابة طرابُلُس في أيام يلبغا العُمَرِيّ وغيرها من الأعمال. وحضر بيدمر إلى القاهرة وقُبِض عليه واعتُقِل بسجن الإسكندرية. ثمّ استقرّ الأمير قرا دمرداش الجُوبانيّ اليلبغاويّ رأس نوبة ثانياً بتقدّمة ألف، وهذه الوظيفة هي الآن وظيفة رأس نوبة النوب. وآستقـرّ الأمير بُزلار العمريّ الناصريّ نائب إسكندرية عوضاً عن الأمير قطلقتمر بتقدمة ألف. وآستقـرّ منكلي بغا الطرخانيّ نائب الكرك، عوضاً عن تمراز الطازيّ. وآستقـرّ خليل بن عَرّام المعزول عن نيابة إسكندرية وعن الوزر ــ وهو يومئذ من جملة أمراء الألوف ــ أستادارَ بركة الجُوبانيّ، وهذا شيء لم يُسمع بمثله كون أمير مائة ومقدّم ألف يكون أستداراً عند بعض أعيان الأمراء، فهذا شيء عجيب.

ثمّ آستقـرّ الأمير بركة الجوبانيّ ناظر الأوقاف الحُكمية[1] جميعها وجعل نائبه في النظر جمال الدين محمود العجميّ الحنفي.

ثمّ آستعفـى الأمير تَغْرِي بَرْمَش من الإمرة والحجوبية الكبرى بديار مصر فأعْفي، فآستقرّ عوضه الأمير مأمور القلمطاوي اليلبغاويّ أمير مائة ومقدّم ألف وحاجب الحجاب.

وفي هذه الأيام آتّفـق جماعة على قتل الأتابك برقوق العثمانيّ، ففَطِن بهم، فَمَسك منهم جماعة منهم طشبغا الخاصّكي وآقْبُغا بَشْمقدار أُلْجاي وآقْبُغا أميرآخور الْجاي

---

(١) لعل المراد منها الأوقاف التي تديرها الحكومة، كما يفهم من عبارة المقريزي في السلوك: ٣٣٧/٣. قال: «وفيه استقرّ الأمير بركة ناظر الأوقاف جميعها، واستناب في التحدث عنه جمال الدين محمود العجمي المحتسب، فلم يبق وقف حكمي ولا أهلي إلا وطلب مباشريه وتحدّث فيه استضعافاً لجانب قاضي القضاة بدر الدين محمد بن أبي البقاء». ــ ويفهم أيضاً من عبارة المقريزي أن الذي كان ينظر في الأوقاف الأهلية هو قاضي القضاة.
وذكر القلقشندي في كلامه على نظر الأحباس (الأوقاف) أن هذه الأوقاف كان يتحدّث فيها السلطان بنفسه تارة، وتارة النائب، وفي غالب الأمر كان يتحدث فيها الدوادار الكبير على ما استقرّ عليه الحال في آخر عصر المماليك. (صبح الأعشى: ٣٨/٤).

في آخرين تقدير أربعين نفساً؛ فَنَفى برقوق بعضَهم وحبَس البعض. ثمّ أَمسك برقوق ألطنبغا شادي وجماعة من مماليك ألْجاي اليوسفيّ، ثمّ أَمْسكَ بعد ذلك بمدّة سبعة عشر أميراً وقيّدهم وأرسلهم إلى الإسكندرية.

ثمّ في حادي عشرين شهر ربيع الأوّل سَمَّر برقوق آقبغا البَشْمقدار ومعه أحد عشر مملوكاً من المماليك السلطانية، وعشرين من مماليك طشتمر الدوادار لكلام صدر منهم في حق برقوق.

وفي أوّل هذه السنة (أعني سنة ثمانين) كان الحرِيق العظيم بديار مصر بظاهر باب زَوِيلة: آحترق فيه الفاكهيون أو النقليون والبراذعيون[1]، وعَمِل الحريق إلى سور القاهرة. فَركِب الأمير بركة والأمير أَيْتَمش والأمير قرا دمرداش الأحمديّ وجماعة كبيرة من الأمراء والحكّام، حتى قدروا على طفيه بعد أيام. وآستمرّ موضع الحريق خراباً من أوّل هذه السنة إلى آخرها.

ثمّ في سادس عشرين ذى القعدة آجتمع الأمراء والقضاة عند الأتابك برقوق وقالوا: «إن العساكر قلّت في الإسلام ونريد أن نَحُلَّ الأوقاف المحدَثة بعد الملك الناصر محمد بن قلاوون»، فمنعهم الشيخ سراج الدين البُلْقِنيّ من ذلك، فلم يسمعوا له، وحَلُّوا أوقاف الناس، وجعلوها إقطاعات وفرَّقوها.

وفي مستهل شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وثمانين وسبعمائة طُلِب إِشِقْتَمُر المَارِدِينيّ من القُدس إلى القاهرة، فحضر في أوّل جُمادَى الأولى وتَوَلّى نيابة حلب بعد عزل تَمُرباي الأفضليّ التّمرّداشي. ولمّا حضر إِشِقْتَمُر إلى القاهرة تلقّاه الأتابك برقوق والأمير بركة إلى الحوض التحتانيّ من الريدانية[2] وترجّلا له عن خيولهما، وأنزله برقوق عنده وخدَمه أتمّ خدمة. ثمّ عُزِل الأمير كمشبغا الحمويّ اليلبغاويّ عن

---

(١) أي أسواق الفاكهيين الذين كانوا يبيعون الفاكهة، والنقليين الذين كانوا يبيعون الفستق واللوز والزبيب ونحوه، والبراذعيين الذين كانوا يصنعون البراذع ويبيعونها وهي سروج الحمير. (انظر خطط المقريزي: ٢/ ٩٤ ـ ١٠٦).

(٢) الريدانية: اسم المنطقة الصحراوية الواقعة في شمال القاهرة.

نيابة دِمَشق، وتولّى عوضه بيدمر الخُوَارَزْمِيّ على عادته؛ وكان بيدمر معتقلاً بالإسكندرية.

ثمّ في أثناء هذه السنة كانت واقعة الأمير إينال اليوسفيّ اليلبُغاويّ مع الأتابك برقوق.

وخبر هذه الواقعة أنه لمّا كان في يوم رابع عشرين شعبان ركب الأتابك برقوق من الإسطبل السلطانيّ في حواشيه ومماليكه للتسيير على عادته، وكان الأمير بركة الجوبانيّ مسافراً بالبُحَيرة للصيد؛ فلما بلغ إينال اليوسفي أمير سلاح ركوب برقوق من الإسطبل السلطانيّ آنتهز الفرصة لركوب برقوق وغَيْبة بركة، ورَكِب بمماليكه وهجم الإسطبل السلطانيّ ومَلَكه، ومسك الأمير جركس الخليليّ. وكان مع إينال المذكور جماعة من الأمراء: منهم سودون جركس المنجكيّ أمير آخور، والأمير صنصلان الجماليّ، وسودون النَّوْرُوزيّ، وجُمَق الناصريّ، وقُمارِي، وجماعة أخر. ولما طلع إينال إلى باب السلسلة وملكها، أرسل الأميرَ قُماري لينزل بالسلطان الملك المنصور إلى الإسطبل، فأبى السلطان من نزوله ومنعه. ثمّ كبس إينال زَرَدْخاناه برقوق وأخرج منها اللُّبوس وآلة الحرب، وأخذ مماليك برقوق الذين كانوا وافقوه وألبسهم السلاح وأوقفهم معه وأوعدهم بمال كبير وإمريّات. وبلغ برقوقاً الخبرُ فعاد مسرعاً، وجاء إلى بيت الأمير أيتمش البَجَاسيّ بالقرب من باب الوزير وألبس مماليكه هناك؛ وجاءه جماعة من أصحابه، فطلع بالجميع إلى تحت القلعة وواقعوا إينال اليوسفيّ. وأرسل برقوق الأمير قُرط في جماعة إلى باب السلسلة الذي من جهة باب المدرَّج، فأحرقه؛ ثمّ تسلّق قرط المذكور من عند باب سرّ قلعة الجبل، ونزل ففتح لأصحابه الباب المتصل إلى الإسطبل السلطانيّ، فدخلت أصحاب برقوق منه وقاتلت إينال؛ وصار برقوق بمن معه يقاتل من الرُّمَيلة، فانكسر إينال ونزل إلى بيته جريحاً من سهم أصابه في رقبته من بعض مماليك برقوق. وطلع برقوق إلى الإسطبل وملكه وأرسل إلى إينال من أحضره؛ فلما حضر قَبَض عليه وحبسه بالزَّرْدَخاناه، وقرّره بالليل فأقرّ أنه ما كان قَصْدُه إلّا مسك بركة لا غير.

ثمّ إنّ برقوق مسك جماعة من الأمراء وغيرهم من أصحاب إينال اليوسفيّ، ما خلا سودون النوروزيّ. جُمَق الناصريّ وشخصاً جندياً يسمى أزْبَك ــ وكان يَدَّعِي

أنه من أقارب برقوق. ثمّ حُمِلَ إينال في تلك الليلة إلى سجن الإسكندرية ومعه سُودُون جركس. ثمّ أخذ برقوق في القبض على مماليك إينال اليوسفيّ، ونُودِي عليهم بالقاهرة ومصر. وفي هذه الواقعة يقول الأديب شهاب الدين أحمد ابن العطار: [الرجز]

مَا بَالُ إِينَالٍ اتى فِي مِثْلِ هذِي الحَرَكَهْ
مَع عِلْمِهِ بِأنها خَالِيَةٌ مِن بَرَكَهْ

وله أيضاً ـ عفا الله عنه: [السريع]

قد ألبس الله برقوق المهابة فِي نهارِ الاثنينِ مِن نصرٍ وتمكِينِ
وراح إينال مع سُودون وآنكسرا وكان يوماً عسِيراً يومُ الاثنينِ

وله ـ عفا الله عنه: [الوافر]

بَغَى إينالُ وآعتقدَ آلأماني تُساعِدُه فما نال آلمُؤَمَّلْ
ومدَّ لأخذِ برقوقٍ يديه ولم يعلم بِأن الخَوْخَ أَسْفلْ

ثمّ في الثامن والعشرين من شعبان حضر الأمير بَرَكَة من السَّرْحة، فرِكب الأتابك برقوق وتلقّاه من السَّحَر وأعلمه بما وقع من إينال اليوسفيّ في حقّه. ثمّ آتفقا على طلب الأمير يلبغا الناصريّ من نيابة طَرابُلُس، فحضر وأنعم عليه باقطاع إينال اليوسفيّ ووظيفته إمرة سلاح، وكانت وظيفة يلبغا قبل إينال. وتَوَلّى مَكانه في نيابة طرابُلُس مَنْكَلِي بغا الأحمديّ البلديّ. ثمّ آستقرّ بَلُّوط الصَّرْغتمشي في نيابة الإسكندريّة، بعد عزل بُزْلار عنها ونفيه إلى الشام بطّالاً.

ثمّ نُقِل حَطَط من نيابة أبلُسْتَيْن إلى نيابة حماة عوضاً عن أرغون الإسعرديّ. ثم آستقرّ قُرط في نيابة الوجه القبليّ إلى أُسوان.

ثمّ أَمْسكَ برقوق مثقالَ الجماليّ الزِّمام(١)، وسأله عن ذخائر الملك الأشرف

(١) المراد زمام القصر، وهو الذي يتولى إدارة خدم القصر والإشراف على شؤونهم. (انظر صبح الأعشى: ٣/٤٨١).

شعبان فأنكر، ففرض عليه العقوبة، فأقَرّ بصندوق داخل الدار السلطانية، فأرسله ومعه خادمان فأتى بالصندوق وفيه ثلاثون ألف دينار. ثمّ قرّره فأخرج من قاعة المَجْدِيّ ذخيرة فيها خمسةَ عَشر ألف دينار وبَرْنِيّة فيها فصوصٌ، منها فصٌّ عَيْنُ هِرّ، زِنَتُه ستة عشر درهماً.

ثمّ بعثه إلى الأمير بَرَكة فَعَصَره فلم يعترف بشيء. ثمّ وجدوا عند دَادَة الملك الاشرف أوراقاً فيها دفتر بخط الملك الأشرف، فيه كلُّ شيء إدّخره مفصَّلاً؛ فوجدوا الذخائرَ كلَّها قد أُخِذت، ولم يتأخر إلا عند طشتمر الدوادار ذخيرة فيها خمسة عشر ألف دينار وعُلْبة فصوص وعُلْبة لؤلؤ، وما وجدوا في ذلك آسم مثقال المذكور، فأفْرِج عنه.

وفي هذه السنة وجَّه الأميرُ بركة دوادَارَه سودون باشا إلى الحجاز الشريف لإجراء الماء إلى عَرَفة. وكان في أوائل هذه السنة بَرَزَ المرسومُ الشريف بأن يُعْمَلَ على قنطرة فم الخَوْر التي عند موردة الجبس سلسلةٌ تمنع المراكبَ من الدخول إلى الخليج وإلى بركة الرطلي[1]، فَعمِل شعراءُ العصر في ذلك أبياتاً، منها قول بدر الدين آبن الشاميّة، أحد صوفية الخانقاة الرُّكْنِية بيبرس: [البسيط]

يا سادةً فِعلهمْ جميلٌ وما لهم في الوَرَى وَحَاشَه
سلسلتُم البحرَ لا لِذنبٍ وأرسلتمو لِلحِجازِ باشَهْ

قلت: لم تصح التورية معه في قوله «باشه» لعدم معرفته باللغة التركية، لأن آسم «باشا» بالتفخيم والألف، و«باشه» مرقّقة وفي آخرها هاء، وبينهما بون في اللفظ. وكثير مثل هذا يقع للشعراء من أولاد العرب، فيأخذون المعاني الصالحة

(١) بركة الرطلي: كانت هذه البركة من جملة أرض الطبّالة، وعرفت ببركة الطوّابين لأنه كان يعمل فيها الطوب. وفي أيام الناصر محمد بن قلاوون عرفت باسم بركة الحاجب نسبة إلى الأمير بكتمر الحاجب. وكان في شرقي هذه البركة زاوية يقيم فيها الشيخ خليل بن عبد ربه، وكان يصنع الأرطال الحديد التي تزن بها الباعة، فسماها الناس بركة الرطلي. ولما حفر الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصري وجرى الماء فيه ودخل منه إلى هذه البركة صارت المراكب تعبر إليها من الخليج الناصري فتدور فيها تحت البيوت وهي مشحونة بالناس الذين يتظاهرون بأنواع اللهو والمنكرات. وهذه الأحوال حملت السلطان على إقفال قنطرة فم الخور حتى لا تتكرر تلك الحوادث المنكرة. (انظر خطط المقريزي: ٢/١٦٢).

فيجعلونها هجواً مثل لفظة «نكريش» وغيرها، لأن «نكريش» باللغة العجمية معناه: «جيد اللحية»، فاستعملوها الشعراء في باب الهجو، وكثير مثل هذا. وقد أوضحنا ذلك في مصنف بيّنا فيه «تحاريف أولاد العرب في الأسماء التركية»[١] وغيرها. وقال الأديب عبد العال البغداديّ في المعنى: [مخلّع البسيط]

أطلقتُ دمعِي على خلِيج ... مـذ سلسلوه فصار يُقفَـلْ
من رام مِن دهرِنا عجِيباً ... فلينـظرِ المطلقَ المُسَلْسَـلْ

وقال غيره: [مخّلع البسيط]

قـد أَطلقوا البحـرَ من فُسوقٍ ... مـذ سَلْسَلُوا مِنه خَيْـرَ جَـدْوَلْ
ورقّ قـلبُ الـهَـوى عـليـهِ ... فـحبـذا نـهـرُه المـسـلسـلْ

وفي هذه السنة كانت بالديار المصرية واقعةٌ غريبة من كلام الحائط. وخبرُه أن في أوائل شهر رجب من هذه السنة ظهر كلامُ شخص من حائط في بيت العَدْل شهاب الدين [أحمد] الفِيشيّ[٢] الحنفيّ بالقرب من الجامع الأزهر، فصار كلٌّ من يأتي إلى الحائط المذكور ويسأله عن شيء يردّ عليه الجواب ويُكلّمه بكلام فصيح؛ فجاءتْه الناس أفواجاً، وتردّدت إلى الحائط المذكور أكابر الدولة، وتكلّموا معه. وآفْتَتَـن الناس بذلك المكان وتركوا معايشَهم وآزدحمـوا على الدار المذكورة. وأكثرَ أربابُ العقول الفَحْصَ عن ذلك، فلم يقفوا له على خبر؛ وتَحَيَّر الناس في هذا الأمر العجيب، إلى أَنْ حضر إلى البيت المذكور القاضي جَمَال الدين محمود القَيْصَرِيّ العَجَمِيّ مُحتَسِب القاهرة، وفَحَص عن أمره بكلّ ما يُمكن القُدْرة إليه، حتّى إنه أخربَ بعض الحائط، فلم يُؤثِّر ذلك شيئاً، وآستمـرّ الكلام في كلّ يوم إلى ثالث شعبان، وقد كادت العامّة أن تتعبد بالمكان المذكور. وأكثروا من قولهم: «يا سلام سلّم، الحِيطة بتتكلّم». وخاف أهل الدولة من إفساد الحال، وقد أعياهم أمرُ ذلك،

(١) ورد ذكره في دائرة المعارف الإسلامية بهذا الاسم.
(٢) وكان هذا من بعض من يتكسّب بتحمل الشهادة بجلوسه في حوانيت الشهود من رحبة باب العيد بالقاهرة. (السلوك: ٣/٣٦١).

حتّى ظهر أنّ الذي كان يتكلّم هي زوجة صاحب المنزل؛ فأُعْلِم بذلك الأتابك برقوق، فاستدعى بها مع زوجها، فحضرا، فأنكرتْ المرأة، فضربها، فأقرّت. فأمر بتسميرها وتسمير شخص آخر معها يسمى «عمر» وهو الذي كان يجمع الناس إليها، بعد أن ضَرَب برقوق الزوجَ وعمرَ المذكورَ بالمقارع وطِيفَ بهما في مصر والقاهرة. ثمّ أفرج عنهم، بعد أن حُبِسوا مدّة. وفي ذلك يقول الشيخ شهاب الدين بن العطار: [البسيط]

يا ناطِقاً مِن جِدارٍ وهو ليس يُرَى ... اِظهَرْ وإلّا فهذا الفِعلُ فَتّانُ
لم تسمع(١) الناس للحيطان أَلْسنة ... وإنّما قِيل للحيطان آذانُ

وقال غيره: [البسيط]

قد حار فِي منزِل الفيشِي الورى عجبا ... بناطِقٍ مِن جِدارٍ ظلّ مُبْدِيهِ
وكلُّهم في حديدٍ بارِدٍ ضَرَبُوا ... وصاحِبُ البيتِ أدرى بالذِي فِيه

وفي هذه السنة أمر الأميرُ بركة بنقل الكلاب [إلى برّ الجيزة، وكانت قد كثرت إلى الغاية في الأزقّة والشوارع](٢) وقرّر على كلّ أمير شيئاً مُعَيَّناً، وعلى أصحاب الدكاكين على كلّ صاحب دُكّان كلباً. فتتبّع الناس الكلابَ حتى أُبِيع كلُّ كلب بدرهم. فأخذ بركة جميعَ الكلاب ونفاها إلى بَرّ الجيزة.

وفي يوم الأربعاء سابع صفر من سنة آثنتين وثمانين وسبعمائة كان آبتداء الفتنة بين الأَتَابك برقوق وبين خجداشه بركة الجُوبانيّ. وهو أن بركة أرسل يقول إلى برقوق في اليوم المذكور: «إن أَيْتَمُش البَجَاسيّ لابس آلة الحرب هو ومماليكه بإسطبله» فأرسل برقوق إلى أَيْتَمُش في الحال فلم يجد الأَمرَ صحيحاً. ثم طلع أيتمش إلى بَرْقُوق وأقام عنده. وتردّدت الرسل بين برقوق وبركة، والذي كان الرسول بينهما العَلّامة أكمل الدِّين [محمد الحنفي](٢) شيخ الشيوخ بالشيخونية

(١) رواية الأصل: «وما سمعناه لألحيطان ألسنة». ورواية الجوهر الثمين: «وما سمعنا وللحيطان ألسنة». وما أثبتناه رواية إنباء الغمر.

(٢) زيادة عن السلوك.

ـ أراد بذلك إخماد الفتنة ـ والشيخ أمين الدين الحلوانيّ[١]. ولا زالا بهما حتى أوقعا الصلح بينهما ، ورضي بركة على أيتمش البجاسيّ وخلع عليه قَبَاء «نُخّ» عند نزوله إليه بأمر برقوق صحبة الشيخين المذكورين.

ثمّ فَسَد ما بينهما أيضاً بعد آثني عشر يوماً في ليلة الجمعة تاسع عشر صفر، وبات تلك الليلة كلُّ أمير من أمراء مصر مُلبساً مماليكه في إسطبله. وسببه أن بركة أراد أن يُمْسِك جماعة من الأمراء ممّن هو من ألزام برقوق، فأصبح نهار الجمعة والأمراء لابسون السلاح. ولمّا وقع ذلك، طلَب برقوق القضاة إلى القلعة لِيُرَشّد السلطان الملك المنصور، وقال لهم: «نُرَشِّد السلطانَ فيتكلم في أمور مملكته، وأنْكَفّ أنا وغيري من التَّكلُّم. وأنا مملوك من حملة مماليك السلطان» فتكلّم القضاة بينه وبين الأمير بركة وتردّدوا في الرُّسلية غير مرّة إلى أن أذعن كلٌّ منهما إلى الصلح وتحالفا على ذلك وآصطلحا. وأصبحت الأمراء من الغد رَكِبُوا إلى المَيْدان ولَعِبوا بالكُرة، وخلَع بركةُ على أَيْتَمُش ثانياً. وآستقرّ الصلح، وخَلَع برقُوق على القضاة الأربعة، وآلتزم بركة أنه لا يتحدّث في شيء من أمور المملكة البتّة.

وآستمر الأمراءُ على ذلك إلى يومِ الاثنين سابع شهر ربيع الأوّل رَكِبَت الأمراءُ وسيَّروا بناحية قُبّة النصر. ورجعوا وطلع بَرقوق إلى الإسطبل السلطانيّ، حيث سكنه، وذهب بركةُ إلى بيته. وكان برقوق قد وُلِدَ له وَلَدٌ ذَكر، وعَمِل سِماطاً للناس. وطلَع إليه الأمير صَرَاي الرَّجَبيّ الطويل، وكان من إخوة بركة، وقال لبرقوق: «إن بركة وحاشيته قد آتفقوا على قَتْلك: إذا دخلتَ يوم الجمعة إلى الصلاة هجموا عليك وقتلوك» فبَقِي برقوق مُتفكّراً في ذلك مُتحيِّراً، لا يشكّ فيما أخبره صَرَاي لصحبته مع بركة. وبينما برقوق في ذلك إذْ طَلَع إليه الأمير قَرَادِمِرْداش الأحمديّ اليلبُغاويّ أمير مجلس، وطُبُج المحمديّ، وآقتمر العثماني الدُّوادار الكبير ـ وهم من أعيان أصحاب بَركة ـ وهنؤوه بالولد وأكلوا السِّماط. فلمّا فَرَغُوا طلَب برقوق الأمير جَرْكَس الخليليّ ويُونُس الدَّوادار وأمرَهُما بمسك هؤلاء الثلاثة ومن

---

(١) في السلوك: «الحلوي».

معهم، فمسِكُوا في الحال. ثمّ أمرَ برقوق حواشِيَه بِلُبْس السلاح فَلبِسُوا. ونزل بُزْلار الناصريّ من وقته غَارةً إلى مدرسة السلطان حسن مع مماليكه، وطَلَعَ إليها وأغلق بابها، وصَعِد إلى سطحها ومآذنها ورَمَى بالنُّشّاب على بركة في إسطبله الملاصِق للمدرسة المذكورة، وهو بيت قوصون تُجاه باب السلسلة. فلمّا رأى بركةُ ذلك أمَرَ مماليكَه وأصحابَه بلُبْس السلاح، فلبسوا. ونادى برقوق في الحال لِلعامّة تنهب بيتَ بركة، فتجمّعوا في الحال وأحرقوا بابه. ولم يتمكن بركة من قتالهم من عِظَم الرمي عليه من أعلى سطوح المدرسة، فخرج من بابه الذي بالشارع الأعظم المتّصل إلى صليبة آبـن طُولُون، وخرج معه سائر أصحابه ومماليكه، وترك ماله بالبيت ودخل من باب زويلة، وأخذ والي القاهرة معه إلى باب الفتوح، ففتحه له: فإنه كان أُغْلِق عند قيام الفتنة مع جملة أبواب القاهرة. وسار بركة بمن معه من الأمراء والمماليك إلى قُبَّة النصر، خارج القاهرة، فأقام بها ذلك اليوم في مخيَّمه؛ ثمّ أَخرج طائفة من عساكره إلى جهة القلعة، فتوجّهوا يريدون القلعة، فَندَب برقوق لقتالهم جماعةً من أصحابه، فنزلوا إليهم وقاتلوهم قتالاً شديداً، قُتِل فيه من كلّ طائفة جماعةٌ. ثمّ رجعت كلُّ طائفة إلى أميرها وباتوا تلك الليلة.

فلمّا أصبح نهارُ الثلاثاء ثامن شهر ربيع الأوّل من سنـة آثنتـين وثمانين وسبعمائة، ندب برقوق لقتال بركة الأميرَ عَلّان الشعبانيّ وأَيْتَمُش البَجاسِيّ وقُرْط الكاشف في جماعة كبيرة من الأمراء والمماليك، وتوجّهوا إلى قُبَّة النصر، فبرَزَ لهم من أصحاب بركة الأمير يلبغا الناصريّ أمير سلاح بجماعة كبيرة، وآلتَقَـوْا وتصادموا صَدْمة هائلة آنكسـر فيها يلبغا الناصريّ بمن معه وآنهـزم إلى جهة قبة النصر. فلمّا رأى الأميرُ بركة انهزام عسكره رَكِب بنفسه وصدَمهم صدْمة صادقة، وكان من الشُّجعان، كسرهم فيها أقبح كَسرة، وتتبَّعهم إلى داخل التُّرب، ثمّ عاد إلى مخيّمه. وطلع أصحاب[١] برقوق إلى باب السلسلة في حالة غير مرْضِية وباتوا تلك الليلة.

---

(١) وانقسم العسكر فريقين: فرقة الجراكسة وهم أصحاب برقوق، وفرقة الترك وهم أصحاب بركة.

فلمّا أصبح نهارُ الأربعاء تاسع شهر ربيع الأوّل المذكور، أنزل برقوق السلطان الملك المنصور إلى عنده بالإسطبل السلطانيّ، ونادى للمماليك السلطانية بالحضور، فحضروا. فَأَخرج جماعةً كبيرة من الأمراء ومعهم المماليك السلطانية وندبهم لقتال بركة. ودُقّت الكوسات بقلعة الجبل حربية. هذا وقد جهّز بركة أيضاً جماعةً كبيرة أيضاً من أصحابه، لملتقى مَن نَدَبه بَرقوق لقتاله. وسار كلّ من الفريقين إلى الآخر حتّى تواجَهَا على بُعد، فلم يتقدّم أحدٌ من العسكرين إلى غريمه. فلما كان بعد الظهر بعث الأمير بركة أمير آخوره سيف الدين طُغَاي يقول لبرقوق: «ما هذا العمل! هكذا كان الاتفاق بيننا؟» فقال برقوق: «هكذا وقع. قل لأستاذك يتوجه نائباً في أيّ بلد شاء». فرجع أمير آخور بركة إليه[1] بهذا القول، فلم يوافق بركة على خروجه من مصر أصلاً. فلما أيس منه أمير آخوره قال لهُ «إن كان ولا بدّ فهذا الوقت وقت القَيْلُولة، والناس مُقيلة، فهذا وقتك» فَركب بركة بأصحابه ومماليكه من وقته وساقوا فرقتين: فرقة من الطريق المعتادة، وفرقة من طريق الجبل. وكان بركة في الفرقة التي بطريق الجبل؛ وبَلَغ برقوقاً ذلك فأرسل الأمراء والمماليك في الوقت لملتقاه. فلمّا أقبل بركة هرب أكثرُ عساكر برقوق ولم يثبت إلا الأمير عَلّان[2] الشعبانيّ في نحو مائة مملوك، وآلتقى مع بركة. وكان يلبغا الناصريّ بِمَن معه من أصحاب بركة توجّه من الطريق المعتادة، فالتقاه أَيْتَمش البَجاسيّ بجماعة وكسره، وضربه بالطَّبَر، وأخذ جاليشَه وطبلخاناته، ورجع مكسوراً بعد أن وقع بينهم وقعة هائلة جُرِح فيها من الطائفتين خلائق.

وأمّا بركة فإنه لما آلتقى مع عَلّان صدمه[3] علان صدمة تَقَنْطر فيها عن فرسه، وركب غيره. فلمّا تقنطر آنهزم عنه أصحابه، فصار في قلّة، فثبت ساعة

---

(١) في الأصل: «فرجع أمير آخوره بركة له».

(٢) في السلوك والجوهر الثمين: «ألان الشعباني». وقال في إنباء الغمر: «والعامة يقولون: علان بالعين المهملة بدل الهمزة».

(٣) في الأصل: «صدم». وما أثبتناه يوافق رواية المراجع التي قابلنا عليها هذا النص، وبقية السياق تؤيد ذلك.

جيّدة ثم انكسر وآنهزم إلى جهة قبّة النصر، وأقام به إلى نصف الليل، فلم يجسُر أحد من البرقوقية على التوجّه إليه وأخذه.

فلمّا كانت نصف ليلة الخميس المذكورة رَأى بركة أصحابَه في قلّة، وقد خلّ(1) عنه أكثر مماليكه وحواشيه، وهَرَب من قُبّة النصر هو والأمير آقبغا صيوان إلى جامع المقسي(2) خارج القاهرة فغُمز عليه في مكانه فمُسِك هو وآقبغا المذكور من هناك وطُلِع بهما إلى برقوق. وتَتَبّع برقوق أصحابَ بركة ومماليكه فَمسك منه جماعة كبيرة حسب ما يأتي ذكُره مع مَنْ مُسِك مع بركة من الأمراء. وبَقِيت القاهرة ثلاثة أيام مُغلقة والناس في وجَل بسبب الفتنة، فنادَى برقوق عند ذلك بالأمان والاطمئنان.

وفي واقعة بركة يقول طاهر بن حبيب: [الرجز]

يا لُؤمَها مِن حالةٍ ... وشُؤمَها مِن حَركَهْ
وقُبْحَها مِن فِتنةٍ ... فِيها زوالُ بَركَهْ

وعَظُم كسرةُ بركة ومسكهُ على الناس، لأنه كان محبباً للرعيّة وفيه كرمٌ وحشمةٌ وكان أكثر مَيْل الناس إليه.

ولمّا كان عشّية ليلة الخميس المذكورة أخذ برقوق خجداشَه بركة وقيّده وأرسله إلى سجن الإسكندرية فحُبِس به صحبة الأمير قَرْدَم الحسنيّ ومعه جماعةٌ في القيود من أصحابه الأمراء وهم: الأمير قَرادمرداش الأحمديّ أمير مجلس المقبوض عليه قبل واقعة بركة، وآقْتَمُر العثمانيّ الدوادار، وأمير آخر.

ثم أخذ برقوق في القبض على الأمراء من أصحاب بركَةَ، فَمسَك جماعة

---

(1) كذا بالأصل. والمراد: تخلًّى.

(2) جامع المقسي: أنشأه الحاكم بأمر الله الفاطمي على شاطيء النيل بمنطقة المقس. وعرف باسم جامع المقسي، وجامع المقس، والجامع الأنور. (انظر خطط المقريزي: ٢/٢٨٣، وصبح الأعشى: ٣/٣٦٥) ويعرف اليوم باسم جامع أولاد عنان بشارع إبراهيم باشا بالقاهرة. (محمد رمزي).

كبيرة وهم: أَيْدَمُر الخطَائِيّ، وخُضَرْ (بضم الخاء المعجمة وفتح الضاد المعجمة وراء ساكنة)، وقَراكَسك، وأمير حاج بن مُغْلَطاي، وسودُون باشا، ويلبغا المنجكيّ، وقَرَابلاط، وقرابُغَا الأبو بكريّ، وتمربغا السيفيّ تمرباي، وإلياس الماجريّ[١]، وتمربغا الشمسيّ، ويوسف بن شادي، وقُطْلُبك النظاميّ، وآقبغا صيوان الصالحيّ، وكزل القِرميّ، وطولو تَمُر الأحمديّ، وطوجى الحسينيّ[٢]، وتَنْكِر العثماني، وقُطْلُو بغا السيفيّ، وغريب الأشرفيّ، وكمجيّ، وأَلْطُنبغا الأرْغونيّ، ويلبغا الناصريّ رفيق منطاش الآتي ذكرهما، وأطلمش الطازيّ، وتمرقيا.

فأرسل منهم برقوق في ليلة الأحد ثاني عشر ربيع الأوّل جماعةً إلى الإسكندرية صحبةَ الأمير سُودون الشيخونيّ وهم: يلبغا الناصريّ وهو أكبر الجماعة، وطُبج المحمديّ، ويَلبغا المَنْجَكِيّ، وأطلمش الطازيّ، وقرابَلاط، وتَمُرْقَيا السيفيّ تَمُرْبُغا، وإِلْياس، وقَرَابُغا[٣].

ثم عَرَض برقوق مماليك بركة، فأخذ أكابَرهم في خدمته، وكذلك فَعَل بمماليك يَلْبغا الناصريّ. ثم أمسك أرسلان الأشرفيّ دوادار بَرَكة. ثم أفرج برقوق عن ستة أمراء ممن أمسكهم.

ثم أنعم برقوق على جماعة من أصحابه بتقادِم ألوف: فأَنْعم على ولده محمد بن برقوق بإقطاع بركة بتمامه وكماله، ثم أنعم على أربعة أخر بتقادِم ألوف وهم: جَرْكَس الخليليّ، وبُزْلَار العُمَرِيّ الناصريّ، وأَلْطُنبغا المعلّم، وألابغا العثمانيّ. وأنعم على أطلمش الطازيّ أحد أصحاب بركة بإمرة طبلخاناة بالشام.

---

(١) في السلوك: «الماجاري».

(٢) في السلوك: «الحسني».

(٣) قال المقريزي: وبذلك انقرضت دولة الأتراك بأسرها، وتُتبعوا بالأخذ فقتلوا وسجنوا ونفوا. ولقد كانت الجراكسة قبل ذلك تتحدث فيما بينها بأنه يكون فتنة كبيرة ثم تخمد، ويثور بعدها فتنة بينهم وبين الترك ينتصرون على الأتراك فيها بعد وقعة، وتعلو كلمتهم عليهم. وصاروا يتدارسون هذا فيما بينهم ولا يشكون في وقوعه. فلما كانت حركة الأمير أينال جهروا بذكر ذلك وقالوه من غير احتشام وأذاعوه حتى تحدّث به كبيرهم وصغيرهم. (انظر السلوك: ٣/٣٨٥).

ثم في يوم الخميس ثامن(١) شهر ربيع الأوّل المذكور أنعم على جماعة بإمرة طبلخانات، وهم: آقْبُغا الناصريّ، وتَنْكِز بُغا السيفيّ، وطوجي، وفارس الصرغتمشيّ، وكمشبغا الأشرفيّ الخاصّكي، وقطلوبغا السيفيّ كوكاي، وتمربغا المَنْجَكِيّ، وسودون باق السَّيْفيّ تمرباي، وإياس الصرغتمشيّ و[أنعم] على جماعة بإمرة عشرات وهم: قوصون الأشرفيّ، وبيبرس التمان تَمُريّ، وطغا الكريمي(٢)، وبيرم العلائيّ، وآقبغا اللّاجينيّ.

ثم في حادي عشرين شهر ربيع الأوّل المذكور أخلع برقوق على جماعة من الأمراء بوظائف، فآستقرّ أَيْتَمش البَجاسيّ رأس نوبة كبير أطابكاً عوضاً عن بركة ـ وهذه الوظيفة بطلت من أيام الملك الناصر فرج ـ وآستقرّ عَلّان الشعبانيّ أمير سلاح عوضاً عن يلبغا الناصريّ، وآستقرّ أَلْطُنبغا الجُوبانيّ أميرَ مجلس عوضاً عن قرادمرداش الأحمديّ، وآستقرّ ألابغا العثمانيّ دواداراً عوضاً عن آقتمر العثمانيّ، وآستقرّ أَلْطُنبغا المعلّم رأس نوبة ثاني بتقدّمة ألف (أعني رأس نوبة النُّوَب)، وآستقرّ جَركْس الخليليّ أميرَ آخور كبيراً، وآستقرّ قرابغا الأبو بكريّ حاجباً، وآستقرّ بجمان المحمديّ من جملة رؤوس النوب، وآستقرّ كمشبغا الأشرفيّ الخاصّكي شادّ الشراب خاناه، [فصار أرباب الدولة كلهم جراكسة من أتباع الأمير الكبير برقوق](٣).

وفي ثاني عشرينه آستقرّ الأمير صلاح الدين خليل بن عَرَّام نائب إسكندرية عوضاً عن بَلُّوط الصرغتمشيّ، فتوجّه آبن عَرَّام إلى الإسكندرية. ثم عاد إلى القاهرة بعد مدّة يسيرة وشكا من الأمير بركة، فأوصاه برقوق به في الظاهر، وسيّره إلى الإسكندرية ثانياً.

ثم أمْسك برقوق الأمير بَيْدَمُر الخُوَارَزْميّ نائب الشام، وأمسك معه جماعة من

(١) في السلوك: «سابع عشر ربيع الأول».

(٢) في السلوك: «طنا الكريمي».

(٣) زيادة عن السلوك.

أصحابه من الأمراء. وكان بيدمر من حزب بركة، وخرج عن طاعة برقوق، فَوَلّى برقوق عوضه الأميرَ إِشِقْتَمُر الماردينيّ نائب حلب.

وتولّى نيابة حلب بعد إِشِقْتَمر منكلي بغا الأحمديّ البلديّ نائب طرابلُس. ثم في آخر جُمادَى الأولى أَفْرج برقوق عن جماعة الأمراء المسجونين بثغر الإسكندرية ما خلا أربعة أنفس، وهم: بَرَكة ويلبغا الناصريّ وقَرَادمرداش الأحمديّ وبَيْدَمُر الخُوارزميّ نائب الشام. وحضرت البقيّة إلى القاهرة، فأُخْرِج بعضهم إلى الشام ونُفِي بعضُهم إلى قُوص.

ثم في شعبان باست الأمراء الأرضَ للسلطان الملك المنصور عليّ وسألوه الإفراج عن المسجونين بالإسكندرية، وذلك بتدبير برقوق، فرسَمَ السلطان بالإفراج عنهم وهم: بَيْدَمُر الخُوارزميّ، ويَلْبُغا الناصريّ، وقرادمرداش الأحمديّ. ولم يبقَ بسجن الإسكندرية مّمن مُسِك من الأعيان في واقعة بركة غير المذكور، ومات في شهر رجب على ما يأتي ذكره، بعد أن نحْكي قدومَ آنص والد الأتابك برقوق من بلاد الجْرَكس ــ ولَمّا حضر الأمراء إلى مصر أُخْرِج يلبغا الناصريّ إلى دِمشق على إمرة مائة وتقدمة ألف بها وقَرَادمرداش إلى حلب على تقدمة ألف أيضاً بها، وتوجّه بَيْدَمر الخُوارزميّ إلى ثغر دِمْياط بطّالاً.

ثم رَسَمَ برقوق بالإفراج عن الأمير إينال اليُوسفيّ، صاحب الواقعة مع برقوق المقدَّم ذكرها، من سجن الإسكندرية وآستقرّ في نيابة طرابُلُسَ. ثم آستقرّ كَمَشْبُغَا الحمويّ اليلبُغَاوي في نيابة صفد عوضاً عن تَمُرْباي الأفضليّ التِّمرداشيّ مدّةً يسيرةً ونُقِل إلى نيابة طرابُلُس بحكم آنتقال إينال اليوسفيّ إلى نيابة حلب بعد وفاة منْكَلي بُغا الأحمديّ البلديّ.

ثم في ذي الحِجّة من السنة وصَل الخبرُ بوصول الأمير آنص الجَرْكَسِيّ والد الأمير الكبير برقوق العثمانيّ صحبةَ تاجر برقوق الخواجا عثمان بن مُسافر، فخرج برقوق بجميع الأمراء إلى لقائه في يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة سنة آثنتين وثمانين

وسبعمائة المذكورة، فسافر برقوق إلى العِكْرشة[١]. قال قاضي القضاة بدر الدين محمود العينيّ الحنفيّ: وهو المكان الذي آلتَقَى به يوسف الصِّدِّيق أباه يعقوبَ عليهما السلام على ما قيل.

وكان قد هيأ له ولدُه الأتابك برقوق الإقامات والخِيَم والأسمطة. وآلتقى برقوق مع والده، فحالَ وقَع بصرُ آنص على ولده برقوق، مدّ له يدَه، فأخذها برقوق وقَبّلها ووضعها على رأسه. ثم سَلَّم عليه أكابرُ أمراء مصر على مراتبهم، وأُقْعِدَ آنص والدُ برقوق في صدر المُخيَّم، وقعد الأمير آقْتَمُر عبد الغنيّ النائب من جانب، والأمير أَيْدَمر الشمسيّ من جانب آخر، وجلس برقوق تحت أيدمر وهو يوم ذاك مُرَشَّح للسلطنة، فآنظر إلى تلك الآداب والقواعد السالفة. ولَمّا آستقرّ بهم الجلوس أخذ آنص يُخاطب برقوقاً ولدَه باسمه من غير تحشم، كما يخاطب الوالد ولده على قاعدة الجراكِسة ــ والقاعدةُ عندهم أنّ الولد والخديم عندهم سواء وكان المُلْتَقى بالعِكْرِشة والنزول بالمُخيَّم بالخانِقاه، فإنهم لمّا تَلاقَوْا ساروا على ظُهْر إلى خانقاه سِرْياقُوس؛ وحضر مع الأمير آنص جماعةٌ كبيرة من أقاربه وأولاده إخوة الأتابك برقوق: خَوَنْد الكُبْرى والصُّغْرَى أمّ بِيبَرْس الأتابك وغيرهما.

ثم مُدّت الأَسْمِطة من المآكل والمشارب والحلاوات وغيرِها. ودام برقوق والأمراء بخانقاه سِرْياقُوس إلى ظهر اليوم المذكور، ثم رَكِبُوا الجميع وعادوا إلى جهة الديار المصريّة، والموكب لآنص والد برقوق، وأكابر الأمراء عن يمينه وشماله، وتحته فرسٌ بسَرْج ذهب وكُنْبُوش زركش بذهب هائل قد تناهَوْا في عملهما. وسار الجميعُ حتّى دخلوا إلى القاهرة، وآجتازوا بها، وقد أُوقِدَتْ لهم الشموعُ والقناديلُ، فتحَّير والدُ برقوق ممّا رأى ــ وكان جركسياً جنسه «كَسَا» لا يعْرِف باللغة التركيّة شيئاً، لأن «الكَسَا» بالبعد عن بلاد التَّتار. وطَلَع برقوق مع آبنه إلى القلعة، وصار هو المشار إليه على ما سنذكره.

وأمّا أمرُ بَرَكة فإنه لمّا كان شهر رجب من هذه السنة ورد الخبرُ من الأمير

---

(١) العكرشة: اسم يطلق على بركة واقعة في الطريق الصحراوي بين القاهرة وبلبيس. وهذه البركة لا تزال باقية إلى اليوم بأراضي بلدة أبو زعبل. (محمد رمزي).

صلاح الدين خليل بن عَرَّام نائب الإسكندرية بموت الأمير زَيْن الدين بَرَكة الجوبانيّ اليلبُغاويّ المقدّم ذكره بسجن الإسكندرية؛ فلمّا بلغ الأتابك برقوقاً ذلك عَظُمَ عليه في الظاهر ـ والله سبحانه وتعالى متولي السرائر ـ وبعث بالأمير يُونُس النَّوْرُوزِيّ الدَّوَادار بالإسكندرية لكشف خبر الأمير بركة وكيف كانت وفاته، فتوجّه يونس إلى الإسكندرية، ثم عاد إلى مصر ومعه آبن عَرّام المذكور نائب الإسكندرية، وأخبر برقوقاً بأنّ الأمر صحيح، وأنه كَشَفَ عن موته وأخرجه من قبره فوجد به ضَرَبات: إحداها في رأسه، وأنه مدفون بثيابه من غير كَفَن، وأنّ يُونُس أخْرجه وغسَّله وكَفَّنه ودَفَنَهُ وصلَّى عليه خارج باب رَشِيد[1] وبَنى عَليه تُرْبةً، وأن الأمير صلاح الدين خليل بن عَرَّام هو الذي قتله. فحبَسَ برقوق آبن عَرَّام بِخزانة[2] شمائل. ثم عصره وسأله عن فصوص خلّاها بركة عنده، فأنكرها وأنكر أنه ما رآها.

فلمّا كان يوم الخميس خامس عشرين شهر رجب المذكور، طلَع الأمراء للخدمة على العادة، وطُلِب آبْن عَرّام من خزانة شمائل، فطلعوا به إلى القلعة على حِمار، فَرَسم برقوق بتسميره. فخرج الأمير مأمور القَلمطَاوِي حاجبُ الحّجاب، وجلس بباب القُلّة، هو وأمير جاندار، وطُلب آبن عَرّام بعد خدمة الإيوان، فَعُرِّي وضُرِب بالمقارع ستةً وثمانين شِيباً[3]، ثم سُمِّر على جَمَل بلُعْبَة تسمير عَطَب[4]. وأُنْزِل من القلعة إلى سُوق الخيل بالرُّمَيْلة بعد نزول الأمراء، وأوقفوه تجاه الإسطبل السلطانيّ ساعة؛ فنزل إليه جماعة من مماليك بَرَكة وضربوه بالسيوف والدَّبابيس حتى هَبْروه وقطَّعوه قِطعاً عديدةً، ثم إنّ بعضَهم قطَع أُذُنَه وجعل يعضُّها صِفة الأكل، وأخذ آخرُ رجلَه، وآخرُ قَطَع رأسَه وعلَّقها بباب زويلة، وبَقِيتْ قطعٌ منه

(١) باب رشيد: من أبواب مدينة الإسكندرية في سورها الشرقي. وسمي بذلك لأنه كان على رأس الطريق التي توصل من الإسكندرية إلى رشيد.

(٢) خزانة شمائل: كانت من سجون القاهرة، وتنسب إلى علم الدين بن شمائل والي القاهرة زمن الكامل بن العادل أبي بكر الأيوبي. وكانت مخصصة لذوي الجرائم الكبرى. (انظر خطط المقريزي: ١٨٨/٢).

(٣) الشِّيب: السوط أو الكرباج الرخو.

(٤) المراد بذلك عقوبة التسمير التي تؤدي إلى العطب أو الموت. أما التسمير الذي لا يراد منه القتل فكانوا يسمونه في ذلك العصر: «تسمير سلامة». (انظر الجوهر الثمين: ٢٥٢/٢).

مَرْميّة بسوق الخيل. وذكر أن بعض مماليك برَكَة أخذَ من لحمه قطعةً شواها. والله أعلم بصحة ذلك.

ثم جُمِع آبن عَرَّام بعد ذلك ودُفِن بمدرسته[1] خارج القاهرة عند جامع أمير حسين بن جَنْدَر بحِكْر جوهر النوبيّ. وقد صار أمر آبن عَرّام المذكور في أفواه العامّة مثلاً يقولون: «خموول آبن عَرام». وكان ابن عرام المذكور أميراً جليلاً فاضلاً، تنقّل في الولايات والوظائف؛ وكان له يدٌ طولى في التاريخ والأدب، وله مصنفات مفيدة، وتاريخ[2] كبير فيه فوائد ومُلَح. وفي هذا المعنى يقول الأديب شهاب الدين أحمد آبن العطار: [البسيط]

أيآبن عَرَّام قد سُمِّرتَ مُشتهراً ... وصار ذلك مكتوباً ومحسوبَا
ما زلتَ تجهدُ في التاريخ تكتُبُه ... حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا

وفيه يقول أيضاً [الوافر]

بدَتْ أجزا ابن عَرّامٍ خليلٍ ... مقطَّعةً من الضربِ الثقِيلِ
وأبدتْ أبحرُ الشعر المراثي ... محرّرة بتقطيع الخليلِ

حدّثني الزيني فيروز الطواشيّ الروميّ العرّامي ـ وكان ثقة صاحب فضل ومعرفة ودِين ـ أن أستاذه صلاح الدين خليل بن عَرّام المذكور كان مليحَ الشكل، فصيحَ العبارة بلغات عديدة، مع فضيلة تامّة، ومعرفة بالأمور، وسياسة حسنة. وتولّى نيابة ثغر الإسكندرية غير مرة سنين طويلة، وتولّى الوَزَر بالديار المصرية، وتنقّل في عدّة وظائف أخر. قال: وكان من رجال الدهر، وكان محَّبباً في الفقهاء والفقراء وأرباب الصلاح. اِنتهى.

وقال غيرُه: كان بَشَّره الشيخ يحيى الصنافيريّ والشيخ المعتَقَد نهار[3] أنه

---

(١) عن مدرسة ابن عرام انظر خطط المقريزي: ٢/٣٩٤، وخطط علي مبارك: ٣/٢١٩ ـ وذكر علي مبارك أن هذه المدرسة قد زالت وآل أمرها أن صارت زريبة للمواشي. غير أن الأستاذ محمد رمزي يؤكد وجود هذه المدرسة إلى اليوم، وهي تعرف باسم جامع المرصفي عند قنطرة الأمير حسين بالقاهرة.

(٢) قال ابن حجر في إنباء الغمر: ٢/٢٦ «رأيت له تاريخاً جمع فيه فأوعى في التراجم والحوادث، وهو في عشرة مجلدات».

(٣) هو الشيخ نهار المغربي الإسكندري الصوفي. سيذكره المؤلف في وفيات سنة ٧٨٠هـ.

يموت مقتولاً بالسيف مُسَمَّراً. وفي معنى ما قاله الشيخ نهار المذكور، يقول الشيخ الشهاب آبن العطار المقدّم ذكره: [السريع]

وَعْـدُ آبـن عَـرَّامٍ قـديمٌ بِمـا قـد نال من شيخ رفيع المَنَارْ
يـا ليلةً بـالسِّجن أبـدتْ لـهُ مـا قـالـه الشيخُ نهارٌ جِهَـارْ

وقال العَيْنيُّ ــ رحمه الله ــ: وذكر القاضي تاجُ الدين بن المِليجيّ شاهدُ الخاصّ الشريف أنّه طلع إلى القلعة وهم يُسَمِّرون آبـن عرّام، فقعد إلى أن تَخِفّ الناس؛ فلمّا فرغوا من تسميره، جازوا به عليه، فَسمِعه وهو يقول في تلك الحالة ويُنشِد أبيات أبي بكر الشِّبليّ، وهي قوله: [الخفيف]

لـك[1] قَـلْبي تُـعِـلُّهُ فـدمِـي لِـمْ تُـحِـلُّهُ
قـال إن كـنـتُ قـاهـراً فـلِيَ الأمـرُ كُـلُّهُ

اِنتهى. وقد خرجنا عن المقصود وأطلنا الكلام في قِصّة بركَة وآبـن عَرّام على سبيل الاستطراد، ولْنَرْجِع لِمَا كنّا فيه.

وأما برقوق فإنه آستمرّ على حاله كما كان قبل مَسْك بركة وقتله، وإليه حلّ المملكة وعقدها، ولم يجسُر على السلطنة. وبينما هو في ذلك مَرِض السلطان الملك المنصور عليّ ولَزِم الفراش، حتى مات بين الظهر والعصر من يوم الأحد ثالث عشرين صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، ودُفِن من ليلته بعد عِشاء الآخرة في تربة جدّته لأبيه خَوَنْد بركة بالقُبّة التي بمدرستها بالتبانة. وكان الذي تولّى تجهيزه وتغسيلَه ودفنَه الأميرَ قُطْلوبُغا الكُوكَائيّ. وكانت مدّة سلطنته على ديار مصر خمس سنين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً. ومات وعمره آثنتا عشرة سنة. ولم يكن في سلطنته سوى مجرّد الاسم فقط. وإنما كان أمر المملكة في أيام سلطنته إلى قَرَطاي أوّلاً ثم إلى برقوق آخراً، وهو كالآلة معهم لصغر سنه ولغلبتهم على الملك. وتسلطن من

(١) نسبها النويري في نهاية الأرب: ١٣٦/٧ لأبي فراس الحمداني. ونصها فيه:
لـك جـسـمـي تـعـلّه فـدمـي لم تـطلّه
قـال إن كـنـت مـالـكـاً فـلي الأمـر كـلّه

بعده أخوه أمير حاج آبن الملك الأشرف شعبان بن حسين، ولم يقدر برقوق ـ مع ما كان عليه من العظمة ـ أن يتسلطن. وكان الملك المنصور عليّ مِليحَ الشكل حَسَن الوجه، حشِيماً، كثير الأدب، واسع النفس، كريماً. رحمه الله تعالى.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور على آبن الملك الأشرف شعبان على مصر

وهي سنة تسع وسبعين وسبعمائة. على أنه تسلطن في الثامن من ذي القعدة من السنة الخالية.

فيها (أعني سنة تسع وسبعين وسبعمائة) كانت واقعة قَرَطاي الطازيّ مع صهره أَيْنبكَ البدريّ، وقُتِل قَرَطاي. ثم بعد مدّة قُتِل أينبك أيضاً.

وفيها كان ظهور برقوق وبَرَكة، وآبتداء أمرهما، حسب ما ذكرنا ذلك كلّه في أصل ترجمة الملك المنصور هذا.

وفيها تُوُفِّي الشيخ الإمام العّلامة شهاب الدين أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرُّعَيْنِيّ الغِرْناطيّ المالكيّ بحلب عن سبعين سنة. وكان إليه المنتهى في علم النحو والبديع والتصريف والعَرُوض، وله مشاركة في فنون كثيرة، ومصنفات جيدة؛ وكان له نظم ونثر. ومن شعره ما كتبه على ألفية الشيخ يحيى[1]: [مخلَّع البسيط]

يا طالِب النحو ذا اجتهادٍ   تسمو بهِ في الورى وتحْيَا
إن شِئتَ نيلَ المُرادِ فاقْصِدْ   أُرْجوزَةً للإمام يَحْيى

وتُوُفِّي الشيخ الإمام بدر الدين حسن بن زيد الدين عمر بن الحسين بن عمر بن حبيب الحلبيّ الشافعي بحلب عن سبعين سنة. وكان باشر كتابة الحكم

(١) هو يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي صاحب الألفية الشهيرة في النحو المسماة «الدرّة الألفية في علم العربية». توفي سنة ٦٢٨هـ. (الأعلام: ٨/١٥٥).

وكتابة الإنشاء وغير ذلك من الوظائف الدِّينية. وكان إمامَ عصره في صناعتي الإنشاء والشروط، وله تصانيف مفيدة منها: «تاريخ[1] دولة الترك» أنهاه إلى سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وذيَّل عَليه ولَدُه أبو العزّ طاهر وقال: [البسيط]

مـا زِلتَ تُولَـع بِـالتـاريـخ تكتُبـه حتّى رأيناك فِي التاريـخ مكتـوبًا

قلت: وأكثرَ الناسُ من نظم هذا المعنى الركيك البارد في حقّ عدّة كثيرة من المؤرّخين، وتزاحموا على هذا المعنى المطروق. انتهى.

قلت: وكان له نظمٌ كثير ونثر؛ وتاريخه مرجَّز، وهو قليل الفائدة والضبط، ولذلك لم أنقُل عنه إلا نادراً: فإنه كان إذا لم تُعجِبْه القافية سكت عن المراد. وليس هذا مَذْهبِي في التاريـخ.

ومن شعر الشيخ بدر الدين حسن هذا ـ رحمه الله تعالى ـ: [السريـع]

الـورد والنَّـرجِسُ مُـذْعـاينَـا نَـيْـلَوفـراً يـلزمُ أنـهـارَه
شَمَّـرذا للخَـوْضِ عن سـاقِـهِ وفَـكَّ ذا لـلعَـوْمِ أَزْرَارَه

وله في مليح يُدْعَى موسى: [الرجز]

لمـا بـدا كـالبـدرِ قـال عـاذِلِي من ذا الذي قد فاق عن شمسِ الضّحى
فقلت مـوسى وآسْتَفِـق فـإنـه أهـونُ شيء عنـده حَلْقُ اللِّحى

وله عفا الله تعالى عنه: [الرجز]

يـا أيهـا السـاهـون عن أُخْـرَاكُمُ إنّ الـهـدايـا فِيكم لا تُـعْـرَفُ
المـالُ بِالميزانِ يُصْـرفُ عنـدكُم والعمـر بينكُمُ جزافـاً يُصْـرَفُ

وله قصيدة على رَوِيّ قصيدة كمال الدين عليّ بن النَّبيه، قد أثبتناها في ترجمته في المنهل الصافي، أوّلُها: [البسيط]

---

(١) هو التاريخ المسمى «درّة الأسلاك في دولة الأتراك». وله أيضاً «تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه» جمع فيه أخبار السلطان قلاوون وأبنائه. (الأعلام: ٢/٢٠٨).

جوانِحي لِلقاء الأحبابِ قد جَنَحت وعـادِياتُ غـرامي نحوَهم جَنحت

وتُوُفي الأمير سيف الدين قُطْلُقتَمُر بن عبد الله العلائيّ صاحب الواقعة مع الأمير أيْنَبك البدريّ وغيره؛ وهو ممن قام على الملك الأشرف شعبان، وأخذ تقدمة ألف بالديار المصرية دفعةً فلم يتهنأ بها، وعاجلته المنية ومات، ولحقه من بقِي من أصحابه بالسيف.

وتُوُفِّي الأمير طَشْتَمـر اللَّفاف المحمديّ مقتولاً في ثالث المحرّم. وهو أيضاً ممّن قام على الملك الأشرف وصار أميراً كبيراً أتابَك العساكر دفعة واحدة من الجندية. وقد تقدّم ذكرُ هؤلاء الجميـع في أواخر ترجمة الملك الأشرف شعبان وفي أوائل ترجمة ولده الملك المنصور عليّ هذا.

وتُوُفِّي الأمير الكبير سيف الدين آقْتَمُر الصاحبـيّ المعروف بالحنبلـيّ نائب السلطنة بديار مصر، ثم بِدمشق بها في ليلة الحادي عشر من شهر رجب. وكان من أجلّ الأمراء وأعظمهم. باشر نيابة دمشق مرتين وتَولّى قبلها عِدّة ولايات. ثم بعد النيابة الأولى لدمشق وليَ نيابةَ السلطنة بالقاهرة، وسـاس الناس أحسن سياسة، وشُكِرت سيرتُه. وكان وَقُوراً في الدول، مهاباً، وفيه عقلٌ وحشمة وديانة. وكان سُمِّي بالحنبلـيّ لكثرة مبالغته في الطهارة والوضوء.

وتُوفِّي الأمير سيف الدين يَلْبغا بن عبد الله النظاميّ الناصريّ. وكان أوّلاً من خاصكِية الملك الناصر حسن ثم تَرَقى إلى أن صار أميرَ مائة ومقدّم ألْف بمصر. ثم ولـي نيابة حلب، وبها مات فيما أظنّ؛ وكان شجاعاً مقداماً.

وتوفي الأمير سيف الدين قَرطَاي أتابك العَساكر مخنوقاً بطرابُلُس ـ وقد تقدّم واقعته مـع صِهره أَيْنَبك البدريّ. وهو أحد رؤوس الفتن وممن ولي أتابكيّة العساكر من إمرة عشرة، وكان قَتْلهُ في شهر رمضان. وجميـع هؤلاء من أصاغر الأمراء، لم تَسْبِق لهم رياسة ليُعْرَفَ حالُهم، وإنما وثب كل واحد منهم على ما أراد فَأخذَه، فلم تَطُلْ مدَّتهم، وقَتَل بعضهم بعضاً إلى أن تَفَانَوْا.

وتُوُفِّي القاضي صلاح الدين صالـح بن أحمد بن عُمَر بن السَّفّاح الحلبـي

الشافعيّ، وهو عائد من الحج، بمدينة بُصْرَى. وكنيته أبو النُّسُك، ومَولدُه في سنة آثنتي عشرة وسبعمائة بحلَب، وبها نَشأ، ووَلِيَ بها وكالة بيت المال ونظرَ الأوقاف وعِدّةَ وظائف أُخَر وهو والد شهاب الدين أحمد كاتب سر حلب ثم مصر. وكان كاتباً حَسَن التصرُّف، ذكره [زَيْن الدين] أبو العِزّ طاهر بن [الحسن بن عمر بن] حبيب في تاريخه[١] وأورد له نظماً، من ذلك: [دوبيت]

لا نلتُ مِن الوِصالِ ما أمّلتُ   إن كان مَتَى ما حُلْتَ عَنِّي حُلْت
أحببْتُكم طِفلاً وها قد شِبْتُ   أَبْغي بدَلاً ضاق عليّ الوقتُ

وتُوُفِّي الأمير شهاب الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين قوصون في ثاني عشر ذي الحجّة. وكان من جملة أمراء الطبلخانات بمصر، وله وجاهة في الدول.

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين أَلْطُنْبغا بن عبد الله السلاح دار المعروف بأبي درَقَة[٢]. وكان أيضاً من جُمْلة أمراء مصر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وأربعة وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وآثنتا عشر إصبعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك المنصور عليّ بن الأشرف شعبان على مصر

وهي سنة ثمانين وسبعمائة

فيها كانت وقعة الأمير تَمُر بايَ الأفضليّ التَمرداَشِيّ نائب حلب مع التُّركْمان.

وُتوفّي العّلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد آبن الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي الحسن بن عليّ بن جابر الأندلسيّ المالكيّ الهّوارِيّ بحلب عن

(١) هو ذيل على تاريخ أبيه المذكور سابقاً. راجع ص ١٥٤، حاشية (١) من هذا الجزء.
(٢) في السلوك: «أبو قورة».

سبعين سنة. وكان عالماً بارعاً في فنون كثيرة، وله نظمٌ ونثرٌ، وله مصنَّفات كثيرة.
ومن شعره: [الخفيف]

وقفتْ للوَدَاعِ زينبُ لمَّا ... رَحَل الرَّكْبُ والمدامعُ تُسْكَبْ
فالتقتْ بالبَنَانِ دَمْعي وحُلْوٌ ... سَكْبُ دمعي على أصابع زَيْنَبْ

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العلامة ضياء الدين أبو محمد عبد الله ابن الشيخ سعد الدين سعد العَفِيفيّ القَزْوينيّ الشافعيّ الشهير بٱبن قاضي القِرم بالقاهرة في ثالث عشر ذي الحجة عن نَيِّف وستين سنة. وكان من العلماء، عارفاً بعدّة علوم. كان يدرّس في المذهبين: الحنفية والشافعية. وكتب إليه زَيْنُ الدين طَاهر بن حبيب يقول: [الخفيف]

قل لربِّ النَّدَى ومن طلبَ العِلمَ ... مُجِدّاً إلى سبيل السواءِ
إن أردتَ الخَلاصَ من ظُلْمةِ الجَهْلِ ... فما تهتدِي بغير الضياءِ

فأجابه ضياء الدين: [الخفيف]

قل لمن يطلب الهدايةَ مِنِّي ... خِلْتَ لَمْعَ السَّرَاب بركةَ ماءِ
ليس عِندِي مِن الضياءِ شُعاعٌ ... كيف تبغي الهُدى من ٱسم الضياء

وتُوُفِّي الشيخ الصالح الزاهد العابد الورع المعتَقَد شهاب الدين أبو العباس أحمد المعروف ببادَار بالقدس عن نيِّف وسبعين سنة، بعد أن كفّ بصره. وكان يعرف علم التصوُّف وعلم الحَرْف جيِّداً، وللناس فيه ٱعتقادٌ كبير. رحمه الله تعالى ونفعنا ببركته.

وتُوُفِّي الشيخ الصالح المعتَقَد أبو النُّسك صالح بن نجم بن صالح المصريّ، المقيم بزاويته بمُنْية الشِّيرج من ضواحي القاهرة، وبها مات، ودُفِن في يوم الأربعاء خامس عشرين شهر رمضان عن نيِّف وستين سنة. وكان على قَدَم هائل من العبادة والزُّهْد والوَرَع. وفيه يقول أبو العِزّ طاهر بن حبيب: [الطويل]

أذا رُمتَ وجهَ الخيرِ فالشيخُ صالحٌ عليك به فـالقصدُ إذ ذاك نـاجحُ
وحَيَّ هَلاً وآنشـده في الحي مُنْشِداً ألا كُلُّ ما قَرَّتْ به العينُ صالحُ

وتُوُفِّي الشيخ المعتَقَد الصالح المجذوب صاحب الكرامات الخارقة والأحوال العجيبة نَهَار المغربيّ الإسكَنْدريّ بها في يوم الاثنين سادس عشرين جمادى الأولى ــ وقيل يوم الثلاثاء ــ ودفن بتربة الديماس داخل الإسكندرية. ومن كراماته ما آتفـق له مع الأمير صلاح الدين خليل بن عَرَّام نائب الإسكندرية ــ وكان آبـن عرام يخدمُه كثيراً ــ فقال له الشيخ نهَار: «يابن عَرَّام! ما تموت إلاّ موسَّطاً أو مُسَمَّراً» و[ذلك] قبلَ قتل آبن عَرَّام بسنين، [قالها له] مراراً عديدة وآبن عَرَّام يقول له: «في الغزاة إن شاء الله تعالى» فكان كما قال. وقد تقدّم ذلك.

وتُوُفِّي الشيخ الصالح المعتَقَد عبد الله الجَبَرْتيّ الزَّيْلعيّ الحنفيّ في ليلة الجمعة سادس عشر المحرّم ودُفِن بالقرافة؛ وقبرُه معروف بها يُقْصَد للزيارة. وكان من عباد الله الصالحين، رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الأمير شرف الدين موسى بن الأَزْكَشـي في سادس عشر ذي القعدة بالمحلّة من أعمال مصـر، وحُمل إلى داره بـالحسينية، وهـو إذ ذاك من أمراء الطبلخانات. وكان دَيِّناً عفيفاً. تولّى ولايات جليلة منها: الأستادارية[١] العالية، والحجوبية؛ وآستقـرّ في أيام الملك الأشرف شعبان بن حُسين مُشير[٢] الدولة. وكان إذا رَكِب يَحْمل مملوكه وراءه دواة ومِرْمَلة[٣].

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين أَطْلُمُش بن عبد الله الدوادار أحدُ أمراء الألوف بديار مصر في شهر ربيع الأوّل بدمشق؛ وقد أُخْرِج إليها منفياً على إمرة مائة وتقدمة ألف

---

(١) هي وظيفة الأستادار. ويقال أيضاً: أستادار العالية. راجـع فهرس المصطلحات.

(٢) هذه الوظيفة تعادل رتبة الوزارة. وربما تقدّمت عليها في بعض الأحوال وذلك حسب ما يريد الأتابك الكبير الذي أصبح في هذه الأيام المتحكم الأول في جميـع أمور الدولة. ــ أنظر فيما سيأتي ص ١٧١ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل: «مزمّلة» بالزاي المعجمة وهو خطأ. والمرملة ــ بالراء المهملة ــ ظرف أو حُقّ يوضـع فيه الرمل الذي يستعمل لتجفيف حبر الكتابة.

لمّا ملك بَرْقوق وبَركة ديار مصر وصار لهما أمرُها ونهيُها. وكان من أعيان الأمراء، وهو أيضاً أحد من قام على الملك الأشرف شعبان.

وتُوُفِّي القاضي علاء الدين عليّ بن عبد الوهاب بن عثمان بن محمد بن هبة الله بـن عَرَب مُحتسِب القاهرة في ثالث عشر ذى الحجة بمكة بعد قضاء الحج.

وتُوُفِّي الأمير علاء الدين عليّ بن كَلْبك شادّ الدواوين في جمادى الآخرة. وكان وَلِي في بعض الأحيان ولاية القاهرة.

وتُوُفِّي الشيخ المُعَمَّر سَنَدُ الوقت صلاحُ الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الله آبن الشيـخ أبـي عمر المقدسيّ، آخر من بقي من أصحاب ابن البخاريّ، في شوّال بصالحية دِمَشق.

وتُوُفِّي الأمير شرف الدين موسى بن محمد بن شهري الكُرْديّ نائب سيس. وكان فقيهاً شافعياً فاضلاً كاتباً.

قلت: وبنو شهري معروفون؛ منهم جماعة إلى الآن في قَيْد الحياة، وَيَلي بعضُهم أعمال البلاد الحلبية في زماننا هذا.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع واثنان وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وخمسة أصابع، وقيل أربعة عشر.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك المنصور عليّ على مصر.

وهي سنة إحدى وثمانين وسبعمائة

فيها كان ركوب إينال اليوسفيّ على الأتابك برقوق، وقد تقدّم ذكرُ الواقعة في أصل هذه الترجمة.

وفيها كان الكلام من الحائط كما تقدّم أيضاً.

وفيها تُوُفِّي الشيخ تقيّ الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمـد بن عليّ،

الواسطيّ الأصل، المصريّ المولد والوفاة، الشافعيّ، المُقْرِىء، المحدِّث، الشهير بابن البغداديّ، بعد ما عَمِي، في يوم الأربعاء سادس عشرين شعبان بالقاهرة. ومولده ببغداد سنة سبع وتسعين وستمائة ــ وكان ولي قضاء المالكية بدمشق مدّة ثمّ صُرف. كان فقيهاً تصدّر للإقراء بمدرسة الحاج آل ملك والجامع الطولونيّ، وتولى مشيخة الحديث بالخانقاه الشيخونية.

وتُوُفّي الشيخ الإمام العالم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن مَرْزُوق العَجِيسِيّ[1] التِّلِمْسَانيّ المغربيّ المالكيّ. كان من ظُرفاء عصره. ترقّى عند الملك الناصر حسن حتى صار صاحب سرِّه وإمامَ جُمُعَته ومِنْبره. ثمّ توجّه في سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة إلى الأندلُس خوفاً من النَّكْبة، ثمّ عاد إلى مصر وتولّى عِدّة تداريس. وكان له سماعٌ كثيرٌ وفضلٌ غزير.

وتُوُفّي الشيخ الإمام الأديب البارع المُفْتَنّ الفقيه برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم آبن الشيخ الإمام المفتي شرف الدين عبد الله بن محمد بن عسكر بن مظفر بن نجم بن شادي بن هلال الطائيّ الطَّرِيفيّ القِيرَاطِيّ الشافعيّ بمكة المشرفة في ليلة الجمعة العشرين من شهر ربيع الأوّل، ودُفِنَ بالمعْلاة بعد صلاة الجمعة. والطَّرِيفيّ [نسبة إلى] فخذ من طيء، والقيراطيّ نسبة إلى قيراط وهي بلدة بالشرقية من أعمال الديار المصرية. ومولده ليلة الأحد حادي عشرين صفر من سنة ست وعشرين وسبعمائة. ونشأ بالقاهرة، وطلب العلمَ، ولازمَ علماء عصره إلى أن بَرَع في الفقه والأصول والعربية، ودرّس بعدّة مدارس، وسَمِع الكثير، وبَرَع في النظم، وقال الشعر الفائقَ الرائقَ. وعندي أنه أقربُ الناس في شعره لشيخه الشيخ جمال الدين بن نُباتة من دون تلامذته ومعاصريه، على ما سنذكره من شعره هنا. وقد آستوعبنا نُبْذَةً كبيرة في المنهل الصافي ومن شعره: [السريع]

تَنَفَّس الصبحُ فجاءت لنا ... مِن نحوِه الأنفاسُ مِسْكِيَّهْ
وأطربتْ لِي العُودَ قُمْرِيَّةٌ ... وكيف لا تُطْرِبُ عُودِيَّهْ

---

(١) نسبة إلى عجيس، قبيلة من البربر.

وله في طَبّاخ: [السريع]

هَــوِيتُ طَبَّـاخــاً لــه نَـصْـبَـةٌ ... نِـيـرانُـهـا لـلقـلـبِ جَـنَّـاتُ
يَكْسِـر أجـفـانـاً إذا مـا رَنَـا ... لـهـا عـلى الأرواحِ نَـصْـبَـاتُ

وله أيضاً: [السريع]

جَفْني وجفنُ الحِبِّ قـد أَحْـرَزَا ... وصـفَيْـن مِن نـيلِك يـا مِـصـرُ
جَفْنِي لـه يومَ الـوَدَاعِ الـوفَـا ... وجَفْنـه السَّاجِي لـه الكَسْـرُ[١]

وله أيضاً: [مخلّع البسيط]

لـو لـم يكـن كَـفُّـهُ غـمـامـاً ... مـا أنبَتَتْ في الـطروس زَهْـرَا
نـعـم ولـولاهُ بَـحْـرُ جُـودٍ ... مـا أبـرزَ الـلَّفظُ مـنـه دُرًّا

ومن شعره ــ رحمه الله تعالى وعفا عنه ــ قصيدته التي أوّلُها: [الكامل]

قَسمـاً بـروضــة خدِّه ونَبَـاتها ... وبِآسِهـا المخضَـرِّ في جَنَبـاتِهـا
وبســورة الحسنِ التي في خدِّهِ ... كتبَ الـعِـذَارُ بخـطِّهِ آيـاتـهـا
وبقـامـةٍ كـالغُـصنِ إلا أنـنِـي ... لم أجْنِ غيـر الصَّدّ من ثمراتها
لَأعَــزِّزَنَّ غــصـونَ بـانٍ زوّدتْ ... أعـطافـه بـالقَـطْعِ مِن عَـذَبـاتهـا
وأُبَـاكـرنّ ريـاضَ وجْنتِـه التي ... مـا زهْرَةُ الـدُّنيا سِوَى زَهَـراتهـا
ولأصْبِـحَـنّ لـلذّتـي مُـتَـيَـقِّـظاً ... مــا دامت الأيـامُ في غَفَــلاتهـا
كم ليلةٍ نـادمتُ بـدرَ سمـائهـا ... والشمسُ تُشْرِقُ في أكُفِّ سُقَاتها
وجـرتْ بنـا دُهْمُ الليـالي للصَّبَـا ... وكؤوسُنـا غُـرَرٌ على جَبَهـاتهـا
فصرفتُ دينارِي على دينـارهـا ... وقَضَيْتُ أعـوامِي على سـاعـاتهـا
خـالفتُ في الصَّهبـاءِ كـلَّ مقلِّدٍ ... وسَعَيْتُ مجتهـداً إلى حـانـاتهـا
فتحيَّـر الخـمّـارُ أيْن دِنـانُـهـا ... حتى اهتدى بالطِّيبِ من نَفَحاتها

---

(١) إشارة إلى وفاء النيل وكسر الخليج أي فتحه.

فشممْتُهـا ورأيتُهـا ولمستُهـا وشرِبتُها وسمِعتُ حسنَ صِفاتها
فَتَبِعتُ كـلَّ مُطاوعٍ لا يختشي عنـد ارتكابِ ذنـوبه تَبِعـاتها
يـأتِي إلى اللذات مِنْ أبوابها ويَحُـجُّ للصَّهْبـاء من مِيقَـاتها
عَـرَفَ المُدامَ بحسنها وبنَوْعها وبفَضْلها وصفـاتها وذواتها
يـا صاحِ قـد نَطَق الهَزارُ مؤذناً أيليقُ بـالأوتار طـولُ سُكاتها
فَخذ آرتفاعَ الشمسِ مِن أقداحنا وأقِم صلاة آللَّهوِ فِي أوقـاتِها
إن كـان عِندك يـا شرابُ بَقِيّةٌ ممـا تُزيلُ بهـا العقـولَ فهاتِها
الخمرُ مِن أسمائهـا والـدُّرُّ مِن تِيجانِها والمِسك مِن نَسَماتِها
وإذا العقـود من الحبَـاب تنـظَّمت إيّـاك والتفـريطَ في حَبَّـاتها
أمُحـرِّك الأوتـارِ إن نفـوسَنَـا سكناتُها وقفٌ على حَركاتها
دارَ العِذَارُ بحُسنِ وجهِك مُنْشِداً لا تَخْرُجِ آلأقمـارُ عن هـالاتِها
كَسَراتُ جفْنك كَلّمتْ قلبي فلم يـأْتِ الصِّحاح لنا بِمثل لُغاتِها
والبدْرُ يُستر بـالغيومِ وينْجلي كتنفُّس الحسنـاءِ فِي مـرآتِها
وتـلا نسيمُ الروض فيها قارئاً فـأمال مِن أغصانِها ألفاتِها
ومليحـةٍ أرغمتُ فِيـها عـاذِلي قامت إلى وصلِي برَغْم وُشاتِها
لا مالَ وجْهي عن مَطالِع حُسْنها وحيـاة طَلعة وجهِها وحياتِها
يـا خجلةَ الأغصانِ مِن خَطَراتِها وفضِيحة آلغِـزْلانِ مِن لَفَتاتِها
ما الغصنُ مَيَّاساً سِوى أعطافِها مـا الوردُ محمّراً سِوى وجناتِها
وعَـدَتْ بأوقاتِ الوِصالِ كـأنّها ظنَّت سَـلامَتَنَـا إلـى أوقـاتِها

وتُوُفِّي الشيخ المُسْنِد المعمَّر ناصر الدين محمد الكُرْديّ الحَرَازِيّ المعروف بالطَّبردار في ثامن عشر شهر ربيع الأوّل. وكان سَمع الكثير وتفرّد بأشياء كثيرة، منها «كتاب فضل الخيل» سَمعه من مصنِّفه الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدِّمْياطيّ وهو آخر من روى عنه. ووقع لنا سماعُ فضل الخيل المذكور من طريقه عالياً.

وتُوُفِّي الشيخ المُعْتَقد حسن المغربيّ الصبَّان الحاجاويّ في العشرين من شهر ربيع الأوّل بداره بالحُسَيْنيّة ودُفِن بباب النصر.

وتُوُفِّي الأمير قَارَا بنُ مُهَنا بن عيسى بن مُهَنا بن مانع بن حَدِيثة بن غَضْبَة[1] بن فضل بن ربيعة أمير آل فضل ومَلِك العرب. وكان كريماً جليلاً شجاعاً مشكور السِّيرة. وتولّى عِوضَه إمرة آل فضل زامِل بن موسى.

وتُوُفِّي الشيخ الصالح المعتَقَد صالح الجَزِيريّ ساكن جزيرة أَرْوَى ــ أعني الجزيرة الوُسْطى ــ بها في رابع شهر ربيع الأوّل، ودُفِن بزاويته بالجزيرة الوسطى.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين حَطَط بن عبد الله اليلبُغاوِيّ نائب حَمَاة بها. وتَوَلّى بعده الأميرُ طَشْتَمُر خازندار يَلْبُغا أيضاً. وكان حَطَط المذكور غيرَ مشكور السِّيرة، وعنده ظُلْمٌ وعَسْفٌ. وهو من الذين قاموا على أستاذهم يَلْبُغا العُمَرِيّ الخاصّكي حسب ما تقدّم ذكرهُ.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين مَامَاق بن عبد الله المَنْجكِيّ أحدُ أمراء الطبلخانات بالديار المصريّة في يوم الخميس ثالث شعبان، ودُفِن بتربة عند دار الضِّيافة تُجاه قلعة الجبل.

وتُوُفِّي الأمير ناصر الديـن محمد[2] ابن الأمير أُلْجِيبُغَا العادلي نائب غَزَّة بها، بعدما استعفـى في سلخ جمادى الآخرة. وتولى بعده نيابة غزة آقْبُغَا بن عبدالله الدّوادار. وكان ابـن أُلْجِيبُغَا هذا شجاعاً مِقْداماً، وله حُرمة ووقار في الدولة.

وتُوُفِّي الأمير حاجّي بك بن شادي أحدُ أمراء الطبلخانات بالديار المصرية بها، في هذه السنة.

وتُوُفِّي الطواشي زَيْن الدين ياقوت بن عبد الله الرّسوليّ شيخ الخدّام بالمدينة النبويّة ــ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ــ في ليلة الجمعة سابع عشرين شهر رمضان. وكان من أعيان الخدّام، وله وجاهةٌ في الدول وثروةٌ كبيرة.

---

(١) في مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري: «ابن عصيّة».

(٢) ذكر الخطيب الجوهري في نزهة النفوس: ١/١٩١ أنه في الحادي والعشرين من ربيع الثاني سنة ٧٩١هـ خلع على آقبغا البشتكي واستقر في ولاية منوف عوضاً عن ناصر الدين محمد بن العادلي المذكور هنا.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين سَطْلَمُش بن عبد الله الجَلالِي بِدِمَشق في ذى القعدة. وكان أوّلاً من جملة أمراء مصر، ثمّ نُفِي منها على إمرة في دِمَشق.

وتُوُفِّي القاضي شمس الدين محمد بنُ أحمد بن مُزهر أحدُ موقِّعي دمشق بها في شوّال عن نحو الأربعين سنة. وهو أخو القاضي بدر الدين محمد بن مُزهِر كاتب سرّ مصر.

وفيها كان الطاعون بالديار المصرية وضواحيها ومات فيها عالَم كثير جدّاً.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وإصبعان. والله أعلم.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك المنصور عليّ على مصر

وهي سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة

فيها كانت الوقعة بين الأتَابَك بَرْقُوق العثمانيّ اليَلْبُغَاويّ وبين خُشداشه زَيْن الدين بَرَكَة الجُوبانيّ اليلبُغاويّ، ومُسِك بَرَكَة وحُبِس، ثمّ قُتل حسب ما تقدّم ذكره وحسب ما يأتي أيضاً في الوفيات.

وفيها حضر من بلاد الجَرْكس الأميرُ آنص والد الأتَابَك برقوق وأخواتُه النسوة كما تقدّم ذِكرُه.

وفيها قُتِل ابن عَرّام؛ وقد تقدّم ذكره وكيفيةُ تَسْميرِه في أواخر ترجمة الملك المنصور هذا، فلا حاجة لذكر ذلك ثانياً.

وفيها تُوُفِّي مَامَاي ملك التتار وحاكمُ بلاد الدّشْت[1]. وكان وَلِي المُلك بعد

---

(١) المراد بلاد القبجاق الغربي. وهذه المملكة كانت تسمى بيت بركة، نسبة إلى بركة خان بن طوجي بن جنكزخان. وكانت قاعدتها مدينة سراي. وكان العرب يسمون حاكمها: صاحب السرير.

كلدي(١) بك خان في سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وكان من أجلّ ملوك الترك وأعظمهم، ومات قتيلاً.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العلّامة جلال الدين محمد المعروف بجار الله ابن الشيخ قُطْب الدين محمد بن الشيخ شرف الدين أبي الثناء محمود النَّيسابُوريّ الحنفيّ قاضي قضاة الديار المصرية عن نيِّف وثمانين سنة، بعد أن حكم خمس سنين. وكانت ولايتُه بعد ابـن منصور. وتَوَلَّى القضاء بعده صدر الدين بن منصور ثانياً. وكان عالماً بارعاً في فنون من العلوم، وتَوَلَّى مشيخةَ الصَّرْغتمشيّة بعد موت العلّامة أَرْشَد الدين السّرائيّ. وفيه يقول الأديب أبو العِزّ زَيْن الدين بن حبيب، رحمه الله: [الكامل]

لِلهِ جـارُ اللهِ حـاكِمُنـا الـذِي ... مـا مِثلُه يُسْعى لـه ويُـزارُ
حُبّـاً لـه وكـرامـةً مِن مـاجِـدٍ ... حَسُنَتْ خـلائِقُـه ونِعْم الـجـارُ

ورثاه شهاب الدين بن العطار: [البسيط]

قاضي القضاةِ جلالُ الدينِ مات وقَدْ ... أعطاه ما كان يرجو بارِىءُ النَّسَمِ
حاشاه أن يُحْرِم الراجي مكارِمَه ... أو يرجِع الجارُ مِنه غيرَ مُحْتَرم

وتُوُفِّي الأمير الكبير زَيْن الدين بَركة بن عبد الله الجُوبانِيّ اليَلْبُغاوِيّ، رأس نَوْبة الأمراء، وأطَابَك الديار المصريّة، مقتولاً بثغر الإسكندرية بيد صلاح الدين خليل ابـن عَرّام نائب الثغر المذكور في شهر رجب. وقد ذكرنا ما وقـع لابن عرّام بسببه من الضرب والتَّسْمير والتَّقْطيـع بالسيوف في ترجمة الملك المنصور هذا. كان بركة من مماليك يَلْبُغَا، وصار من بعده في خـدمة أولاد الملك الأشرف شعبان إلى أن كانت قَتْلَةُ الملك الأشرف شعبان. قام هو وخُشداشُه بَرْقوق مع أَيْنَبَك، فأنعم أينبك على كلّ منهما بإمْرَة طبلخاناه دَفْعة واحدة من الجُنديّة، ونَدَبهما بعد شهر للسفر مـع الجاليش إلى الشام. فاتّفق بركةُ هذا مـع خُشْداشيته ووثبوا على أخي أَيْنَبَك حتى

(١) في معجم زامباور أن الذي ولي الحكم بعد كلدي بك في سنة ٧٦٤هـ هو ميربولاد.

كان من أمر أينبك ما ذكرناه، وصار بركة هذا أميرَ مائة ومقدَّم ألف هو وبرقوق، وأقام على ذلك مُدّة. ثم آتّفق مع برقوق وخشداشيته على مَسْك الأمير طَشْتَمُر العلائيّ الدَّوادار فَمُسِك طشتمر بعد أن قاتلهم. ومن يوم ذاك استبدّ برقوق بالأمر، وبركةُ هذا شريكه فيه، وصار برقوق أتابك العساكر وبركة أطابك[1] رأس نَوْبة الأمراء، وحَكَما مصر إلى أن وقع الخُلْف بينهما وتقاتلا، فانتصر بَرْقوق على بَرَكة هذا وأمسكه وحبَسه بثغر الإسكندرية إلى أن قتله آبن عَرّام، حسب ما تقدّم ذِكرُ ذلك كلّه في ترجمة الملك المنصور. وإنما ذكرناه هنا ثانياً تنبيهاً لِما تقدّم. فكان بركة مَلِكاً جليلاً شُجاعاً مُهاباً، تركيّ الجنس، وفيه كرمٌ وحِشْمة، وله المآثر بمكة المشرَّفة وبطريق الحجاز الشريف وغيره. رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة جلال الدين أبو المعالي محمد ابن قاضي القضاة نجم الدين محمد آبن قاضي القضاة فخر الدين عثمان بن جلال الدين أبي المعالي عليّ بن شهاب الدين أحمد بن عمر بن محمد الزُّرَعِيّ الشافعيّ سِبْط الشيخ جمال الدين الشَّرِيشيّ في هذه السنة وقد قارب الأربعين سنة. وكان قد وَلِي قضاء حَلب وحُمِدت سيرتُه.

وتُوُفِّي الوزيرُ الصاحبُ تاجُ الدين عبد الوهّاب المكّيّ، المعروف بالنَّشْو، في المُصادرة تحت العقوبة عن نَيِّف وستين سنة، بعد أن وَلِي الوزارةَ أربعَ مَرّات. وكان مشكوراً في وزارته محسناً لأصحابه. وهذا النَّشْوُ غيرُ النشوِ الذي تقدّم ذكره في دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وتُوُفِّي الأميرُ سيف الدين مَنْكَلِي بُغَا بن عبدالله الأحمديّ البلديّ نائب حلب بها، ودُفِنَ خَلْفَ تُربة قُطْلُوبُغا الأحمديّ بين الجَوْهِريّ والجمالية. وكان من أجلّ الأمراء، وممّن طالت أيامُه في السعادة. وَلِي نيابة طَرَابُلُس وحَماة وحَلَب مرّتين ــ مات في الثانية ــ وعِدّةَ وظائف بالديار المصريّة. وكان حازماً هَيُوباً كريماً ذا مُروءة

---

(١) يفرّق المؤلف بين «أتابك» و«أطابك». وهو يجعل اللقب الثاني أقلّ درجة من اللقب الأول. وهذا التمييز لا نجده عند غيره من مؤرخي العصر المملوكي.

كاملة وتَحَشُّم. وكان يقول: «كلُّ أمير لا يكون مصروف سِماطِه نِصْفَ إقطاعه ما هو أمير».

وتُوُفِّي الأمير الطَواشي زَيْن الدين مختار السَّحَرْتيّ الحبشيّ مقدّم المماليك السلطانية. وكان صاحب معروف وصدقة، وفيه كرمٌ مع تَحشُّم.

وتُوُفِّي قاضي القضاة شرف الدين أبو العباس أحمد بن نور الدين عليّ بن أبـي البركات منصور الدِّمشْقيّ الحنفيّ قاضي قضاة الديار المصريّة. ولِيهَا ثم عَزَل نفسه. وكان من أعيان العلماء. رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الشيخ الإمام نورُ الدين أبو الحسن عليّ بن أُلْجاوِيّ (بالجيم) أحدُ فقهاء المالكيّة في رابع عشر ذي الحِجة، بعد ما أَفْتَى ودرَّس وآشتغل.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام المقرىء شمس الدين أبو عبد الله المعروف بالحكْرِيّ الشافعي في ذي الحجة بالقاهرة. وكان فقيهاً فاضلاً بارعاً في القراءات.

وتُوُفِّي الشيخ الصالح المعتقد زَيْن الدين محمد بن المَوَّاز في شهر ربيع الأوّل. وكان صاحب عِبادة، وللناس فيه اعتقاد حسن.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام شمس الدين محمد بن نجم بن عمر بن محمد بن عبد الوهّاب بن محمد بن ذُوَيْب الأسديّ الدِّمَشقي المعروف بابن قاضي شهبة أحد أعيان الفقهاء الشافعية في ثامن المحرّم. ومولده ليلة الثلاثاء العشرين من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى وتسعين وستمائة بدِمَشْق. وكان بارعاً فقيهاً مدرّساً مفتَنّاً.

وتُوُفِّي الشيخ زَيْن الدين أبو محمد حَجِّيّ بن موسى بن أحمد بن سعد السَّعْديّ الحُسْبَانيّ الشافعيّ الدِّمشقيّ في ليلة الأربعاء سابع عشر صفر. وكان أحدَ فقهاء الشافعية بدمشق. وحجيّ هذا هو والد بني حجيّ رؤساء دِمَشق في عصرنا. اِنتهى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع وستة أصابع. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وأربعة أصابع. اِنتهى.

* * *

ذكر سلطنة الملك الصالح حاجيّ[١] الأولى على مصر

السلطان الملك الصالح صلاح الدين أمير حاج آبن السلطان الملك الأشرف شعبان آبن الأمير الملك الأمجد حسن آبن السلطان الملك الناصر محمد آبن السلطان الملك المنصور قلاوون. وهو الرابع والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية.

تسلطن بعد وفاة أخيه الملك المنصور علاء الدين عليّ في يوم الاثنين رابع عشرين صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة.

وخبرُ سلطنته أنه لمّا مات أخوه الملك المنصور عليّ تكلّم الناس بسلطنة الأتَابَك برقوق العثمانيّ، وأُشيع ذلك، فعظُمَت هذه المقالة على أكابر أمراء الدولة وقالوا: «لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوكُ يلبغا» وأشياءَ من هذا النَّمَط. وبَلَغَ برقوقاً ذلك، فخاف ألَّا يَتِمَّ له ذلك. فجمع برقوق الأمراءَ والقضاةَ والخليفةَ في اليوم المذكور بباب الستارة بقلعة الجبل وتكلم معهم في سلطنة بعض أولاد الأشرف شعبان، فقالوا له: «هذا هو المصلحة» وطلبوهم من الدور السلطانية. وحضر أمير حاج هذا من جملة الإخوة[٢]، فوجدوا بعضَهم ضعيفاً بالجُدَرِي، والبعض صغيراً، فوقع الاختيار على سلطنة أمير حاج هذا، لأنه كان أكبرهم. فبايعه الخليفة، وحَلَف له الأمراءُ، وباسوا يَده، ثم قَبَّلوا له الأرض. ولُقِّب بالملك الصالح، وهو الذي غَيَّر

(١) ترجمته وأخباره في السلوك: ٣/٤٣٩، وإنباء الغمر: ٢/٤٥، والجوهر الثمين: ٢/٢٥٩، وخطط علي مبارك: ١/١٠٩، وبدائع الزهور: ٢/٢٢٠.

(٢) وهم: إسماعيل وأبو بكر وحاجي.

لقَبه في سلطنته الثانية بالملك المنصور، ولا نعرف سلطاناً تَغَيَّر لقبُه غيرَه، وذلك بعد أن خُلِع برقوق وحُبِس بالكَرَك، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى مفصّلاً في وقته ــ إنتهى.

ولمّا تمّ أمرُ الملك الصالح هذا ألبسوه خِلعة السلطنة، ورَكِب من باب الستارة بأُبهَّةَ المُلك، وبَرْقوق والأمراء مشاةٌ بين يديه، إلى أن نزل إلى الإيوان بقلعة الجبل، وجلس على كرسيّ الملك، وقَبَّلت الأمراءُ الأرضَ بين يديه. ثم مُدَّ السِّماط وأكلت الأمراءُ. ثم قام السلطان الملك الصالح ودخل القصر، وخلعَ على الخليفة المتوكِّل على الله خِلْعةً جميلةً. ونُودِي بالقاهرة ومصر بالأمان والدعاء للملك الصالح حاجيّ. وخَلَع [السلطان] على الأتابك [برقوق] واستقرّ على عادته أتَابك العساكر ومدَبِّر الممالك لصغر سنّ السلطان، وكان سنُّ السلطان يوم تسلطن نحوَ تسع[١] سنين تخميناً.

ثم في سابع عشرين صفر المذكور جلس السلطان الملك الصالح بالإيوان للخدمة على العادة. ثم قام ودخل القصر، بعد أن حضر الخليفةُ والقضاةُ والأمراءُ والعساكرُ وقُرِىء تقليدُ السلطان الملك الصالح عليهم. وعند فراغ القراءة أخذ بدرُ الدين محمد بن فضل الله كاتب السر التقليد وقدّمه للخليفة، فَعَلَّم عليه بخَطّه. وخَلَع السلطان على القضاة وعلى كاتب السرّ المذكور. وآنفضّ الموكب[٢]. وأخذ برقوق في التكلّم في الدولة على عادته من غير معانِد، وفي خدمته بقيةِ الأمراء يركبون في خدمته وينزلون عنده ويأكلون السِّماط.

وأما القضاة والنوّابُ بالبلاد الشاميَّة وأرباب الوظائف بالديار المصريّة في هذه الدولة، فكان أتَابك العساكر برقوق العثمانيّ اليَلْبُغَاوي، ورَأس نَوْبة الأمراء أَيْتَمُش البجاسيّ، وأمير سلاح عَلاّن الشَّعبانيّ، وأمير مجلس أَلْطُنْبُغا الجُوبانيّ اليلبُغاويّ، والدوادار الكبير آلابُغَا العثماني، والأمير آخور جَرْكس الخليليّ، وحاجب الحجّاب

---

(١) في خطط علي مبارك وبدائع الزهور: «١١ سنة». وفي إنباء الغمر: «٦ سنين و ٤ أشهر».
(٢) الصواب: «وانفضّ الجمع».

مأموز القَلَمْطاوي، اليلبغاوي وأستادار العالية بهادُر المَنْجَكيّ، ورأس نوبة ثاني ـ أعني رأس نَوْبة في زماننا ـ قَرْدَم الحَسني؛ وهؤلاء غير نائب السلطنة وهو الأمير آقتَمُر عبد الغني، وغير أيدمر الشمسي، وهما من أجل الأمراء وأقدمهم هجرة؛ يجلس الواحد عن يمين السلطان والآخرُ عن يساره[١].

والقضاة: الشافعيُّ برهان الدين بن جماعة، والحنفيُّ صدرُ الدين بن منصور، والمالكيُّ عَلَم الدين البساطِيّ، والحنبليُّ ناصرُ الدين العسقلانيّ. وكاتب السر بدر الدين بن فضل الله العُمَري، والوزير شمس الدين المقسي، وناظر الجيش المحتسب جمال الدين محمود القَيْصَري العَجَمِيّ، وناظر الخاصّ هو آبن المقسي أيضاً، ونائب دِمَشْق إشقتمر الماردِيني، ونائب حلب إينال اليوسفيّ، ونائب طَرَابُلُس كَمَشْبُغَا الحَمَوي، ونائب حَمَاة طَشْتَمُر القاسمي، ونائب صفد الأميرُ الكبير طَشْتَمُر العَلائيّ (نُقلَ إليها من القُدْس) ونائبُ غزّة آقبُغا بن عبد الله، ونائب إسكندريّة بَلُّوط الصَّرْغَتْمَشيّ.

والذين هم معاصرُوه من ملوك الأقطار: صاحبُ بغداد وتبْريز وما والاهما الشيخ حُسَيْن بن أوَيْس؛ وصاحبُ مارِدِين الملك الظاهر مجد الدين عيسى؛ وصاحب اليَمَن الملِك الأشرف آبن الملك الأفضل؛ وصاحب مكّة الشريف أحمد بن عَجْلَان؛ وصاحب المدينة الشريفة عطية بن منصور؛ وصاحب سِيواس القاضي برهان الدين أحمد؛ وصاحب بلاد قَرَمان الأمير علاء الدين؛ وصاحب بلاد سَمَرْقَنْد وما والاها تَيمورلَنْك كوركان؛ وصاحب بلاد الدَّشْت طُقْتَمُش خان من ذرية جنْجِز[٢] خان. اِنتهى.

ولمّا كان يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر أنعم [برقوق] على الأمير تَغْري بَرْمش بتقدمة ألف بديار مصر بعد وفاة أمير عليّ بن قَشْتَمُر المنصوري. ثم أنعم على سُودُون الشيخوني بتقدمة ألف أيضاً وآستقرّ حاجباً ثانياً عوضاً عن عليّ بن

(١) في التعريف بالوظائف أعلاه راجع فهرس المصطلحات.

(٢) أي جنكزخان.

قَشْتَمُر المنصوري. ثم بعد مدّة آستقـرّ تغري برمش المقدّم ذكرُه أميرَ سلاح بعد وفاة عَلّان الشعبانيّ. ثم آستقـرّ مأمور القَلَمْطاوي حاجب الحُجّاب في نيابة حَمَاة بعد وفاة طَشْتَمر خازندار يَلْبُغا العمري.

ثم طُلِب يلبغا الناصري من دِمَشق ــ وكان منفياً بها على تقدمة ألف ــ فحضر في آخر شعبان، فتلقاه الأتابك برقوق والأمراء، وترجَّلَ له برقوق وأركبه مركوباً من مراكيبه، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالقاهرة، وأجلـس رأس مَيْسرة فوق أمير سلاح. فلم تَطُل مدّته بديار مصر وأخلـع عليه بنيابة حلب في يوم الخميس ثاني شوّال بعد عزل إينال اليوسفي وطلَبِهِ إلى مصر. فلما وصل إينال إلى غزّة قُبِض عليه وأُرْسِل إلى سجنّ الكَرَك.

ثم أَنْعمَ الأتَابك برقوق على دواداره الأمير يُونُس النَّوْرُوزِي بتقدمة أَلف بمصر عوضاً عن يلبغا الناصري، وخَلَـع على الأمير جَركس الخليلي الأمير آخور الكبير وآستقـرّ مُشيرَ الدولة، ورَسَم للوزير ألا يتكلم في شيء إلا بعد مراجعته.

وفي العشر الأخير من شوّال أنعم على قُطْلوبُغا الكُوكَائِيّ بتقدمة ألف، بعد وفاة الأمير آنص والد الأتَابَك برقوق العثمانيّ الذي قَدِم قبل تاريخه من بلاد الجَرْكَس. يأتي ذكر وفاته في الوفيات.

ثم في يوم الاثنين تاسـع ذي الحِجّة من سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة تَخلّى الأمير تَغْري بَرْمش أمير سلاح عن إمرته ووظيفته وتوجّه إلى جامـع قَوْصُون لُيقيم به بطّالاً. فأَرْسَل الأتَابك إليه الأميرَ سُودُون الشيخوني الحاجب الثاني وقَرْدَم الحَسَنِـي رأس نوبة وتوجَّها إليه وسألاه أن يرجـع إلى وظيفته وإِمْرته فلم يَرْجِـع لها، فعادا بالجواب إلى برقوق بذلك.

ثم إن تَغْرِي برمش المذكور نَدِم من ليلته، وأرسل يسأل الشيـخ أكمل الدين شيـخ الشيخونية أن يسأل برقوقاً أن يُعيده إلى إمرته ووظيفته، فأرسل أكمل الدين إلى برقوق بذلك فلم يقبـل برقوق ورَسَم بخروجه إلى القُدْس ماشياً، فأخرجه النُّقَبَاءُ إلى قُبة النصر ماشياً. ثم شُفِـع فيه فركب وسار إلى القدس.

ثم في العشر الأخير من شعبان أجرى جركس الخليلي الأمير آخور الماء إلى الميدان من تحت القلعة إلى الحَوْض الذي على بابه.

قلت: وإلى الآن الحَوْض باقٍ على حاله بلا ماء.

ثم في التاريخ المذكور أَخْرَجَ الأميرُ جركس الخليلي فلوساً جُدُداً من الفلوس العتق، منها فَلْس زنتُه أوقيّة بربع دِرْهم، وفَلْس زنته نصف أوقية، وفَلْسٌ بفلسين. فلما فعل ذلك وقف حال الناس وحصل الغلاء وقَلّ الجالبُ؛ فلمّا بلغ الأتابك برقوقاً أمَر بإبطالها. وفي المعنى يقول الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطار، رحمه الله تعالى: [البسيط]

تغيير عُتْقِ فُلُوس قد أضرَّ فَكَمْ حوادِثٍ جُدَدٍ جَلّت مِن العددِ
فكيف تمشِي علاقاتُ الأنام إذاً والحال واقِفةٌ بالعُتْقِ والجُدَدِ

وقالت العامّة ـ لمّا فعل الخليلي ذلك ورَسَم بنقش اسمه على الفلوس ـ: «الخليلي من عكسو، نقش آسمو على فلسو». انتهى.

ثم حضر إلى الديار المصرية في ذي الحجّة الأمير كَمَشْبُغا الحَمَوي نائب طرابُلُس ـ وكان السلطان والأتابك برقوق في الصيد بناحية كُوم بَرا[1] ـ فأَخلع السلطان عليه بآستمراره على نيابة طرابُلُس.

ثم في يوم الخميس ثالث المحرّم سنة أربع وثمانين وسبعمائة آستقرّ سُودُون الفخري الشيخوني حاجب الحجاب بالديار المصرية، وكانت شاغرة من العام الماضي منذ توجّه مأمور القَلَمْطَاوي إلى نيابة حَماة.

ثم أرسل الأتابك برقوق بَكْلَمُش الطازي العلائي إلى دِمياط لإحضار بَيْدَمُر الخُوارَزْمِي المعزول عن نيابة دمشق قبل تاريخه، فحضر في العشرين من المحرّم

---

(١) من القرى المصرية القديمة. وقد وردت في المشترك لياقوت باسم «كوم بورى» في الجيزية. واسمها الحالي «كوم بره» وتكتب أيضاً «كومبره». وهي اليوم إحدى قرى مركز إمبابة بمديرية الجيزة بمصر.

وتلقّاه الأتابك برقوق من البحر[١]، وخَلَع عليه باستقراره في نيابة دِمَشق على عادته عوضاً عن إشِقْتَمُر الماردِيني.

وفي سَلْخ صفر تولّى القاضي بدر الدين بن أبي البقاء قضاء الشافعية بديار مصر عوضاً عن قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة؛ ورُسِم بانتقال مأمور القلمطاوي من نيابة حَماة إلى نيابة طَرابُلس عوضاً عن كَمَشْبُغا الحموي بحكم انتقال كمشبغا إلى دِمشق على خبز جَنْتَمُر أخي طاز بحكم توجُّه جنتمر إلى القُدْس بطّالاً. ونُقل إلى نيابة حماة الأمير الكبير طَشْتَمُر العلائي الدوادار الذي كان قبل تاريخه حكم مصر وتولى نيابة صَفَد بعد طشتمر الدوادار تِلو[٢] حاجب حُجّاب دمَشق.

وفي العشر الأوسط من شعبان نام الأتابك بَرْقُوق بِمَبِيته بسكنه بالإسطبل السلطانيّ وقَعَد شيخ الصَّفَويّ الخاصّكي يُكَبِّسه. وبينما هو نائم مَسَكه شيخ المذكور في جنبه قوياً خارجاً عن الحدّ، فقعد برقوق من اضطجاعه وقال له: «ما الخبر؟» فقال: «إنّ مملوكك أَيْتَمُش آتّفق مع مماليك الأسياد الذين في خدمتك ومعهم بُطا الأشرفيّ على أنهم الساعة يقتلونك»، فَسَكت برقوق وجَلس على حاله، فإذا أيتمش المذكور دخلَ عليه، فقام برقوق وأخذ بيده قَوْساً وضربه به ضَرْبةً واحدةً صَفْحاً أرماه، وأمر بمَسْكه وقال له: «يا مُتخَنِّث! الذي يأخذ المُلْك ويقتلُ الملوك يقع من ضربة واحدة!».

ثم مَسَك بُطا الخاصّكي. وخرج برقوق وجلس بالإسطبل، وطلب سائر الأمراء الكِبار والصغَار. فطلع الجميع إليه في الحال، فكلّمهم بما سَمِع وجَرى، ثم أمسك من مماليك الأسياد نحو سبعة عشر نفراً؛ منهم: كزل الحَطَطِيّ، ويَلْبُغا الخازندار الصغير، وجماعة من رؤوس نُوَب الجَمَداريّة عنده.

ثم في صبيحة نهاره أَمْسكَ جماعةً من رؤوس نُوَب الجمدارية وجماعةً آخر تتمة خمسة وستين نفراً من مماليك الأسياد وهَرَب مَنْ بَقِي منهم. فالذين كان قَبَض

(١) أي تلقّاه عند قدومه بنهر النيل عند بولاق.

(٢) في السلوك: «بِلُو».

عليهم أوّل يوم حبَسهم بالْبُرج من قلعة الجبل، والذين مَسَكهم من الغَد حَبَسهم بِخزانة شمائل. ثم أنزَل بُطا الخاصّكي الأشرفيّ وأَيْتَمُش إلى خزانة شمائل. ثم أمسك الأتابَك برقوق الأميرَ ألابُغا العثماني الدوادار الكبير وأحدَ مقدّمِي الألوف بالديار المصرية وسجنه. ثم أخرجه على إمرة طبلخاناه بطرابُلُس. ثم نقله بعد مدّة يسيرة إلى تقدمة ألف بدمشق.

ثم في يوم السبت مستهل شهر رمضان أَخْرَج برقوق من خِزانة شمائل ثلاثةً وأربعين مملوكاً من الممسوكين قبل تاريخه، وأمر بتَخْشِيبهم وتقييدهم، ومَشَوْا وهم مُزَنْجرين بالحديد، ومعهم سودُون الشَّيْخونيّ حاجب الحُجّاب ونقيب الجيش إلى أن أوْصلوهم إلى مصر القديمة وأنزلوهم إلى المراكب، وصحبتهم جماعةٌ من الجبليّة، فتوجّهوا بهم إلى قُوص.

وكان سبب آتفـاق هؤلاء المماليك على برقوق وقتله بسكنه بباب السلسلة لفُرْصة كانت وقَعتْ لهم باشتغال الأمير جَرْكَس الخليلي الأمير آخور بِجسْر كان عَمّره بين الروضة ومصر في النيل.

وخبرُه أنه لمّا كان في أوائل شهر ربيـع الأوّل من هذه السنة آهتـمّ الأمير جركس الخليليّ المذكور في عمل جِسر بين الرّوضة وبين جزيرة أَرْوَى المعروفة بالجزيرة الوُسْطَى، طوله نحو ثلاثمائة قصبة وعَرْضُه عشر قَصَبات، وأقام هو بنفسه على عمله ومماليكُه، وجعل في ظاهر الجِسر المذكور خوازيق من سنط وسَمّر عليها أفلاق نخل، جعلها على الجسر كالستارةِ تَقِيَة من الماء عند زيادته، وآنتهـى العمل منه في آخر شهر ربيـع الآخر. ثم حَفر في وسط البحر خليجاً من الجسر المذكور إلى زريبة قَوْصُون ليمرّ الماء فيه عند زيادته، ويصير البحر ممرّه دائماً منه صيفاً وشتاء، وغُرِّمَ على هذا العمل أموالاً كثيرة فلم يحصل له ما أراد على ما يأتي ذكره. وفي هذا المعنى يقول الأديب شهاب الدين أحمد بن العطار: [الخفيف]

شَـكـت الـنِّيـلَ أرْضُـهُ   لـلخِـلـيـلي فـأحْـضَـرَهْ
ورأى الـمـاء خـائـفـاً   أن يـطاهـا فـجـسَّـرهْ

وقال في المعنى شرف الدين عيسى بن حجّاج العَاليَة ـ رحمه الله تعالى:
[الكامل]

جِسْرُ الخَلِيلي المقرِّ لقد رَسَا   كالطَّوْدِ وسْطَ النِّيل كيف يُريد
فإذا سالتم عنهما قلنا لكم   ذا ثابِتٌ دهراً وذاك يَزِيُد

فهذا هو الذي كان أشغل الخليلي عن الإقامة بالإسطبل السلطاني ـ وأيضاً لِمَا كان خَطَر في نفوسهم من الوثُوب على الملك، فإنه من يوم قُتِل الملكُ الأشرف شعبان وصار طَشْتَمُر اللَّفّاف من الجُنديّة أتابك العساكر، ثم من بعده قَرَطَاي الطازي، ثم من بعده أَينبَك البَدْري، ثم من بعده قُطْلُقْتَمر، ثم الأتابك بَرْقوق وبَرَكة ـ وكُلٌّ من هؤلاء كان إمّا جندياً أو أمير عشرة وتَرقّوا إلى هذه المنزلة بالوثُوب وإقامة الفتنة ـ طَمِع كلُّ أحد أن يكون مثلَهم ويفعلَ ما فعلوه، فذهب لهذا المعنى خلائق ولم يصلوا إلى مقصودهم. اِنتهى.

وآستمرّ الأتابك برقوق بعد مَسْك هؤلاء في تَخَوُّف عظيم، وآحترز على نفسه من مماليكه وغيرهِم غايةَ الاحتراز. فأشار عليه بعد ذلك أعيانُ خُشْدَاشِيّته وأصحابهُ ـ مثلُ أَيْتَمِشُ البَجاسي، وأَلْطُنبُغا الجُوباني أمير مجلس، وقَرْدَم الحسنيّ، وجَرْكس الخليليّ ويُونُس النَّوْرُوزِيّ الدوادار وغيرهم ـ أنْ يتسلطن ويَحْتجِبَ عن الناس ويستريح ويُرِيح مِنْ هذا الذي هو فيه من الاحتراز من قيامه وقُعُوده. فَجَبُنَ عن الوثوب على السلطنة وخاف عاقبة ذلك، فاستحثّه مَنْ ذكرناه من الأمراء، فآعتذر بأنّه يَهابُ قُدَماءَ الأمراء بالديار المصريّة والبلاد الشامية. فَرَكِب سُودون الفخري الشيخوني حاجبُ الحُجّاب ودار على الأمراء سِراً حتّى آسترضاهم، ولا زال بهم حتّى كلّموا برقوقاً في ذلك وهَوَّنوا عليه الأمَر وضَمِنُوا له أصحابهم من أعيان النُّوّاب والأمراء بالبلاد الشامية، وساعدَهم في ذلك موتُ الأمير آقْتَمُر عبد الغني، فإنّه كان من أكابر الأمراء، وكان برقوق يجلس في المَوْكب تحته لِقِدَم هِجْرته، وكذلك بموت الأمير أَيْدَمُر الشَّمسِي، فإنه كان أيضاً من أقران آقتمر عبد الغني فماتا في سنة واحدة على ما يأتي ذكرهما في الوفيات ـ إن شاء الله تعالى.

فعند ذلك طابَتْ نفسُه وأجابَ. وصار يُقَدِّم رِجْلاً ويؤخُر أُخْرى، حتى كان يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة طلع الأميرُ قُطْلُوبُغا الكُوكَائِي أميرُ سلاح وأَلْطُنْبغا المعلّم رأس نَوْبة إلى السلطان الملك الصالح أمير حاجّ صاحب التِّرْجمة، فأخذاه من قاعة الدّهيشة وأدخلاه إلى أهله بالدور السلطانية، وأخذا منه النِّمْجاة وأحضراها إلى الأتَابك بَرْقوق العثماني. وقام بقيّة الأمراء من أصحابه على الفَوْر وأحضروا الخليفةَ والقُضاة وسلطنوه، على ما سنذكره في أوّل ترجمته، بعد ذكر حوادث سنين الملك الصالح هذا على عادة هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

وخُلِع الملك الصالح من السلطنة، فكانت مدّةُ سلطنته على الديار المصريّة سنةً واحدةً وسبعةَ أشهر تنقص أربعةَ أيام، على أنه لم يكن له في السلطنة من الأمر والنهي لا كثيرٌ ولا قليل. وآستمرّ الملك الصالح عند أهله بقلعة الجبل إلى أن أعيد للسلطنة ثانياً، بعد خَلْع الملك الظاهر برقوق من السلطنة وحَبْسِه بالكرَك في واقعة يَلْبُغا الناصريّ ومِنْطاش، كما سيأتي ذكرُ ذلك مفصّلاً.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الصالح أمير حاج الأولى على مصر

وهي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة. على أنّ أخاه الملك المنصور علياً حكم فيها من أوّلها ألى ثالث عشرين صفر؛ حسب ما تقدّم ذكره في وفاته.

فيها (أعني سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة) تُوُفِّي قاضي القضاة عماد الدين أبو الفداء إسماعيل آبن الشيخ شرف الدين أبي البركات محمد بن أبي العِزّ بن صالح الدمشقي الحنفي قاضي قضاة دمشق بها عن نَيِّف وتسعين سنة. وكان فقيهاً رئيساً من بيت علم ورياسة بدمشق. وهم يُعرفون ببني أبي العز وبني الكشك.

وتُوُفِّي قاضي القضاة كمال الدين أبو القاسم عُمَر آبن قاضي القضاة فخر الدين أبي عمر عثمان بن الخطيب هبة الله المَعَرِّي الشافعيّ بدمشق عن إحدى

وسبعين سنة بعد أن حكم بها خمس سنين. وكان تنقّل في البلاد وولّي قضاءَ طرابُلُس وحَلَب ودِمشق غيرَ مرة؛ وكان فقيهاً عارفاً بالأحكام خبيراً بالأمور.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حَمْدان بن أحمد بن عبد الواحد الأذْرَعيّ الشافعيّ بحلب عن نيف وسبعين سنة. وكان عديمَ النظير، فقيهاً عالماً. شرح «منهاج النَّوَوي». وآستوطن حلب وولي بها التدريس ونيابة الحكم إلى أن تُوُفِّي. رحمه الله.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم الفاضل رُكْن الدين أحمد القِرَميّ الحنفي الشهير بقاضي قَرِم ومفتي دار العدل بالديار المصرية بها عن ثمانين سنة. وآستقرّ عوضه في إفتاء دار العدل الشيخ شمس الدين محمد النيسابوريّ ابن أخي جار الله الحنفيّ. وكان ركن الدين فاضلاً عارفاً بمذهبه، ناب في الحكم عن قاضي القضاة جلال الدين جار الله، وكان معدوداً من أعيان فقهاء مصر.

وتُوُفِّي شيخ الشيوخ نظام الدين إسحاق ابن الشيخ مجد الدين عاصم ابن الشيخ سعد الدين محمد الأصبهانيّ الحنفيّ في ليلة الأحد ثالث عشر ربيع الآخر؛ قاله المَقْريزيّ، وخالفه العَيْني بأن قال: في المحرم سنة ثمانين، ولم يُوافق لا في الشهر ولا في السنة؛ والصواب المقالُة الأولى. وكان قَدِم إلى القاهرة وتوَلّى مشيخة خانقاه سِرْياقُوس، ثم توجه في الرّسلية إلى بلاد الهند وعاد وقد كثُرَ مالُه، حتى إنه أهدي الذهب في الأطباق. ومما يَدلّ على اتساع ماله عمارتُه الخانقاه بالقرب من قلعة الجبل تُجاه باب الوزير على بُعْد متر (؟) شرقيّ الجبل، وهي في غاية الحسن. وكان له هِمةٌ ومكارم. حدّثني حفيدُه بأشياءَ كثيرة من مكارمه وفضله وأفضاله.

تُوُفِّي الشيخ جمال الدين عبد الله بن محمد بن حَدِيدة الأنصاري أحد الصوفية بالخانقاه الصلاحية سعيد السعداء في سادس عشرين شعبان. وكان يَرْوِي «الشِّفاء» وثُلاثيّات «البخاري» وغير ذلك. وصنّف كتاب «المصباح المضيء» في كُتّاب النبي عليه السلام ومكاتباته.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين مازي بن عبد الله اليلبغاويّ أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية بها.

وتُوُفِّي السيد الشريف عطية بن منصور بن جَمّاز بن شيحة الحسنيّ أمير المدينة النبويّة بها، وتولى بعده ابن أخيه جَمّاز بن هبَة الله. وكان كريماً عادلاً، رحمه الله.

وتُوُفِّي الأمير آنص العثمانيّ الجركسيّ والد الأتابَك برقوق العثمانيّ، أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، في العشر الأوسط من شوّال وقد جاوز ثمانين[1] سنة من العمر. أقام عمره في بلاد الجركس، حتى هداه الله تعالى للإسلام على يد ولده الأتابك برقوق، وقَدِم القاهرة كما تقدّم ذكرُه في ترجمة الملك المنصور عليّ، وأسلم وحَسُن إسلامُه، وأقام بعد ذلك دون السنتين ومات. ومع هذه المدة القصيرة من إسلامه أظهر فيها عن دين كبير وخَيْر وصدقات كثيرة ومحَبّة لأهل العلم وشَفقَة على الفقراء وأهل الصَّلاح. وكان لا يدّخر شيئاً من المال، بل كان مَهْمَا حَصَل في يده فرّقه في الحال على الفقراء والمساكين. أخبرني جماعةٌ من خَدَمه أنّه كان إذا رَكِبَ ولَقِي في طريقه أحداً من المحابيس المكدّين يأخذه من جَنْدَارِه[2] ويُطْلِقُه في الحال من زَنجيره؛ ولم يَقْدِر أحدٌ أن يردَّه عن ذلك، فمنَع برقوق من خروج المحابيس للتكَدِّي خوفاً من أن يُطْلِقَهم، فإنّه كان إذا رأى أحداً منهم يسأل من مماليكه: «هذا مُسْلمٌ أم كافِر؟» فيقولون له: «مسلم»؛ فيقول: «كيف يُفْعَل بمسلم هكذا في بلاد الإسلام! أَطْلِقُوه» فيُطْلَق في الحال. ومات قبل سلطنة ولده برقوق ودُفِن بتربة[3] الأمير يونس الدوادار برأس الروضة خارج باب البَرْقية من القاهرة. ثم نُقِل بعد فراغ مدرسة ولده البرقوقية ببين القصرين إلى الدفن بها في القُبّة.

وتُوُفِّي الأمير الكبير سيف آقتَمُر بن عبد الله من عبد الغني نائب السلطنة بالديار

---

(١) في إنباء الغمر: «جاوز التسعين».

(٢) أي حارسه. والجاندارية فرقة من المماليك السلطانية.

(٣) ذكرها المقريزي باسم خانقاه يونس. (خطط: ٤٢٦/٢).

المصرية بالقاهرة في هذه السنة، بعد أن باشر عِدّة أعمال ووظائف مثل: نيابة صَفَد، وطَرابلُس، ودِمَشق، وحجوبِيّة الحُجّاب بديار مصر، وإمرة جاندار، ونيابة السلطنة بها مرتين. وبموته خلا الجَوُّ للأتَابَك برقوق وتسلطن. مع أنه كان عديمَ الشر، غيرَ أنه كان مُطَاعاً في الدولة يُرْجَع إلى كلامه، فكان برقوق يراعيه ويجلس تحته إلى أن مات في تاسع عشرين جُمادَى الآخرة.

وتُوُفِّي الأميرُ الكبير عِزّ الدين أَيْدَمُر بن عبد الله الشمسي أَحدُ أكابر أمراء الألوف بالديار المصريّة بها في ثالث عشر صفر وقد جاوز الثمانين سنة؛ وكان أصلُه من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون. أقام أميراً نحواً من ستين سنة، وهو أيضاً ممّن كان بَرْقوقُ يخْشاه ويُعَظِّمه ويجلسُ تحته، حتّى في يوم حضور والد برقوق بخانِقاة سِرْيَاقُوس، جَلَس برقوق تحته في الملأ من الناس. فبِمَوْت هؤلاء صَفَا الوقتُ لبرقوق ــ وإن كان بَقِي من القُدماء إشقْتَمُر المَارِدينيّ وأيدمر الخُوارَزْمِيّ، فهما ليس كهؤلاء، فإنهما لحُبِّهما لنيابة دِمَشق وغيرها يَتَواضعان لأصحاب الشوكة. إنتهى. وكان أَيْدَمر الشمسيّ هذا كونه مملوك ابن قلاوون يَجْلِس عن اليمين وآقْتَمُر عبد الغني عن اليسار.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين طَشْتَمر بن عبد الله القاسميّ المعروف بخازندار يَلْبُغا العُمَرِيّ نائب حماة في هذه السنة في شهر رجب بِعين تَاب صحبةَ العساكر الشاميّة. وكان من أجلّ مماليك يَلبْغا العمَري وأكابرهم؛ وتولّى بعده نيابةَ حماة مأمور القَلَمْطاويّ اليَلْبُغاويّ حاجب الحجّاب.

وتُوُفِّي الأمير عَلّان[1] بن عبد الله الشعبانيّ أمير سلاح في ثماني عشر شهر ربيع الآخر؛ وهو أحد أعيان مماليك يَلْبغا. وكان من حزب برقوق، وقام معه في نَوْبة واقعة بَرَكة أتمّ قيام، وكان برقوق لا يخرج عن رَأيه.

وتُوُفِّي خَواجَا فخر الدين عثمان بن مُسافر، جالبُ الأتَابك برقوق من بلاده ثم جالب أبيه وإخوته إلى الديار المصريّة، بالقاهرة في سادس عشر شهر رجب. وكان

(١) في أكثر المصادر: «آلّان». قال ابن حجر: «والعامة يقولون: علّان، بالعين المهملة بدل الهمزة».

رجلاً مِقداماً عاقلاً وَقُوراً. نالته السعادةُ لجَلْبه الأتابك برقوق، ومات وهو من أعيان المملكة. وكان برقوق إذا رآه قام له من بُعْد وأكرمه وقَبِل شفاعتَه وأعطاه ما طلب.

وتُوُفّي الشيخ الفقير المُعْتَقد علي الشاميّ بالقاهرة في خامس صفر؛ وكان يُعرف بأبـي لِحاف.

وتُوُفِّـي الأمير علاء الدين علي بن قَشْتَمُر الحاجب الشهير بالوَزِيرِيّ في تاسـع عشرين شهر ربيـع الآخر. كان أميرَ مائة ومقدَّم ألف بديار مصر، وكان من خواصّ بَرْقوق، وأحد مَنْ قام معه في وقائعه وساعده.

وتُوُفِّي الأُستاذ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد المعروف بآبن السُّوري العَمَّارِي المَوْصلي العَوَّاد المُغَنِّي ـ نسبته بالعَمَّارِي إلى عَمَّار بن ياسر الصحابِيّ رضي الله عنه ـ في يوم العشرين من صفر بالقاهرة. وقد آنتهت إليه الرئاسة في ضَرْب العُود والمُوسِيقى ونالتْه السعادة من أَجْلها، حَتى إنّه كان إذا مَرِض عاده جَميـعُ أعيان الدولة.

قلتُ: وهو صاحبُ التصانيف الهائلة في الموسيقى.

وتُوُفِّيت المسنِدة المُعَمَّرة جُوَيْرِيَّةُ بنت الشِّهاب أبـي الحسن [أحمد] بن أحمد الهَكّارِي في يوم السبت ثاني عشرين صفر وقد انفـردت برواية النَّسَائي وغيرها.

أمر النيل في هذه السنة ـ الماء القديم خمسة أذرع وثمانية أصابـع. مبلـغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وآثنـا عشر إصبعاً.

ذكر سلطنة الملك الظاهر برقوق[١] الأولى على مصر

السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين بَرْقُوق بن آنص[٢] العثماني اليَلْبُغَاوِي الجَارْكَسِيّ القائم بدولة الجراكسة بالديار المصرية. وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والثاني من الجراكسة، إن كان الملك المظفر بِيبَرْس الجَشْنَكِير جاركسياً، وإن كان بيبرس تركي الجنس فبرقوق هذا هو الأوّل من ملوك الجراكسة، وهو الأصحّ وبه نقول.

جلَس على تخت الملك في وقت الظُّهْر من يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة الموافق له آخر يوم هاتور [من الشهور القبطية] وسادس تشرين الثاني بعد أن آجتمع الخليفةُ المتوكِّل على الله أبو عبد الله محمد والقُضاة وشيخ الإسلام سراجُ الدِّين عُمر البُلْقِيني وخَطَب الخليفةُ المتوكّل على الله خطبةً بليغةً. ثم بايَعه على السلطنة وقلَّده أمورَ المملكة، ثم بايعه من بعده القضاةُ والأمراء.

ثم أَفِيض على بَرقُوق خلعةُ[٣] السلطنة، وهي سوداءُ خليفتّية على العادة. وأشار السِّراج البُلْقِينـي أن يكون لقبُه «الملك الظاهر» فإنه وقت الظَّهِيرة والظُّهورُ، وقد ظهر هذا الأمر بعد أن كان خافياً[٤]، فتلقَّب بالملك الظاهر.

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك: ٣/٤٧٦؛ وبدائع الزهور: ٢/٢٢٣؛ والجوهر الثمين: ٢/٢٦١؛ وخطط علي مبارك: ١/١١٠؛ ونزهة النفوس والأبدان: ١/٣٣؛ والضوء اللامع: ٣/١٠؛ ودائرة المعارف الإسلامية: ٧/٨٤؛ والأعلام: ٢/٤٨.

(٢) يرد أيضاً باسم «أنس».

(٣) وصفها ابن إياس بأنها عبارة عن «جبّة سوداء، وشاش أسود ملفوف عمامة، وللجبّة طرز زركش، وسيف بدّاوي مقلد حمائلي.» ــ بدائع الزهور: ٢/٢٢٣.

(٤) في نزهة النفوس وتاريخ ابن قاضي شهبة أن السراج البلقيني قال: «هذا وقت الظهر، والظهر مأخوذ من الظهيرة والظهور، وقد ظهر هذا الأمير بعد أن كان خافياً».

وَرَكِب فَرَسَ النَّوْبَة من الحرّاقة من المَقْعَد الذي بالإسطبل السلطانيّ من باب السِّلْسلة، والقُبَّة والطَّيْرُ على رأسه، وطَلَع من باب السِّر[1] إلى القصر الأبلق،[2] وأمطرت السماءُ عند رُكوبه بأبّهَة السلطنة، فتفاءَل الناسُ بِيُمْن سلطنته، ومَشت الأمراء والأعيان بين يديه إلى أن نَزَل ودخل القَصْر المذكور وجَلَس على تخت الملك. وكان طالعُ جلوسه على تخت الملك بُرْجَ الحُوت، والشمس في القَوْس متصلةٌ بالقمر تثليثاً، والقمَرُ بالأسد مُتَّصِلٌ بالمُشْتري تثليثاً، وزُحل بالثَّوْر راجعاً، والمُشْتري بالحَمَل متصلٌ بعُطَارِد من تسدِيس، والمِرِّيخ بالجَوْزَاء في شَرَفه، والزُّهَرَاءُ بالعَقْرب، وعُطَارِد بالقَوس. ودُقَّت البشائر بقلعة الجبل عند ركوبه ثم زُيِّنت القاهرة ومصرُ، ونُودِي بالقاهرة بالدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق.

ولمّا جلس على تخت المُلك قبَّلت الأمراءُ الأرضَ بين يديه وخَلَع على الخليفة على العادة.

ثم كَتَب بذلك إلى الأعمال وخَرَجت الأمراء لتحليف النُّوَّاب بالبلاد الشامية. ثم أَمرَ الملك الظاهر في السلطنة وثبتت قواعد مُلْكه.

ومدَحهُ جماعةٌ من شعراء عصره منهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطار فقال: [السريع]

ظهورُ يوم الأربعاءِ ابتدا بالظاهِرِ المُعْتَزِّ بِالقاهِرِ
والبِشْرُ قد تَمّ[3] وكلُّ امرِىء منشرِحُ الباطِن بِالظاهِرِ

وقال الشيخ شهاب الدين الأعرج السَّعْدِي من قصيدة: [الوافر]

---

(١) كان هذا الباب مخصصاً لدخول وخروج أكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر وغيرهما. ــ انظر صبح الأعشى: ٣/٣٧٠.

(٢) القصر الأبلق: شرع في بنائه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٣هـ. وقد أراد به محاكاة قصر بهذا الاسم نفسه بناه الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٦٨هـ. وكانت قد جرت العادة بأن يجلس به السلطان كل يوم للخدمة ما عدا يومي الاثنين والخميس فإن جلوسه فيهما كان بدار العدل. ــ انظر خطط المقريزي: ٢/٢٠٩، وراجع الجزء التاسع من هذا الكتاب: ص ٣٢.

(٣) في نزهة النفوس: «عمَّ».

تَــولّى المُلْكَ بـرقـوقُ المفـدَّى ... بِسِعْـدِ آلـجَـدِّ وَالاقـدارُ حَـتْـمُ
نـهـارَ الأربعـاءِ بُـعَـيْـدَ ظُـهْـرٍ ... وللتـربيـع فِي آلامـلاكِ[1] حُكْمُ
بِتـاسِـع عَشْـرِ رَمْضـانٍ بِعـامٍ ... لأربـع مـع ثـمـانِـيـن يَـتـمُّ

قلت: ولْنذكر أمرَ الملك الظاهر هذا من أوّل ابتداء أمره فنقول:

أصله من بلاد الجارْكس وجنسه «كسا [2]»؛ ثم أُخِذَ من بلاده وأبيع بمدينة قِرَم، فاشتراه خواجا عثمان بن مُسافر المقدَّم ذكرهُ وجلبه إلى مصر فاشتَرَاه منه الأَتابَك يَلْبُغا العُمَرِي الخاصّكي الناصري في حدود سنة أربع وستين وسبعمائة أو قبلها بيسير، وأَعْتقه وجعلَه من جُمْلة مماليكه. واستمـرّ بخدمته إلى أن ثارت مماليك يلبغا عليه وقُتِل في سنة ثمان وستين وسبعمائة، فلم أَدْرِ هل كان برقوق ممّن هو مع أستاذه يَلْبُغا أم كان عليه. ولما قُتِل يلبغا وتمزّقت مماليكهُ وحبس أكثرهم حبس برقوق هذا مع مَنْ حُبِس مدّة طويلة هو ورفيقه بَرَكة الجُوبانيّ ومعهم أيضاً جاركس الخليليّ وهو دونهم في الرتبة. ثم أُفْرِج عنه وخَدَم عند الأمير مَنْجَك اليُوسُفيّ نائب الشام سنين إلى أن طَلَب الملكُ الأشرفُ مماليكَ يَلْبُغا إلى الديار المصرية حضر برقوق هذا من جُملتهم وصار بخدمة الأسياد أولاد الملك الأشرف

(١) في نزهة النفوس: «الأفلاك».

(٢) القبائل الجركسية الرئيسية أربع وهي: «تركس» و«أركس» و«كسا» و«آس» أو«آص»؛ ومن هذه القبائل الأربع تفرعت بطون كثيرة. وقد سكنت تلك القبائل فيما مضى القسم الشمالي الغربي من القوقاس وقسماً من الشاطىء الشرقي للبحر الأسود من شبه جزيرة تان إلى حدود بلاد الأبخاز جنوباً. ولفظة «جركس» ليست جركسية، إنما يطلقها عليهم غيرهم. وقد ورد في كتب التاريخ العربية القديمة إطلاق اسم «جهاركس» و«جارکس» على الجركس، وذلك بلغة الفرس ومعناها «الرجال الأربعة» إشارة إلى قبائلهم الأربع الرئيسية. كما وسمتهم المصادر المملوكية باسم «شركس» و«شراكسة». أما الجراكسة أنفسهم فلهم اسمهم القومي الخاص بهم في لغتهم وهو«أديغه» أو«أدزيغه» ومعناه عندهم «الإنسان الكامل». ــ وقبيلة «كسا» التي ينتمي إليها السلطان برقوق كانت تسكن ما وراء مضيق «داريال» وفي حوض نهر قوبان إلى البحرين الأزرق والأسود. ويسميهم جيرانهم الآص باسم «كسك» وهو المذكور باسم «كشك» في مروج الذهب للمسعودي، وذكره صاحب تقويم البلدان باسم «كساق». وهم فرسان معروفون أخذ الروس تسمية الفرسان باسم «قوزاق» من هذا الاسم. وقبيلة «كسا» هي التي خصها الروس باسم «سرقسيان» في زمن متأخر. (انظر دائرة المعارف الإسلامية: ١١/٢٠٨ ــ ٢٣٣).

جُنْدِياً. ولم يزل على ذلك حتى ثار مع من ثار من مماليك يلبغا على الملك الأشرف شعبان في نَوْبَة قَرَطَاي وأَيْنَبك وغيرهما في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وقُتِل الأشرف.

ثم لمّا وقع بين أينبك وقرطاي، وانتصر أينبك على قرطاي، أنعم أينبك عليه بإمرة طبلخاناة دَفْعة واحدة من الجندية، فدام على ذلك نحو الشهر. وخرج أيضاً مع مَنْ خرج على أينبك من اليَلْبُغاوية فأخذ إمرة مائة وتقدمة ألف، وكذلك وقع لرفيقه بَرَكة. ثم صار بعد أيام قليلة أمير آخور كبيراً، ودام على ذلك دون السنة. وآتفقَ مع الأمير بركة على مَسْك طَشْتَمُر الدوادار، ومسكاه بعد أمور حكيناها في ترجمة الملك المنصور عليّ، وتقاسما المملكة؛ وصار برقوق أتابَك العساكر، وبركة رَأس نَوْبة الأمراء أَطَابَكاً، فدامَ على ذلك من سنة تسع وسبعين إلى سنة اثنتين وثمانين. ووَقَع بينه وبين خشداشه بَرَكَة، وقبض عليه بعد أمور وحروب، وصفا له الوقتُ إلى أن تسلطن. وقد تقدَّم ذكرُ ذلك كلّه، غير أننا ذكرناه هنا ثانياً على سبيل الاختصار لينتظم سياق الكلام مع سياقه. انتهى.

قال المقريزي ـ رحمه الله: وكان اسمُه أَلْطنبُغَا فغيّره أستاذُه يَلْبغا لمّا اشتراه وسمّاه برقوقاً [لنتوء في عينه][1] وقال القاضي علاء الدين عليّ ابن خطيب الناصريّة:[2] كان اسمه «سُودُون» نَقْلاً عن قاضي القضاة وليّ الدين أبي زُرْعة العِراقيّ عن التاجر بُرْهان الدين المحلّي عن خواجا عثمان بن مُسافِر.

والقولان ليسا بشيء، وإن كان النقلة لهذا الخبر ثقات في أنفسهم فإنهم ضعفاءُ في الأتراك وأسمائهم وما يتعلّق بهم، لا يرجع إلى قولهم فيها. والأصح أنّه من يوم وُلِدَ اسمه برقوق كما سنبينّه في هذا المحلّ من وجوه عديدة منها: أن الخواجا عثمان كان لا يعرف بالعربية، وكان البُرْهان المحَلّي لا يعرف باللغة التركية

(١) زيادة عن السلوك للمقريزي.

(٢) هو علي بن محمد بن سعد، أبو الحسن الطائي المعروف بابن خطيب الناصرية: مؤرخ من القضاة. من كتبه «الدرّ المنتخب في تاريخ حلب» جعله ذيلاً لتاريخ ابن العديم. توفي سنة ٨٤٣هـ. (الأعلام: ٥/٨).

كلمةً واحدة، فكيف دار بينهما الكلامُ، حتى حَكَى له ما نُقِل! وإن وقـع اجتماعهما في بعض المجالس وتَكالما، فالبرهان يفهم عنه بالرمز لا بالتحقيق ـ وليس بهذا نستدل، بل أشياء أُخَر منها: أنّ والد الملك الظاهر برقوق لَمّا قَدِم من بلاد الجاركس إلى الديار المصرية ونزل الملك الظاهر برقوق في وجوه الأمراء إلى ملاقاته بالعِكْرِشة ـ وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلِّه ـ وكان يوم ذلك برقوق مرشحاً للسلطنة، فعندما وقـع بصر والده عليه وأخذ برقوق في تقبيل يده ناداه باسمه برقوق من غير تعظيم ولا تحشُّم. وكان والد برقوق لا يَعرف الكلمة الواحدةَ من اللغة التركية، فلمّا جلس في صدر المخيم وصار يتكلّم مـع ولده برقوق بالجاركس تكرّر منه لفظ «برقوق» غير مرة.

ثم لمّا قَدِم وصار أمير مائة ومقدَّم ألف استمـرّ على ما ذكرناه من أنه ينادي برقوقاً باسمه، ولا يقوُم له إذا دخل عليه؛ فكلّمه بعض أمراء الجراكسة أن يُخاطبه بالأمير، فلم يفعل، وغَضِب، وطلب العْود إلى بلاد الجاركس؛ فلو كان لبرقوق اسم غير برقوق ما ناداه إلاّ به، ولو قيـل له في ذلك ما قَبِله. فهذا من أكبر الأدلة على أن اسمـه القديم «برقوق». وكذلك وقـع لبرقوق مـع الخَوَنْدَات، فإن أخته الكُبْرى كانت أرضعتْ برقوقاً مـع ولدٍ لها، وكانت أيضاً لا تعرف باللغة التركية، فكان أعظم يمين عندها: «وحقِّ رأسِ برقوق». وقدم مـع الخوندات جماعةٌ كبيرةٌ من أقاربهم وحواشيهم، وتداول مجيئُهم من بلاد الجاركس إلى القاهرة إلى الدولة الناصرية، ورأيت أنا الخَوَنْدات غيرَ مّرة.

وأما جواريهم وخدَمُهم فصار غالبُهم عندنا بعد موتهم. واستولـد الوالدُ بعضَ مَنْ حضر معهم من بلاد الجاركس من الجواري. وكان غالب من حضر معهم من عجائز الجراكسة يَعْرِف مولدَ برقوق، فلم نسمـع من أحد منهم ما نقله من تغيير اسمه ولا من أحد من مماليكه مـع كثرة عددهم واختلاف أجناسهم ومنهم من يَدَّعِي له بقرابة مثل الأمير قَجْمَاس والد إينال الأمير الآخور الكبير وغيره، وقد أثبت ذرية قَجْمَاس المذكور أنّه آبنُ عمٍّ برقوق بسبب ميراث مماليكِه بمحضر شَهِد فيه جماعةٌ من قُدماء الجراكسة وسُمِّي فيه برقوقٌ برقوقاً وسُمِّي قَجْمَاس قجماساً.

ثم لما وَقَفْتُ على هذه النُّقول الغريبة سأَلتُ عن ذلك من أكابر مماليك برقوق، فكلٌّ من سألت منه يقول: «لم يطرق هذا الكلامُ سمعي إلا في هذا اليوم» هذا مع كثرتهم وتعظيمهم لأستاذهم المذكور وحفظهم لأخباره، وما وقع له قديماً وحديثاً حتى إن بعضَهم قال: «هذا اسم جاركسي، ويَلْبُغا اسم تَتَرِى لا يُعرف معناه» ثم ذَكَر معناه فقال: «هذا الاسم أصلهُ «مَلِي جُق» ومعناه بالجاركسي غنّام؛ فإنّ «ملي» بلغتهم آسم للغنم، ثم خفّف على «جُق» ببرقوق» ثم ذكر أسماء كثيرة، كان أصلها غير ما هي عليه الآن مثل «بايزير» فسمي «بايزيد» ومنهم مَن جعله كنيةَ أبي يزيد، ومثل «آل باي» فسمي «علي باي» وأشياء من ذلك يطول شرحُها. وقد خرجنا عن المقصود لتأييد قولنا، وقد أوضحنا هذا وغيره في مُصنَّف على حِدَته في تحريف أولاد العرب للأسماء التركيّة والعجميّة وفي شهرتهم إلى بلادهم في مثل جَانْبَك وتَنْبك وشَيْخون، ومثل من نُسب إلى فَيْرُوز باد واستراباد من زيادة ألفاظ وترقيق ألفاظ يتغيّر منها معناها، حتّى إن بعض الأتراك أو الأعاجم إذا سَمِعها لا يفهمها إلاّ بعد جهد كبير. اِنتهى.

وأمّا الملك الظاهر بَرْقوق فإنه لمّا تسلطن جلس بالقصر الأبلق ثلاثة أيام، فصارت هذه الإقامة سُنَّةً بعده لمن يتسلطن ولم تكن قبل ذلك. فلمّا كان يوم الاثنين رابع عشرين شهر رمضان قُرِىء عهدُ الملك الظاهر برقوق بالسلطنة بحضرة الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدولة، وخَلَع السلطانُ عليهم الخِلَعَ السنيّةَ.

ثم أَخْلَع على الأمير أَيْتَمشُ البجاسِيّ باستمراره رأسَ نَوْبة الأمراء وأَطَابَكاً، وعلى الأمير أَلْطُنْبُغا الجُوبانيّ أمير مجلس على عادته، وعلى جاركس الخليلي الأمير آخور الكبير على عادته، وعلى الأمير سُودون الفخريّ الشيخونيّ حاجب الحجّاب باستقراره نائب السلطنة بالديار المصرية، وكانت شاغرةً من يوم مات الأمير آقْتَمُر عبد الغني. وخَلَع على الأمير أَلْطُنْبُغا الكُوكائي أمير سلاح، وآستقرّ حاجب الحُجّاب عوضاً عن سُودون الشيخونيّ، وعلى الأمير أَلطنبغا المعلِّم بآستقراره أمير سلاح عوضاً عن الكُوكائي المُنتقِل إلى الحجوبيّة.

قلت: وهذا مما يدل على أن وظيفة إمرة سلاح كانت إذ ذاك دون الحجوبيّة إِنتهى.

ثم أخلـع السلطان على الأمير يُونُس النَّوْرُوزي دواداره قديماً باستقراره دواداراً كبيراً بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضاً عن ألَابغا العُثْماني المقبوض عليه قبل تاريخه، وعلى الأمير قُرْدَم الحَسنِـيّ اليَلْبُغاويّ باستقراره على عادته رأسَ نوبة ثانياً بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضاً عن ألَابغا.

وهذه الوظيفة هي الآن وظيفة رأس نَوْبة النُّوَب، وقد بيّنا ذلك في غير موضـع.

ثم خَلَـع السلطانُ على القضاة الأربعة؛ وهم: قاضي القضاة بدر الدين بن أبـي البقاء السُّبْكـي الشافعيّ، وقاضي القضاة صدر الدين بن منصـور الحنفيّ، وقاضي القُضَاة جمال الدين بن خير المالكيّ، وقاضي القضاة ناصر الدين العسقلاني الحنبلـيّ. وخَلَـع على قُضاة العسكر [و] مفتي دار العدل[١]، ووكلاء بيت المال، وعلى مباشري الدولة، وعلى القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السر، وعلى عَلَم الدِّين سِنّ إبرة الوزير، وعلى تقيّ الدين محمد بن مُحِبّ الدِّين ناظر الجيش، وعلى سعد الدين بن البقري ناظر الخاصّ.

ثم خَلَـع الملك الظاهر على القاضي أوحد الدين عبد الواحد موقِّعِه في أيام إِمرته، وعلى جمال الدين محمود القَيْصرِي محْتسب القاهرة، وعلى سائر أرباب الدولة وأعيان المملكة فكان يوماً مشهوداً.

---

(١) كانت تطلق دار العدل أولاً على الدار القديمة التي كانت تحت القلعة في المكان الذي شغلته فيما بعد الطبلخاناه السلطانية، وقد بناها الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٦١هـ، وظلت موجودة حتى استجدّ السلطان قلاوون الإيوان فهجرت دار العدل ثم هدمها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٢هـ. أما الإيوان الذي أقامه المنصور قلاوون فقد أصبح يعرف بدار العدل، وهو المقصود هنا. وأخذ السلاطين يجلسون فيه أياماً محدّدة في الأسبوع للنظر في المظالم، ثم تحوّل عنه الظاهر برقوق إلى الإسطبل السلطاني في الأحكام وذلك منذ رمضان سنة ٧٨٩هـ. (انظر خطط المقريزي: ٢/٢٠٤ ــ ٢٠٨).

ثمّ في يوم الخميس سابع عشرينه طلب السلطان سائر الأمراء والأعيان، وحلّفهم على طاعته. وفيه أيضاً خَلَع على الأمير بهادُر المَنْجَكيّ، وآستقرّ أُستداراً بإمرة طبلخاناه، وأُضِيف إليه أُستاداريّة المقَام الناصريّ محمد آبن السلطان الملك الظاهر برقوق.

ثم في يوم الاثنين تاسع شوّال أخلع السلطان على العلاّمة أَوْحد الدين عبد الواحد بن إسماعيل بن ياسين الحنفيّ باستقراره كاتب السرّ بالديار المصريّة عِوَضاً عن القاضي بدر الدين بن فضل الله بحكم عزله.

ثمّ أخلع السلطان على الأمير جُلْبان العلائي وآستقرّ حاجباً خامساً، ولم يُعهد قَبْلَ ذلك بديار مصر خمسة حُجّاب، وعُدَّ ذلك من الأشياء التي آستجدَّها[1] الملك الظاهر بَرْقُوق.

وأخلَع على رجل من صُوفِيّة خَانقاه شَيْخون يُقال له خَيْرُ الدين [العَجَميّ][2] بآستقراره قاضي قضاة الحنفيّة بالقُدس الشريف.

ثم أَخْلَع أيضاً على رجل آخَر من صوفيّة خانقاه شَيْخُون يقال له موفَّق الدِّين العَجَمِيّ بقضاء غزة، كلُّ ذلك بسفارة الشيخ أكمل الدِّين شيخ الخانقاه الشَّيْخُونية. وهذا أيضاً ممّا آستجدّه الملك الظاهر، فإنه لم يكن قبل ذلك بالقُدس ولا بغَزة قاضٍ حَنَفِيّ.

ثم في يوم الأربعاء تاسع عشرين شوّال رَكِب السلطان الملك الظاهر من قَلْعة الجبل وعَدَّى النيل من بَرْبُلاق إلى الجِيزة وتصيّد ثم عاد من آخر النهار، وقد ركب الأمير أَيْتَمُش عن يمينه والعلاَّمةُ أكملُ الدين شيخ الشَّيْخُونيّة عن يساره.

ثم رَسَم السلطان بعد عَوْده من الصَّيْد بآستقرار بَدْر الدين محمد بن أحمد

---

(١) ذكر القلقشندي في صبح الأعشى: ٤/ ١٩ أنه جرت العادة أن يكون خمسة حجّاب، اثنان من مقدّمي الألوف، وأحدهما يكون حاجب الحجّاب. كما ذكر أن حاجب الحجّاب كان يقوم مقام النائب في كثير من الأمور.

(٢) زيادة عن السلوك.

[بن إبراهيم](١) بن مُزْهر في كتابة سرّ دِمَشق عِوضاً عن القاضي فتح الدين [محمد](١) بن الشهيد.

ثم وَرَدَ الخبرُ على السلطان من الأمير يَلْبُغَا الناصريّ نائب حلب بأنّ الأمير أَلْطُنْبُغا السلطانيّ نائب أَبُلُسْتين(٢) عَصِيَ وطَلَع إلى قلعة(٣) دَارَنْدة المضافة إليه، أمسك بعضَ أمرائها وأطلع إلى دَارَنْدة ذَخائِرَه؛ فَركب العسكر الذين هم بالمدينة عليه وأمسكوا مماليكه وحاصروه فطلب الأمان منهم. ثم فَرَّ من القلعة إلى أَبُلُسْتَيْن ثانياً فكتَب إليه الناصريّ نائبُ حلب يُهدِّده فلم يرجع إليه وفرّ هارباً إلى بلاد التَّتار وقال: «لا أكون في دولة حاكمُها جَاركَسِيّ!»

وفي يوم السبت سابع عشر ذي القَعْدة رَكب السلطان أيضاً من القلعة إلى جهة المطرية ومَضَى إلى قناطر [بحر] أبـي مُنَجّا، ثم عاد وشَقّ القاهرة من باب الشعرية(٤)؛ وكان لمروره يومٌ مشهودٌ، وهو أوّل ركُوبه ومروره من القاهرة في سلطنته.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) أبلستين: موقعها في الشرق من قيصرية. وكانت تعد من مدن الثغور في أيام الروم. (بلدان الخلافة الشرقية: ١٧٨).

(٣) كانت قلعة دارندة من بلاد الثغور والعواصم الخارجة عن حدود البلاد الشامية ولها نائب أمير عشرة وربما طبلخاناه، وولايتها في الحالتين من نائب حلب. (صبح الأعشى: ٤/٢٢٨) ـ وذكرها ابن الشحنة من ضمن الأعمال الحلبية، قال: «مدينة درندة وقلعتها، وهي قاطع بهسنى إلى الروم. كان فتحها سنة خمس عشر وسبعمائة بعد فتح ملطية» ـ وذكر في مكان آخر أن درندة تعتبر آخر الأعمال الحلبية من جهة الروم. (الدر المنتخب: ٢٣٠، ٢٣٩).

(٤) باب الشعرية: أحد أبواب القاهرة الخارجية في سورها البحري. وهذا الباب يعرف بطائفة من البربر المغاربة يقال لهم بنو الشعرية. (خطط المقريزي: ١/٣٧٧، ٣٨٣). وذكر الاستاذ محمد رمزي أن الناس جهلوا الموقع الأصلي لهذا الباب فأطلقوا اسمه خطأ على باب آخر هو باب القنطرة وسموه باب الشعرية في حين أن البابين غير متجاورين والمسافة بينهما لا تقل عن ٢٣٠ متراً. كما أن مصلحة التنظيم أطلقت اسم باب العدوي الذي هو بذاته باب الشعرية على زقاق بشارع البغالة البحري شرقي شارع الخليج المصري في حين أن هذا الباب يقع غربـي شارع الخليج.

ثم قَدم الخبرُ على السلطان بِفرار الأمير آقْبُغا من عبد الله نائب غزّة منها إلى الأمير نُعَيْر[١].

وفي هذه الأيام أخلع السلطان على الأمير قَرْقَماس الطّشْتَمُريّ باستقراره خازنداراً كبيراً.

وفي سابع[٢] عشر ذي الحجّة من سنة أربع وثمانين وسبعمائة ركب السلطان من القلعة وعَدّى النيل إلى برّ الجيزة ثم عاد من بُلاق[٣] في سابع عشر ذي الحّجة المذكور.

وفي سابع عشرين ذي الحِجّة قَدِم الأمير أَلْطُنْبُغا الجُوبانيّ أمير مجلس من الحجاز؛ وكان حج مع الركب الشاميّ وعاد من طريق الحجّ المصريّ.

وفي يوم السبت أوّل مُحَرّم سنة خمس وثمانين وسبعمائة قَدِم الأمير يلبُغا الناصريّ نائب حلب إلى الديار المصرية، فخرج الأمير سُودون الشَّيْخُونيّ النائب إلى لقائه وجماعة من الأمراء؛ وطَلَع الجميع في خدمته إلى القلعة، وقَبّل الناصريّ الأرضَ بين يدَي السلطان الملك الظاهر.

وخَلَع السلطان عليه بالاستمرار على نيابة حلب؛ فكان مجيء الناصري إلى مصر أوّلَ عظمة نالت الملك الظاهرَ برقوقاً؛ لأن يَلْبُغا الناصري المذكور كان من كبار مماليك الأتابك يلبُغا العُمَري وممن تأمّر في أيام يلبُغَا، وبرقوق كان من صغار مماليكه. وأيضاً فإن الناصري كان في دولة الملك الأشرف شعبان بن حُسين أميرَ مائة ومقدّم ألف وبرقوق من جملة الأجناد ممن يتردّد إليه ويقوم في مجلسه على

---

(١) هو نعير بن حيار بن مهنا، أمير آل مهنا من العرب. ويقال له محمد بن حيار، وقد أسهم في أحداث الفتنة التي ستقع بين يلبغا الناصري ومنطاش وبرقوق. وكان بينه وبين بني عمه قتال، فلما كان عهد فرج بن برقوق قاتله الأمير جكم وكسره، وجاء به إلى حلب حيث قتل في شوّال سنة ٨٠٨هـ. (انظر الضوء اللامع: ١٠/٢٠٣).

(٢) في السلوك ونزهة النفوس: «رابع عشرينه».

(٣) أي بولاق، كما في أكثر المصادر.

قدميه[١]، فلم يمض غيرُ سنيات حتى صار كلٌّ منهما في رتبة معروفة. فسبحان مغيِّر حال بعد حال. ويَلْبُغا الناصري هو صاحب الوقعة مع الملك الظاهر برقوق الآتي ذكرها ــ إن شاء الله تعالى ــ في هذا المحل.

ثم نزل الأمير يَلْبُغا الناصري وعليه خِلْعةُ الاستمرار بنيابة حلب وعن يمينه الأمير أَيْتَمُش وعن يساره الأمير أَلْطَنْبُغا الجُوباني ومن ورائه سبعة جنائب من خيل السلطان بسروج ذهب وكنابيش زَرْكش أنعم بها عليه. ثم حمل إليه السلطانُ والأمراُء من التّقادم مما يَجِلُّ وصفه.

ثم رَكب السلطان في يوم السبت ثامن المحرّم ومعه الأميرُ يلبُغا الناصري، وعدّى النيلَ من بُلاق إلى برّ الجيزة، وتصيّد، وعاد في آخر النهار.

وفي عاشره خَلَع السلطان على الأمير يلبغا الناصري نائب حَلَب خِلعَة السفر، وخرج من يومه إلى محل كفالته بحلب.

ثم في يوم الاثنين سابع عشره أخلع السلطان على شمس الدين إبراهيمَ كاتب أُرْنان[٢] وآستقرّ به وزيراً على شروط عديدة، منها: أنه لا يَلْبَس خِلْعَةَ الوَزَر، فأُجِيب ولَبِس خلْعةً [من صوف][٣] كخْلعة القُضاة وغير ذلك[٤].

وفيه وصل الأمير أسدُ الدين الكُرْدي أحدُ أمراء حلب في الحديد لشَكْوَى

(١) أشار الخطيب الجوهري في نزهة النفوس إلى أن العادة كانت «إذا اجتمع الأشرفية والمماليك المنضمون للأسياد تجلس الأشرفية ويقف ما عداهم. وكانت عادة برقوق إذا ضمه مجلس مع الناصري قام على رجليه بين يديه». وقد دأب السلطان برقوق منذ توليه الحكم على الحطّ من شأن المماليك الأشرفية والترك وإعلاء شأن الجراكسة، مما سيكون له أثره البارز في التحالف الذي سيقوم بين يلبغا الناصري ومنطاش.

(٢) في السلوك ونزهة النفوس والدرر الكامنة والمنهل الصافي: «أرلان».

(٣) زيادة من المصادر أعلاه.

(٤) لم يشر المؤلف هنا إلى الشرط الأهم الذي اشترطه الوزير وهو أن ينفرد بالكلام في الدولة من غير مشورة أو مشاركة من أحد، وخاصة الأمير جركس الخليلي الذي كان مقرباً من برقوق وكان المتحدث في أمور الدولة. (انظر في ذلك السلوك: ٣/٤٨٦، ونزهة النفوس: ١/٦٠).

بعض التُّجّار عليه أنه غَصَبه مملوكاً، فُحبِس أياماً، ثم أفرِج عنه، وأُخرِج على تقدمة ألف بطرابُلُس.

ثم عَزَل السلطان الأميرَ إينال اليُوسُفِي عن نيابة صَفَد بالأمير تَمُرْبَاي التِّمِرْداشي، وأنْعَم على إينال بتقدمة ألف بدمشق.

وفيه استعفى الأميرُ يَلُو من نيابة حَماة فأعفي.

وفي تاسع عشرة قَدِم سالم الدوكاري[١] من حلب فأكرمه السلطان وأخلع عليه وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه بحلب.

وفي ثامن عشرين جمادى الأولى وهو سادس[٢] مسرى أوفى النيل، فنزل الملك الظاهر من القلعة في موكب عظيم حتى عَدّى النيل وخَلّق المقياس[٣]، وفَتَح خليج السّدّ[٤]. وهذا أيضاً مما استجدّه الملك الظاهر برقوق، فإنه لم يُعْهَد بعدَ الملك الظاهر بيبرس البُنْدُقْداري سلطانٌ نزل من القلعة لتخليق المقياس وفَتح الخليج غير الملك الظاهر هذا، فهو أيضاً ممن آستجدّه لطُول ترك الملوك له.

وفي هذا الشهر أخلع السلطان على الأمير صَنْجَقْ الحَسَني اليلبُغاوي بنيابة حَماة عوضاً عن يَلُو بحكم استعفائه عن نيابة حماة.

وفيه ورد الخبرُ بموت الأمير تَمُرباي التِّمِرْدَاشِيّ نائب صَفَد بعد أن أقام على نيابة صفد خمسة أيام، فأخلع السلطانُ بعد مدّة على الأمير كَمَشْبُغا الحمويّ بنيابة

---

(١) كان سالم الدوكاري هذا قد أخذ في قطع الطريق على حجاج الموصل وذبحهم وأخذ أموالهم، فاجتمع لمحاربته حاكم الموصل قرا محمد وضياء الملك بن يوزدوغان فشتتا جمعه ولم يجد بداً من تقديم الطاعة والالتجاء إلى يلبغا العمري الذي أرسله إلى مصر. (السلوك:٣/٤٨٩، ونزهة النفوس: ١/٦٤).

(٢) كذا أيضاً في نزهة النفوس. وفي السلوك: «خامس».

(٣) تخليق المقياس: أي تطييب عموده بالخلوق أو الزعفران، وهي عادة كانت متبعة احتفاءً بوفاء النيل وارتفاع مائه إلى الحدّ المطلوب لريّ المزروعات والشرب. وعند وفاء النيل يصدر الأمر برفع السدّ الذي كان يقام سنوياً عند فم الخليج فتدخل مياه النيل في الخليج وتسير فيه إلى نهايته. وهذا ما يسمى بكسر الخليج ــ راجع أيضاً فهرس المصطلحات: وفاء النيل وكسر الخليج.

(٤) المراد به الخليج المصري أو الخليج الناصري. ــ راجع فهرس الأماكن.

صفد عِوضَه. وكُمُشبغا هذا هو أكبرُ مماليك يَلْبُغا العُمَرِيّ وممّن صار في أيام أستاذه أميرَ طبلخاناه ولم يخرج عن طاعة أستاذه يلبغا، ولهذا مَقَتَه خشداشِيته الذين خرجوا على أستاذهم يلبغا، لكونه لم يُوافقهم، وقد تقدَّم أنَّه ولي نيابة دِمَشْق وصفد وطَرابُلس قبل ذلك.

وفي أوّل شهر رجب من سنة خمس وثمانين وسبعمائة طَلَع الأمير [صلاح الدين] محمد بن محمد بن تَنْكِز إلى السلطان ونَقَلَ له عن الخليفة المتوكِّل على الله أبي عبد الله محمد أنه آتفق مع الأمير قُرْط بن عمر التُّرْكمانيّ المعزول عن الكشُوفية(١) ومع إبراهيم بن قُطْلُوقْتَمُر العلائي أمير جاندار ومع جماعة من الأكراد والتُّرْكمان، وهم نحو من ثمانمائة فارس، أنهم يِثْبُون على السلطان إذا نَزَل من القلعة إلى الميدان في يوم السبت للعب بالكرة يقتلونه ويُمَكِّنون الخليفة من الأمر والاستبداد بالمُلك. فحلّف السلطانُ ابن تَنْكز على صحّة ما نقَل، فحلَف له، وطلب يحاقِقهم على ذلك. فبعث السلطان إلى الخليفة وإلى قُرْط وإلى إبراهيم بن قُطْلُقْتَمُر، فأحضرهم، وطلب سُودون النائب وحدّثه بما سَمِع، فأخذ سودُون يُنْكِر ذلك ويستبعد وقوعه منهم. فأمر السلطانُ بالثلاثة فحضروا بين يديه وذَكَر لهم ما نُقِل عنهم فأنكروا إلا قُرط، فإنّه خاف من تهديد السلطان، فقال: «الخليفةُ طلبني وقال: هؤلاء ظَلَمةٌ وقد آسْتَوْلَـوْا على هذا المُلك بغير رضائي، وإني لم أُقلِّد برقوقاً السلطنة إلا غصباً؛ وقد أَخذ أموالَ الناس بالباطل. وطلب منّي أن أقومَ معه وأنصُرَ الحقَّ، فأجبتهُ إلى ذلك ووعدتُه بالمساعدة، وأن أجمعَ له ثمانمائة واحد من الأكراد والتُّركمان وأقوم بأمره» فقال السلطان للخليفة: «ما قولك في هذا؟» فقال: «ليس لما قاله صحّة» فسأل إبراهيم بن قُطْلُقتمر عن ذلك، فقال: «ما كنت حاضراً هذا الاتفاق؛ لكنّ الخليفة طلبني إلى بيته بجزيرة الفيل وأعلمني بهذا الكلام وقال لي:

(١) الكشوفية: هي وظيفة الكاشف؛ وهو الذي يشرف على أحوال الأراضي والجسور، ولذلك يسمى «كاشف الجسور» أو «كاشف التراب». وكان بالوجه القبلي ثلاثة مقرهم الفيّوم والصعيد الأدنى والصعيد الأعلى؛ وبالوجه البحري اثنان مقرهما الشرقية والغربية. وكان الكاشف من أمراء الطبلخاناه. (صبح الأعشى: ٢٥/٤، ٦٥؛ وزبدة كشف الممالك: ١٢٩ ــ ١٣٠).

إنّ هذا مصلحة. ورغَّبني في موافقته والقيام لله تعالى ونُصْرة الحق». فأنكر الخليفةُ ما قاله إبراهيم أيضاً. وصار إبراهيم يذكر له أمارات والخليفة يحلف أن هذا الكلام ليس له صحة؛ فآشتدّ حَنَقُ الملك الظاهر وسَلَّ السيفَ ليضرب عُنُقَ الخليفة؛ فقام سُودون النائب وحال بينه وبين الخليفة، وما زال به حتى سَكَّن بعضَ غضبِه. فأمر الملك الظاهرُ بقرط وإبراهيم يُسَمَّرا، وآستدعى القضاة ليُفْتوه بقتل الخليفة، فلم يُفْتوه بقتله، وقاموا عنه[1] فأخذ [برقوق] الخليفةَ وسجنه بموضع في قلعة الجبل وهو مقيَّد، وسمِّرقُرْط وإبراهيم وشُهِّراً في القاهرة ومصر. ثم أُوقِفَا تحت القلعة بعد العصر، فنزل الأمير أَيْدَكار الحاجب وسار بهما ليوسَّطا خارج باب المحروق من القاهرة، فابتدأ بقرط فوُسِّط، [وقبل أن يوسَّط إبراهيم][2] جاءت عِدّة من المماليك بأن الأمراء شفعوا في إبراهيم، ففُكَّت مساميرُه وسُجِن بخزانة شمائل.

ثم طَلَب السلطان زكرّياءَ وعمر آبْنَـي إبراهيم عَمّ المتوكِّل، فوقَع اخْتيـارُه على عمر فولَّاه الخلافةَ وتلقَّب بالواثق بالله، كلُّ ذلك في يوم الاثنين أوّل شهر رجب.

ثم في يوم الاثنين ثامن شهر رجب أخلـع السلطان على الطواشِي بهادر الروميّ وآستقـرّ مقدّمَ المماليك السلطانية عِوَضاً عن جَوْهر الصَّلاحِي.

ثم في يوم السبت ثالث عشرة ركِب السلطان إلى الميدان ثاني مرة للعب الكُرة. ثم رَكِب في يوم السبت عشرينه ثالث مرّة. ثم رَكِب في يوم السبت سابع عشرينه إلى خارج القاهرة وعاد من باب النصر ونزل بالبِيمارستان المنصوري. ثم ركب منه إلى القلعة، فلم يتحرّك أحدٌ بأمر من الأمور.

ثم خَرَج السلطانُ إلى سَرْحة سِرْياقُوس على العادة في كلّ سنة وأقام بها أياماً وعاد؛ وفي عوده قَبَض على سعد الدين نصر الله بن البَقَريّ ناظر الخاصّ بالخدمة. وخلـع السلطان على موفَّق الدين أبـي الفرج عبد الله الأسْلَمي بنظر الخاصّ عوضاً

---

(١) أي انصرفوا من عند السلطان.

(٢) عبارة الأصل: «فابتدأ بقرط فوسِّط، وأبى أن يأخذوا إبراهيم جاءت عدةّ. . . الخ» وما أثبتناه بين معقوفين عن السلوك.

عن آبن البقري، وأجرى على ابن البقريّ العقوبة ثم ضربه بالمقارع، بعدما أخذ منه ثلاثمائة ألف دينار.

وفيه شَفَع الأمراء في الخليفة، وتقدَّم منهم الأميرُ أَيْتَمُش والأمير أَلْطُنْبغا الجُوبانيّ وقبّلا الأرض وسألاَ السلطان في العفو عنه وترفّقاً في سؤاله؛ فعدّد لهما السلطانُ ما أراد أن يفعله بقتله، فما زالا به حتّى أمر بفكِّ قَيْدِه.

وفي هذه السنة توجه السلطان عدة مرار للصيد ببر الجيزة وغيرها، وفي الأخير اجتاز السلطان بخيمة الأمير قُطْلُقْتَمر العلائيّ أمير جاندار ووقف عليها، فخرج قطلقتمر إليه وقدّم له أربعة أفراس فلم يقبلها، فقبّل الأرض ثانياً وسأل السلطان أن يقبلَها، فأجاب سؤالَه وقَبِلها وسار حتى نزل بمخيَّمه. وفي الحال آستدعَى بإبراهيمَ ابن قُطْلُقْتَمر المذكور من خزانة شمائل وأطلقه وخَلَع عليه وأركبه فرساً بسرج ذهب وكنْبُوش زَرْكَش، وأعطاه ثلاثة أرؤس أُخَر، وهي التي قدّمها أبوه للسلطان، وأُذِنَ له أن يمشي في الخدمة، ووعده بإمرة هائلة، وأرسله إلى أبيه قطلقتمر المذكور، فسر به سروراً زائداً. وكان قطلقتمر في مدّة حبس آبنه لم يُحدّث السلطانَ ولا الأمراءَ في أمر آبنه بكلمة واحدة، فأتاه الفَرَج مِن الله تعالى بغير مِنّة[١] أحد.

وفي هذه الأيام جمع السلطان القضاةَ وآشترى الأمير أَيتُمش البجاسِي ــ وهو يوم ذاك رأسُ نُوْبة الأمراء وأطابَك وأكبرُ جميع أمراء ديار مصر ــ من ذرّيّة الأمير جُرْجي الإدريسيّ نائب حلب، بحكم أنّ جُرْجي لَمّا مات لم يكن أيتمش ممنّ أعتقه، فأخذه بعد موته الأميرُ بَجَاس وأعتقه من غير أن يَمْلِكَه بطريق شرعي، وأثبتوا ذلك على القضاة؛ فعند ذلك آشتراه الملك الظاهر من ذرّيّة جُرْجي بمائة ألف درهم، وأعتقه، وأنعم عليه بأربعة[٢] الآف درهم وبناحية سَفْط رشين[٣] ثم خلع السلطان على القضاة والموقِّعين الذين سجّلوا قضيّة البيع والعِتْق.

(١) الأصل: «مأنة».

(٢) في السلوك ونزهة النفوس: «بأربعمائة ألف درهم فضة».

(٣) في الأصل: «سغط رشيد» والتصحيح عن القاموس الجغرافي لمحمد رمزي: ١٤٠/٢/٣.

وفي يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة أفرج السلطان عن الخليفة المتوكّل على الله، ونُقِل من سجنه بالبُرج إلى دارٍ بالقلعة وأُحْضِر إليه عيالُه.

ثمّ في يوم السبت ثالث صفر من سنة ست وثمانين وسبعمائة قَبَض السلطان على الأمير يَلْبُغا الصغير الخازِندار، وعلى سبعة من المماليك وُشِيَ بهم أنهم قصدوا قتلَ السلطان فضربهم ونفاهم إلى الشام.

وفي يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الأوّل قَدِم الأمير بَيْدَمُر الخُوارَزْمِيّ نائب الشام؛ فأجلسه السلطان فوق الأمير سُودُون النائب بدار العدل. ثم في ثالث عشره خلَع عليه السلطان، وقَيَّدَ له ثمانيةَ جنائب من الخيل بقُماش ذهب، جَرُّوها الأوجَاقِيَّةُ[1] خلفه.

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرة نَزلَ السلطان لعيادة الأمير أَلْطُنْبُغا الجُوباني أمير مجلس وقد توعَّك.

وفيه قدّم الأميرُ بَيْدَمر نائب الشام تقدمتَه للسلطان، وكانت تشتمل على عشرين مملوكاً، وثلاثة وثلاثين جَمَلاً عليها أنواعُ الثِّياب من الحرير والصوف والفَرْو، وثلاثة وعشرين كلباً سَلُوقِياً، وثمانية عشر فَرساً عليها أجلالُ حرير، وخمسين فحلاً، واثنتين وثلاثين حِجْرةً، ومائة إكْدِيش لتتمة مائتي فرس، وثمانية قُطُر هُجُن بقُماش ذهب، وخمسة وعشرين قطاراً من الهُجُن أيضاً بكِيران ساذَجَة، وأربعة قُطُر جمال بخَاتِيّ لكل جمل منها سَنَامان، وثمانين جَملاً عِرابًا [قدّم]. وباسم ولد السلطان سيِّدي محمد عشرين فرساً وخمسة عشره جملاً وثياباً وغيرها. وفي عشرينه خلع عليه السلطان خِلْعة السفر وتوجّه إلى محلّ ولايته بدِمَشق.

وفي خامس عشرينه نزل السلطانُ لعيادة أَلْطُنْبغا الجُوبانيّ ثانياً، ففَرَش له الجُوبانيُّ شِقاق[2] الحرير السَّكندريّ وشِقاق نَخّ من باب إسطبله إلى حيث

(١) الأوجاقية والأوشاقية: الذين يتولون أمر الخيل في التسيير والرياضة. ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) الشقاق والشقق: جمع شقّة، وهي القطعة من الكتّان أو شعر الماعز، وكانت توضع على باب الخيمة، ثم أصبحت تفرش أمام الركب السلطاني. والظاهر أنها حينذاك تحولت إلى أن تجعل من الحرير احتراماً لمكانته. (ملحق دوزي).

هو مُضطَجِع. فمشَى عليها السلطان بفَرَسه، ثم بقَدَمَيْه فَنُثِرت عليه الدنانيرُ والدراهم. وقدّم له الجُوبانيّ جميعَ ما عنده من المماليك والخيل، فلم يأخذ السلطان شيئاً منها؛ وجلَس ساعةً عنده ثم عاد إلى القلعة.

وفي ثالث عشر جُمَادَى الأولى غَضِب السلطانُ على القاضي تقيّ الدين عبد الرحمن ابن القاضي محب الدين محمد [بن يوسف بن أحمد](١) ناظر الجيوش المنصورة بسبب إقطاع الأمير زامل أمير عَرَب آل فضل، وضَرَبه بالدواة، ثم أمر به فضُرِب بين يديه نحو ثلاثمائة عصاة، وكَان ترِفاً، فحُمِل في محِفَّة إلى داره بالقاهرة، فلَزِم الفراش إلى أن مات بعد ثلاثة أيام في ليلة الخميس سادس عشر جُمادى الأولى. وأخلع السلطان على موفَّق الدِّين أبي الفرج [الأسلمي](٢) ناظر الخاصّ وآستَقرّ به في نظر الجيش مضافاً لنظر الخاصّ والذَّخيرة ولاستيفاء الصحبة(٣).

وفي أثناء شهر رجب المذكور استبدل السلطان خان الزَّكاة(٤) من ذرّية الملك الناصر محمد بن قلاوُون بقطعة أرض وأَمرَ بهدمه وعِمارة مدرسة مكانَه، وأقام السلطان على عِمارتها الأمير جَاركس الخليليّ أمير آخور، فابتدأ بهدمه وشرَعَ في عِمارة المدرسة المعروفة بالَبرْقُوقيّة بين القصرين. فلمّا كان يوم الاثنين ثاني شعبان مات تحت الهَدْم جماعةٌ من الفَعَلة. وفي خامسه ركب السلطان إلى رؤية عِمارته المذكورة وعاد إلى القلعة، ثم سار إلى سَرْحة سِرْياقُوس على العادة بحريمه وخواصِّه في ندمائه وسائر الأمراء والأعيان، ثمّ عاد بعد أيام.

ثمّ نزل في يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان لعِيادة الشيخ أكْمَل الدِّين الشيخ بالشَّيْخُونيّة.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) صاحب هذه الوظيفة يسمى مستوفي الصحبة. وهو من كبار كتّاب الدواوين ويشرف على كليّات عملها. ــ راجع فهرس المصطلحات.

(٤) كان فندقاً يعرف بخان الزكاة. (انظر خطط المقريزي: ١/٣٧٣) وعبارة نزهة النفوس: «استبدل منهم خان الزكاة وأرضها بمال دفعه لهم» ــ ومن ذلك يفهم أن مكان خان الزكاة اليوم هو جامع السلطان برقوق قرب جامع الناصر محمد بن قلاوون بجوار المدرسة الناصرية بشارع المعز لدين الله الفاطمي.

ثمّ نزل في يوم الخميس ثامن عشره ليصَلّي عليه فظَهرَ أنه أغْمِيَ عليه ولم يَمُت، فعاد السلطانُ. ونزَل في يوم تاسع عشره حتى صلّى عليه بمصلاة المؤمني من تحت القلعة، ومشى على قدميه أمامَ النَّعْش من المُصَلى إلى خانقاه شَيْخون مع الناس في الجنازة بعد ما أراد أن يَحْمِل النعش غيرَ مرّة فتحمله الأمراءُ عنه. وما زال واقفاً على قبره حتى دُفِن وعادَ إلى القلعة. كلُّ ذلك لاعتقاده في دِينه وغزير علْمِه ولقِدَم صحبته معه. ومن يوم مات الشيخ أكمل الدين صار الشيخ سراج الدين عمر البُلْقِيني يجلس مكانَه عن يمين السلطان.

ثم خَلَع السلطان على الشيخ عِزّ الدين يوسف بن محمود الرّازيّ العَجَمِيّ باستقراره في مشيخة خَانِقاه شَيْخون عِوَضاً عن الشيخ أَكْمل الدين المذكور.

ثم في حادي عشر شوّال قَدِم الأمير يَلْبُغا الناصريّ نائبُ حلب إلى القاهرة وعدّى إلى السلطان ببرّ الجيزة، وعاد معه من برّ الجيزة، بعد ما غاب [عن] صحبة السلطان أياماً في يوم الخميس أوّل ذي القعدة. وفي خامسه خَلَع عليه خِلْعة السَّفر وتوجّه إلى محلّ كفالته بحلب، وهذا قدومُ يلبغا الناصريّ ثاني مرّة، بعد سلطنة الملك الظاهر برقوق.

وفي يوم الخميس ثاني ذي القعدة أُسِّسَت المدرسة الظاهرية[١] ببين القصرين موضع خان الزكاة.

وفي يوم الاثنين رابع ذي الحِجّة خَلَع السلطان على القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله باستقراره في وظيفة كتابة السِّرّ على عادته بعد وفاة القاضي أَوْحد الدين.

وفي ثامن عشرين ذي الحِجّة آستجدّ السلطان لقرافة مصر والياً أميرَ عشرة وهو سليمان الكُرْدِيّ، وأخْرِجت عن والي مدينة مصر، ولم يُعهد هذا فيما مَضَى.

---

(١) هي بذاتها المدرسة البرقوقية. وذكرها المقريزي في خططه باسم الخانقاه الظاهرية (خطط: ٢/٤١٨) وباسم مدرسة الظاهر برقوق (خطط: ٢/٢٤٥) ـ وذكر محمد رمزي أنها ما تزال عامرة إلى اليوم بالشعائر الدينية وتعرف باسم جامع السلطان برقوق.

وفيه نُقِل الأمير كَمَشْبُغا الحمويّ اليلبُغاويّ من نيابة صَفَد إلى نيابة طرابُلس عوضاً عن مأمور القَلَمْطَاويّ؛ وهذه ولاية كمشبغا لنيابة طرابلس ثاني مرّة.

وفي يوم الاثنين ثاني محرّم سنة سبع وثمانين وسبعمائة آستقرّ الأمير سُودون المظفريّ حاجب حُجاب حلب في نيابة حَماة بعد عزل الأمير صَنْجَك، وتوجّه إلى طرابلس أميراً بها.

وفي يوم الجمعة ثالث شهر رجب توجّه الأمير حسن قُجَا على البريد لإحضار يَلْبُغا الناصريّ نائب حلب.

وفي عشرينه خرج من القاهرة الأمير كَمَشْبُغا الخاصّكيّ الأشرفيّ على البريد لنقل سُودون المظفَّري في نيابة حمَاة إلى نيابة حلب، عوضاً عن الأمير يَلْبُغا الناصريّ. وأما الناصريّ فإنّه لما وصل إلى مدينة بلبيس قُبِضَ عليه وقُيِّد وحُمِل إلى الإسكندريّة، وآحتاط محمود شادّ الدواوين على أمواله بحلب. ومن يومئذ أخذ أمرُ الملك الظاهر في إدبار بقَبْضه على الأمير يلبغا الناصريّ بغير ذنب.

ثمّ في يوم الاثنين ثاني عشرين ذي الحِجّة قَبض السلطان على الأمير أَلْطُنْبُغَا الجوُباني أمير مجلس وقيّده وحبَسه، ثم أفرج عنه بعد أيام، وخلَع عليه بنيابة الكَرَك عوضاً عن تَمُرْدَاش القَشْتَمُريّ.

ثم في محرّم سنة ثمانٍ وثمانين وسبعمائة قَبَض الملك الظاهر على جماعة من المماليك السلطانية وضربهم بالمقارع لكلام بَلَغه عنهم أنهم آتّفقوا على الفَتْك به. ثمّ قَبَض سريعاً على الأمير تَمُرْبُغا الحاجب، وكان آتّفق مع هؤلاء المذكورين، وسَمَّره ومعه عشرة من المماليك المذكورين: [أَرْكَبَ][1] كلَّ مملوكَيْن على جَمَل، ظهرُ أحدِهما إلى ظهر الآخر، وأفرد تَمُربغا المذكور على جمل وحدَه، ثم وُسِّطوا الجميعُ، فكان هذا اليوم من أشنع الأيام، وكَثُرَ الكلامُ بسببهم في حقّ الملك الظاهر إلى الغاية.

وفي خامس عشرينه قَبَض السلطان على ستة عشر من مماليك الأمير الكبير

(١) زيادة عن السلوك.

أَيْتَمش ونُفُوا إلى الشام. ثمّ تَتَبّـع السلطان مَن بَقِي من المماليك الأشرفية فقبض على كثير منهم، وأخْرِجوا من القاهرة إلى عدّة جهات.

وفي يوم الخميس ثاني عشر شهر ربيـع الأوّل رسَمَ السلطان بالإفراج عن الأمير يَلْبغا الناصريّ نائب حلب كان، ونَقلَه من سجن الإسكندريّة إلى ثغر دِمْياط، وأذِن له أن يركب ويَتَنَزّه حيث شاء.

وفي شهر ربيـع الآخر غَضِب السلطان على مُوَفق الدين أبـي الفرج ناظر الجيش وضربه نحو مائة وأربعين عصاةً وأمر بحبسه.

وفي يوم الخميس رابـع عشر جُمـادَى الآخرة نُقِلت رِمَمُ أولاد السلطان الخمسة من مدافِنهم إلى القُبّة بالمدرسة الظاهريّة التي أنشأها الملك الظاهر بين القصرين، ونُقِلت أيضاً رِمَّةُ والد الملك الظاهر الأمير آنص عِشاءً، والأمراء مشاةً أمامَ نَعْشِه، حتى دُفِن أيضاً بالقُبّة المذكورة.

ثمّ في يوم الأربعاء حادي عشر [شهر رجب][1] نزل الأمير جاركس الخليليّ الأميرُ آخور إلى المدرسة الظاهريّة المقدّم ذكُرها بعد فراغها وهيأ بها الأطعمةَ والحلاوات والفواكه. ثمّ رَكِب السلطان من الغد في يوم الخميس ونزل من القلعة بأُمرائِه وخاصَّكِيَّتِه إلى المدرسة المذكورة، وقد آجتمـع القضاةُ وأعيانُ الدولة، فمدّ بين يديه سماطاً جليلاً، أوّله عند المحْراب وآخره عند البَحْرة التي بوسط المدرسة، وأكلَ السلطان والقضاةُ والأمراء والمماليكُ، ثمّ تناهبت الناس بقيَّتَهُ ثم مُدَّ سِماط الحَلَواتِ والفواكه، ومُلِئَت البحرة التي بصَحْن المدرسة من مشروب السُّكّر ثم بعد رفـع السماط أخلـع السلطان على الشيـخ علاء الدين [علي بن أحمد بن محمد][2] السِّيراميّ الحنفيّ، وقد آستدعاه السلطان من بلاد الشرق[3]، وآستقرّ مدرِّسَ الحنفيّة

(١) في الأصل: «يوم الأربعاء حادي عشره» والتصحيح والزيادة عن نزهة النفوس والسلوك.

(٢) زيادة عن نزهة النفوس.

(٣) عبارة نزهة النفوس أوضـح، وهي: «وكان قد حضر من بلاد المشرق إلى حلب، فأكب أهلها عليه للاشتغال بالعلم، فنشره فيهم واستفادوا منه. ثم قصد زيارة القدس الشريف فبلـغ السلطان خبره فحضر وصحبه في خدمته شيخنا بدر الدين العيني وقرره خادمه في الظاهرية.» ــ وللسيراميّ ترجمة وافية في إنباء الغمر: ٣٠٢/٢ وشذرات الذهب: ٣١٣/٦.

وشيخ الصوفيّة، وفَرش له الأميرُ جاركس الخليليُّ السَّجّادة بيده حتّى جَلَس عليها. ثم خَلَع السلطان على الأمير جاركس الخليليّ شاد عِمارَة المدرسة المذكورة وعلى المُعَلِّم شهاب الدين أحمد بن الطُّولُونيّ المهندس ورَكِبا فَرَسين بقُماش ذهب. ثم خلع السلطان على خمسة عشر نفراً من مماليك جاركس الخليليّ ممن باشروا العملَ مع أستاذهم وأنعم على كلّ منهم بخمسمائة درهم. ثم خَلَع السلطان على مُباشِري العِمَارة.

ولَمّا جلَس الشيخُ علاء الدين السّيراميّ على السِّجادة تكلَّم على قوله تعالى: ﴿قُلْ اللّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ﴾ الآية. ثم قرأ القارىء عشْراً من القرآن ودعا. وقام السلطان وركب بأمرائه وخاصَّكِيَّته وعاد إلى القلعة، بعد أن خَرَج من باب زَوِيلة، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة.

ثمّ بدا للسلطان بعد ذلك أن يَقْبِض على الأمير بَيْدَمُر الخُوارَزْمِيّ نائب الشام، فأرسل طاوُوساً[١] البريديّ للقبض عليه؛ ورَسَمَ للأمير تَمُربغا المَنْجكي أن يتوجّه على البريد لتقليد الأمير إشِقْتَمُر المارِدِينيّ عِوَضه بنيابة الشام، وكان إشقتمر بالقدُس بطّالاً. وقد تقدم أنّ إشِقتمر هذا وَلِي نيابَة حلب في أيّام السلطان حسن الأولى، ويلبغا أستاذُ بَرْقُوق يوم ذاك خَاصَّكيّ، فانظُر إلى تقلُّبات الدهر.

وفي يوم الجمعة عاشر شهر رمضان من سنة ثمانٍ وثمانين وسبعمائة أقِيمت الجُمُعةُ بالمدرسة الظاهريّة المذكورة وخطب بها جمال الدين محمود القَيْصرِي العجميّ المحتسب.

وحَجّ في هذه السنة الأمير جَاركس الخليليّ بتجمُّل كبير، وحَجّ من الأمراء كَمَشْبُغَا الخاصّكيّ الأشرفيّ ومحمد بن تَنْكِز بُغَا وجاركس المحموديّ[٢].

وفي يوم الاثنين [خامس][٣] عشرين شوّال آستدعَى السلطان زكريّا

---

(١) في نزهة النفوس: «طاس البريدي».

(٢) في السلوك: «المحمدي».

(٣) زيادة عن السلوك ونزهة النفوس.

آبن الخليفة المعتصم بالله أبي إسحاق إبراهيم ـ وإبراهيم المذكور لم يلِ الخلافة ـ آبن المُسْتَمْسِك بالله أبي عبد الله محمد ـ وكذلك المستمسك لم يَلِ الخلافة ـ آبن الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد العباسيّ وأعلمه السلطان أنّه يُريد أن يُنَصِّبَه في الخلافة بعد وفاة أخيه الواثق بالله عُمر.

ثم آستدعى السلطان القضاةَ والأمراءَ والأعيانَ، فلمّا اجتمعوا أظهر زكريّاءُ المذكورُ عَهْدَ عمِّه المعتضد له بالخلافة، فخَلع السلطان عليه خِلْعةً غير خِلْعة الخلافة ونزل إلى داره. فلمّا كان يومُ الخميس ثامن عشرينه طَلَعَ الخليفةُ زكرياءُ المذكور إلى القلعة وأحضر أعيانَ الأمراء والقضاةَ والشيخَ سراج الدين عمر البُلْقِينيّ، فبدأ البُلْقِينِي بالكلام مع السلطان في مبايعة زكريّاء على الخلافة فبايعه السلطان أوّلاً، ثم بايعه مَنْ حضر على مراتبهم، ونُعِتَ بالمستعصِم بالله، وخَلَع عليه خِلْعة الخلافة على العادة، ونزل إلى داره وبين يديه القضاةُ وأعيانُ الدولة.

ثم طلع زكرياء المذكور في يوم الاثنين ثاني[1] ذي القعدة وخَلَع عليه السلطان ثانياً بنظر المشهد النفيسيّ على عادة مَن كان قبله من الخلفاء، ولم تكن هذه العادة قديماً، بل حدثت في هذه السنين.

وفي خامس عشرين ذي الحجة قَدِم مُبَشِّر الحاجّ السَّيْفِيّ بُطَا الخاصَّكيّ وأخبر أنّ الأميرَ آقبغا المارِدينيّ أمير الحاجّ لمّا قَدِم مكّة خرج الشريف محمد بن أحمد بن عَجْلان أمير مكّة لتلقيه على العادة ونزل وقَبّل الأرض ثم قَبّل خُفّ جَمَل المَحْمِل. وعندما آنحنى وثب عليه فِدَاوِيّان، ضربه أحدُهما بخَنْجَر في عُنُقه وهما يقولان: «غريم السلطان» فخرّ ميتاً وتَمّ نهاره مُلْقَى حتى حَمَله أهلُه ووارَوْه. وكان كُبَيْش على بعُد، فقتَلَ الفِداوِيَّةُ رجلاً آخر يَظنّونه كُبَيْشاً. وأقام أميرُ الحاجّ لابسَ السلاح سبعة أيام خوفاً من الفتنة، فلم يتحرك أحدٌ. ثم خلع أميرُ الحاجّ على الشريف عِنان باستقراره أميرَ مكّة عوضاً عن محمد المذكور وتسلّمها.

ثمّ في تاسع عشرين ذي الحِجة قدمت رسلُ الحبشة بكتاب ملِكهم

(١) في السلوك ونزهة النفوس «ثالث ذي القعدة»

الحَطّي[(١)] واسمه داود بن سيف[(٢)] أَرْعَد ومعهم هديّة على عشرين جَمَلاً، فيها من طرائف بلادهم، من جُملتها قُدور قد مُلِئت حمّصاً صُنِع من ذهب إذا رآه الشخص يظنّه حمصاً، وغير ذلك.

ثم في يوم السبت سابع عشر صَفَر من سنة تسع وثمانين وسبعمائة قَدِم الأمير أَلْطُنْبغا الجُوبانيّ نائب الكَرَك بآستدعاء، فأَخْلع عليه السلطان بآستقراره في نيابة دِمشق عوضاً عن إشقْتَمُر المارِدينيّ، وعُزِل إشقتمر ولم تَكْمُل ولايتُه على دِمَشق عشرة أشهر. وأقام ألطنبغا الجوبانيّ بالقاهرة ثلاثة أيام، وسافر في يوم تاسع عشره بعدما أنعم عليه الملك الظاهر بمبلغ ثلاثمائة أَلف درهم فِضّة وفَرَس بسرج ذهب وكُنْبُوش زَرْكش، وأرسل إليه الأمير أَيْتَمش بمائة ألف درهم وعِدّة بُقَج ثياب. وآستقرّ مُسَفِّره الأمير قَرْقُماس الظاهريّ، وفرج الجُوبانيّ من مصر بتجمُّل عظيم. ثم رُسِم بآستقرار الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك المهْمندار في نيابة حَمَاة عوضاً عن الأمير سُودون العثماني، وآستقرّ سودون العثماني على إقطاع محمد بن المهْمندار المذكور بحلب.

وفي آخر جُمَادى الآخرة من السنة وهي سنة تسع وثمانين وَرَد الخبرُ على السلطان بأن تَيْمُورلَنْك صاحب بلاد العجم كَبَس الأمير قرا محمد صاحب مدينة تِبْرِيز وكَسَره، ففَرَّ منه قرا محمد في نحو مائتي فارس وتوجّه بهم إلى جهة مَلَطْيَةَ ونزل هناك ونزل تَيْمورلَنْك على آمد. فاستدعى السلطان القضاةَ والفقهاءَ والأمراءَ وتحدّث معهم في أخذ الأوقاف[(٣)] من البلاد بسبب ضَعفْ عسكر مصر، فكَثُر الكلام في ذلك [وآل الأمر إلى أنه يأخذ متحصل الأوقاف لسنة][(٤)] وصَمَّمَ الملك الظاهرُ

---

(١) الحطّيّ: لقب تلقّب به ملوك الحبشة، أو على وجه التدقيق صاحب إقليم أمحرا الذي له الحكم على أكثر بلاد الحبشة.

(٢) كذا أيضاً في السلوك. وفي نزهة النفوس: «يوسف».

(٣) أشار المقريزي إلى أن السلطان طلب أخذ الأوقاف من الأراضي الخراجية. واتفق معه صاحب نزهة النفوس على أن الأمر آل إلى أن يأخذ متحصّل الأوقاف لسنة واحدة.

(٤) زيادة عن السلوك.

على إخراج الجميع للجند، ثم رَجَع عن ذلك ورسم بتجهيز أربعة أمراء من أمراء الألوف بالديار المصريّة وهم: الأمير أَلْطُنْبُغا المُعَلّم أميرُ سلاح، والأمير قَرْدَم الحسَنَي رأس نوبة النُّوب، والأمير يُونُس النَّوْرُوزِيّ الدوادار الكبير، والأمير سُودون باق، وسبعة أمراء أُخَر من أمراء الطبلخانات، وعَيَّن معهم من أجناد الحَلْقة ثلاثمائة فارس. فتجهّز الجميعُ وخرجوا من القاهرة في أوّل شهر رجب، وساروا إلى حلب ونائبها يوم ذاك سودون المظفَّرِي؛ وقد وصل الخبرُ بأن قرا محمداً واقع ابن تيمورلنك وكسره ورجع إلى بلاده.

وبعد خروج العسكر آستدعى السلطان في سادس[1] عشرين شعبان من سنة تسع وثمانين المذكورة الشيخَ ناصرَ الدين آبن بنت الميلق ووَلّاه قضاءَ الشافعيّة بالديار المصرية بعد عزل القاضي بدر الدين محمد بن أبي البقاء عنها، بعدما تمنَّع ابن الميلق المذكور من قبول القضاء تمنُّعاً زائداً وصلى ركعتي الاستخارة حتى أذعن، فألبسه السلطان الملك الظاهر تشريف القضاء بيده، وأخذ طيلسانه يتبرّك به. ونَزَل [الشيخ ناصر الدين] وبين يديه عظماءُ الدولة إلى المدرسة الصالحية، فداخل أربابَ الدولة بولايته خوفٌ ووهمٌ، وظنُّوا أنه يَحِمُل الناس على مَحْض الحق، وأنه يسير على طريق السَّلَف من القضاة. قال الشيخ تقيّ الدين المَقْريزيّ، رحمه الله: «لِمَا أَلِفُوه من تَشدُّقه في وعظه، وتفخُّمه في مَنْطِقه، وإعلانه في التَّنكير على الكافة، ووقيعته في القُضاة، وآشتماله على لُبْس المتوسِّط من الخشن، ومَعِيبه على أهل الترف».

«وكان أوّل ما بدأ به أن عَزَل قضاة مصر كُلهم من العَرِيش إلى أُسْوان. وبعد يومين تكلّم معه الحاجُّ مُفْلِح مولى القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السرّ في إعادة بعض مَنْ عزله من القضاة، فأعاده، فآنحلّ ما كان معقوداً بالقلوب من مهابته. ثمّ قَلَع زِيَّه الذي كان يَلْبَسُه ولَبِس الشاش الكبيرَ الغالي الثمن ونحوه، وترفَّعَ في مقاله وفعاله، حتى كاد يصعَد الجَوّ، وشحّ في العطاء، ولاذَ به جماعةٌ غير محُبَّبين

(١) في السلوك ونزهة النفوس: «رابع شعبان».

إلى الناس، فآنطلقت ألسنةُ الكافَّة بالوقيعة في عِرْضه، واختلقوا عليه ما ليس فيه». انتهى كلام المقريزيّ باختصار.

قلت: كل ذلك والملك الظاهر لا يسمع فيه قولَ قائل، حتى كانت وقعة الناصريّ ومِنْطاش مع الملك الظاهر برقوق وحُبِس الملك الظاهرُ بالكَرَك، وكان هو قاضياً يومئذ، فَوَقع في حقّ الظاهر وأساء القولَ فيه. فبلغ الظاهرَ ذلك قبل ذهابه إلى الكرك وهو بسجن القلعة فأسرّها في نفسه على ما سنذكره في سلطنة الملك الظاهر الثانية إن شاء الله تعالى.

ثمّ ورد الخبر على السلطان الظاهر بأن العسكر المجرّد من الديار المصرية عاد إلى حلب؛ وكان تَوَجّه نحو ديار بَكْر صحبةَ نُوّاب البلاد الشامية وعاد، وكان الأمير أَلْطُنْبُغا الجُوبانيّ نائب الشام مقدَّم العساكر، وخرج بثقل عظيم وزدخاناه هائلة، جدّدها بدمشق حتى إنه رَسَم لفضلاء دمشق أن يَنْظُموا له ما يُنْقَش على أسِنّة الرّماح، فنظَم له القاضي فتح الدين محمد بن الشهيد كاتب سِرّ دمشق: [البسيط]

إذا الغُبارُ علا في الْجَوِّ عِثْيَرُه | وأظلم الجوُّ ما للشمسِ أنوارُ
هذا سِناني نجمٌ يُستضاءُ بهِ | كأنّني عَلَمٌ فِي رأسِهِ نارُ
وآلسيفُ إن نام مِلْءَ الجَفْنِ فِي غُلُفٍ | فإنني بارزٌ للحربِ خَطّارُ
إنّ الرماح لأغصانٌ وليس لَها | سوى آلنجومِ على العِيدانِ أزهارُ

ونظم القاضي صدر الدين عليّ بن الآدميّ الدمشقيّ الحنفي في المعنى فقال: [الكامل]

النصرُ مقرونٌ بضَرْبِ أسِنةٍ | لَمعَانُها كَوَمِيضِ بَرْقٍ يُشرِقُ
سُبِكتْ لِتَسْبِك كلَّ خَصْمٍ مارِدٍ | وتَطرّقَتْ لمعانِدٍ يَتَطّرّق
زُرْق تفوقُ البِيضَ فِي الهَيْجاءِ إذْ | يَحْمرُّ من دمِهِ العدوُّ آلأزرق
يَنْسُجْنَ يومَ آلحربِ كلَّ كتِيبة | تحتَ آلغُبارِ فنصرُهنّ محُقّق

ونظم الشيخ شمس الدين محمد المزيّن الدّمشقيّ في المعنى وأجاد إلى الغاية: [الكامل]

أنا أسمرٌ وآلرايةُ آلبيضاءُ لِي … لا للسيوفِ وسَلْ مِنَ آلشُّجعانِ
لم يحلُ لي عيشُ العُداةِ لأنني … نُوديتُ يومَ الجَمْعِ بالمُرّانِ
وإذا تَغَاتَمتِ(١) الكُماةُ بِجَحْفَلٍ … كَلَّمتُهم فِيهِ بِكلِّ لِسانِ
فتخالهم غنماً تُساقُ إلى الرّدى … قَهْراً لِمُعظَمِ سَطْوةِ آلجُوباني

ثمّ في شوّال خَرَج السلطان من القاهرة إلى سِر ياقُوس على العادة في كل سنة، وآسْتدْعى به بالأمير يَلبُغا الناصريّ من ثَغْر دِمياط، فوصل إلى سِرياقوس في ثالث عشر شوّال وقبّل الأرض بين يدي السلطان، فأكرمه السلطان وأنعم عليه بمائة فَرَس ومائة جَمَل وسلاح كثير [ومال](٢) وثياب وأشياء غير ذلك، قيمة ذلك كله خمسمائة ألف درهم فضة. وأهدَى إليه سائرُ الأمراء على العادة، كل واحد على قَدْر حاله.

ثم عاد السلطان من سرياقوس في أوّل ذي القَعْدة، وخَلَع على الأمير يلبغا الناصريّ المذكور في خامس ذي القعدة من سنة تسع وثمانين المذكورة باستقراره في نيابة حلب على عادته، عوضاً عن سُودون المظفريّ بحكم استقرار سُودون المظفريّ أتابك حلب، وأمرهُ بالتجهيز؛ وهذه ولاية الناصريّ الثالثة على حلب. فأصلح الأمير يلبغا الناصريّ أمَره وتهيأ للسفر، وخرج من ثامن ذي القعدة إلى الرَّيدانيّة، بعد أن أخلع السلطان عليه خِلْعة السفر. وسافر من الريدانية في تاسعه بتجمُّل عظيم وبَرْك هائل، ومُسَفِّرُه الأميرُ جُمَق ابن الأمير أيتَمُش البَجَاسيّ. وبعد خروجه بثلاثة أيام قدِم البريدُ من البلاد الشامية بأنّ تَمُرْبُغا الأفضلي الأشرفيّ المدعوّ مِنْطاش مَلَطْيَة خرج عن الطاعة، ووافقه القاضي برهان الدين أحمد صاحب سيواس، وقَرَا محمد التُّرْكُماني، ونائب البيرة، ويلبغا المَنْجَكيّ، وعدّة كبيرة من خُشداشيّة منطاش من المماليك الأشرفية، وأنه آنضم عليه جماعة كبيرة من التُّركمان فتشوّش السلطان في الباطن ولم يُظْهِر ذلك، ونَدِم على توليته يلبغا الناصريّ على نيابة حلب، غيرَ أنه لم يسعْه إلا السُّكات.

(١) أي لم تفصح. والغتمة: العجمة.
(٢) زيادة عن السلوك.

ثم رَكِب السلطان الملك الظاهر في ثاني يوم جاء الخبرُ بعصيان منطاش وعدّى البحر إلى برّ الجيزة، وتصيَّد وعاد في سادس عشرينه. وبعد عوده بأيام وصل قاصدُ الأمير تمربغا الأفضلي الأشرفيّ المدعوّ منطاش نائب ملطية يخبر أنه ما نافق، وأنه باقٍ على طاعة السلطان. فأخذ السلطانُ في أخبار القاصد وأَعْطَى، وبينما هو في ذلك قَدِم البريدُ من حلب في إثره يخبر السلطان بأنّ منطاش المذكور عاصٍ، وأنه ما أرسل يقول إنه باق على الطاعَة إلاّ ليدفع عن نفسه حتى يخرجَ فَصْلُ الشتاء ويدخلَ فصلُ الربيع وتذوبَ الثلوج، فسير السلطان السيفيّ مَلِكْتَمُر الدوادار بعشرة الآف دينار إلى الأمراء المجرّدين قبل تاريخه توسِعة لهم، وأمره في الباطن بالفَحْص عن أخبار مِنْطاش وحقيقة أمره.

وبعد خروج مَلِكْتَمُر فشا الطاعون بالقاهرة ونواحيها في شهر ربيع الأوّل من سنة تسعين وسبعمائة، وآشْتغل الناس بمرضاهم وأمواتهم عن غيره.

ثمّ أَخلع السلطان على الأمير أَيْدكَار العُمَريّ اليَلبغاوِيّ، الحاجب الثاني وأحد مقدّمي الألوف، بآستقراره حاجب الحجاب بالديار المصرية، عوضاً عن قُطْلُوبغا الكُوكائيّ بعد شغورها عنه أربع سنين، وأُضِيف إليه نظرُ خانقاة شيخون وآستقرّ الأمير زين الدين أبو بكر بن سُنقر عوضه حاجباً ثانياً، حاجب مَيْسرة بتقدمة ألف.

ثم في حادي عشرين جُمادَى الأولى من السنة قَدِم صَراي تَمُر دوادار الأمير يُونُس النّوْرُوزِيّ الدوادار، ومملوك نائب حلب الأمير يَلْبُغا الناصريّ يُخْبِران بأنّ العسكر توجّه إلى سِيواس وقاتلوا عسكَرها، وقد آستنجد أهلُ سيواس بالتتر، فأتاهم من التتر نحو الستين ألفاً فحاربهم العسكر المصريّ والحلبيّ يوماً كاملاً حتى هزموهم وحصروا سيواس بعدما قُتِل كثير من الفريقين وجُرِح معظمُهم، وأنّ الأقواتَ عندهم عزيزة. فجهّز السلطان للعسكر المذكور خمسين ألفَ دينار مصرية وشَكَرهم. وسار بالذهب مَلِكْتَمُر الدوادار ثانياً بعد قدومه مصر بأيام قليلة.

وكان خروجُ مَلِكْتَمُر في هذه المرّة الثانية بالذهب في سابع عشرين جمادى

الآخرة[١]، هذا ما أخبره صراي تَمُر دوادار ثاني يُونُس الدَّوادَار.

وأمّا ما وَقَـع من بعده هناك فإنّ العسكر تحرّك إلى الرحيل عن سيواس لطُول مُكْثِهم، وعندما ساروا هجم عليهم التتر من خلفهم، فآحترز الأمير يَلبغا الناصريّ نائب حلب إلى جهةٍ حتى صار خلفَهم، ثم طَرَقَهم بمن معه ووضـع السيفَ فيهم، فقَتَل منهم خلائِقَ كثيرةً وأَسَرَ منهم نحوَ الألف وأخذ منهم نحو عشرة الآف فرس وعاد العسكر سالماً إلى حلب؛ فقَدِم هذا الخبر الثاني أيضاً على يد بعض مماليك الأمير يُونُس الدوادار، فَسُرّ السلطان بذلك ودُقَّت البشائر بالديار المصرية. ورَسَم السلطان بعَوْد العسكر المصريّ إلى نحو الديار المصرية، فعادوا إليها في ثالث شعبان من سنة تسعين وسبعمائة، فكانت غيبتُهم عن القاهرة سنة وعدّة أيام. ولمّا وصلوا وطلعوا إلى القلعة أخلـع عليهم السلطان الخِلَـع الهائلةَ وشكرهم ونزلوا إلى دورهم، وكثُرت التهاني لمجيئهم.

ثمّ في خامس عشر شعبان المذكور طلبَ السلطان الأميرَ الطواشي بهَادُر مقدّمَ المماليك السلطانية، فلم يَجِدْه بالقلعة ثم أحْضِر سكراناً من بيت على بحر النيل، فَغَضِب السلطان عليه ونَفَاه إلى صَفَد على إمرة عشرة بها وأَخْلَـعَ على الطواشي شمس الدين صَواب السَّعديّ المعروف بشَنْكل الأسود[٢] بتقدمة المماليك السلطانية عوضاً عن بهادر المذكور، وآستقرّ الطواشي سعد الدين الشَّرَفيّ في نيابة المقدّم عوضاً عن شَنْكل المذكور.

وحـجّ في هذه السنة أيضاً الأميرُ جَاركس الخليليّ الأمير آخور الكبير أمير حاجّ الأوّل. وكان أميرَ حاجّ المَحْمل الأمير آقْبُغا المَارِدينيّ، وخرج الحـجّ من مصر في عاشر شوّال.

وفي أثناء ذلك قَدِم الخبرُ بعصيان الأمير أَلْطُنْبغا الجُوبانيّ نائب الشام وأنه ضرب الأميرَ طُرُنْطَاي حاجب حجّاب دمَشق، وآستكثر من آستخدام المماليك.

---

(١) السياق يقتضي أنه خرج في سابع عشرين جمادى الأولى.

(٢) الأسود، جمع أسد. هكذا ضبطت في نزهة النفوس والابدان.

وشاع ذلك بالقاهرة وكثُرت القالة بين الناس بهذا الخبر. فلمّا بلغ الأمير ألْطُنبغا الجُوبانيّ ذلك أرسل آستأذن السلطان في الحضور إلى الديار المصرية، فأذن له السلطان في ذلك، وفي ظنّ كلّ أحد أنه لم يحضُر فعندما جاءه الإذن ركب البريدَ من دمَشق في خواصه وسار حتى نزل سِرْيَاقُوس خارجَ القاهرة في ليلة الخميس سابع عشرين شوّال من سنة تسعين المذكورة وبلغ السلطان ذلك فأرسل إليه الأمير فارساً الصرَّغتمشيّ أميرَ جاندار، فقَبَض عليه من سِرْياقوس وقيّده وسيَّره إلى سجن الإسكندرية صحبةَ الأمير أُلجِيْبُغا الجماليّ الدوادار.

ثمّ رَسَم السلطان بأنّ طُرُنْطاي حاجب حُجاب دِمَشق يستقرّ في نيابة دمشق عوضاً عن الأمير ألْطنبغا الجوبانيّ المذكور، وحَمَل إليه التشريفَ والتقليدَ الأميرُ سُودونُ الطُّرُنْطائيّ، فعظُم مَسْكُ الأمير ألطنبغا الجوبانيّ على الناس كونه ظهر للسلطان براءتُه ممّا نقلَه عنه أعداؤه وكونه من أكابر اليلبغاويّة، ولم يَسَعْهم إلا السكات لفوات الأمر.

ثم كتبَ السلطانُ كتاباً لأمراء طَرَابُلس وأرسله على يد بعض خواصِّه بالقَبْض على الأمير كَمَشْبُغا الحَمَوِيّ اليَلْبُغاوِيّ نائب طرابُلُس، فَقَدِم سيفُه في عاشر ذي القعدة، فتأكَّد تشويش الناس بَمْسك كَمَشْبُغا أيضاً، فإنه أكبر مماليك يَلبغا العمريّ، وممنّ صار في أيام أستاذه يَلْبُغا أمير طبلخاناه وتوجّه الأميرُ شَيْخ الصَّفَوِيّ بتقليد الأمير أَسَنْدَمر المحمَّديّ حاجب حُجَّاب طَرَابُلُس بنيابة طرابلس عوضاً عن كمشبغا الحَمَوِيّ المقدّم ذِكْرُه.

ثم نَفَى السلطان الملكُ الظاهرُ الأمير كَمَشبُغَا الخاصَّكيّ الأشرفيّ، أحد أمراء الطبلخانات ورأسَ نَوْبَة، إلى طرابُلس، فسار من دِمْياط، لأنّه كان في اليَزَك[1] المذكور.

ثمّ قَدِم البريد بعشرين سَيْفاً من سُيوف الأمراء الذين قُبِض عليهم من أمراء

(١) اليزك: والجمع أيزاك، وهي طلائع الجند (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٦٤).

البلاد الشامية. ثم كَتَب السلطان بالقَبْض على الأمراء البَطَّالينَ ببلاد الشام جميعاً ثم أعيد سُودون العثمانيّ إلى نيابة حَمَاة بحكم خروج كُشْلِي منها إلى نيابة مَلَطْيَة، عِوضاً عن منطاش؛ وكان كُشْلِي وَلِي نيابة حَمَاة قبل تاريخه بمدّة يسيرة عوضاً عن ابن المهمندار.

ثم في ثاني ذي القَعْدَة قَدِمَت رُسُلُ قرا محمد وأخبروا أنه أخذَ مدينةَ تبريز، وضَرَب بها السِّكَّة بآسم السلطان الملك الظاهر برقوق، ودعا له على منابرها وسيَّر دنانيرَ ودَرَاهِم، عليها آسم السلطان، وسأل أن يكون نائباً بها عن السلطان، فأُجِيب بالشكر والثناء. هذا والخواطرُ قد نَفَرت من الملك الظاهر لكثرة قَبْضه على الأمراء[1] من غير مُوجِب وتخَوَّف كلُّ أحد منه على نفسه حتى خواصُّه، وكَثُرَ تَخَيُّل الأمراء منه. وبينما هم في ذلك أُشِيع بالديار المصريّة بعِصْيان الأمير يَلْبُغا الناصريّ نائب حلب، وكثر هذا الخبر في محرّم سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وسبب ذلك أنه وَقَع بين الأمير يلبغا الناصريّ وبين سُودُون المظفّريّ أتابك حلب المعزول عن نيابة حلب قبل تاريخه، وكاتَب كلُّ منهما في الآخر، فآحتار السلطانُ بينهما وقد قوي تخوّفه من الناصريّ.

قال المَقْريزيّ ـ رحمه الله ـ: «وكان أَجْرَى الله سبحانَه وتعالى على أَلْسنَة العامّة: «من غَلَبْ، صَاحِبْ حَلَبْ» حتى لا يكاد صغيرٌ ولا كبيرٌ إلا يقول ذلك، حتى كان من أمر الناصريّ نائب حلب ما كان». اِنتهى كلام المقريزيّ.

ولمّا شاع ذلك جمعَ السلطان الأمراء والخاصَّكيّة في يوم الأحد خامس صفر بالمَيْدان من تحت القلعة وشَرِب معهم القِمِز[2]، وقرّر لشربه معهم يَوْمَي الأحد والأربعاء، يروم بذلك أخذ خواطِرهم.

---

(١) لقد بالـغ برقوق في اضطهاد الأمراء الأتراك اليلبغاوية والأتراك الأشرفية على حدّ سواء، ذلك في سياق اندفاعه بحركة الدولة، مما مهّد لتحالف يلبغا ومنطاش اللذين استطاعا أن يجمعا حولهما عدداً كبيراً من الأمراء الأتراك المنفيين إلى بلاد الشام وأعداداً غفيرة من العرب والتركمان. وبذلك قادا ثورة عارمة هزمت برقوق وأطاحت به.

(٢) القمز: نبيذ يعمل من لبن الخيل.

ثمّ في عاشره بعث السلطان هديَّة للأمير يَلْبُغا الناصريّ نائب حلب فيها عِدّة خيول بقُماش ذَهب [وَقَباء](١)، وآستدعاه ليحضُر ليعْمَلَ معه مَشُورة في أمر مِنْطاش فلمّا أتاه رسول السلطان بالحضور إلى الديار المصرية، خَشِي أن يفعل به كما فَعَل بالأمير أَلْطُنُبغا الجُوبانيّ نائب الشام من مَسْكه وحبسه بالإسكندرية، فكَتَب يعتذر عن الحضور إلى حضرة السلطان بحركة التُّرْكُمان وعِصْيان مِنْطاش، وأنه يتخوّف على البلاد الحلبية منهم، ومهما كان للسلطان من حاجة يُرسِل يعرّفه ليقوم بقضائها وعاد رسول السلطان إلى مصر بهذا الجواب، فلم يقبل السلطان ذلك منه في الباطن، وقَبِله في الظاهر، وقد كَثُر تخيُّله منه وأخذ في التدبير على الأمير يلبغا الناصريّ مع خواصِّه، حتى آقتضى رَأيُ الجميع على إرسال تُلَكْتَمر(٢) الدوادار إلى حلب بحِيلة دَبَّرُوها؛ فَخَرج تُلكتمر المحمّديّ الدوادار المذكور وعلى يده مثالان(٣) ليلبغا الناصريّ نائب حلب ولسودون المظفريّ أتابك حلب المقدّم ذكره أن يصطلحا بحضرة الأمراء والقضاة والأعيان، وسيَّر معه خلعتين يلبسانها بعد صلحهما. وحمَّل السلطان في الباطن مع تلكتمر عدّة مطالعات إلى سودون المظفريّ وغيره من أمراء حلب وأرباب وظائفها بالقبض على الناصريّ وقتله إن آمتنع من الصلح. وكان مملوك الناصريّ قد تأخر بالقاهرة عن السفر لحلب ليفرّق كتباً من أستاذه على أمراء مصر، يدعوهم فيها إلى مُوافقته على الخروج على السلطان. وأخّر السلطان أيضاً جواب الناصريّ الوارد على يد مملوكه المذكور عامداً حتى يسبِقَه تُلَكْتَمر الدوادار إلى حلب. وكان مملوك الناصريّ المذكور يَقِظاً حاذِقاً، فبلغه ما على يد تُلَكْتَمُر الدوادار من المطالعات بالقبض على أُستاذه يَلبُغا الناصريّ، وعَلِم أنه عُوِّق حتى سافر تُلَكْتَمر. ثم أُعْطِي الجواب، فأخذه وخرج من مصر في يومه، وسار مسرعاً، وجدَّ في السَّوْق حتى سبق تُلَكْتَمر الدوادار إلى حلب، وعرّف أستاذه بخبر تُلَكْتَمر

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في الأصل ونزهة النفوس: «ملكتمر». وما أثبتناه عن السلوك.

(٣) المثال في الأصل هوما يكتب من ديوان الجيش في أمر الإقطاع، ويكتبه ناظر الجيش. (صبح الأعشى: ١٥٣/١٣) والمثال هنا بمعنى الكتاب العادي.

كلّه سِراً، فأخذ الناصريّ في الحذر. ويقال: إنّ تُلْكتمر الدَّوادار كان بينه وبين الشيخ حسن رأس نَوْبة الناصريّ مصاهرةٌ، فلما قَرُب من حلب بعث يُخْبِرُ الشيخ حسناً المذكور بما أتَى فيه؛ فعلى كل حال آحترز الناصريّ. وهذا الخبر الثاني يَبعُد، والأوّل أقربُ وأقوى عندي من كلّ وجه[١].

ثُمّ لمّا تحقّق الناصريّ ما جاء فيه تُلَكْتَمر احترز على نفسه وتعبّأ فلما قرب تَلَكْتَمُر من حلب، خرج الأمير يلبغا الناصريّ من حلب ولاقاه على العادة مُظْهِراً لطاعة السلطان؛ وقبّل الأرض، وأخذ منه مِثاله، وعاد به إلى دار السعادة[٢] بحلب، وقد اجتمع الأمراء والقُضَاة وغيرهُم لسماع مرسوم السلطان، وتأخّرَ الأمير سُودون المظفّري أتَابَك حلب عن الحضور، ولم يُعجِبْه ما فعله الملك الظّاهر برقوق من حضوره[٣] عند الناصرِيّ لمعرفته بقوّة الناصريّ وكثرة مماليكه فأرسل له الناصِريّ غيَر قاصد يستعجله للحضور، فلم يجد بدّاً من الحضور، وحضر وهو لابس آلة الحرب من تحت قماشه خوفاً على نفسه من الناصريّ وحواشيه. فعندما دخل سودون المظفّريّ إلى دِهْليز دار السعّادة، جَسَّ قازان اليَرْقَشِيّ أمير آخور الناصريّ كَتِفَهُ فوجد السلاح، فقال: «يا أميرا الذي يجيءُ للصلح يدخل دار السعادة وعليه السلاح وآلة الحرب!» فسبّه سُودون المظفّريّ، فَسلّ قازان سيفه وضربه به، وأخذت سودونَ المظفّريَّ السّيوفُ من كل جانب من مماليك الناصريّ الذين كان رَتَّبهَم لهذا الأمر، فَقُتِل سُودون المظفريّ بعد أن جَرّدت مماليكه أيضاً سُيوفهم وقاتلوا مماليك الناصريّ ساعة هيِّنَةً، وقُتِل من الفريقين أربعة أنفس لا غَير، وثارت الفتنة. ففي الحال قبض الناصريّ على حاجب حجّاب حلب وعلى أولاد المِهْمَنْدار، وكانا مُقَدّمَيْ ألوف بحلب، وعلى عدّة أمراء أُخَر ممن يخشاهم ويخاف عاقبتهم. ثم ركب الناصريّ

---

(١) ذكر الجوهري في نزهة النفوس أن تلكتمر كان في الباطن مع يلبغا الناصري، وأنه هو الذي أبلغ الشيخ حسن بما جاء من أجله في الباطن، وطلب منه إخبار الناصري بذلك. (نزهة النفوس: ١/١٨٥).

(٢) كان هذا الاسم يطلق على مقر إقامة الوالي في حلب ودمشق.

(٣) المراد أنه لم يعجبه ما فعل الظاهر برقوق من استدعائه إلى عند الناصري للمصالحة.

إلى القلعة وتسلّمها، وآستدعى التركمان والعربان، وكتب إلى تَمُربُغا الأفضليّ الأشرفيّ المعروف بمنطاش يدعوه إلى موافَقته، فَسُرّ منطاش بذلك وقَدِم عليه بعد أيام ودخل تحت طاعته. وكان الناصريّ قد أبَاد مِنْطاش وقاتَله، منذُ خرَج عن طاعَته وطاعة السلطان غير مرّة. وصار منطاش من جُملة أصحابه. وتعاضدَ الأشرفيّةُ واليلبُغاويّة هم الأكثر، فإنّ الناصريّ من كبار اليلبغاويّة ومنطاش من كِبار الأشرفيّة؛ هذا مع ما انضم على الناصريّ من أكابر الأمراءِ على ما سيأتي ذكره.

وعاد تَلِكْتَمُر الدَّوادار بهذا الخبر في خامس عشر صفر، فكان عليه خبرٌ غير صالح. فكتب السّلطان في الحال إلى الأمير إينال اليوسفيّ أتابَك دِمَشق ــ والمعزول قبل تاريخه عن نيابة حلب ــ بنيابة حلب ثانياً، وجهّز إليه التّشريف والتّقليد في ثامن عشر صفر المذكور من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وكان إينال اليوسفيّ ممنِ آنْحرف على السلطان في الباطن من أيام ركوبه عليه، قبل أن يتسَلْطن، وقَبَض [السلطان] عليه وحبسه سنتين، ثم أطلقه على إمرة بدِمَشق، ثم ولّاه بعض البلاد الشامية وهي نيابة طرابُلس، ثم نقله إلى نيابة حلب، فدام بها سنين، ثم عزله عنها بالأمير يَلْبُغا الناصريّ وجعله أتابك دِمَشق، فصار في نفسه حزازة من هذا كله على ما سيأتي ذكُره.

ثمّ إن السلطان في ثامن عشر صفر المذكور طَلَب الأمراء [والقضاة][1] إلى القلعة وكلمهم في أمر الناصريّ وعصيانه وآستشارهم في أمره، فوقع الاتفاقُ على خروج تجريدة لقتاله. وحلّف [السلطان] الأمراء على طاعته، ثم خرج إلى القصر الأوّل وحلّف أكابر المماليك السلطانيّة.

ثم في تاسع عشره ضُرِبت خَيْمة كبيرة بالمِيْدان من تحت القلعة، وضُرب بجانبها عدّةُ صواوين برَسم الأمراء. ونزل السلطان إلى الخيْمة المذكورة وحلّف بها سائر الأمراء وأعيان المماليك السلطانيّة بل غالبهم. ثم مدّ لهم سِمَاطاً جليلاً فأكلوا وآنفضّوا.

---

(۱) زيادة عن نزهة النفوس.

ثم في رابع عشرينه قدم البريدُ من دِمَشق بأنّ الأمير قَرَابُغا فرج الله والأمير بُزْلار العُمَريّ الناصريّ والأمير دِمرداش اليوسفيّ والأمير كَمشبُغا الخاصَّكي الأشرفِيّ وآقبُغا قَبْجَق[١] آجتمع معهم عدّة كثيرة من المماليك المنفِيِّين بطرابُلس ووثبوا على نائبها الأمير أَسَندمر المحّمديّ وقبضوا[٢] عليه، وقتلوا من أمراء طرابُلس الأمير صلاح الدين خليل بن سَنْجَر وآبنَه، وقبضوا على جماعة كبيرةٍ من أمراء طرابُلس، ثم دخل الجميع في طاعة الناصريّ، وكاتبوه بذلك وملكوا مدينة طرابُلس.

وفي يوم وصولِ هذا الخبر على السلطان عَرَضَ السلطان المماليك السلطانيّة، وعيّن منهم أربعمائة وثَلاثين مملوكاً من المماليك السلطانيّة للسفر، وعَيّن خمسة من أمراء الألوف بديار مصر وهم: الأمير الكبير أَيْتَمُش البَجَاسِيّ، والأمير جَارَكْس الخليليّ الأمير آخور الكبير، والأمير شهاب الدين أحمد بن يلبغا أمير مجلس، والأمير يُونُس النَّوْروزِيّ الدّوادار الكبير، والأمير أيْدَكار حاجب الحجاب. وعَيّن من أمراء الطبلخاناه سبعة وهم: فارس الصّرغَتْمشيّ، وبكْلَمُش العلائيّ رأس نوبة، وجارَكس المحمّدي، وشاهين الصَّرْغَتْمَشي، وآقبُغا الصغير السلطانيّ، وإينال الجارَكْسيّ أمير آخور، وقُدَيْد القَلَمْطاويّ. [وعيّن] من أمراء العشرات جماعة كبيرة.

ثمّ أرسل السلطان للأمير أيْتمش برسم النفقة مائتي ألف درهم فضة وعشْرة الآف دينار ذهباً مصرياً. ثم أرسل إلى كل من أمراء الألوف ممن عُيِّن للسفر مائة ألف درهم وخمسة الآف دينار، ما خلا أيْدَكار حاجب الحجاب فإنه حَمَل إليه مبلغ ستين ألف درهم وألفاً وأربعمائة دينار.

ثم في سادس عشرين صفر المذكور قدم الخبر من الشّام بأنّ مماليك الأمير سُودون العثمانيّ نائب حَماة آتّفقوا على قتله، ففرّ منهم إلى دِمَشق، وأنّ الأمير بيرَم العِزّيّ حاجب حُجاب حَماة سلّم حَماة إلى الأمير يَلْبُغا الناصريّ ودخل تحت طاعته فعظُم هذا الخبر أيضاً على السلطان حتى كاد يَهْلِك، وعرض المماليك ثانياً، وعين

---

(١) في السلوك: «جنجق» وفي نزهة النفوس: «آقبغا ججق».
(٢) كذا أيضاً في المصادر الأخرى التي بين أيدينا. وانفردت نزهة النفوس بالقول إنهم قتلوه.

منهم أربعة وسبعين نفراً لتَتِمّة خمسمائة[١] مملوك.

قلت: ولهذا تُعرف هذه الواقِعَة بوقْعة الخمسمائة، وبوقعة شَقْحَب، وبوقعةِ الناصريّ ومنطاش، اِنتهى.

وفي يوم الجمعة سابع عشرين صفر رَسَم السلطان للأمير بَجَاس نائب[٢] قلعة الجبَل أنْ يتوجه إلى الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بالقلعةِ وينقُلَه من داره إلى البُرج من القلعة ويُضَيِّق عليه ويمنعَ الناس من الدخول إليه[٣]، ففعل بجَاس ذلك؛ فبات الخليفة ليلته بالبرج، ثم أُعيد من الغد إلى مكانه بالقلعةِ، بعد أن كلّم السلطانُ الأمراءَ في ذلك.

ثمّ رسَم السلطان للطّواشي زين الدين مقبل الزّمام بالتّضييق على الأسياد أولاد السّلاطين[٤] بالحوش السّلطانيّ من القلعة، ومَنْع من يتردّدُ إليهم من الناس، والفحْص عن أحوالهم، ففعل مُقبلُ ذلك.

ثم في يوم الاثنين ثاني شهر ربيع الأوّل خرج البريدُ من مصر بتقليد الأمير طُغَاي تَمُر القبلائي أحد أمراء دِمشق بنيابة طرابلس.

ثم فرّق السلطان في المماليك نفقةً ثانيةً، فكانت الأولى لكل واحدٍ خمسة الآف دِرهم فضّة والثانية ألف[٥] درهم، سوى الخيل والجمال والسلاح، فإنه فرّق في أرباب الجوامِك لكل واحدٍ جَملَيْن، ولكل آثنين من أرباب الأخباز ثلاثةَ جمال، ورتّب لهم [اللحم][٦] والجراياتِ والعليقَ، فرتّب لكل من رؤوس النُّوَب [في اليوم][٦] ستة عشْرةَ عليقةً، ولكلٍّ من أكابر المماليك عشر علائق، ولكل من أرباب

---

(١) يلاحظ أن عددهم بهذه الزيادة قد صار ٥٠٤ مماليك.

(٢) في السلوك ونزهة النفوس: «والي القلعة».

(٣) وذلك خوفاً من أن يرسل يلبغا الناصري إلى الخليفة من يستميله ويسير به إليه، كما جاء في السلوك ونزهة النفوس.

(٤) في السلوك: «أولاد الملوك الناصريّة».

(٥) كذا أيضاً في نزهة النفوس وفي السلوك أن النفقة الأولى كانت ألف درهم وكذلك الثانية.

(٦) زيادة عما تقدّم في الحاشية السابقة.

الجوامِك خمسَ علائق. ورسم أيضاً لكل مملوك من المماليك السلطانية بخمسمائة درهم بدمَشق.

ثم في رابع عشر شهر ربيع الأوّل المذكور جلس السلطان بمسجد[1] الرُّدَيْنِيّ داخل القلعة بالحريم السلطانيّ، وآستدعى الخليفة المتوكّل على الله من مكانه بالقلعة؛ فلّما دخل عليه الخليفة قام الملك الظاهر له وتلقّاه وأخذ في ملاطفَته والاعتذار إليه، وآصطلحا وتحالفا، ومضى الخليفة إلى موضعه بالقلعة، فبعث السلطان إليه عشرة الآف درهم وعدّة بُقَج، فيها أثواب صوفٍ وقماشٌ سَكَنْدريّ.

ثّم تواترت الأخبار على السلطان بدخول سائر الأمراء بالبلاد الشامية والمماليك الأشرفيّة واليلبغاويّة في طاعة الناصري، وكذلك الأمير سولي بن دلغادر أمير التركمان، ونُعير أمير العُربان وغيرهما من التركمان والأعراب، دخل الجميع في طاعة الناصري على محاربة السلطان الملك الظاهر، وأنّ الناصريّ أقام أعلاماً خليفتيّةً، وأخذ جميع القلاع بالبلاد الشامية، واستولى عليها ما خلا قلعة الشام وبعلبكّ والكرك. فقَلِق السلطان لذلك، وكثر الاضطراب بالقاهرة، وكثر كلام الناس في هذا الأمر، حتى تجاوز الحدّ واختلفت الأقاويل، كلُّ ذلك وإلى الآن لم تخرج التجريدة من مصر فلما بلغ السلطان هذه الأخبار رسم بخروج التجريدة، فخرجت الأمراء المذكورون قبل تاريخه في يوم السبت رابع عشر ربيع الأوّل من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة إلى الرّيدانِية بتجمل زائد وآحتفال عظيم بالأطلاب من الخيول المزينّة بسروج الذهب والكنابيش والسلاح الهائل، لا سيما الأمير أيتمش والأمير أحمد بن يلبُغا فإنهما أَمْعَنا في ذلك. وكان للناس مدّةٌ طويلة لم يتجرّد السلطان إلى البلاد الشامية ولا عسكرهُ، سوى سفر الأمراء في السنة الماضية إلى سِيوَاس، وكانوا بالنسبة إلى هذه التجريدة كلاَشيء، وتَتَابَعتْهم المماليك شيئاً بعد شيء، حتى سافر الجميع من الرَّيْدانية في يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الأوّل المذكور.

(١) هذا المسجد لا يزال قائماً إلى اليوم داخل قلعة الجبل ويعرف بجامع سيدي سارية. وقد أنشأه أبو منصور قسطة الأرمني والي الإسكندرية سنة ٥٣٥هـ. (محمد رمزي) ــ ونسبة هذا المسجد إلى أبي الحسن علي بن مرزوق بن عبد الله الرديني الفقيه المحدّث (خطط المقريزي: ٢٠٢/٢).

ثمّ أخذ السلطان بعد خروج العسكر في استجلاب خواطر الناس، وأبطل الرِّمَايات والسِّلَف على البرسيم والشعير، وإبطال قياس القصب والقلقاس والإعفاء على ذلك كله.

ثم في يوم الثلاثاء [أوّل ربيع الآخر](١) قَدِم البريد بأن الأمير كَمشبُغا المنجكيّ نائب بعلبكّ دخل تحت طاعة يلبُغا الناصريّ. وكذلك [في خامسه قدم البريد بأن](١) ثلاثة عشَر أميراً من أمراء دِمَشق وساروا إلى حلب ودخلوا في طاعة الناصري.

وأما العسكر الذي خرج من مصر فإنه لما وصل إلى غزّة أحسّ الأمير جارَكس الخليليّ بمخامرة نائبها الأمير آقْبُغا الصفويّ فقبض عليه وبعثه إلى الكرك، وأقرّ في نيابة غزّة الأمير حسام الدين بن باكيش.

ثم في عشرين شهر ربيع الآخر قدم على السلطان رسول قرا محمد التركماني ورسول الملك الظاهر مجد الدين عيسى صاحب مارِدِين يخُبران بقدومهما إلى خابور ويستأذنان في محاربة الناصريّ، فأُجيبا بالشكر والثناء، وأُذِن لهما في ذلك.

وأمّا العسكر فإنه سار من غزّة حتّى دخل دِمَشق في يوم الاثنين سابع شهر ربيع الآخر المذكور. ودخلوا دمشق بعد أن تلقّاهم نائبها الأمير [حسام الدين] طُرُنْطاي، ودخلوا دمشق قبل وصول الناصريّ بعساكره إليها بمدّة. وأقبل المماليك السلطانية على الفساد بدمشق، واشتغلوا باللهو وأبادوا أهل دِمَشق شراً، حتى سئمتهم أهل الشام وانطلقت الألسنة بالوقيعة فيهم وفي مُرْسِلهم.

قلت: هو مثل سائر: «الولد الخبيث يكون سبباً لوالده في اللعّنة» وكذلك وقـع، فإنّ أهلَ دِمَشق لمّا نفرت قلوبهم من المماليك الظاهرية، لم يدخلوا بعد ذلك في طاعة الظاهر ألبّتة على ما سيأتي ذكره.

وبينما هم في ذلك جاءهم الخبر بنزول يَلبُغا الناصريّ بعساكره على خان لاجِين خارج دمشق في يوم السبت تاسع عشر شهر ربيع الآخر، فعند ذلك تهيّأ

(١) زيادة عن السلوك.

الأمراء المصريّون والشامِيون إلى قتالهم؛ وخرجوا من دمشق في يوم الاثنين حادي عشرينه إلى بَرْزة[١] والتقَوْا بالناصريّ على خان لاجِين، وتصافَفوا ثم اقْتَتلوا قتالاً شديداً ثبت فيه كلّ من الفريقين ثَباتاً لم يُسمع بمثله، ثمّ تكاثر العسكرُ المصريّ وصدقَوا الحملة على الناصريّ ومن معه فهزموهم وغيّروه عن موقفه.

ثمّ تراجع عسكر الناصريّ وحمل بهم، وآلتقى العسكر السّلطاني ثانياً وآصطَدما صدمة هائلةً ثبت فيها أيضاً الطائفتان وتقاتلا قتالاً شديداً، قُتل فيها جماعة من الطائفتين، حتى آنكسر الناصريّ ثانياً. ثم تراجع عسكُره وعاد إليهم وآلتقاهم ثالثَ مرّة، فعندما تنازلوا في المرّة الثالثة[٢] وآلتحم القتالُ، أقْلَب الأمير أحمد بن يلبُغا أمير مجلس رُمحه ولَحِق بعساكر الناصريّ بمن معه من مماليكه وحواشيه، ثم تبعه الأمير أيدَكار العُمريّ حاجب الحجاب أيضاً بطُلْبِه ومماليكه، ثم الأمير فارس الصَّرْغَتْمَشيّ ثم الأمير شاهين أمير آخور بمن معهم وعادوا قاتلوا العسكرَ المِصريّ؛ فعند ذلك ضَعُف أمر العساكر المصريّة وتقهْقروا وانهزموا أقبحَ هزيمةٍ فلما وَلَّوا الأدبار في أوائل الهزيمةِ، هجم مملوكٌ من عسكر الناصريّ يقال له يلبغا الزينيّ الأعور وضرب الأمير جارَكس الخليلي الأمير آخور بالسيف فقتله وأخذ سلَبَهُ[٣] وترك رمّته عاريةً، إلى أن كفّنته آمرأة بعد أيام ودفنته.

ثم مَدّت التركمان والعرب أيديهم ينهبون مَن آنهزم من العسكر المصريّ ويقَتلون ويأسرون مَن ظَفِروا به. وساق الأمير الكبير أيتَمش البَجاسيّ حتى لحق بدِمَشق وتحصّن بقلعتها. وتمزّق العسكر المصريّ وذهب كأنه لم يكن، ودخل الناصريّ من يومه إلى دِمَشق بعساكره، ونزل بالقصر من المَيْدان، وتسلّم القلعة بغير قتال. وأوقع الحوطة على سائر [ما] للعسكر، وأنزل بالأمير الكبير أيْتمش وقيّده هو والأمير طُرُنْطَاي نائب الشام وسَجَنهما بقلعة دمشق، وتَتَبّع بقيّة الأمراء والمماليك حتى قبض من يومه أيضاً على الأمير بَكلمش العلائي في عدّة من أعيان المماليك

(١) برزة: قرية في غوطة دمشق (معجم البلدان).

(٢) كذا أيضاً في السلوك. وفي نزهة النفوس: «في المرة الثانية... الخ».

(٣) السَّلَب (بالتحريك) هو كل ما على الإنسان من لباس.

الظاهريّة، فاعتقلهم أيضاً بقلعة دمشق. ثم مَدّت التركمانُ والأجناد أيديَهُم في النهب، فما عفّوا ولا كفّوا وتمادَوْا على هذا عدَّةَ أيام.

وقَدِم هذا الخبر على الملك الظاهر من غزة في يوم سابع عشرين شهر ربيع الآخر المذكور، فآضْطربت الناس آضطراباً عظيماً، لا سيما لمّا بلغهم قتلُ الأمير جارَكَس الخليليّ والقبضُ على الأمير الكبير أيْتَمُش البَجاسِيّ، وغُلّقت الأسواق، وآنتُهِبت الأخباز، وتشعَّبت الزّعر، وطغى أهلُ الفساد، هذا مع ما للناس فيه من الشغل بدفن موتاهم وعظم الطاعون بمصر. كلُّ ذلك وإلى الآن لم يَعرف السلطانُ بقتل الأمير يونس النَّوْروزيّ الدوادار على ما سيأتي ذكره.

وأما السلطان الملك الظاهر برقوق فإنه لمّا بلغه ما وقع لعسكره وَجَمَ وتحيّر في أمره، وعَظُم عليه قتُل جارَكس الخليليّ والقبض على أيتمش أكثر مِن آنهزام عسكره، فإنهما ويونُس الدوادار كانوا همُ القائمين بتدبير ملكه. وأخذ يفحصُ عن أخبار يونس الدوادار المذكور، فلم يقف له على خبر، لسرعة مجيء خبر الوقْعة له من مدينة غزّة، وإلى الآن لم يأته أحد ممن باشر الواقعة، غير أنه صحّ عنده ما بلغه.

ثمّ خرج [السلطان] إلى الإيوان بالقلعة، واستدعى الأمراء والمماليك، وتكلّم معهم السلطان في أمر الناصريّ ومنطاش وآستشارهم، فوقع الاتفاق على خروج تجريدةٍ ثانية، فآنفضّ الموكِبُ.

وخرج السلطان في ثامن عشر شهر ربيع الآخر إلى الإيوان، وعيّن من المماليك السلطانيّة ممن آختار سفره خمسمائة مملوك، وأنفق فيهم ذهباً حساباً عن ألف درهم فضّة لكل واحد، ليتوجّهوا إلى دِمَشق صُحبة الأمير سودون الطُّرُنْطَائيّ وقام السلطان، فكلّمه بعض خواصِّه في قِلّة من عُيّن من المماليك، وأن العسكر الذي كان صُحبة أيْتَمش كان أضعافَ ذلك وحصل ما حصَل؛ فَعَرض [السلطان] العسكر ثانياً وعيّن خمسمائة أخرى، ثم عيّن أربعمائة أخرى لِتتمّة ألف وأربعمائة مملوك، وأنفق في الجميع ألفَ درهم فضة، لكل واحد.

ثمّ أنفق السلطان في المماليك الكتابيّة[١] لكل مملوك مائتي درهم فضّة، فإنه بلغه أنهم في قلق لعدم النفقة عليهم.

هذا، وقد طَمِع كلُّ أحد من المماليك وغيرهم في جانب الملك الظاهر لِمَا وقع لعسكره بدِمَشق.

ثم عَمِل السلطان الموكب في يوم الأربعاء أوّل جُمَادى الأولى، وأنعم على كلٍّ من قرابُغا البوبَكريّ، وبَجَاس النّوْروزيّ نائب قلعة الجبل، وشيخ الصّفويّ، وقَرْقَماس الطّشتَمُريّ بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، عوضاً عمّن قُتِل أو أُمسِك بالبلاد الشامية.

ثم أنعم السلطان أيضاً في اليوم المذكور على كل من ألجِيْبُغَا الجماليّ الخازندار، وأَلْطنْبُغا العُثمانيّ رأس نوبَة، ويونس الإسْعرديّ الرمّاح، وقنق باي الألْجاويّ اللاَّلا، وأسَنْبُغا الأُرغونيّ[٢] شاويّ، وبغداد الأحمديّ، وأرسلان اللّفّاف، وأحمد الأرغونيّ، وجَرِبَاش الشيْخيّ، وأَلْطنْبُغا شادي، وأرنْبُغا[٣] المنجكيّ، وإبراهيم بن طَشْتَمُر العلائيّ الدوادار، وقراكسك السيفيّ بإمرة طبلخاناه.

وأنعم على كل من السيد الشريف بكتَمُر الحسينيّ[٤] والي القاهرة [كان][٥]، وقنق باي الأحمدي بإمرة عشرين[٦]. وأنعم على كل من بُطا الطّولُوتمريّ الظاهريّ، ويلبُغا السودوني، وسودون اليَحْياوي، وتَنبك[٧] اليحياويّ، وأرغون شاه البَيْدَمُري،

(١) المماليك الكتابية: هم مماليك الطباق (أو الأطباق). وكانوا يدخلون الطباق ويسكنونها ويتعلمون بها الكتابة، ولذلك سموا بالكتابية. ولم يكن جميع المماليك يدخلون الطباق، بل منهم من كان يلحق مباشرة بخدمة السلطان ويتلقى مع أبنائه تربية خاصة، ومن هؤلاء كان الخاصكية. وكان بعض السلاطين يرسلون أبناءهم إلى الطباق مثل أغلبية الأمراء. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٣٠).

(٢) في السلوك: «أسن بغا الأرغون شاهي» وفي نزهة النفوس: «أسن بغا الأرغنشاوي».

(٣) في السلوك ونزهة النفوس: «أروس بغا المنجكي».

(٤) في السلوك ونزهة النفوس: «الحسني».

(٥) زيادة عن السلوك.

(٦) كذا أيضاً في السلوك. وفي نزهة النفوس: «بإمرة عشرة».

(٧) في السلوك ونزهة النفوس: «تاني بك».

وآقبغا الجماليّ الهذبانيّ،[١]، وقوزي الشعبانيّ، وتغري بردي البَشْبُغاويّ[٢] والد كاتبه، وبكبلاط السعدي[٣]، وأرنبغا[٤] العثمانيّ، وشكر باي العثمانيّ، وأسَنْبغا السيفيّ بإمرة عشرة، وكلّ هؤلاء مماليك الملك الظاهر برقوق وخاصّكيّته أمرّهم في هذه الحركة، وكانوا قبل ذلك من جملة الخاصكيّة، ومنهم من هو إلى الآن لم يحضر من التجريدة.

ثمّ قَدِم البريد على السلطان من قطيا بأنّ الأمير إينال اليوسفيّ أتابك دِمَشق المنعَم عليه بنيابة حلب بعد عصيان الناصريّ، والأمير إينال أمير آخور، والأمير إياس أمير آخور دخلوا إلى غزّة في عسكر كثيف من عساكر الناصريّ، وقد صاروا قبل تاريخه من حزب الناصريّ، واستولَوْا على مدينة غزة والرّملة وتمزّقت عساكرها؛ فعظُم لهذا الخبر جزع الملك الظاهر وتحيّر في أمره.

ثم في يومه آستدعى السلطان القضاة والأمراء والأعيان، وبعث الأمير سودون الطُّرنطائي والأمير قَرْقماس الطشْتَمُريّ إلى الخليفة المتوكّل على الله بمسكنه في قلعة الجبل فأحضراه فلمّا رآه الملك الظاهر قام له وتلقّاه وأجلسه؛ وأشار إلى القضاة فحلّفوا كلاً منهما للآخر على الموالاة والمناصحة، وخلع السلطان على الخليفة المتوكل على الله المذكور خلعة الرضا، وقيّد إليه حجَرَة[٥] شهباء من خواصّ خيل السلطان بسَرْج ذهب وكُنْبُوش مُزَرْكَش وسلسلة ذهب، وأَذِن له في النزول إلى داره، فركب ونزل من القلعة إلى داره في مَوْكِب جليل، وأُعيدت إقطاعاته ورواتبه، وأُخْلِي له بيت بقَلعة الجبلِ ليسكن فيه.

ثمّ طلَـع الخليفة من يومه ونقَل حرمه إلى البيت المذكور بالقلعة، وصار يركب في بعض الأحيان وينزل إلى داره بالمدينة ثم يطلـع من يومه إلى مسكنه

---

(١) كذا أيضاً في السلوك. وفي نزهة النفوس: «الهيدباني».

(٢) وردت أيضاً في المصادر: «اليشبغاوي». وأوردها السخاوي في الضوء اللامـع: «الكمشبغاوي الرومي».

(٣) في السلوك: «بكبلاط السونجي». وفي نزهة النفوس: «بلاط السونجي».

(٤) في السلوك ونزهة النفوس: «أردبغا».

(٥) الحجرة: هي الفرس الأنثى. وصوابه أن يقال: الحجر.

بالقلعة ويَبيت فيه مع أهله وحرمه، وآستمرّ على ذلك إلى ما سيأتي ذكره.

ثم في يوم الجمعة ثالث جُمادىَ الأولى المذكورة قَدِم الأمير شهاب الدين أحمد بن بقَر أمير عرب الشرقيّة، ومعه هَجّان الأمير جاركس الخليليّ، فحدّث السلطان بتفصيل واقعة العسكر المصري مع الناصري، وأنه فرّ مع الأمير يُونُس الدوادار في خمسة نفر طالبين الديارَ المصريةَ، فعرض لهم الأمير عنقاء بن شَطِّي أمير آل فضل بالقرب من خَربة اللصوص من طريق دِمَشق، وقَبَض على الأمير يُونس الدّوادار ووبّخه لِمَا كَان في نفسه منه، ثم قتله وحزّ رأسَه وبعث به إلى الناصريّ فعندما بلغ السلطانَ قتلُ يُونس الدوادار وتحقَّقه كادت نفسه تَزْهَق، وكان بلغه هذا الخبرُ، غير أنه لم يتحقّقه إلا في هذا اليوم. وبقَتل يُونُس الدوادار آستَشعر كلّ أحد بذَهاب مُلك الملك الظاهر.

ثم أصبح السلطان أمر بالمناداة بمصر والقاهرة بإبطال سائر المُكوس من سائر ديار مصر وأعمالها، فقام جميع كُتَّاب المكوس من مجالسهم.

ثم في سادس الشهر[1] رَكِب الخليفة المتوكّل على الله من القلعة بأمر السلطان الملك الظاهر ونزل إلى القاهرة، ومعه الأمير سُودون الفخريّ الشيخونيّ نائب السلطنة وقضاة القضاة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البُلقينيّ وسائر الحجّاب، وداروا في شوارع القاهرة، ورجلٌ أمامهم على فرس يقرأ ورقة فيها: «إنّ السلطان قد أزال المكوسَ والمظالم، وهو يأمُر الناس بتقوى الله وطاعَته، وإنّا قد سألنا العدوَّ الباغي في الصلح فأبَى، وقد قَوِيَ أمرُه، فأغْلِقوا دوركم وأقيموا الدروب[2] على الحارات وقاتِلوا عن أنفسكم وحريمكم». فلمّا سمع الناس ذلك تزايد خوفهم وقلقهم، ويئسَ كلّ واحد من الملك الظاهر، وأخذ الناس في العمل للتوصّل إلى الناصريّ، حتى حواشي برقوق لمّا سمعوا هذه المقالةَ، وقد تحقّقوا بسماعها بأنّ الملك الظاهر لم يَبْق فيه بقيّة يلقَى بها الناصريّ وعساكرَه، وقول

---

(١) أي شهر جمادى الأولى سنة ٧٩١هـ.

(٢) الدرب: باب السكّة الواسع. والمراد هنا الأبواب التي تقام على رؤوس الطرق والحارات.

الملك الظاهر: «وإنا قد سألنا العدوّ في الصلح فأبى وقَوِيَ» ـ فإنه كان لَمّا توجه العسكر من مصر لقتال الناصري أمرهم [برقوق] أن يُرسلوا له في طلب الصلح مع الناصريّ ففعلوا، فلم يَنْتظم صلحٌ ووقع ما حَكَيْناه من القتال وغيره.

ثمّ إن الناس لمّا سمعوا هذه المناداة شرعوا في عمل الدُّروب؛ فجُدِّد بالقاهرة دروب كثيرة. وأخذوا في جمع الأقوات والاستعداد للقتال والحصار، وكَثُر كلامُ العامّة فيما وقع، وهان الملك الظاهر وعساكُره في أعين الناس، وقلّت الحُرمَة، وتجمَّع الزُّعر ينتظرون قيامَ الفِتْنة لينهبوا الناسَ، وتخوّف كلّ أحد على ماله وقُماشه، كلُّ ذلك والناصري إلى الآن بدِمَشق.

ثم آنقطع أخبار الناصريّ عن مصر لدخول الأمير حُسام الدين بن باكيش نائب غزة في طاعة الناصريّ.

ثم قَدِم الخبر بدخول الأمير مأمور القَلَمْطَاوي نائب الكَرك في طاعة الناصريّ، وأنه سلّم له الكرَك بما فيها من الأموال والسلاح؛ فتيقّن كلّ أحد عند سماع هذا الخبر أيضاً بزوال مُلك الملك الظاهر. هذا والأمراء والعساكر المُعينَةُ للسفر في آهتَمام؛ غير أنّ عزائم السلطان فاترة، وقد علاه وَلَهٌ وداخَلَه الخوف من غير أمر يوجِبُ ذلك. وكان السلطان لمّا عيَّن هذه التجريدة الثانية أرسل إلى بلاد الصعيد يطلب نجدةً، فقدِم إلى القاهرة في هذا اليوم طوائف من عرب هوّارة نجدةً للسلطان ونزلوا تحت القلعة.

ثمّ أمر السلطان بحَفْر خندق القلعة وتَوْعِير طريق باب القلعة المعروف بباب القرافة وباب الحرس وباب الدّرفيل[1].

ثمّ أمر السلطان بسدّ خوخة[2] الأمير أَيْدُغْمُش خارج بَابَيْ زويلة، فَسُدَّت

(١) تقع هذه الأبواب الثلاثة في السور الشرقي من القلعة تجاه جبل المقطم. وذكر الأستاذ محمد رمزي أن باب القرافة وباب الدرفيل قد سدّا من قديم. أما باب الحرس فلا يزال مفتوحاً إلى اليوم وهو يعرف باسم باب المقطّم.

(٢) الخوخة: باب صغير يعمل في جسم بوابة كبيرة يسهل فتحه وإغلاقه عندما لا تكون حاجة لفتح البوابة الكبيرة ـ وعن خوخة أيدغمش انظر خطط المقريزي: ٢/ ٤٥.

حتى صار لا يدخُل منها راكب. ثمّ أمر السلطان فنُودِي بالقاهرة بإبطال مَكس النّشا والجلود.

وفي يوم الجمعة عاشر جُمَادى الأولى من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة خُطِب للخليفة المتوكّل على الله أبي عبد الله محمد، فإنه أُعِيد إلى الخلافة من يوم خلَع عليه السلطان خلعة الرِّضا، ثمّ قُرِىء تقليده في ثاني عشره بالمشهد النَّفيسيّ وحضره القضاة ونائب السلطنة. ولمّا آنقضى مجلس قراءة التقليد توجّهوا الجميع إلى [رباط](١) الآثار النّبوية وقرأوا به صحيح البخاريّ، ودعوا الله تعالى للسلطان الملك الظاهر برقوق بالنصر وإخماد الفتنة بين الفريقين.

ثمّ في يوم ثالث عشرة أخلع السلطان على الأمير قرا دِمِرْداش الأحمديّ الْيَلْبُغاوي بآستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن الأمير أيتَمُش البجاسي بحكم حبسه بقلعة دِمَشق، وعلى الأمير سودون باق باستقراره أمير سلاح عوضاً عن قَرا دمرداش المذكور، وعلى الأمير قَرْقَماس الطّشْتمريّ باستقراره دواداراً كبيراً عوضاً عن يُونُس النّوْروزيّ المقتول بيد عنقاء أمير آل فضل، وعلى الأمير تَمُرْبغا(٢) المَنجكيّ أمير آخور كبيراً عوضاً عن الأمير جاركس الخليليّ المقتول في واقعة الناصريّ بدمشق، وعلى قَرابُغا البُوبَكريّ باستقراره أمير مجلس عوضاً عن أحمد بن يَلْبُغا بحكم عصيانه ودخوله في طاعة الناصريّ، وعلى آقبُغا المارِدينيّ باستقراره حاجب الحجاب عوضاً عن أيدكار العُمريّ الداخل أيضاً في طاعة الناصريّ؛ ونزل الجميع بالخِلَع والتشاريف.

ثمّ أنعم السلطان على الأمير صلاح الدين محمد [بن محمد](٣) بن تَنْكِز

---

(١) الزيادة عن السلوك؛ ورباط الآثار النبوية كان قائماً بالقرب من بركة الحبش مطلاً على النيل. وقيل له رباط الآثار لأن فيه قطعة خشب وحديد يقال إنها من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم. (انظر خطط المقريزي: ٢/٤٢٩) ـ والرباط لا يزال قائماً إلى اليوم باسم جامع أثر النبي. وأما الآثار فقد نقلت هي وغيرها إلى خزانة خاصة بها بجامع سيدنا الحسين بالقاهرة (محمد رمزي).

(٢) كذا أيضاً في نزهة النفوس. وفي السلوك: «قرابغا».

(٣) زيادة عن السلوك.

الناصريّ نائب الشّام كان بإمرة طبلخاناه، وعلى جُلبان الكمشبُغاوي الخاصكي الظاهري بإمرة طبلخاناه.

وكَثُر في هذه الأيام تحصين السلطان لقلعة الجبل، فعلِم بذلك كلُّ أحد أنه لم تخرج تجريدة من مصر، ولم يثبت الملك الظاهر لقتال الناصريّ، بما أفْرَزُوا[١] من أحوال السلطان خِذْلان من الله تعالى!.

ثمّ أخذ السلطان ينقل إلى قلعة الجبل المناجيق[٢] والمكاحلَ والعُدَد، وأمر السلطان لسكّان قلعة الجبل من الناس بادّخار القُوت بها لشهرين.

ثمّ رسم السلطان للمعلم أحمد بن الطُّولُوني بجمع الحجّارين لسدّ فم وادي[٣] السدرة بجوار الجبل الأحمر، وأن يُبنى حائط من جوار باب الدرفيل إلى الجبل.

ثمّ نُوديَ بالقاهرة بأنّ من له فرس من أجناد الحلقة يركب للحرب ويخرج مع العسكر؛ فَكَثُر الهرج، وتزايد قلقُ الناس وخوفُهم، وصارت الشوارع كلها ملآنة بالخيول الملبسة[٤]. هذا وإلى الآن لم يَعْرِف السلطان ما الناصريّ فيه. وطُلِبَت آلات الحرب من الخوذ والقرقلات والسيوف والأرماح بكل ثمن غال.

ثمّ رسم السلطان للأمير حسام الدين حسين [بن عليّ][٥] بن الكوراني والي القاهرة بسدّ باب المحروق أحد أبواب القاهرة، فكلّمه الوالي في عدم سَدِّه، فنهره وأمره بسدّه وسدِّ الباب الجديد أيضاً أحد أبواب القاهرة، ففعل. ثمّ سَدّ باب

---

(١) كذا! ولعل الصواب: «بما أحرزوا» أي بما حصلوا من معلومات عن أحوال السلطان تشير إلى خذلانه واقتراب نهايته. ـ وعبارة نزهة النفوس: «وتراءات للناس عدة منامات ومحصلها يدل على زوال ملك السلطان».

(٢) كذا وردت أيضاً في نزهة النفوس. والمراد المجانيق، جمع منجنيق. ويقال أيضاً: منجنيقات.

(٣) يقع فم وادي السدرة اليوم بين الجبل الأحمر وبين برج الظفر الواقع على رأس السور الشرقي لمدينة القاهرة. (محمد رمزي) ـ أما الجبل الأحمر فهو يطل على القاهرة من شرقيها الشمالي. (خطط المقريزي: ١٢٥/١).

(٤) أي بلباس الحرب وعدتها.

(٥) زيادة عن السلوك.

الدّرفيل المعروف قديماً بباب سارِيَة، ويُعرف في يومنا هذا بباب المُدرّج.

ثمّ أمر السلطان بسدّ جميع الخُوَخ، فسدّ عدة خوَخ، وركّب عند قناطر[١] السباع ثلاثة دروب[٢]: أحدها من جهة مصر والآخر من جهة قبو الكِرمانِيّ والآخر بالقرب من المْيدان. ثمّ بنى بالقاهرة عدّةَ دروب أخر وحفر خنادق كثيرة.

هذا والموت بالطاعون عَمَّال بالديار المصريّة، في كل يوم يموت عدّةٌ كبيرة.

وأما الأمير يَلبُغا الناصريّ نائب حلب وصاحبُه مِنْطاش نائبُ مَلَطْيَة بمن معهما، فإنّ الناصريّ لمّا استقرّ بدِمَشق وملكها بعد الوقْعة، نادى في جميع بلاد الشام وقلاعها بألا يتأخر أحد عن الحضور إلى دمشق من النوّاب والأمراء والأجناد، ومن تأخّر ــ سوى من عُيِّنَ لحفظ البلاد ــ قُطِعَ خبزه وسُلِبَت نعمته. فآجتمع الناس بأسرهم في دمشق من سائر البلاد، وأنفق الناصري فيهم، وتجهّز وتهيأ للخروج من دمشق. وبرز منها بعساكره وأمرائه من الأمراء والأكراد والتُركمان والعربان ــ وكان آجتمع إليه خلائق كثيرة جداً ــ في يوم السبت حادي عشر جُمادى الأولى من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة المقدّم ذكرها، بعد أن أقرّ في نيابة دمشق الأمير جَنْتَمُر المعروف بأخي طاز. وسار الناصري بمن معه من العساكر يريد الديار المصرية، وهو يظنّ أنّه يلقى العساكر المصريّة بالقرب من الشام. وآستمرّ في سيره على هَيِّنَةٍ إلى أن وصل إلى غزّة، فتلقّاه نائبها حسام الدين بن باكيش بالتّقادم والإقامات، فسأله الناصري عن أخبار عسكر مصر، فقال: «لم يرد خبر بخروج عَسكر من مصر؛ وقد أرسلت جماعة كبيرة غير مرة لكشف هذا الخبر، ولم يكن مني تهاود في ذلك، فلم يبلغني عن الديار المصرية إلا أنّ برقوقاً في تخوّف كبير، وقد آستعدّ للحصار» فلم يلتفت الناصري إلى كلامه، غير أنه صار متعجباً على عدم خروج العساكر المصرية لقتاله. ثم قال في نفسه: «لعله يريد قتالنا في فم الرمل بمدينة قطيا، ليكون عسكره في راحة من جواز الرّمل». وأقامَ الناصريّ بغزّة يومَه.

---

(١) قناطر السباع هي قناطر كانت قائمة فوق الخليج المصري بميدان السيدة زينب بالقاهرة. (محمد رمزي).
(٢) أي ثلاثة أبواب.

ثم سار [الناصري] من الغد يُريد ديار مصر، وأرسل أمامه جماعةً كبيرة من أمرائه ومماليكه كشّافة. وآستمرّ في السّير إلى أن نزل مدينة قَطْيا. وجاء الخبر بنزول الناصريّ بعساكره على قطيا فلم يتحرّك [السلطان] بحركة.

وفي ليلة وصول الخبر فرّ من أمراء مصر جماعة كبيرة إلى الناصريّ، وهي ليلة الثلاثاء ثامن عشرين جُمَادى الأولى المذكورة، وهم: الأمير طُغَيْتَمُر الجرَكْتَمُري، وأرسلان اللّفاف، وأَرَنْبُغَا العثمانيّ في عدّة كبيرة من المماليك، ولَحِقوا بالناصريّ ودخلوا تحت طاعته، بعدما صرفوا في طريقهم الأمير عز الدين [أَيْدَمُر][1] أبا دَرَقَة كاشف الوجه البحري وقد سار من عند الملك الظاهر لكشف الأخبار، فضربوه وأخذوا جميع ما كان معه وساقوه معهم إلى الناصريّ فلما وصلوا إلى الناصري حرّضوه على سرعة الحركة وعرّفوه ما الظاهر فيه من الخوف والجبن عن ملاقاته، فَقَوِيَ بذلك قلب الناصري، وهو إلى الآن يأخذ في أمر الملك الظاهر ويُعطي.

ثم جلس الملك الظاهر صبيحة هرب الأمراء بالإيوان من قلعة الجبل، وهو يوم الثلاثاء ثامن عشرينه، وأنفق على المماليك جميعها، لكل مملوك من مماليك السلطان ومماليك الأمراء، لكل واحد خمسمائة درهم فضة، وآستدعاهم طائفة بعد طائفة، وأعطى كل واحد بيده، وصار يحرّضهم على القتال معه، وبكى بكاء شديداً في الملأ.

ثمّ فرّق جميع الخيول حتى خيل الخاصّ في الأمراء والأجناد؛ وأعطى الأمير أقبُغا المارِديني حاجب الحجّاب جملة كبيرة من المال ليفرّقه على الزُّعْر. وعَظُمَ أمرُ الزعر، وبطل الحكم من القاهرة، وصار الأمر فيها لمن غلب، وتعطّلت الأسواق، وأكثر الناس من شراء البُقْسماط والدقيق والدهن ونحو ذلك.

ثم وصل الخبر على السلطان بنزول الناصريّ على الصالحيّة[2] بمن معه، وقد وقف لهم عدّة خيول في الرمل، وأنّه لما وجد الصالحية خالية من العسكر سجد لله

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الصالحية: إحدى قرى مركز فاقوس بمديرية الشرقية بمصر.

تعالى شكراً، فإنه كان يخاف أن يتلقّاه عسكر السلطان بها، ولو تلقّاه عسكر السلطان لما وجد لعسكره منعة للقتال، لضعْف خيولهم وشدّة تعبهم، فلهذا كان حمْدُه لله تعالى. وأخبر(١) السلطانَ أيضاً أنّ الناصريّ لمّا نزل الصالحيّة تلقّاه عربُ العائِد مع كبيرهم الأمير شمس الدين محمد بن عيسى، وخدموه بالإقامات والشعير وغيرها، فردّ بذلك رمَقَهُم.

فلمّا سَمِع السلطان ذلك رَسَم للأتابك الأمير قرا دِمْرداش الأحمديّ أن يتوجّه لكشف الأخبار من جهة بركة الحبش مخافة أن يأتِيَ أحد من قِبَل إطفيح، فسار لذلك. ثم رتّب السلطان العسكر نَوْبتين: نَوْبة لحفظ النهار ونَوْبة لحفظ الليل، وسيرّ ابن عمه الأمير قَجْماس في عدّة أمراء إلى المرج والزيات(٢) طليعة للكشف.

ثمّ في يوم الأربعاء تاسع عشرين جُمَادى الأولى المذكور أنفق السلطان في مماليك أمراء الطبلخانات والعَشَرات، فأعطى كلّ واحد أربعمائة درهم فضة. وأنفق السلطان أيضاً في الطَّبَرْداريّة [والبَزْداريّة](٣) والأوجاقية وأعطاهم القِسِيّ والنُّشّاب. ثم رتّب من الأجناد البطّالين جماعةً بين شُرُفات القلعة ليرموا على مَنْ لعلّه يحُاصر القلعة، وأنفق فيهم أيضاً. ثم آستدعى السلطانُ رُماةَ قِسيّ الرِّجل من ثَغر الإسكندرية فحضر منهم جماعة كبيرةٌ وأنفق فيهم الأموال.

ثم عاد الأمير قجماس بمن معه من المرج والزيّات وأخبر السلطان أنه لم يقف للقوم على خبر.

ثم خرج الأمير سُودون الطُّرُنْطائيّ في ليلة الخميس في عِدّة من الأمراء

(١) فاعله هو الرسول الذي وصل إلى السلطان بخبر نزول الناصري على الصالحية. وهذا الرسول هو بهادر والي العرب، كما جاء في السلوك. ولعل الصواب: «بهادر والي الغربية» كما جاء في نزهة النفوس.

(٢) المرج والزيّات: قريتان من قرى مركز شبين القناطر بمديرية القليوبية بمصر. وقرية الزيات تسمى اليوم القلج. (محمد رمزي).

(٣) زيادة عن السلوك. والطبردارية: هم الذين يحملون الطبر حول السلطان في المواكب؛ والطبر لفظ فارسي معناه الفأس. ـ والبزدارية: هم الذين يحملون الطيور الجوارح المعدّة لصيد السلطان. والأوجاقية (الأوشاقية): هم الذين يتولون ركوب الخيل السلطانية للتسيير والرياضة.

والمماليك إلى قُبّة النصر للحرس، وسارت طائفة أخرى إلى بركة الحبش. وبات السلطان بالإسطبل السلطاني ساهراً لم يَنم، ومعه الأميرُ سُودون الشيخوني النائب، والأتابك قرا دِمِرداش الأحمديّ، بعد أن عاد من برْكة الحبش، وعدّة كبيرة من المماليك والأمراء.

ثم توجّه الأمير قَرَابُغَا الأبوبكريّ أمير مجلس في يوم الخميس أوّل جُمادى الآخرة إلى قُبّة النصر، ثم عاد ولم يقف على خبر؛ كلّ ذلك لضعف خيول عساكر الناصري وكَلِّهم من السفر، فلم يجد الناصريّ لهم مَنَعة، فأقام بهم على الصالحية ليتراجع أمرهم وتعود قُواهم هذا والأمراء بالديار المصريّة لابسون آلة الحرب وهم على ظهور خيولهم بسوق الخيل تحت القلعة.

وفي ليلة الخميس المذكورة هرب من المماليك السلطانية آثنان ومن مماليك الأمراء جماعة كبيرة، بعد أَخْذهم نَفقة السلطان، وساروا الجميع إلى الناصريّ.

ثمّ طلب السلطان أجناد الحلقة، فدارت النقباء عليهم فأحضروا منهم جماعة كبيرة فُرِّقوا على أبواب القاهرة ورُتِّبوا بها لحِفْظها.

ثمّ ندبَ السلطان الأمير ناصر الدين محمد آبن الدوادارِي أحد أمراء الطبلخانات ومعه جماعة لحفظ قَياسِر[1] القاهرة، وأغلق والي القاهرة باب البَرْقيّة. ثمّ رتّب السلطان النَّفطيّة على بُرج الطبلخاناه السلطانية وغيره بقلعة الجبل.

ثمّ قدم الخبر على السلطان بنزول طليعة الناصريّ بمدينة بِلبيس ومقدّمها الطواشي طُقْطاي الروميّ الطّشْتَمُري.

ثم في يوم الجمعة نزلت عساكر الناصري بالبئر البيضاء[2]، فأخذ عند ذلك عسكر السلطان يَتسلّل إلى الناصري شيئاً بعد شيء. وكان أوّل من خرج إليه من

---

(١) في نزهة النفوس: «قياسر التجار». والقياسر هي مجموعة دكاكين.

(٢) البئر البيضاء: مركز بريد منفرد ليس حوله سكان كان قائماً على طريق السعاة فيما بين سرياقوس وبلبيس. (صبح الأعشى: ١٤/٣٧٦).

القاهرة الأمير جبريل الخُوارَزْميّ، ومحمد بن بَيْدَمُر نائب الشام، وبجمان المحمدي نائب الإسكندرية، وغريب الخاصّكيّ، والأمير أحمد بن أَرْغُون الأحمديّ [اللّالا][1].

ثمّ نصب السلطان السناجِقَ السلطانيّة على أبراج القلعة، ودُقّت الكوسات الحربيّة، فاجتمعت العساكر جميعها، وعليهم آلة الحرب والسلاح. ثم ركب السلطان والخليفة المتوكل على الله معه من قَلعة الجبل بعد العصر، وسار السلطان بمن معه حتى وقفا خلف دار الضِّيافة، وقد اجتمع حول السلطان من العامة خلائق لا تُحصى كَثْرةً؛ فوقف هناك ساعة، ثم عاد وطلع إلى الإسطبل السلطاني، وجلس فيه من غير أن يلقى حرباً، وصَعِد الخليفة إلى منزله بقلعة الجبل، وقد نزلت الذِّلّة على الدولة الظاهريّة، وظهر من خوف السلطان وبكائه ما أبكى الناس شفقة له ورحمة عليه.

فلمّا غَرَبَت الشمس صعد السلطان إلى القلعة، وبات بالقصر السلطاني ومعه عامّة مماليكه وخاصَّكِيّته وهم عدّة كبيرة إلى الغاية.

ثمّ في يوم السبت ثالث جُمادى الآخرة نزل الناصري بعساكره بِرْكة الجُبّ ظاهر القاهرة، ومعه من أكابر الأمراء الأمير تَمُربُغا الأفضليّ الأشرفيّ المدعو منطاش، والأمير بُزلار العُمَري الناصريّ حسن، والأمير كمشْبُغا الحموي اليلبُغاوي نائب طرابُلس كان، والأمير أحمد بن يَلبُغا العُمري أمير مجلس، والأمير أَيْدَكار حاجب الحجاب، وجماعة أُخَر من أمراء الشام ومصر وغيرها.

ثمّ تقدمت عساكر الناصريّ إلى المرج وإلى مسجد التبن، فعند ذلك غُلِّقت أبواب القاهرة كلُّها إلا باب زَويلة، وأُغلقت جميع الدروب والخُوَخ، وسُدّ باب القرافة، وانتشرت الزُّعر في أقطار المدينة تأخذ ما ظَفِرت به ممّن يستضعِفونه.

ثمّ ركِب السلطان ثانياً من القلعة ومعه الخليفة المتوكل على الله، ونزل إلى

---

(١) زيادة عن السلوك.

دار الضّيافة، فقدِم عليه الخبر بأنّ طليعة الناصريّ وصلت إلى الخراب طرف الحُسينِيَّة فلقيتهم كشّافة السلطان فكسرتهم.

ثمّ ندب السلطان الأمراء فتوجهوا بالعساكر إلى جهة قبَّة النصر، ونزل السلطان ببعض الزوايا عند دار الضيافة إلى آخر النهار.

ثمّ عاد إلى الإسطبل السلطانيّ وصحبته الأمراء الذين توجّهوا لقبّة النصر، والكوسات تدقُّ، وهم على أُهْبَةِ اللّقاء وملاقاة العدوّ، وخاصّكيّة السلطان حوله، والنُّفوط لا تفتر، والرُّميلة قد امتلأت بالزُّعر والعامة ومماليك الأمراء؛ ولم يزالوا على ذلك حتّى أصبحوا يوم الاثنين، وإذا بالأمير آقْبُغا الماردينيّ حاجب الحجاب والأمير جُمق ابن أيتَمشُ البَجاسي والأمير إبراهيم بن طشْتَمُر العلائي الدوادار قد خرجوا في الليل ومعهم نحو خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية ولحقوا بالناصريّ.

ثمّ أصبح السلطان من الغد، وهويوم خامس جُمَادى الآخرة، فرّ الأمير قَرْقَماس الطّشتَمُرى الدوادار الكبير وقرا دمرداش الأحمديّ أتابك العساكر بالديار المصرية والأمير سودون باق أمير مجلس ولحقوا بالناصريّ وكانوا في عدّة وافرة من المماليك والخدم والأطلاب الهائلة ولم يتأخر عند السلطان من أعيان الأمراء إلا آبنُ عمه الأمير قَجماس وسودون الشّيخُوني النائب وسودون طُرنْطَاي وتَمُربُغا المنجكيّ وأبو بكر بن سُنُقر وبِيبرَس التّمان تَمُريّ الصفويّ ومقدم المماليك شَنكل وطائفة من أمرائه مشتَرواتِه وخاصّكيّته. والعجب أنّ السلطان كان أنعم في أمْسه على الأمراء الذين توجّهوا لكلِّ أمير من أمراء الألوف عشَرة الآف دينار، ولكل أمير طبلخاناه خمسة الآف دينار، وحلّفهم على طاعته ونصرته، وأعطى في ليلة واحدة للأمير الكبير قرا دِمرداش الأحمديّ ثلاثين ألف دينار دُفعة واحدة وخاتماً مثمّناً، قيمته الاف عديدة، حتى قال له قرا دِمرداش المذكور: «يا مولانا السلطان، روحي فِدَاؤك؛ لا تخف! ما دمتُ أنا واقف في خدمتك أنت آمن» فشكره السلطان، فنزل من عنده، وفي الحال رَكِب وخرج من باب القرافة وقطع الماء الذي يجري إلى القلعة وتوجّه مع مَنْ ذكرنا من الأمراء إلى الناصريّ، فلم يلتفت الناصريّ لهم ذاك الالتفات الكّليّ، بل فعل معهم كما فعل مع غيرهم ممّنْ توجّه إليه من أمراء مصر. اِنتهى.

ولمّا بلـغ السلطان نِفَاقُ هؤلاء الأمراء عليه بعد أن أنعم عليهم بهذه الأشياء، علم أنّ دولته قد زالت، فأغلق في الحال باب زَويلةَ وجميـع الدروب، وتعطّلت الأسواق، وآمتلأت القاهرة بالزُّعر، واشتدّ فسادُهم، وتلاشتِ الدولة الظاهريّة وآنحلّ أمرُها. وخاف والي القاهرة حسام الدين بن الكورانيّ على نفسه، فقام من خلف باب زويلة وتوجّه إلى بيته[1] وآختفى.

وبَقِي الناس غوغاء، وقطـع المسجونون قُيودهم بخِزانة شمائل، وكسروا باب الحبس وخرجوا على حميّة جملة واحدة، فلم يردّهم أحدٌ بشغل كلّ واحد بنفسه، وكذلك فعل أهل حبس[2] الدَّيْلَم، وأهل سجن الرّحبة[3] هذا والسلطان إلى الآن بقلعة الجبل، والنّفوط عمّالة، والكوسات تدقّ حربياً ثمّ أمر السلطان مماليكه فنزلوا ومنعوا العامة من التوجّه إلى يَلْبُغا الناصريّ، فرجمهم العامّة بالحجارة، فرماهم المماليك بالنّشاب، وقتلوا منهم جماعة تزيد عدّتهم على عشر أنفس.

ثمّ أقبلت طليعة الناصريّ مـع عدّة من أعيان الأمراء من أصحابه، فبرز لهم الأمير قَجْماس آبن عمّ السلطان في جماعة كبيرة وقاتلهم وأكثر الرَّمْي عليهم من فوق القلعة بالسِّهام والنفوط والحجارة بالمقاليـع وهم يوالون الكرّ والفرّ غير مرة. وثَبَتَتْ [المماليك]السلطانيّة ثباتاً جيِّداً غير أنهم في علم بزوال دولتهم.

هذا وأصحابُ السلطان تتفرّق عنه شيئاً بعد شيء؛ فمنهم من يتوجّه إلى الناصريّ ومنهم مَنْ يَختفي خوفاً على نفسه، حتى لم يَبْقَ عند السلطان إلاّ جماعة يسيرة ممن ذكرنا من الأمراء فلمّا كان آخر النهار المذكور أراد السلطان أن يُسلّم نفسه، فمنعه مَن بَقِيَ عنده من الأمراء وخاصكيّته وقالت مماليكه: «نحن نقاتل بين

---

(١) في نزهة النفوس: «واختفى في بعض دوره».

(٢) كان حبس الديلم يقـع في الحارة المعروفة بهذا الاسم، نسبة إلى الديلم الواصلين مـع هفتكين الشرابي سنة ٣٦٨هـ. (خطط المقريزي: ٢/٧، ٨، ٤٤).

(٣) الأرجـح أن حبس الرحبة كان يقـع في رحبة باب العيد. وقد ذكر المقريزي في خططه: ٢/١٨٨ أن خزانة البنود برحبة باب العيد قد احترقت سنة ٤٦١هـ «فعملت بعد حريقها سجناً يسجن فيه الأمراء والأعيان إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية فأقرها ملوك بني أيوب سجناً».

يديك حتى نموت، ثم سَلِّم بعد ذلك نفسك» فلم يثق بذلك منهم، لكنه شكرهم على هذا الكلام، والسعد مُدْبر والدولة زائلة.

ثمّ بعد العصر من اليوم المذكور قَدِم جماعة من عسكر الناصريّ عليهم الطواشيّ طُقْطَاي الرّومي الطَّشْتَمِريّ، والأمير بُزْلار العُمري الناصري وكان من الشجعان، والأمير أَلْطُنُبغَا الأشرفيّ، في نحو الألف وخمسمائة مقاتل يريدون القلعة، فبَرزَ لهم الأمير بُطا الطُّولُوتَمُري الظاهريّ الخاصّكي والأمير شُكر باي العثماني الظاهريّ وسودون شُقْرَاق والوالد[1] في نحو عشرين مملوكاً من الخاصكيّة الظاهريّة، وتلاقَوْا مع العسكر المذكور: صدموهم صدْمة واحدة كسروهم فيها وهزموهم إلى قبّة النصر، ولم يُقْتل منهم غير سودون شقراق، فإنه أُمسك وأُتِيَ به إلى الناصريّ فوسَّطه. ولم يَقْتل الناصري في هذه الوقعة أحداً غيره، لا قبله ولا بعده، أعني صبراً، غير أن جماعة كبيرة قُتِلوا في المعركة. [و] ورد الخبر بنُصْرتهم على الملك الظاهر، فلم يَغْتَرّ بذلك، وعلم أن أمره قد زال؛ فأخذ في تدبير أمره مع خواصّه، فأشار عليه مَنْ عنده أن يستأمِن من الناصريّ فعند ذلك أرسل الملك الظاهر الأمير أبا بكر بن سُنْقُر الحاجب والأمير بَيْدَمُر المنجَكِيّ شادّ القصر بالنّمجاة[2] إلى الأمير يَلْبُغا الناصريّ أن يأخذا له أماناً على نفسه ويترقّقَا له فسارا من وقتهما إلى قُبّة النصر، ودخلا على الناصري وهو بمخّيمه، وآجتمعا به في خلوة، فآمنة على نفسه، وأخذ منهما منجاة الملك وقال: «الملك الظاهر أخونا وخُشْدَاشُنا، ولكنّه يختفي[3] بمكان إلى أن تُخْمد الفتنة، فإن الآن كلّ واحد له رأي وكلام، حتى نُدبِّر له أمراً يكون فيه نجاته» فعادا بهذا الجواب إلى الملك الظاهر برقوق. وأقام السلطان بعد ذلك في مكانه مع خواصه إلى أن صلّى عشاء الآخرة، وقام الخليفة المتوكل على الله إلى منزله بالقلعة على العادة في كل ليلة. وبَقِيَ الملك الظاهر في قليل من أصحابه، [و] أذنَ لسودون النائب في التوجّه إلى حال سبيله

---

(١) يعني الأمير تغري بردي اليشبغاوي والد المؤلف أبـي المحاسن.

(٢) النمجا والنمجاه (بهاء أو تاء في الآخر): عبارة عن سيف قصير معقوف، أو خنجر كبير. وهي من أدوات السلطان ومن علامات السلطنة.

(٣) الصيغة هنا بمعنى أنه أشار عليه بالاختفاء.

والنظر في مصلحة نفسه، فودّعه وقام ونزل من وقته. ثمّ فرّق الملك الظاهر بقية أصحابه، فمضى كلّ واحد إلى حال سبيله.

ثمّ آستتر الملك الظاهر وغيّر صِفَته، حتى نزل من الإسطبل إلى حيث شاء ماشياً على قدميْه، فلم يَعرف له أحد خبراً. وانفضّ ذلك الجمع كله في أسرع ما يكون، وسكن في الحال دقّ الكوسات ورمي مدافع النفط، ووقع النهب في حواصل الإسطبل حتى أخذوا سائر ما كان فيه من السُّروج واللُّجم وغيرها والعبيّ، ونهبوا أيضاً ما كان بالميّدان من الغنم الضأن، وكان عدّتها نحو الألفي رأس، ونهبت طباق المماليك بالقلعة. وطار الخبر في الوقت إلى الناصري، فلم يتحرك من مكانه، ودام بمخيّمه. وأرسل جماعة من الأمراء من أصحابه، فسار من عسكره عدّة كبيرة وآحتاطوا بالقلعة.

وأصبح الأمير يَلْبُغا الناصريّ بمكانه، وهو يوم الاثنين خامس جُمَادى الآخرة من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، ونَدَب الأمير مِنْطاش في جماعة كبيرة إلى القلعة فسار منطاش إلى قلعة الجبل في جموعه، وطلع إلى الإسطبل السلطانيّ، فنزل إليه الخليفة المتوكِّل على الله أبو عبد الله محمد وسار مع منطاش إلى الناصري بقبّة النصر، حتى نزل بمخّيمه، فقام الناصري إليه وتلقّاه وأجلسه بجانبه ووانسه بالحديث.

هذا وقد آنضمّت العامّة والزُّعر والتُّركمان من أصحاب الناصريّ، وتفرّقوا على بيوت الأمراء وحواصلهم، فنهبوا ما وجدوا حتى أخربوا الدور وأخذوا أبوابها وخشَبها، وهجموا منازل الناس خارج القاهرة ونهبوها، واستمرّوا على ذلك، وقد صارت مصر غوغاء وأهلُها رعيّةً بلا راع، حتى أرسل الناصري الأمير ناصر الدين محمد بن الحُسَام، وقد ولّاه ولاية القاهرة؛ فسار آبن الحسام إلى القاهرة فوجد باب النصر مغلوقاً، فدخل بفرسه راكباً من جامع الحاكم إلى القاهرة وفتح باب النصر وباب الفتوح. وعند فَتْح الأبواب طرق جماعة كبيرة من عسكر الناصريّ القاهرة ونهبوا منها جانباً كبيراً، فقاتلهم الناس وقتلوا منهم أربعة نفر. ومرّ بالناس في هذه

الأيام شدائد وأهوال. وبلغ الناصري الخبر فبعث أبا بكر بن سُنْقُر الحاجب وتَنْكزبُغا رأس نوبة إلى حفظ القاهرة فدخلاها.

ثمّ نُودِيَ بها من قِبَل الناصري بالأمان ومنع النَّهب، فنزل تنكزبُغا المذكور عند الجَمَلون[١] وَسْط القاهرة، ونزل سيدي أبوبكر بن سُنْقر عند باب زويلةَ، وسكَنَ الحال، وهدأ ما بالناس، وأَمِنوا على أموالهم.

وأمّا الناصريّ فإنّه لما نزل إليه الخليفة وأكرمه، كما تقدّم، وحضر قضاة القضاة والأعيان للهناء، أمَرهم الناصريّ بالإقامة عنده، وأنزل الخليفة بمخيّم، وأنزل القضاة بخيمة أخرى ثمّ طلب الناصريّ مَن عنده من الأمراء والأعيان وتكلم معهم فيما يكون، وسألهم فِيمن يُنَصَّب في السلطنة بعد الملك الظاهر برقوق، فأشار أكابرهم بسلطنة الناصريّ، فامتنع الناصري من ذلك أشدّ آمتناع، وهم يُلِحُّون عليه ويقولون له: «ما المصلحة إلا ما ذكرنا» وهو يأبى وانفضّ المجلس من غير طائل فعند ذلك تقدّم الناصري بكتابة مرسوم عن الخليفة، وعن الأمير الكبير يَلْبُغا الناصريّ بالإفراج عن الأمراء المعتقلين بثَغْر الإسكندرية وهم: أَلطنْبُغا الجوباني نائب الشام، وقَرْدم الحَسَني، وأَلطُنْبُغا المعلّم أمير سلاح، وإحضارهم إلى قلعة الجبل، والجميع يلبُغاويّه، فسار البريد بذلك. ثم أمر الناصري بالرحيل من قبّة النصر إلى نحو الديار المصرية[٢]، وركب في عالم كبير من العساكر نحو الستين ألفاً، حتى إنه كان عليق جمالهم في كل ليلة ألفاً [وثلاثمائة][٣] إردب فول. وسار الناصري بخيوله وبجيوشه حتى طلع إلى القلعة ونزل بالإسطبل السلطاني، وطلع الخليفة إلى منزله بقلعة الجبل، ونزل كلّ أمير في بَيْت من بيوت الأمراء بديار مصر.

(١) أي سوق الجملون الكبير وسط القاهرة. ــ انظر خطط المقريزي: ١٠٣/٢ ــ والجملون هو السقف المحدب المستطيل، وهو هنا الطريق المسقف. وسمي ذلك السوق بهذا الاسم لأنّه كان عبارة عن طريق مسقف.

(٢) لعل عبارة «إلى نحو الديار المصرية» مقحمة من هذا السياق. ذلك أن الناصري توجه من قبة النصر إلى القلعة. وهذه العبارة غير واردة لا في السلوك ولا في النزهة.

(٣) زيادة عن السلوك. وفي نزهة النفوس كما في الأصل هنا.

وجلس الناصريّ في مجلس عظيم، وحضر إلى خدمته الوزير كريم الدين عبد الكريم بن الغنّام وموفّق الدين أبو الفرج ناظر الخاص والقاضي جمال الدين محمود ناظر الجيش والقاضي بدر الدين محمد بن فضل الله كاتب السر الشريف وغيرهم من أرباب الوظائف، فأمرهم الأمير الكبير بتحصيل الأغنام إلى مطابخ الأمراء، ونُودِي في القاهرة ثانياً بالأمان.

ثمّ رسم للأمير تَنْكِزْبُغا رأس نوبة بتحصيل [مماليك][1] الملك الظاهر برقوق، فأخذ تنكزْبغا يتتَبّع أثرهم. وأصبح الناس في يوم الثلاثاء سادس جُمَادى الآخرة في هَرْج كبير ومقالات كثيرة مختلفة في أمر الملك الظاهر برقوق.

ثمّ آستدعى الأمير الَكبير يَلْبُغَا الناصريّ الأمراء واستشارهم فيمن يُنصِّبه في سلطنة مصر، فكثُر الكلام بينهم، وكان غرض غالب الأمراء سلطنة الناصريّ ما خلا مِنْطاش وجماعة من الأشرفيّة، حتى آستقرّ الرأي على إقامة الملك الصالح أمير حاج آبن الملك الأشرف شعبان في السلطنة ثانياً، بعد أن أعيا الأمراء أمر الناصريّ في عدم قبوله السّلطنة وهو يقول: «المصلحة سلطنَةُ الملك الصالح أمير حاج، فإن الملك الظاهر برقوقاً خلعه من غير موجِب» فطلعوا في الحال من الإسطبل إلى القلعة، وآستدعوا الملك الصالح وسلطنوه، وغيّروا لقبه بالملك المنصور، على ما سنذكره في أوّل ترجمته الثانية ــ إن شاء الله تعالى ــ بعد أن نذكر حوادث سنين الملك الظاهر برقوق كما هي عادة كتابنا هذا من أوّله إلى آخره.

وأمّا الملك الظاهر برقوق فإنّه دام في آختفائه إلى أن قُبِض عليه بعد أيام على ما سَنحكيه في سلطنة الملك الصالح مفصّلاً إلى أن يُسْجن بالكَرَك ويعود إلى مُلكه ثانياً.

قلت: وزالت دولة الملك الظّاهر برقوق كأن لم تكن ــ فسبحان من لا يزول مُلْكه ــ بعد أن حكم مصر أميراً كبيراً وسلطاناً إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً تفصيله: مدّة تَحكُّمه أميراً قَبَض على الأمير طَشْتَمُر العلائيّ الدوادار

(١) زيادة عن السلوك.

في تاسع ذي الحجّة سنة تسع وسبعين وسبعمائة إلى أن جلس على تخت المُلْك وتلقّب بالملك الظاهر في يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيّام. وكان يقال في هذه المدة «الأمير الكبير أتابك العساكر». ومن حين تسلطن في سنة أربع وثمانين المذكورة إلى يوم تَرَك وآختفى في ليلة الاثنين خامس جْمَادى الآخرة من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ست سنين وثمانية أشهر وسبعة عشر يوماً، فهذا تفصيل تحكُّمه على مصر أميراً أو سلطاناً إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً. وذهب مُلكه من الديار المصريّة على أسرع وجه، مع عظمة في النفوس وكثرة مماليكه وحواشيه؛ فإنه خُلِع من السلطنة وله نحو الألفي مملوك مشترى، غير من أنشأه من أكابر الأمراء والخاصكيّة من خُشْداشيّته وغيرهم هذا مع ما كان فيه من القوّة والشّجاعة والإقدام، فإنّه قام في هذا الأمر بالقوّة في آبتداء أمره وتوثب على الرئاسة والإمْرَة بيده دَفعةً واحدة حسب ما تقدّم ذكره، ولم يكن له يوم ذاك عشرة مماليك مشتراة وأعجبُ من هذا ما سيكون من أمره في سلطنته الثانية عند خروجه من حبس الكرك، وهو في غاية ما يكون من الفقر وقلّة الحاشية، ومع هذا يملك مصر ثانياً، كما سيأتي ذكر ذلك مفصلاً. وما أرى هذا الذي وقع للملك الظاهر في خلعه من المُلْك مع ما ذكرنا إلاّ خِذْلاناً من الله تعالى ولله الأمر.

وقال المقريزي ــ رحمه الله ــ: وكان في سلطنته مخلّطاً يخلّط الصالح بالطالح.[1]

ومما حكاه المقريزيّ قال: وكان له في مدته أشياء مليحة[2]، منها: إبطاله ما كان يؤخذ من أهل البرلُّس وشورى وبَلْطيم من أعمال مصر شبه الجالية[3] في كلّ سنة.

---

(١) ينقل المؤلف هنا عن المقريزي بالمعنى وليس بالنصّ.

(٢) عبارة المقريزي في السلوك: «وكانت له في مدته هذه آثار فاضلة».

(٣) الجالية: ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة عليهم كل سنة. ــ انظر صبح الأعشى: ٤٦٢/٣.

قلت: وقد تجدّد ذلك في دولة الملك الظاهر جَقْمَق ثانياً في سنة سبع وأربعين وثمانمائة. قال[١]: وهو مبلغ ستّين ألف درهم فضّة. يعني عن الذي كان يؤخذ من هذه الجهات المذكورة، قال: وأبطل ما كان يُؤخَذ على القمح بثغر دِمْياط من المكوس، وما كان يُؤخذ من معمل الفراريج بالجيزيّة[٢] وأعمالها والغربية وغيرها، وما كان يُؤخذ على الملح من المكس بِعينْتَاب وما كان يُؤخذ عل الدقيق بالبيرة من المكس. وأبطل أيضاً ما كان يُؤخذ في طرابُلُس عند قدوم النائب إليها ـ من قضاة البرّ وولاة الأعمال ـ عن كل واحد خمسمائة درهم[٣]. وأبطل أيضاً ما كان يؤخذ في كلّ سنة من الخيل والجمال والبقر والغنم من أهل الشرقيّة من أعمال مصر. وأبطل ما كان يؤخذ من المكس بديار مصر على الدريس والحَلْفاء خارج باب النصر. وأبطل ضمان المغاني بالكرك والشوبك ومن منية أبن خصيب وزِفْتَى من أعمال مصر. وأبطل رمي الأبقار بعد فراغ عَمَل الجسور على أهل النّواحي. وأنشأ من العمائر في هذه السلطنة الأولى المدرسة بخطّ بين القصرين من القاهرة، ولم يُعمَّر داخل القاهرة مِثلُها [بعد مدرسة السلطان حسن][٤] ولا أكثر معلوماً منها [بعد خانقاه شيخو][٤]. وله أيضاً الصهريج والسبيل بقلعة الجبل تجاه الإيوان. وعمّر الطاحون أيضاً بالقلعة، وأنشأ جسر الشريعة على نهر الأردن بطريق الشام وطوله مائة وعشرون ذراعاً في عرض عشرين ذراعاً. وجدّد خزائن السلاح بثغر الاسكندريّة. وعمّر سور دمنهور بالبحيرة. وعمّر الجبال الشرقيّة بالفيوم وزاوية[٥] البرزخ بدمياط وبنى قناطر[٦] بالقُدس. وبنى بحيرة برأس وادي بني سالم قريباً من المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام. قال: وكان حازماً، مهاباً، مُحباً لأهل الخير والعلم، إذا أتاه أحد منهم قام إليه، ولم يُعرف أحد قبله من الملوك

(١) أي المقريزي.

(٢) في نسخة السلوك التي بين أيدينا: «بالنحريرية». وذكر ابن دقماق النحريرية من ضمن مدن الأعمال الغربية. (انظر الانتصار: ٥/٨٦).

(٣) ذكر المقريزي في السلوك أن ذلك المقرر كان يقال له «مقرّر النائب» وهو يعادل ثمن بغلة.

(٤) زيادة عن السلوك.

(٥) كذا أيضاً في نزهة النفوس. وفي السلوك: «زريبة البرزخ».

(٦) كذا أيضاً في نزهة النفوس. وفي السلوك: «وقناة بالقدس».

[الترك] يقوم لفقيه، وقلّما كان يُمكِّن أحداً منهم من تقبيل يده؛ إلا أنه كان محباً لجمع المال. وحدث في أيامه تجاهر الناس بالبراطيل، فكان لا يكاد يُولَّى أحدٌ وظيفة ولا عملاً إلا بمال، وفسد بذلك كثير من الأحوال. وكان مُولَعاً بتقديم الأسافل وحطّ ذوي البيوتات.

قلت: وهذا البلاء قد تضاعف الآن حتّى خرج عن الحدّ، وصار ذوو البيوت مَعْيَرة في زماننا هذا. انتهى.

قال: وغيّر ما كان للناس من الترتيب. واشتهرَ في أيامه ثلاثة أشياء قبيحة: إتيان الذكران [حتى تشبّه البغايا لبوارهن بالغلمان، وذلك][1] لاشتهاره بتقريب المماليك الحِسان. والتظاهر بالبراطيل، وكان لا يكاد يُولّي أحداً وظيفة إلا بمال، واقتدى بهذا الملوك من بعده. وكساد الأسواق لشحه وقلة عطائه، فمساوئه أضعاف حسناته. انتهى كلام المقريزيّ من هذا المعنى.

قلتُ: ونحن نشاحح الشيخ تقيّ الدين المقريزيّ في كلامه حيث يقول: «وحَدَث في أيامه ثلاثة أشياء قبيحة» فأمّا إتيان الذكران، فأقول: البلاء قديم، وقد نسب اشتهار ذلك من يوم دخول الخراسانيّة إلى العراق في نوبة أبي مسلم الخراسانيّ في سنة آثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة.

وأما اقتناؤه المماليك الحسان، فأين الشيخ تقي الدين من مشترى الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى حِسان المماليك بأغلى الأثمان الذي لم يقع للملك الظاهر في مثلها، حتى إن الملك الناصر محمد قدّم جماعة من مماليكه ممن شُغف بمحبّتهم وأنعم عليهم بتقادم ألوف بمصر، ولم يُطرّ شارب واحد منهم، مثل بكتَمُر الساقي ويَلْبغا اليحياوي وأَلْطنبغا المارديني وقوصون ومَلِكْتَمُر الحجازي وطُقُزْدَمُر الحموي وبَشْتك وطُغَاي الكبير وزوَّجهم بأولاده، فحينئذ الفرق بينهما في هذا الشأن ظاهر. وأما قوله: أخذَ البراطيل، فهذا أيضاً قديم جدّاً من القرن الثالث وإلى الآن، حتى إنه كان في دولة الملك الصالح إسماعيل آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون

---

(١) زيادة عن السلوك.

ديوان يعرف بديوان البَذْل (أعني بديوان البِرْطيل) وشاع ذلك في الأقطار وصارَ مَنْ له حاجة يأتي إلى صاحب الديوان المذكور ويبذل فيما يَرُومه من الوظائف، وهذا شيء لم يصل الملك الظاهر برقوق إليه.

وأما شُحّه فهو بالنسبة لمن تقدّمه من الملوك شحيح، وإلى مَن جاء بعده كريم. والشيخ تقي الدين ــ رحمه الله ــ كان له انحرافات معروفة تارة وتارة؛ ولولا ذاك ما كان يَحْكي عنه في تاريخه السلوك قوله: «ولقد سمعت العبد الصالح جمال الدين عبد الله السكسريّ[١] المغربي يخبرني[٢] ــ رحمه الله ــ أنه رأى قرداً في منامه صعد المنبرْ بجامع الحاكم فخطب ثم نزل ودخل المحراب ليصلّي بالناس الجمعة، فثار الناس عليه في أثناء صلاته بهم، فأخرجوه من المحراب؛ وكانت هذه الرؤيا في أواخر سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، فكان تقدُّم الملك الظاهر برقوق على الناس وسلطنته تأويل هذه الرؤيا، فإنه كان مُتَخلّقاً بكثير من أخلاق القِرَدة شُحاً [وطمعاً][٣] وفَساداً، ولكن الله يفعل ما يريد، ولله الأمر من قبل ومن بعد. انتهى كلام المقريزي.

قلت: وتعبير الشيخ تقيّ الدين لهذه الرؤيا أن القرد هو الملك الظاهر فليس بشيء من وجوه عديدة، منها: أن برقوقاً لم يتسلطن بعد قتل الملك الأشرف إلا بعد أن تسلطَن ولد الملك الأشرف الملك المنصور عليّ وولده الملك الصالح أمير حاجّ. ثم تسلطن برقوق بعد ستّ سنين من وفاة الأشرف. ومنها أن الناس لمّا أخرجوا القرد في أثناء الصلاة كان ينبغي أن يعود ويصليّ بالناس بعد إخراجه ثانياً صلاة أطْول من الصّلاة الأولى، فإن برقوقاً لما خلع عاد إلى السلطنة ثانياً ومكث فيها أكثر من سلطنته الأولى حتى كانت تطابق ما وقع لبرقوق. وقولُنا: إن الشيخ تقي الدين كان له تارات يشْكُر فيها وتارات يذم فيها، فإنه لما صحب الملك الظاهر المذكور في سلطنته الثانية وأحسن إليه الظاهر أمعَن في الثناء عليه في عِدّة أماكن من مُصنفاته، ونَسِي مقالته هذه وغيرها، وفاته أن يغيِّر مقالته هذه، فإنه

(١) في السلوك: «السكسيوي». وفي نزهة النفوس: «السكسوكي».

(٢) رواية السلوك: «يخبر أبـي، رحمهما الله».

(٣) زيادة عن السلوك ونزهة النفوس.

أمعَن[١]، ويقال في المثل: «من شكر وذمّ، فكأنما كذّب نفسه مرّتين». وبإجماع الناس أن الملك الظاهر برقوقاً كان في سلطنته الأولى أحسن حالاً من سلطنته الثانية، فإنه آرتكب في الثانية أموراً شنيعة: مثل قتل العلماء وإبعادهم والغضّ منهم، لمّا أفْتَوْا بقتاله عند خروجه من الكرك. ونحن أعرف بأحوال الملك الظاهر وآبنه الناصر من الشيخ تقي الدين وغيره، وإن كان هو الأسنّ ولم أُرِد بذلك الحطّ على الشيخ تقيّ الدين ولا التعصُّب للملك الظاهر، غير أن الحق يُقال. والحق المحض فيه أنّه كان له محاسن ومساوىء، وليس للإمعان محلٌّ، كما هي عادة الملوك والحكّام. وبالجملة فهو أحسن حالاً ممن جاء بعده من الملوك بلا مُدافعة. والله تعالى أعلم.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر

وهي سنة أربع وثمانين وسبعمائة على أن الملك الصالح حاجّياً حكم منها إلى تاسع عشر شهر رمضان ثم حكم الملك الظاهر في باقيها.

وفيها تُوُفِّي قاضي قضاة الحنفيّة بدِمَشق هُمَام الدين أمير غالب ابن العلاّمة قاضي القضاة قوام الدين أمير كاتب الإتقاني الفارابي الأنزاري الحنفي ولِيَ أولاً حِسْبَة دمشق ثم القضاء بها وكان قليل العلم[٢] بالنسبة إلى أبيه، إلاّ أنه كان رئيساً حسن الأخلاق كريم النفس، عادلاً في أحكامه. وكان في ولايته يعتمد على العلماء من نوَّابه، فمشى حالُه وشُكِرت سيرتُه إلى أن مات في جُمَادى الأولى.

وتُوُفِّي قاضي القضاة بدر الدين عبد الوهاب آبن الشيخ كمال الدين أحمد آبن قاضي القضاة علم الدين محمود[٣] بن أبي بكر بن عيسى [بن بَدْرَان][٤]

(١) يريد أنه تطرّف وبالغ في حكمه.

(٢) ذكر المقريزي في السلوك أنه «كان قد بلغ غاية في الجهل». وذكر الجوهري في نزهة النفوس أنه «كان عارياً من العلوم ممتلئاً من ضدّها». وذكر ابن حجر في إنباء الغمر والدرر الكامنة صوراً من جهله وفجوره.

(٣) في السلوك: «محمد».

(٤) زيادة عن السلوك.

السعديّ الإخنائي المالكيّ. وُلِدَ في حدود العشرين وسبعمائة وتولّى القضاء بعد موت القاضي برهان الدين إبراهيم الإخنائي. وكان ضعيفاً، فجاءه التشريف من الملك الأشرف شعبان وأُلْقِيَ عليه على لحافه، فلما عُوفِيَ لبسه. وباشر القضاء وحسُنت سيرتُه، إلى أن صُرِف بعلم الدين سليمان بن خالد بن نُعَيْم البِساطِي في ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، ثم أُعيد في صفر سنة تسع وسبعين وعُزِل في السنة بالبساطيّ ثانياً ولزم دارَه إلى أن مات. وكان خيّراً ديِّناً مشكور السيرة.

وتُوفِّي الوزير الصاحب كَرِيم الدين عبد الكريم بن الرُّوَيْهِب في سابع عشر شهر رمضان، وقد آتَّضع حالُه وآفْتقر. وكان من أعيان الأقباط، وباشر عِدّة مباشرات، منها الوزرُ ونظرُ الدولة والاستيفاء وغير ذلك.

وتُوُفِّي الشيخ علاء الدين أبو الحسن عليّ بن عمر بن محمد آبن قاضي القضاة تقي الدين محمد آبن دَقِيق العيد، موقِّع[١] الحُكم في خامس عشر صفر.

وتُوفي الشيخ جمال الدين محمد [بن محمد][٢] بن عليّ [بن يوسف][٢] الأسوانيّ[٣] في يوم الأحد عاشر شهر ربيع الأوّل. وكان مَعدوداً من الفضلاء.

وتوفي الأمير فخر الدين إياس بن عبد الله الصَّرْغَتْمشيّ الحاجب أحد أمراء الطبلخانات في ثالث شهر ربيع الآخر. وكان فيه شجاعةٌ وعنده كرم وتعصُّب لمن يلوذ به.

وتُوفِّي الشيخ الإمام عزّ الدين عبد العزيز بن عبد الحق[٤] الأسيوطي الشافعي في يوم الأحد[٥] عاشر ذي القعدة بعدما تصدّر للاشتغال والإفتاء عدّة سنين، ودرّس بعدّة مدارس؛ وكان من أعيان الشافعية.

---

(١) الموقع هو الذي يكتب المكاتبات والولايات في ديوان الإنشاء السلطاني. وكان يقال له: موقّع الدرج وكاتب الدرج. ولعلّ المراد بموقع الحكم هنا الكاتب لدى قاضي القضاة. وكان يقال: الحكم والحكم العزيز للدلالة على عمل القضاء عامة وقضاء القضاء على وجه التحديد.

(٢) زيادة عن إنباء الغمر.

(٣) في إنباء الغمر والسلوك ونزهة النفوس: «الأسنوي».

(٤) في السلوك وإنباء الغمر والنزهة: «عبد الخالق».

(٥) في السلوك والنزهة: «يوم الأربعاء حادي عشر ذي الحجّة».

وتُوفي الأمير زين الدين زُبالة الفارِقَانيّ نائب قلعة دمشق بها في شعبان.

وتُوفي السلطان الملك المعزّ حسين بن أُوَيْس آبن الشيخ حسن بن حسين بن آقبغا بن أَيْلكان، المنعوت بالشيخ حسين، سلطان بغداد وتَبريزوما والاهما. وكان سِبْط القان أرغون بن بو سعيد ملك التتار. وَلِي سلطنة بغداد في حياة أبيه، لأن والده أُوَيساً، كان رأى مناماً يدلُّ على موته في يوم معين، فآعتزل المُلك وسلطن ولده هذا؛ وقد تقدّم ذكرُه في ترجمة والده المذكور في سنة ست وسبعين وسبعمائة. ودام الشيخ حسين هذا في المُلك إلى أن قتله أخوه السلطان أحمد بن أُوَيْس وملك بغداد بإشارة خَجَاشيخ الكَجْحانيّ في هذه السنة. وكان الشيخ حسين هذا ملكاً شاباً جميلاً جليلاً شجاعاً مِقداماً كريماً محُبباً للرعية كثير البر قليل الطمع؛ ولقد كانت العراق في أيامه مطمئنة معمورة إلى أن ملكها أخوه أحمد بعده فآضطربت أحوالها إلى أن قُتِل ثم ملكها قرا يوسف وأولاده، فكان خراب العراق على أيديهم. وبالجملة فكان الشيخ حسين هذا هو آخر ملوك بغداد والعراق.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع ونصف. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً وثلاثة أصابع. وهي سنة الغَرْقَى لِعظَم زيادة النيل.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر

وهي سنة خمس وثمانين وسبعمائة.

وفيها تُوُفّي الأديب المقرىء الفاضل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى آبن مخلوف بن مُرّ[1] بن فضل الله بن سعد بن ساعد السعديّ الأعرج الشاعر المشهور. كان لديه فضيلة، وعلا قدرُه على نظم الشِّعر، وكان عارفاً بالقراءات، وقال الشعر وسنُّه دون العشرين[2] سنة. ومن شعره رحمه الله: [الكامل]

(١) في السلوك: «ابن محمد». وفي إنباء الغمر: «ابن مري» وفي شذرات الذهب: «ابن سري».
(٢) في المنهل الصافي: «دون عشر سنين».

إنّ الكـريمَ إذا تنجّس عِـرضُـه لـو طَهّـرُوه بـزمـزمٍ لم يَـطهُـرِ
مِمّـا آعتراه من القَـذَارَةِ والقـذى لم يَنْقَ من نَجسٍ بسبعـة أبحـرِ

وتُوفي الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله من صديق المعروف بالخطائي، وهو مجرّد بالإسكندرية. كان أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية ورأس نوبة وكان ممن انْضمّ على الأمير بركة الجوُبانيّ، فقَبضَ عليه برقوق وحبسه مدّة ثم أفرج عنه وأعاده على إمرته إلى أن مات. وخلّف موجوداً كبيراً آستولى عليه ناظر الخاص.

وتُوُفي الأمير سيف الدين بَلاط بن عبد الله السَّيفي المعروف بالصغير أمير سلاح وهو بطرابلس في جُمادى الأولى. وكان حَشِماً وقوراً مشكور السيرة.

وتوفي الأمير سيف الدين تَمُرباي بن عبد الله الأفضليّ الأشرفيّ نائب صفد بها في جمادى الأولى وكان من أعيان المماليك الأشرفية. وقد تقدّم أنّه وِليَ نيابة حلب وغيرها، ثم عزله الملك الظاهر فنقله في عدة بلاد إلى أن ولّاه نيابة صفد، فمات بها.

وتُوُفِّي الشيـخ الإمام عَلَم الدين سليمان بن شهاب الدين أحمد بن سليمان بن عبد الرحمن [بن أبـي الفتـح بن هاشم](١) العسقلانيّ الحنبليّ، أحد فقهاء الحنابلة في ثالث [عشرين](١) جمادى الآخرة.

وتوفي قاضي قضاة الشافعية بدِمَشق وَليّ الدين عبد الله آبن قاضي القضاة بهـاء الدين أبـي البقـاء محمد بن عبـد البر بن يحيـى بن علي بن تمّـام السبكي الشافعي بها في هذه السنة.

وتوفي الأمير سيف الدين قُطْلوبُغَا بن عبد الله الكوكائيّ حاجب حُجَّاب دمشق في سادس المحرّم. وكان أصله من مماليك الأمير كوكـاي، وترقى إلى أن صار من جملة أمراء الألوف بالديار المصرية، ثم ولي إمرة سلاح، ثم نُقِل إلى حجوبية الحجّاب في أوّل سلطنة الظاهر برقوق عوضاً عن سُودون الفخريّ الشيخونيّ بحكم

(١) زيادة عن السلوك.

آنتقال سودون إلى نيابة السلطنة بالديار المصرية، فدام قُطْلوبُغَا هذا في وظيفة الحجوبيّة إلى أن مات؛ وشَغَرت الوظيفة وهي الحجوبية من بعده أربع سنين إلى أن وَليها أيدكار العُمريّ.

وتُوفِّي الأمير سيف الدين أرغون بن عبد الله دَوادار الأمير الكبير طَشْتَمُر العلائيّ في هذه السنة. وكان من جملة أمراء الطبلخانات بديار مصر وكان عارفاً عاقلاً مدبراً، وله وجاهة في الدول.

وتُوُفِّي الأمير شرف الدين موسى بن دَنْدار بن قَرَمان أحد أمراء الطبلخانات في ليلة الأربعاء العشرين من جمادى الأولى.

وتوفي مُسْتَوْفِي ديوان[1] المرتجع أمين الدين عبد الله المعروف بِجُعَيْص الأسلميّ في [ثالث عشر][2] المحرّم. كان من أعيان الكتّاب القِبْطيّة.

وتُوفي القاضي شرف الدين موسى آبن القاضي بدر الدين محمد بن محمد آبن العّلامة شهاب الدين محمود الحلبي الحنبلي، أحد موقِّعِي الدَّست، بمدينة الرَّملة عائداً من القاهرة إلى دمشق في رابع عشرين صفر؛ وكان من بيت كتابة وفضل.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثمانية أذرع سواء. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وأربعة عشر إصبعاً. والله تعالى أعلم.

* * *

(١) ديوان المرتجع: يختص هذا الديوان بالإقطاعات التي ترتجع ممن يموت من الأمراء أو ممن يتخلون عنها لحصولهم على إقطاع جديد. وكان المتحدث على هذا الديوان يسمى ناظر ديوان المرتجع ووظيفته نظر المرتجعات. ثم تعطّلت هذه الوظيفة وصار أمر المرتجع موقوفاً على مستوفي المرتجع. والمستوفي من كتّاب الدواوين ويأتي في المرتبة الثانية بعد الناظر. (انظر صبح الأعشى: ٣٣/٤، والدولة المملوكية: ص ١٢٣ وما بعدها).

(٢) زيادة عن السلوك.

السنة الثالثة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر

وهي سنة ست وثمانين وسبعمائة.

فيها تُوُفِّي الأمير سيف الدين بَهادُر بن عبد الله الجماليّ المعروف بالمُشْرِف، أحد أمراء الألوف بالديار المصرية وأمير حاج المحمل في ذي القعدة بعيون[١] القصب من طريق الحجاز وبها دُفِن وقبره معروف هناك. وكان مشكورَ السيرة، ولِيَ إمرة الحاج غير مرّة. رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي قاضي القضاة علم الدين أبو الربيع سليمان بن خالد بن نُعَيْم بن مُقدم آبن محمد بن حسن بن غانم بن محمد الطائي البساطيّ المالكي قاضي قضاة المالكية بالديار المصرية وهو معزول في يوم الجمعة سادس عشر صفر وقد أناف على الستين سنة وأصل آبائه من قرية شَبْرا بَسْيون[٢] بالغربية من أعمال القاهرة، ووُلِد هو ببساط[٣]. وكان فقيهاً فاضلاً بارعاً. وَلِيَ قضاء مصر في الدولة الأشرفيّة شعبان عوضاً عن بدر الدين الإخنائيّ بعد عزله، وباشر بعفّة وتقشُّف وآطّراح التكلُّف، حتى عُزل في سنة ثلاث وثمانين ولَزِم دارَه حتى مات.

وتُوفي الأمير سيف الدين طُنْج[٤] المحمديّ أحدُ أمراء الألوف بالديار المصرية، بعد أن أُخْرج منفياً إلى دِمَشق، فمات بها وكان من أعيان الأمراء.

وتُوُفِّي العلاّمة أوحد الدين عبد الواحد بن إسماعيل بن ياسين الحنفي المصري المولد والدار والوفاة، كاتب السر الشريف بالديار المصرية في يوم السبت ثاني ذي الحجّة. وكان فقيهاً فاضلاً مُفْتناً مشاركاً في عدّة علوم مع رياسة وحشمة خَدَم عند الملك الظاهر برقوق موقِّعاً، فلمّا تسلطن ولاّه كتابة السر بالديار المصرية، في شوّال سنة أربع وثمانين وسبعمائة، بعد عزل القاضي بدر الدين محمد بن

---

(١) عيون القصب: منزلة على البحر الأحمر في طريق الحج بين العقبة والمويلح.

(٢) شبرابسيون: هي بلدة كبيرة تعرف اليوم باسم بسيون. وهي من بلاد مركز كفر الزيات بمديرية الغربية. (محمد رمزي).

(٣) هي اليوم إحدى قرى مركز طلخا بمديرية الغربية بمصر. (محمد رمزي).

(٤) في السلوك: «طبج» بالباء. وفي إنباء الغمر: «طقج».

فضل الله، فباشر الوظيفة بحُرْمة وافرة، وحسُنت سيرتُه وعظُم في الدولة، فعاجلته المنيّة وعمرُه سبع وثلاثون سنة في عُنْفُوان شبيبته، وأُعِيد بدر الدين بن فضل الله من بعده إلى كتابة السر.

وتُوُفِّي القاضي تقيّ الدين عبد الرحمن آبن القاضي محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد بن عبد الدائم [التَّيْمِيّ][1] الحلبي الأصل المصري الشافعيّ ناظر الجيوش المنصورة في ليلة الخميس سادس عشر جُمادى الأولى. وسبب موته أن الملك الظاهر برقوقاً غَضِب عليه بسبب إقطاع زامل أمير العرب، وضربه بالدواة، ثم مدّه وضربه نحو ثلاثمائة عصاة، فحُمِل إلى داره في مِحَفّة ومات بعد ثلاثة أيام أو أكثر.

وُتُوفِّي الأمير جمال الدين عبد الله آبن الأمير بكتَمُر الحساميّ الحاجب أحد أمراء الطبلخاناه في يوم الأربعاء خامس عشر جُمادَى الأولى بداره خارج باب النصر.

وتُوفي الأمير علاء الدين علي بن أحمد بن السائِس الطَّيْبَرْسِيّ أستادار خَوَنْد بركة أمّ الملك الأشرف شعبان في سادس شوّال. وكان من أعيان رؤساء الديار المصرية، وله ثروة.

وتوفي العلاَّمة قاضي القضاة صدر الدين محمد آبن قاضي القضاة علاء الدين علي بن منصور الحنفي قاضي قضاة الديار المصرية، وهوقاضٍ، في يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الأوّل، وقد أناف على ثمانين سنة في ولايته الثانية؛ وتولّى القضاء عوضه قاضي القضاة شمس الدين الطرابُلُسيّ، وتولى مشيخة الصرغتمشيّة من بعده العّلامة جلال الدين التبّانيّ. قال العيني ــ رحمه الله ــ: كان إماماً عالماً فاضلاً كاملاً بَحْراً في فروع أبي حنيفة، مستحضِراً قوياً وكان ريِّض الخُلُق، كثير التواضع والحِلْم، لَيِّنَ الجانب، جميلَ المعاشرة، حسنَ المحاضرة والمذاكرة، معتمداً على جانب الصدق في أقواله وأفعاله، سعيداً في حركاته وسكناته. رحمه الله تعالى.

---

(١) زيادة عن السلوك.

وتُوُفِّي العلاّمة إمامُ عصره ووحيد دهره وأُعجُوبة زمانه أكملُ الدين محمد بن محمد بن محمود الرومي البَابَرْتيّ الحنفيّ شيخ خانقاة شيخون في يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان؛ وحضر السلطان الملك الظاهر الصلاة عليه، ومشى أمام نعشه من مصلاّة المُؤمنيّ إلى أن وقف على دَفْنِهِ بقُبّة الشيخونيّة، بعد أن همَّ على أن يَحْمِل نعشَه غير مرة، فتحمَّلَهُ أكابر الأمراء عنه. كان واحد زمانه في المنقول والمعقول، ونالتْه السعادة والْجَاه العريض، حتى إن الملك الظاهر برقوقاً مع عظمته كان ينزل في موْكِبه ويقف على باب خانقاه شيخون، حتى يتهيّأ الشيخ أكمل الدين للركوب، ويركب ويسير مع الملك الظاهر وقع له ذلك معه غير مَرّة؛ وهو الذي كان سبباً لقيام الملك الظاهر برقوق للقضاة، فإنه كان يقوم له إذا دخل عليه ولا يقوم للقضاة، لما كانت عادة الملوك من قبله، فكلّمه الشيخ أكمل الدين هذا في القيام للقضاة، حتى قام لهم وصارت عادةً إلى يومنا هذا. وبعد موته جلس الشيخ سراج الدين البُلْقِينِي عن يمين السلطان؛ وقد آستوعبنا أحواله في المنهل الصافي بأطول من هذا.

وتُوُفِّي قاضي مكّة وخطيبها كمال الدين أبو الفضل محمد بن أحمد بن علي العُقَيْلِيّ النُّوَيري الشافعي بمكة في يوم الأربعاء ثالث عشر شهر رجب.

وتُوُفِّي عالِمُ بغداد شمس الدين محمد بن يوسف بن علي [بن] الكَرْمانِيّ البغداديّ الشافعيّ شارح البُخارِي في المحرم بطريق الحجاز، وحُمِل إلى بغداد ودُفِن بها. ومولده في جُمَادى الآخرة سنة سبع عشرة وسبعمائة. وكان قَدِم مصر والشام. رحمه الله.

وتُوُفِّي صائم الدهر الشيخ محمد بن صديق التِّبْريزيّ الصوفيّ في ليلة الاثنين خامس عشر شهر رمضان بالقاهرة. أقام أربعين سنة يصوم ويُفطِر على حِمّص بفَلْس لا يَخْلِطه إلا بالمِلْح فقط. وكان على قَدَم هائل من العبادة.

وتُوُفِّي الأمير الطواشي شِبْل الدولة كافور بن عبد الله[1] الهندي الزُّمُرُّدِي

(١) في إنباء الغمر: «كافور بن محمد بن أحمد بن عبد الله».

الناصري حسن في ثامن شهر ربيع الأول وقد عُمِّر طويلاً. وهو صاحب التربة بالقرافة.

وتُوُفِّي الأمير الكبير سيف الدين طَشْتَمُر بن عبد الله العلائيّ الدوادار. كان من أجلّ الأمراء، وهو أوّل دوادار وَلِيها بتقدمة ألف، ثم وَلِيَ نيابة الشام، ثم أتابك العساكر بالديار المصرية إلى أن رَكِب عليه الملك الظاهر بَرْقوق قبل سلطنته وقَبضَ عليه وحبسه مدّة، وولّى الأتابكيّة من بعده[1]، ثم أخرجه إلى القدس بطّالاً، ثم ولاه نيابة صفد ثم حماة إلى أن مات. وكان ديِّناً خيِّراً، وله مشاركة في فنون، وفيه محبة لأهل العلم والفضل. وكان يكتب الخطّ المنسوب ويُحِب الأدب والشعر.

وتُوُفِّي تاج الدين موسى بن سعد الله بن أبي الفرج ناظر الخاصّ وهو معزول. وكان يُعرف بآبن كاتب السعديّ. وكان من أعيان الأقباط.

وتُوُفِّي تاج الدين بن وزير بيته الأسلميّ ناظر الإسكندرية بها في شهر ربيع الآخر.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم ثمانية أذرع وثمانية أصابع. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وثمانية أصابع.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر

وهي سنة سبع وثمانين وسبعمائة.

وفيها تُوُفّي قاضي قضاة الحنفية بحلب تاج الدين أحمد بن شمس الدين محمد بن محمد[2] بدمشق في هذه السنة وكان فقيهاً فاضلاً محدثاً أديباً شاعراً. ومات عن سنّ عالية.

---

(١) لعل بعد هذه الكلمة سقطاً. ولم نهتد إليه بعد مراجعة المصادر التي بين أيدينا.
(٢) كذا أيضا في نزهة النفوس. وفي السلوك وإنباء الغمر: «أحمد بن محمد بن محبوب».

وتُوُفِّي القاضي جمال الدين إبراهيم آبن قاضي قضاة حلب ناصر الدين محمد آبن قاضي قضاة حلب كمال الدين عمر آبن قاضي قضاة حلب عز الدين عبد العزيز آبن الصاحب فخر الدين[١] محمد آبن قاضي القضاة نجم الدين أحمد آبن قاضي القضاة جمال الدين هبة الله آبن قاضي قضاة حلب محب[٢] الدين محمد آبن قاضي قضاة حلب جمال الدين هبة الله آبن قاضي قضاة حلب نجم الدين أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن عامر بن أبي جَرَادَة بن ربيعة الحنفي المعروف بآبن العديم. مات عن نيّف وسبعين سنة.

قلت: هو من بيت علم ورياسة؛ وقد تقدّم ذكرُ جماعة من أقاربه؛ ويأتي أيضاً ذكرُ جماعة منهم، كلٌّ واحد في محلّه، إن شاء الله تعالى.

وتُوُفِّي رئيس التُّجّار زكيّ الدين أبو بكر بن عليّ الخَرُّوبيّ المصريّ بمصر القديمة في يوم الخميس تاسع عشر المحرّم، وخَلَّف مالاً كبيراً.

وتُوُفِّي الأمير فخر الدين عثمان بن قارا بن مهنّا بن عيسى بن مهنّا أمير آل فضل بالبلاد الشامية في شهر ربيع الأوّل. وكان من أجلّ ملوك العرب.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين قَرَا بلاط بن عبد الله الأحمدي اليَلْبُغاويّ نائب الإسكندرية بها في شهر ربيع الآخر. وكان من أكابر مماليك الأتابك يلبُغَا العُمَري الخاصّكي.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم نجم الدين أحمد بن عثمان بن عيسى بن حسن بن حسين بن عبد المحسن الراسوفيّ الدمشقي الشافعيّ المعروف بابن الحبّال في جُمَادى الآخرة ـ بعد عوده من مصر ـ بدمشق. وكان فقيهاً عالماً متبحِّراً في مذهبه آنتهت إليه رياسة مذهب الشافعيّ بدمشق في زمانه، وتصدّى للإفتاء والتدريس والاشتغال سنين عديدة.

(١) في السلوك: «محيي الدين».
(٢) في السلوك: «مجد الدين».

وتُوُفِّي السيد الشريف شمس الدين أبو المجد محمد ابن النقيب جمال الدين أحمد آبن النقيب شمس الدين محمد بن أحمد الحَرَّاني الحلبي الحنفي عن سبع وأربعين سنة، ولم يل نقابة الأشراف.

وتُوُفِّي الشيخ الأديب شهاب الدين أحمد بن عبد الهادي بن أحمد، المعروف بالشاطر الدمنهوريّ الشاعر المشهور، بعقبة أيلا(١) متوجِّهاً إلى الحجاز الشريف، في العشر الأول من ذي القعدة. ومولده في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة. وكان أديباً بارعاً فاضلاً، بارعاً في فنون لاسيّما في [حلّ](٢) المترجم ونظم القَرِيض. ومن شعره في مِرْوَحة: [الطويل]

ومخطوبةٍ في الحرّ من كل هاجرٍ ومهجورة في البرد من كلّ خاطبِ
إذا ما الهوى المقصورُ هيَّج عاشقاً أتت بالهوى الممدودِ من كل جانبِ

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين آقْبُغا بن عبد الله الدَّوَادَار في شهر ربيع الآخر وكان من المماليك اليلبُغاويّة من حزب خشداشية الملك الظاهر برقوق.

وتُوفي الرئيس شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن سَبع العَبْسيّ مستوفِي ديوان الأحباس في ثامن [عشر](٣) شعبان. وكان معدوداً من أعيان الديار المصرية.

وتُوفّي قاضي القضاة زَيْن الدين عبد الرحمن بن رُشْد المالكيّ، قاضي قضاة حلب بها. وكان معدوداً من فقهاء المالكية.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع وأربعة أصابع. مبلغ الزيادة سبعة عشر ذراعاً وخمسة عشر إصبعاً.

* * *

---

(١) ويقال: عقبة أيلة، وهي مدينة العقبة المعروفة على البحر الأحمر.
(٢) زيادة عن إنباء الغمر والشذرات.
(٣) زيادة عن السلوك.

السنة الخامسة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر وهي سنة ثمان وثمانين وسبعمائة

فيها تُوفّي القاضي بدر الدين أحمد بن شرف الدين محمد آبن الوزير الصاحب فخر الدين محمد آبن الوزير الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم المعروف بآبن حِنّاء في يوم الجمعة تاسع عشرين جُمادَى الآخرة بمدينة مصر عن نيّف وسبعين سنة. وكان فقيهاً عالماً مُفتَناً أديباً معدوداً من فقهاء الشافعية. ومن شعره: [الكامل]

هُـنِّئتَ يـا عـودَ الأراكِ بثغـره ... إذْ أنت لـلأوطان غيـرُ مفارقِ
إن كنتَ فـارقتَ العقيقَ وبـارقـاً ... هـا أنت ما بين العُـذَيْبِ وبارقِ

قلت: وأحسن من هذا قول آبن دِمرداش الدِّمَشقيّ في المعنى: [الطويل]

أقول لِمْسواكِ الحبيبِ لـك الهنا ... بلثم فمٍ مـا نـالـه ثغرُ عـاشقِ
فقال وفي أحشائه حُرَق الجَوَى ... مـقـالـةَ صَبٍّ لـلديـار مُفَـارقِ
تذكَّرتُ أوطاني فقلبـي كما تـرى ... أُعَـلِّلُه بَيْن الـعـذَيْب وبـارقِ

ولابن قُرْناص في هذا المعنى، وهو أيضاً في غاية الحسن: [الطويل]

سـألتُك يـا عود الأراكِ بـأن تَعُدْ ... إلى ثَغرٍ من أهوى فقبِّلْه مُشفقـا
ورِد من ثَنِيّـاتِ العُـذَيْبِ مُنَيْهِـلاً ... تسلسـلَ مـا بين الأبَيْـرقِ والنَّقَـا

وتُوفِّي السيد الشريف شهاب الدين أحمد بن عَجْلان بن رُمَيْثَة، واسم رُمَيْثَة مُنْجد [آبن أبـي نُمَيّ سعد][1] الحسنيّ المكيّ أمير مكّة في حادي عشرين[2] شعبان عن نَيف وستين سنة بمكة ودُفِن بالمَعْلاة. وكان حسن السيِّرة مشكور الطريقة. وولي إمرة مكة بعده آبنه محمد بن أحمد بأمر كُبَيْش بن عَجْلان.

وتُوفِّي الشيـخ عماد الدين إسماعيل [بن عبد الله][3] أحدُ الأفراد في الخطّ

(١) زيادة عن المنهل الصافي للمؤلف.
(٢) في المنهل الصافي: «في العشرين من شعبان».
(٣) زيادة عن إنباء الغمر.

المنسوب المعروف بابن الزُّمُكْحُلْ كان رئيساً في كتابة المنسوب كان يكتب سورة الإخلاص على حَبة أرز كتابة بَيِّنَةً تُقرأ بتمامها وكمالها لا يَنْطَمِسُ منها حرف واحد وكان له بدائعُ في فنّ الكتابة وكتَبَ عِدّة مصاحف إلى أن مات ــ والزُّمُكْحُل: بزاي مضمومة، وميم مضمومة أيضاً، وكاف ساكنة، وحاء مضمومة مهملة وبعدها لام ساكنة.

وتُوفّي الأمير سيف الدين جُلْبان بن عبد الله الحاجب أحد أمراء الطبلخانات في شهر رمضان. وكان عاقلاً ساكناً مشكورَ السيرة.

وتُوفي الأمير غَرْس الدين خليل بن قراجَا بن دُلْغَادِر أمير التُّركمان اليروقية وصاحب أُبُلُسْتَيْن قتيلاً في الحرب مع الأمير صارم الدين إبراهيم بن همر(١) التُّركمانيّ، قريباً من مدينة مَرْعش عن نيِّف وستين سنة.

وتُوفّي الأمير سُودون العلائيّ نائب حماة قتيلاً في محاربة التُّرْكمان أيضاً. وكان ممن أنْشَأَهُ الملك الظاهر برقوق، وأظنّه من خشداشيّته.

وتُوفّي الشريف بدر الدين محمد بن عُطَيْفة بن منصور بن جَمّاز بن شِيحة أمير المدينة النبويّة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

وتوفي الشيخ الزاهد العابد الصالح شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان القِرَميّ الحنفيّ بالقدس الشريف في صفر. ومولده في ذي الحجّة سنة ستة وعشرين وسبعمائة. وكان كثير العبادة والتِّلاوة للقرآن حتى قيل: إنه قرأ في اليوم والليلة ثماني خَتَمات.

قلت: هذا شيء من وراء العقل فسبحان المانح.

وتُوفِّي الشيخ الإمام العابد الصالح الورع شمس الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن إلياس القُونَوِيّ الحنفيّ بدِمشق عن نيّف وسبعين سنة. وكان إماماً عالماً زاهداً شديداً في الله. وقَدِم القاهرة غيرَ مرّة وتصدّى للإقراء والتصنيف سنين عديدة

(١) في إنباء الغمر: «ابن يغمر».

وآنتفع الناس به. ومن مصنَّفاته المفيدة «شرح تلخيص المفتاح» و«كتاب درر البحار» ونَظَم فيه فقه الأربعة و«شرح مجمع البحرين» في الفقة في عشر مجلّدات، وشرح آخر في ستة أجزاء، وله: «رسالة في الحديث» وغير ذلك. رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي شيخ أهل المِيقات ناصر الدين محمد بن الخطائي في يوم الأربعاء ثالث عشرين شعبان. وكان إماماً في وقته.

وتُوُفِّي أيضاً قرينه في عِلْم الميقات شمس الدين محمد بن الغزوليّ في رابع شهر رجب. وكان أيضاً من علماء هذا الشأن.

وتُوُفِّي ملك الغرب صاحب مدينة فاس وما وَالاها السلطان موسى آبن السلطان أبي عِنان فارس بن أبي الحسن المَرينيّ في جُمَادى الآخرة. وأُقِيم بعده المستنصر محمد بن أبي العباس أحمد المخلوع، ابن أبي سالم فلم يتم أمرُه وخُلع بعد قليل. وأقيم الواثق محمد بن السلطان أبي الحسن، كلّ ذلك بتدبير الوزير آبن مسعود وهو يوم ذاك صاحب أمر فاس.

وتُوفّي القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن الزَّرْكَشي أمين الحُكم فجأةً بالقاهرة في ليلة الجمعة تاسع عشر شهر ربيع الأوّل، وآتُّهِم أنّه سَمَّ نفسَه، حتى مات لمالٍ بَقِي عليه فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

وتُوُفّي الأمير أحمد آبن السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في جُمادَى الآخرة بمجلسه في قلعة الجبل بالحوش السلطانيّ.

وتُوفِّي قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن التّقيّ الحنبليّ قاضي قضاة الحنابلة بدمشق بها في هذه السنة.

وتُوُفّي الأمير شرف الدين موسى، المعروف بآبن الفافا، أُستدار الأمير أيتمش البجاسيّ، في تاسع شوال. وكانت لديه فضيلة وله ثروة عظيمة وحَشم. وكان من رؤوس الظاهرية[١] مذهباً. وأثنى عليه الشيخ تقيّ الدين المقريزي. رحمه الله.

---

(١) أي أتباع المذهب الظاهري، وهو مذهب الإمام ابن حزم الأندلسي ــ راجع فهرس المصطلحات.

وتُوفّي السيد الشريف هيازع بن هبة الله الحسنيّ المدنيّ أمير المدينة النبويّة. مات وهو في السجن بثَغر الإسكندريّة في شهر ربيع الأوّل.

وتُوفِّي الشيخ شرف الدين صدقة ـ ويُدْعى محمد ـ بن عمر بن محمد بن محمد العادليّ، شيخ الفقراء القادريّة بالفيوم في جُمادى الآخرة. وكان ديّناً صالحاً. أحرم مرّة من القاهرة.

وتُوفّي علم الدين يحيى القِبْطي الأسلمي، ناظر الدولة، المعروف بكاتب ابن الديناري، في شهر ربيع الآخر.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع سواء. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً، وقيل: تسعة عشرة ذراعاً وسبعة عشرة إصبعاً.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر

وهي سنة تسع وثمانين وسبعمائة.

وفيها تُوفّي الأمير سيف الدين طَيْنال بن عبد الله الماردينيّ الناصريّ. كان أصله من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، وصار في أيام الملك الناصر حسن أمير مائة ومقدّم ألف بالديار المصرية. ثم نفاه الناصر حسن إلى الشام، فأقام بها إلى أن طَلَبه الملك الأشرف شعبان وأعاده إلى تقدِمة ألف بديار مصر مدّة. ثمّ آنتزعه منه وأنعم عليه بإمرة طبلخاناه وجعله نائب قلعة الجبل، فدام على ذلك مدّة سنين. ثمّ عزله وأخذ الطبلخاناه منه وأنعم عليه بإمرة عشرة، وتُرِك طَرْخاناً[1] إلى أن مات في شهر رمضان وقد عُمِّر.

(١) الطرخان: هو الجندي أو الأمير البطّال الذي يؤخذ منه إقطاعه لكبر سنّه أو لغضب السلطان عليه. وكان يعطى أحياناً راتباً شهرياً من المال.

وتوفِّي الأمير تاج الدين إسماعيل بن مازن الهوَّارِيّ أمير عرب هوارة ببلاد الصعيد في هذه السنة وتَرَك أموالاً جمّة.

وتوفي الوزير الصاحب شمس الدين إبراهيم المعروف بكاتب أُرْنان. كان أصله من نصارى مصر، وأسلم وخدم في ديوان الملك الظاهر برقوق في أيام إمرته، بعد أن باشر عند جماعة كبيرة من الأمراء. ولمّا تسلطن ولّاه الوزارة على كره منه، وأحوال الدولة غير مستقيمة فلما وُزِّر نفَّذ الأمور ومشَّى الأحوال، مع وفور الحرمة ونفوذ الكلمة، والتقلّل في الملبس، بحيث إنه كان مثل أوساط الكُتّاب. ودخل الوزارة وليس للدولة حاصل من عين ولا غلّة، وقد آستأجر الأمراء النواحي بأجرة قليلة وكفّ أيدي الأمراء عن النواحي، وضبط المتحصّل، وجدّد مطابخ السكّر، ومات والحاصل ألف ألف درهم فضة، وثلاثمائة وستون ألف إردبّ غلّة، وستة وثلاثون ألف رأس من الغنم، ومائة ألف طائر من الإوز والدّجاج، وألف قنطار من الزيت، وأربعمائة قنطار ماء ورد، قيمة ذلك كلّه يوم ذاك خمسمائة ألف دينار هذا بعد قيامه بكُلَف الديوان تلك الأيام أحسن قيام.

وتُوفِّي الحافظ صدر الدين سليمان بن يوسف بن مُفلح الياسوفيّ الطوسيّ الحنفيّ الشافعيّ بقلعة دِمَشق قتيلاً بها، بعد أن آعتُقل بها مدّة في محنة رُمِي بها. وكان من الفضلاء العلماء، عارفاً بالفقه، إماماً في الحديث والتفسير عفيفاً عن أمور الدنيا.

وتوفي الأمير سيف الدين طَقْتَمُش بن عبد الله الحسنيّ اليلبغاويّ أحد أمراء الطبلخاناه في سابع شهر رجب. كان من أعيان مماليك الأتابك يلبغا العمريّ، وممن قام مع الملك الظاهر برقوق.

وتُوفِّي الشيخ الزاهد الوَرع أمين الدين محمد بن محمد بن محمد الخُوارَزْمِيّ النَّسفي اليلبُغاوي الحنفيّ المعروف بالخلواتيّ في سابع عشرين شعبان، خارج القاهرة. وكان ممن جمع بين العلم والعمل.

وتُوُفّي الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد القِرَميّ الحنفيّ قاضي العسكر بالديار المصريّة في سابع عشرين شهر ربيع الآخر. وكان فاضلاً بارعاً في

فنون من العلوم. وكان خصيصاً عند السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين.

وتوفي قاضي قضاة المالكيّة بحلب زين الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن الجعيد الشهير بآبن رُشد المالكيّ المغربيّ السِّجلْمَاسيّ كان من فضلاء السادة المالكية، وله مشاركة في سائر العلوم. وأفتى، ودرّس، وتولّى قضاءَ حلب، وحسُنت سيرتُه.

وتوفي التاجر نور الدين علي بن عِنان في شوّال. وكان من أعيان تجّار الكارم[1] بمصر، وخلّف مالاً كبيراً.

وتوفّي القاضي شمس الدين محمد بن علي بن الخشاب الشافعيّ في شعبان. وكان فاضلاً عالماً محدّثاً حدّث عن وَزِيرَة والحَجّار.

وتُوُفِّي الخطيبُ البليغ ناصر الدين محمد بن علي بن محمد [بن محمد][2] بن هاشم بن عبد الواحد بن عشائر الحلبي الشافعيّ بالقاهرة في ليلة الأربعاء سادس عشرين شهر ربيع الآخر. وكان فقيهاً عالماً عارفاً بالفقه والحديث والنحو والشعر وغيره. وولي هو وأبوه خِطابة جامع حلب، وقَدِم إلى القاهرة فلم تطُل مدّته حتى مات.

وتُوفي القاضي فتح الدين محمد آبن قاضي القضاة بهاء الدين [عبد الله بن][2] عبد الرحمن بنَ عقِيل الشافعيّ مُوَقّع[3] الدَّرج بالديار المصرية في حادي عشرين صفر. وكان معدوداً من فضلاء الشافعية.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع وأربعة أصابع. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وخمسة عشر إصبعاً.

* * *

(١) تجار الكارم: هم فئة من التجار كان بيدهم تجارة البهار والفلفل والقرنفل ونحوها مما يجلب من الهند ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) راجع ص ٢٤٢ من هذا الجزء، حاشية (١).

السنة السابعة من سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى على مصر

وهي سنة تسعين وسبعمائة.

وفيها تُوفي قاضي القضاة برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحيم[١] بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جَمَاعة الكناني الشافعي قاضي قضاة مصر ثم دمشق بها وهو على قضائها في ليلة الجمعة ثامن عشر شعبان. ومولده في سنة خمس وعشرين وسبعمائة. وسمع الكثير بمصر والشام، وبرع في الفقه والعربية، وولي خطابة المسجد الأقصى. ثم ولي القضاء بديار مصر ثم بالشام.

قلت: وهو خلاف قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة وهو جدّ عبد الرحمن والد صاحب الترجمة.

وتُوُفّي الشيخ جمال الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن الأميوطي[٢] الشافعي بمكة المشرفة في ثاني شهر رجب بعد أن عُمّر وأسمع صحيح مسلم وغيره. وكان فقيهاً بارعاً أفتى ودرّس واشتغل سنين.

وتُوفّي الشيخ المُعتَقد إسماعيل بن يوسف الإنبابي بزاويته بناحية منبابة في سلخ شعبان. وكان شيخاً معتَقَداً وله كرامات. وللناس فيه آعتقاد وظنون حسنة. ترجمه الشيخ تقيّ الدين المقريزي، وقد رآه وحضر عنده وذكر عن الوقت الذي كان يعمله بزاويته ــ أعني المولد [وهو] قبائح كان الإضراب عن ذكرها أليق ــ وإن كان هو كما قال: مما يقع به من الفساد من المتفرّجين والمترددين، اغير أن السكات في مثل هذا أحسن، كونه رجلاً منسوباً إلى الصلاح ومن ذريّة الصالحين على أنني أيضاً أُنْكِر هذا الوقت الذي يُعمل بالزاوية المذكورة إلى الآن، وإبطالُه من أعظم معروف يُعمل، لِمَا تَرْتَكِب العَامّةُ فيه من الفسق، وصار عندهم هذا الوقت من جملة النُزه، ويتواعدون عليه من قبل عمله بأيام، ويتوجّهون إليه أفواجاً. ومنهم من له سنين على

---

(١) في الأصل: «عبد الرحمن». وما أثبتناه عن السلوك والدرر الكامنة والشذرات.

(٢) كذا أيضاً في إنباء الغمر والدرر الكامنة. وفي السلوك والشذرات: «الأسيوطي». والأميوطي: نسبة إلى أميوط في كورة الغربية من أعمال مصر.

ذلك وهو لا يعرف باب الزاوية، غيرَ أنه صار ذلك عنده عادة، يتنزَّه بها هو ومن يُريد هو وأمثاله ممّن لا خلاق لهم، فلا قوّةَ إلا بالله ما شاء الله كان.

وتُوفِّي الأمير سيف الدين بهادُر بن عبد الله المَنْجَكِيّ الأستادار وأحد أمراء الألوف بالديار المصرية في أوّل جُمادى الآخرة. وأصله من مماليك الأمير منجك اليوسُفِيّ الناصريّ. وكان الملك الظاهر برقوق لمّا صار بخدمة منجك المذكور بقي بينهما أَنَسَةٌ وصحبة، فلمّا تسلطن برقوق عرف له ذلك ورقّاه حتى ولاه الأستدارية العالية إلى أن مات وتولّى محمود بن علي الاستدارية بعده. وكان بهادُر عنده معرفة وعقل وسياسة وتدبير ومات ولم ينتكب كونه كان فيه إحسان للفقراء والصلحاء والغرباء، وكان له صدقات كثيرة وبِرٌّ وافر. وكان أصله رومياً ــ وقيل إفرنجياً ــ وأخذه الأمير منجك.

قلت: وهو أعظم أستدار ولي الاستدارية في دولة الملك الظاهر برقوق إلى يومنا هذا وأوفرهم حرمة وأوقرهم في الدول. رحمه الله.

وتُوفّي الوزير الصاحب علم الدين بن القسِّيس الأسلمي القبطيّ المعروف بكاتب سيدي في آخر ذي الحجة، بعد أن باشر عِدّة وظائف أعظمها الوَزَر.

وتُوفّي الرئيس أمين الدين عبد الله بن المجد فضل الله بن أمين الدين عبد الله بن ريشة القِبْطي الأسلميّ ناظر الدولة في ليلة الأربعاء سادس جُمادَى الأولى. وكان معدوداً من أعيان الأقباط بالديار المصرية.

وتُوفّي الأمير سيف الدين سيرج بن عبد الله الكمشبُغاويّ نائب قلعة الجبل، في تاسع عشرين شهر ربيع الآخر. وكان من جملة أمراء الطبلخانات. وكان وَقُوراً وله وجاهة.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام العالم العلّامة علاء الدين أحمد بن محمد المعروف بالعلاء السِّيرامِيّ العجميّ الحنفيّ شيخ الشيوخ بالمدرسة الظاهرية البرقوقية في ثالث جُمادَى الأولى. وكان إماماً عالماً مقدّماً مفتناً أعجوبة زمانه في الفقه وفروعه وعِلمَي المعاني والبيان والأصول. وكان أدرك المشايخ، وأخذ عنهم العلوم العقلية

والنقلية، وبَرَع، ودرّس، وأفتى في بلاد العجم بمدينة هَرَاة وخُوارَزْم وسَرَاي وقِرَم وتِبْرِيز، حتى شاع ذكره وبَعُد صيتُه. ولمّا بنى الملك الظاهر مدرسته ببين القصرين أرسل يطلبه على البريد حتى قَدِم فولّاه شيخ شيوخ مدرسته، فدام بها إلى أن أدركته المنية، ودُفِن بتربة الملك الظاهر برقوق بالصحراء. وهو أحد من أوصى الملك الظاهر أن يُدْفَن تحت رجليه ويبنى عليه مدرسة ففعل ذلك. وكان ديِّناً خيراً عابداً صالحاً. ولمّا مات طلب السلطان الشيخ سيف الدين السِّيرامي من حلب وولّاه عوضه شيخ[1] الظاهريّة، وهو والد الشيخ نظام الدين يحيى وجدّ الشيخ عَضُد الدين عبد الرحمن شيخ الظاهرية المذكورة الآن.

وتُوُفّي القاضي تقيّ الدين محمد بن محمد بن أحمد بن شاس المالكي أحد أعيان موقِّعِي الدست[2] بالديار المصرية في سابع عشر شعبان. وكان كاتباً فاضلاً. عُيِّن لكتابة السرّ بديار مصر غير مرّة.

وتُوفّي الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن قليج[3] والي الفيّوم في هذه السنة. كان أبوه من أمراء الألوف بالديار المصرية، وكذلك جَدُّه، وكان هو من جملة أمراء الطبلخانات. رحمه الله تعالى.

وتُوفّي الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير قطلوبُغَا المحمدي المعروف

---

(١) لعل الصواب: «مشيخة الظاهرية».

(٢) موقِّع الدست أو كاتب الدست: يأتي في المرتبة الثانية بعد كاتب السرّ، وفي المرتبة الأولى قبل موقّع الدرج أو كاتب الدرج. وعمله قراءة القصص في مجلس السلطان بعد قراءة كاتب السر، وله أن يوقّع عليها بعد توقيع كاتب السرّ. أما كاتب الدرج ــ ويقال موقّع الدرج تجاوزاً ــ فلا يحق له التوقيع. وكان عدد كتّاب الدست في أوائل الدولة التركية ثلاثة كتاب. ثم تزايدوا بعد ذلك شيئاً فشيئاً خصوصاً في دولة الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج حتى جاوزوا العشرين. (انظر صبح الأعشى: ١/١٣، ١٣٧ و ٥/١٤٠).

(٣) في السلوك: «ابن مفلح» وفي النزهة: «ابن مليح».

بقشقلندق[١] أحد أمراء العشرات في ثاني جمادى الآخرة. وكان له وجاهة وعنده فروسية.

وتُوفّي القاضي عز الدين أبو اليمن محمد بن عبد اللطيف بن الكويك الرّبعي الشافعي في ثالث عشر جمادى الأولى عن خمس وستين سنة. وكان له سماع ورواية ولديه فضيلة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستة أذرع وثمانية أصابع. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذرعاً وأربعة أصابع. وكان الوفاء سابع عشر مسري أحد شهور القبط.

(١) في السلوك والنزهة: «المعروف بقشقلدق». وسماه ابن حجر في إنباء الغمر: «محمد بن قطلوبغا الفخري المعروف ببيليك».

ذكر سلطنة الملك المنصور حاجيّ[١] الثانية على مصر

السلطان الملك الصالح ثم المنصور حاجّي آبن السلطان الملك الأشرف شعبان آبن الأمير الملك الأمجد حسين آبن السلطان الملك الناصر محمد آبن السلطان الملك المنصور قلاوون.

وقد تقدّم ذكرُ نسبه أيضاً في سلطنته الأولى.

وكان سبب عوده للملك أنه لمّا وقع ما حكيناه من خروج الأمير يلبغا الناصري وتمربغا الأفضلي المدعو منطاش بمن معهما على الملك الظاهر برقوق، ووقع ما حكيناه من الحروب بينهم، إلى أن ضعُف أمر الملك الظاهر، وآختفى، وترك ملك مصر، وآستولى الأمير الكبير يلبغا الناصري على قلعة الجبل، وكلّمه أصحابه على أنه يتسلطن، فلم يفعل، وأشار بعود الملك الصالح هذا وقال: «إن الملك الظاهر برقوقاً خلعه بغير سبب» وطلب أكابر الأمراء من أصحابه مثل الأمير منطاش المقدم ذكره والأمير بُزْلار العُمَرِي الناصري والأمير قرادمرداش الأحمدي وغيرهم، وكلّمهم في عَوْد الملك الصالح إلى السلطنة ثانياً. فأجاب الجميع وطلعوا من الإسطبل السلطاني إلى الحوش من قلعة الجبل، وجلس الأتابك يلبغا الناصري به، وطلب الملك الصالح هذا من عند أهله وقد حضر الخليفة والقضاة وبايعوه بالسلطنة، وألبسوه خِلْعتها. ورَكِب من الحوش بُأَبَّهة المُلك وشِعار السلطنة إلى الإيوان بقلعة الجبل، والأمراء المذكورون مشاة بين يديه. وأجلسوه على تخت الملك وغيّروا لقبه بالملك المنصور؛ ولم نعلم بسلطان تغيّر لقبه قبله ولا بعده، فإنّه كان لقبه أولاً

(١) راجع ص ١٦٨ من هذا الجزء، حاشية (١).

الصالح وصار الآن في سلطنته الثانية المنصور. وقلده الخليفة أمور الرعية على العادة، وقبّل الأمراء الأرض بين يديه، ودقّت النواقيس والكوسات، ونودي باسمه بالقاهرة ومصر وبالأمان والدعاء للملك المنصور، ثم للأتابك يلبغا، وتهديد من نهب، فآطمأنت الناس.

ثم قام الملك المنصور إلى القصر، وسائر أرباب الدولة بين يديه. وآستقرّ الأمير الكبير يلبغا الناصري أتابك العساكر بالديار المصرية ومدبِّر المملكة وصاحب حلِّها وعَقْدها[١] ففي الحال أمر الناصري للأمير أَلْطُنْبغا الأشرفي والأمير أرسلان اللفاف وقراكسك والأمير أَرذُبُغا العثماني أن يكونوا عند السلطان الملك المنصور بالقصر، وأن يمنعوا من يدخل عليه من التُّركمان وغيرهم. ونزل الأتابك يلبغا الناصريّ إلى الإسطبل السلطاني حيث هو سكنه وخلع على الأمير حسام الدين حسين بن علي بن الكُوراني بولاية القاهرة على عادته أولاً، فسرّ الناس بولايته. وتعيَّن الصاحب كريم الدين بن عبد الكريم بن عبد الرزّاق بن إبراهيم بن مكانس مُشير الدولة، وأخوه فخر الدين عبد الرحمن لنظر الدولة على عادته، وأخوهما زين الدين لنظر الجهات وأعاد جميع المكوس التي أبطلها الملك الظاهر برقوق.

ثم نُودِي بالأمان للمماليك الجراكسة، وأن جميع المماليك والأجناد على حالهم، وأنّ الأمير الكبير لا يُغَيِّر على أحد منهم شيئاً مما كان فيه ولا يُخْرِج عنه إقطاعه.

ثم في يوم الأربعاء سادس الشهر قدم الأمير أَلْطُنْبُغا الجوباني نائب الشام كان، والأمير الطنبغا المعلم أمير سلاح كان، والأمير قردم الحسني رأس نَوْبة النُّوب كان، من سجن الإسكندرية وطلعوا إلى السلطان وترحّب بهم الأمير الكبير يلبغا الناصري.

---

(١) كان بمقدور يلبغا الناصري أن يتسلطن بعد أن أصبح الرجل الأول في الدولة؛ غير أنه فضّل التريّث على ما يبدو بسبب كثرة المماليك الظاهرية الجراكسة وخوفاً من الأتراك الأشرفية. وفي نفس الوقت فإن البلاد غارقة في الفوضى بسبب فساد التركمان وانتشار الطاعون. لذلك فضّل إعادة حاجي بن شعبان على أن يحجر عليه ويتسلّم هو جميع الأمور من خلال منصب الأتابكية ريثما تنجلي الأمور وتتذلل الصعاب.

ثم نُودي ثانياً بالقاهرة بأن مَنْ ظهر من المماليك الظاهرية فهو على حاله باقٍ على إقطاعه، ومن آختفى منهم بعد النداء حَلَّ مالُه ودمُه للسلطان.

ثم رسم الأمير الكبير للأمير سودون الفخري الشيخوني نائب السلطان للديار المصرية بلزوم بيته وأما محمود الأستادار فإنه توجه إلى كريم الدين بن مكانس وترامى عليه، فتكلم ابن مكانس في أمره مع الأمير الكبير وأصلح شأنه معه على مال يحمله للأمير الكبير يلبغا الناصري، وجمع بينهما، فآمَنه الناصري، ونزل إلى داره.

ثم في ثامن جمادى الآخرة المذكورة اجتمع الأمراء في الخدمة السلطانية على العادة، فأُغْلق بابُ القلعة وقُبض على تسعة من الأمراء المقدّمين وهم: الأمير سودون الفخري الشيخوني النائب المقدم ذكره، وسُودُون باق، وسُودون طُرُنْطاي، وشيخ الصفوي، وقجماس الصالحي آبن عم الملك الظاهر برقوق، وأبو بكر بن سنقر، وآقبغا المارديني حاجب الحجاب، وبجاس النَّوروزي، ومحمود بن علي الأستدار المقدم ذكره أيضاً. وقُبض أيضاً على جماعة من أمراء الطبلخانات وهم: عبد الرحمن بن منكلي بُغا الشمسي، وبُوري الأحمدي، وتمربغا المنجكي، ومنكلي الشمسي الطرخاني، ومحمد بن جُمَق بن أيتمش البجاسي، وجرجي[1]، وقرمان المنجكي، وحسن خجا، وبيبرس التمان تمري، وأحمد الأرغوني، وأسنبغا الأرغون شاهي[2] وقنق باي اللَّالا السيفي ألَجاي، وجرباش الشيخي الظاهري، وبغداد الأحمدي، ويونس الرمّاح، وبَرسْبُغا الخليلي، وبُطَا الطُّولُوتَمُري الظاهري، ونُوص[3] المحمدي، وتَنْكِز العثماني، وأرسلان اللفاف، وتَنْكِز بغا السيفي، وألطنبغا شادي، وآقبغا اللاجيني، وبلاط المنجكي، وبَجْمان المحمدي، وألُطُنْبُغا العثماني، وعليّ بن آقتمر من عبد الغني، وإبراهيم بن طشتمر الدوادار، وخليل بن تنكز بغا، ومحمد بن الدواداري، وحُسام الدين حسين بن علي الكوراني والي القاهرة، وبلبل الرومي الطويل، والطواشي صواب السعدي المعروف بشَنْكل مقدّم المماليك، والطواشي مقبل الزمام الرومي الدواداري.

(١) في نزهة النفوس: «طرفي». وفي السلوك: «طوجي».

(٢) في الأصل: «وأسنبغا الأرغوني، وشادي» والتصحيح عن السلوك ونزهة النفوس.

(٣) في السلوك: «وقوص المحمدي». وفي النزهة. «وأنص المحمدي».

ثم قُبض على نيّف وثلاثين أمير عشرة وهم: أزدمر الجوكاني، وقُمارِي الجمالي، وجُلْبان أخو مامق، وقَرَطَاي السيفي [من] ألجاي اليوسفي، وآقبغا بوري الشيخوني، وصلاح الدين محمد بن تَنْكز بغا، وعبدوق العلائي، وطُولُو بُغا الأحمدي، ومحمد بن أرْغُون شاه الأحمدي، وإبراهيم آبن الشيخ علي بن قرا، وغريب بن حاجي، وأسَنْبُغا السيفي، وأحمد بن حاجي بك بن شادي، وآقبغا الجمالي الهيدباني الظاهري، وأمير زاده بن مَلِك الكَرَج، وجُلبان الكَمشْبُغَاوي الظاهري قَرَاسُقل، وموسى بن أبي بكر بن رَسْلان أمير طَبَر، وقُنُق باي الأحمدي، وأمير حاج بن أيتمش، وكمَشْبُغا اليوسفي، ومحمد بن آقتمر الصاحبي الحنبلي النائب، وآقبغا الناصري حطب، ومحمد بن سُنْقَر المحمدي، وبهادر الفخري، ومحمد بن طُغاي تمر النظامي، ويُونُس العثماني، وعمر بن يعقوب شاه، وعلي بن بلاط الكبير، ومحمد بن أحمد بن أرغون النائب، ومحمد بن بكتمر الشمسي، وأُلجيبغا الدوادار، ومحمد بن يُونُس الدوادار، وخليل بن قرطاي شاد العمائر، ومحمد بن قرطاي نقيب الجيش، وقطلوبك أمير جاندار، وعلى جماعة كبيرة من المماليك الظاهرية.

ثم شُفعَ بجماعةٍ من الأمراء فأفْرج عنهم، منهم: صواب مقدّم المماليك المعروف بشنكل، والطواشي مقبل الدواداري الزِّمام، وحسين بن الكوراني الوالي، وجماعة أخر وأخرج قجماس آبن عم الملك الظاهر برقوق على البريد إلى طرابلُس.

وفيه نودي بالقاهرة ومصر: «مَنْ أحضَر السلطان الملك الظاهر برقوق إلى الأمير الكبير يلبغا الناصري، إن كان عامياً خُلِع عليه وأُعطِي ألف دينار، وإن كان جندياً أعطي إمرة عشرة بالديار المصرية، وإن كان أمير عشرة أعطي طبلخاناه، وإن كان طبلخاناه أُعْطِي تقدمة ألف. ومن أخفاه بعد ذلك شُنِق وحلّ مالُه ودَمُه للسلطان».

ثم في ليلة الجمعة حُمِلوا الأمراء المسجونون بقلعة الجبل إلى ثغر الإسكندرية ما خلا الأمير محمود الأستدار، وبَقيت المماليك الظاهرية في الأبراج

متفـرقةً بقلعـة الجبـل. ثم أُطلق الأميـر آقبغـا المـارديني حـاجب الحجّـاب، وأخرِج من [سجنه ونُقل في] الحَرّاقة[١] لشفاعة صهره الأمير أحمد بن يلبغا العمري أمير مجلس فيه، فردّ معه أرسلان اللفّاف ومحمد بن تنكر [إذ] شَفَـع فيهما أيضاً بعض الأمراء.

وفيه أيضاً نُودِي على الملك الظاهر برقوق، وهُدِّد مَنْ أخفاه، فكثُر الدعاء من العامة للملك الظاهر برقوق، وكثر الأسف على فقده وثَقُلت أصحاب الناصري على الناس ونَفَروا منهم، فصارت العامّة تقول:

«راح برقوق وغِزلانه، وجاء الناصري وتيرانه».

ثم قَبَض الناصري على الطواشي بهادُر الشهابي مقدّم المماليك كان الذي كان الملك الظاهر عزله من التقدمة ونفاه إلى طرابُلس، فحضر مـع الناصري من جملة أصحابه، فاتُّهم أنه أخفى الملك الظاهر برقوقاً، فنُفِي إلى المرقب وخُتِم على حواصله، ونفي معه أسنبغا المجنون.

وفي ثاني عشرة سُجن محمود الأستدار وهو مقَيَّدٌ بالزردخاناه.

وفيه أَلزم الأميرُ الكبيرُ يلبُغا الناصري حسين بن الكُوراني الوالي بطلب الملك الظاهر برقوق، وخشّن عليه في الكلام بسببه، فنزل آبن الكوراني من وقته وكرر النداء عليه بالقاهرة ومصر، وهَدّد من أخفاه بأنواع العذاب والنَّكال.

هذا وقد كثُر فساد التركمان أصحاب الناصري بالقاهرة، وأخذوا النساء من الطرقات ومن الحمامات، ولم يتجاسر أحد على منعهم.

وفيه قَلَـع العسكرُ السلاح من عليهم ومن على خيولهم؛ وكانوا منذ دخولهم وهم بالسلاح إلى هذا اليوم.

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة غُمِز على الملك الظاهر برقوق من بيت أبـي يزيد. وأَمْرُه أنه لمّا نزل بالإسطبل بالليل سار على قدميه حتى وصل إلى

(١) الحرّاقة: نوع من السفن.

بيت أبـي يزيد أحدِ أمراء العشرات وآختفى بداره ولم يُعرف له خبر، وكثر الفحص عليه من قِبَل الناصري وغيره وهُجِم في مدّة آختفائه على بيوت كثيرة فلم يقف له أحد على خبر. وتكررَ النداء عليه والتهديد على من أخفاه، فخاف الملك الظاهر من أن يُدَلّ عليه فيُؤخذ غصباً باليد فلا يُبْقَى عليه، فأرسل أعلم الأمير ألطُنْبُغا الجوباني بمكانه، فتوجّه إليه الجوباني وآجتمع به وأخذه وطلع به إلى الناصري على ما سنذكره.

وقيل غير ذلك؛ وهو أنه لما نزل الملك من الإسطبل السلطاني ومعه أبو يزيد المذكور لا غيرُ، تبعه نُعمانٌ مِهْتار الطشتخاناه إلى الرُّمَيْلة، فردّه الملك الظاهر، ومضى هو وأبو يزيد حتى قَرُبا من دار أبـي يزيد، فتوجّه أبو يزيد قبله، وأخلى له داراً، ثم عاد إليه وأخفاه فيها.

ثم أخذ الناصريّ يتتبـع أثر الملك الظاهر برقوق حتى سأل المهتار نعمانَ عنه، فأخبره أنه نزل ومعه أبو يزيد، وأنه لمّا تبعه ردّه الملك الظاهر فعند ذلك أمر الناصري حسين بن الكورانيّ بإحضار أبـي يزيد المذكور، فشدّد في طلبه، وهجم بيوتاً كثيرة، فلم يقف له على خبر، فقَبضَ على جماعة من أصحاب أبـي يزيد وغلمانه وقرّرهم فلم يجد عندهم علماً به وما زال يفحص على ذلك حتى دلَّه بعضُ الناس على مملوك أبـي يزيد، فقَبض عليه وقبض آبن الكوراني على آمرأة المملوك وعاقبها فدلّته على موضع أبي يزيد وعلى الملك الظاهر، وأنهما في بيت رجل خيّاط بجوار بيت أبـي يزيد فمضى آبن الكُورانِيّ إلى البيت، وبعث إلى الناصرِيّ يُعلِمه، فأرسل إليه الأمراء.

وقيل غيرُ ذلك، وجه آخر؛ وهو أن السلطان الملك الظاهر لَمّـا نزل من الإسطبل كان ذلك وقت نصف الليل من ليلة الاثنين المقدّم ذكرُها، فسار إلى بحر النيل، وعدّى إلى برّ الجيزة ونزل عند الأهرام، وأقام هناك ثلاثة أيام ثمّ عاد إلى بيت أبي يزيد المذكور، فأقام عنده إلى يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة فحضر مملوك أبي يزيد إلى الناصري وأعلمه أن الملك الظاهر في بيت أستاذه، فأحضر

الناصريّ في الحال أبا يزيد، وسأله عن الملك الظاهر فاعترف أنه عنده فأخذه أَلْطُنبغا الجوباني وسار به إلى البيت الذي فيه الملك الظاهر برقوق، فأوقف أبو يزيد الجوبانيَّ بمن معه، وطلـع هو وحده إلى الملك الظاهر وحدّثه الخبر ثم أذن أبو يزيد للجوباني، فطلـع؛ فلما رآه الملك الظاهر برقوق قام له وهَمَّ بتقبيل يديه، فآستعاذ بالله الجوباني من ذلك، وقال له: «يا خَوَند، أنت أستاذنا ونحن مماليكك»؛ وأخذ يُسَكِّن رَوْعه، حتى سكن ما به.

ثم ألبسه عمامة وطَيْلَساناً وأنزله من الدار المذكورة، وأركبه، وأخذه. وسار من صليبة آبن طولون نهاراً، وشَقّ به بين الملأ من الناس إلى أن طلـع به إلى الإسطبل السلطاني بباب السلسلة حيث هو سكنُ الأمير [الكبير] يلبغا الناصري، فأَجْلِس بقاعة الفِضة من القلعة. وأُلْزِم أبو يزيد بمال الملك الظاهر الذي كان معه، فأحضر كيساً وفيه ألفُ دينار، فأنعم به الناصري عليه، وأخلـع عليه ورتَّب الناصري في خدمة الملك الظاهر مملوكين وغلامَه المِهتار نُعْمان، وقُيِّد بقَيْد ثقيل، وأجرَى عليه من سِماطه طعاماً بكرة وعشياً ثم خلـع الناصريّ على الأمير حُسام الدين حسن الكَجْكَنِـيّ باستقراره في نيابة الكَرَك عوضاً عن مأمور القَلَمْطاوِي.

ورسم بعزل مأمور، وقُدُومه إلى مصر أميرَ مائة ومقدّم ألف بها.

هذا بعد أن جمـع الناصري الأمراء من أصحابه وشاورهم في أمر الملك الظاهر برقوق بعد القبض عليه، فآختلفت آراء الأمراء فيه؛ فمنهم من صَوَّب قَتله، وهم الأكثر، وكبيرُهم منطاش، ومنهم مَنْ أشار بحبسه وهم الأقل، وأكبـرهم الجوبانيّ فيما قيل فمال الناصريّ إلى حبسه لأمر[1] يُريده الله تعالى. وأوصى حُسام الدِّين الكَجْكَنِي به وصايا[2] كثيرة حسب ما يأتي ذكـرُه في محلّه فأقـام

(١) كان يلبغا الناصري يخشى من انقلاب منطاش عليه، ولذلك أبقى على برقوق ليستعين به وبجماعته من الجراكسة عند الحاجة لما بين الجراكسة ومنطاش من كراهية. كما أن برقوقاً كان في السابق قد ألقى القبض على يلبغا ثلاث مرات وعفا عنه. وسوف نرى فيما سيأتي من الأحداث تغير التحالفات لأكثر من مرة فيما بين الأطراف الثلاثة: يلبغا الناصري وبرقوق ومنطاش.

(٢) أهم هذه الوصايا أنه في حال قيام منطاش على الناصري يعمد والي الكرك إلى الإفراج عن برقوق حالاً ليكون هذا الأخير عوناً له على منطاش.

الكجكني بالقاهرة في عمل مصالحه إلى يوم تاسع عشر جمادى الآخرة، وسافر إلى محل كفالته بمدينة الكَرَك.

وعند خروجه قَدِم الخبر على الناصري بأن الأمير آقبغا الصغير وآقبغا أستدار آقْتَمُر، اِجتمع عليهما نحو أربعمائة مملوك من المماليك الظاهرية ليركبوا على جنتمر نائب الشام ويملكوا منه البلد، فلمّا بلغ جنتمر ذلك رَكب بمماليكه وكبسهم على حين غفلة، فلم يُفْلِت منهم إلا اليسيرُ، وفيهم آقبغا الصغير المذكور فسرّ الناصري بذلك، وخلع على القاصد.

ولمّا وصل هذا الخبر إلى مصر، رَكِبَ منطاش وجماعةٌ من أصحابه إلى الناصريّ وكلّموه بسبب إبقاء الملك الظاهر، وخَوّفوه عاقبةَ ذلك ولا زالوا به حتى وافقهم على قتله، بعد أن يصل إلى الكَرَك ويُحْبَس بها وآعتذر إليهم بأنه إلى الآن لم يُفَرِّق الاقطاعات والوظائف لاضطراب المملكة، وأنّه ثَمَّ مَنْ له ميلٌ للظاهر في الباطن، وربّما يثُور بعضهم عند قتله، وهذا شيء يُدْرَكُ في أيّ وقت كان، حتى قاموا عنه ونزلوا إلى دورهم.

ثم أخذ الناصري في اليوم المذكور يَخْلع على الأمراء باستقرارهم في الإمريات والإقطاعيات فاستقرّ بالأمير بُزْلار العُمَري الناصري حسن في نيابة دِمَشق، والأمير كَمَشْبُغا الحموي اليلبُغاوي في نيابة حلَب، وبالأمير صَنْجَق الحسنيّ في نيابة طرابُلس، وبالأمير شهاب الدين أحمد بن محمد الهيدَبانيّ في حجوبية طرابلس الكبرى.

ثم في حادي عشرينه عَرَض الأمير الكبير يلبغا الناصري المماليكَ الظاهريَّة، وأفرد من المستَجَدِّين مائتين وثلاثين مملوكاً لخدمة السلطان الملك المنصور حاجيّ صاحب الترجمة، وسبعين من المشتروات أنزلهم بالأطباق، وفرّق مَن بقِي على الأمراء؛ وكان العَرْض بالإسطبل وأَنعم على كلٍّ من آقبغا الجمالي الهيدبانيّ أمير آخور ويلبغا السّودُونِيّ وتَنْبَك اليَحْياوي وسُودون اليحياوي بإمرة عشرة في حلب ـ وهؤلاء الأربعة ظاهريّة من خواصّ مماليك الملك الظاهر برقوق ـ ورسم بسفرهم مـع الأمير كمشبُغا الحمويّ نائب حلب.

ثم في ليلة الخميس ثاني عشرين جُمادَى الآخرة رسم الناصري بسفر الملك الظاهر برقوق إلى الكَرَك، فأُخرِج من قاعة الفِضّة في ثلث الليل من باب القرافة، أحد أبواب القلعة، ومعه الأمير أَلْطُنْبُغا الجُوبانِي، فأركبوه هجيناً ومعه من مماليكه أربعة مماليك صِغار على هُجُن، وهم قُطْلُوبغَا الكَرَكي وبَيْغان الكركي وآقباي الكَركي وسودون الكَرَكي، والجميع صاروا في سلطنة الملك الظاهر الثانية بعد خروجه من الكرك أمراء؛ وسافر معه أيضاً مهْتارُه نُعْمان وسار به الجوباني إلى قبة النصر خارج القاهرة، وأَسْلَمَهُ إلى الأمير سيف الدين محمد بن عيسى العَائِدي؛ فتوجه به إلى الكَرَك من على عَجْرُود حتى وصل به إلى الكرك، وسلّمه إلى نائبها الأمير حسام الدين الكَجْكَنِي وعاد بالجواب. فأنزل الكجكني الملكَ الظَاهر بقاعة النحاس من قلعة الكرك، وكانت آبنة الأَتَابَك يلبغا العُمَرِي الخاصّكي أستاذ الملك الظاهر برقوق زوجة مأمور المعزول عن نيابة الكرك هناك، فقامت للملك الظاهر برقوق بكّل ما يحتاج، كونه مملوك أبيها يلبغا، مـع أن الناصري أيضاً مملوك أبيها، غيرَ أنها حُبِّبَ إليها خدمة الملك الظاهر، ومَدّتْ له سِماطاً يَلِيق به، وآستمرّت على ذلك أياماً كثيرة، وفَعَلتْ معه أفعالاً، كان آعتادها أيام سلطنته.

ثم إن الكَجكنيّ أيضاً آعتنى بخدمته، لما كان أوصاه الناصريّ به قبل خروجه من مصر؛ ومن جملة ما كان أوصاه الناصريّ وقرَّره معه أنّه متى حَصَل له أمر من مِنْطاش أو غيره فَلْيُفْرِج عن الملك الظاهر برقوق من حبس الكَرَك فآعتمد الكَجْكَنِي على ذلك، وصار يدخل إليه في كل يوم، ويتلطّف به، ويَعِده أنه يتوجّه معه إلى التُّرْكمان، فإنّه له فيهم معارف، وحَصَّن قلعة الكرك، وصار لا يبرح من عنده نهارَه كُلَّه، ويأكل معه طَرَفَي النهار سِماطَه ولا زال على ذلك حتى أَنِس به الملك الظاهر وَرِكَن له حسب ما يأتي ذكرُه.

وأما الناصريّ فإنه بعد ذلك خلـع على جماعة من الأمراء، فآستقرّ بالأمير قُطْلُوبغا الصَّفَوِيّ في نيابة صفد، وبالأمير بُغَاجق في نيابة مَلَطْية ثم رَسَم فنودي بالقاهرة بأن المماليك الظاهريّة يخدمون مـع نُوّاب البلاد الشامية، ولا يقيم أحد منهم بالقاهرة، ومن تأخّر بعد النداء حلّ مالُه ودمُه للسلطان، ثم نُودِي بذلك من الغد ثانياً.

وفي رابع عشرينه برز النوّابُ إلى الرَّيْدانِيّة للسفر بعد أن أخلع الناصري على الجميع خِلَع السفر.

ثم في سادس عشرينه خَلَع السلطان الملك المنصور على الأمير يلبغا الناصري بآستقراره أتابَك العساكر بالديار المصرية وأن يكون مدَبِّرَ المملكة، وعلى الأمير أَلْطُنْبُغا الجوباني بآستقراره رأس نَوْبة الأمراء وظيفة بركة الجوباني، وعلى الأمير قرادِمِرْداش الأحمدي وآستقرّ أمير سلاح، وعلى الأمير أحمد بن يلبغا وآستقرّ أمير مجلس على عادته أوّلاً، وعلى الأمير تَمُرْباي الحسني وآستقرّ حاجب الحجاب، وخَلَع على القضاة الثلاثة بآستمرارهم، وهم: القاضي شمس الدين محمد الطَّرابلسيّ والقاضي جمال الدين عبد الرحمن بن خير المالكي والقاضي ناصر الدين نصر الله الحنبلي؛ ولم يخَلع على قاضي القضاة ناصر الدين ابن بنت ميلق الشافعي، لتوعُّكه ثم خلع على القاضي صدر الدين المُناوِي مفتي دار العدل، وعلى القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله كاتب السر، الجميع بآستمرارهم.

وفي هذا اليوم سافر نوّابُ البلاد الشاميّة، وسافر معهم كثير من التُّركُمان وأجناد الشام وأمرائها، وفيه نُودِي أيضاً بألاّ يتأخرَ أحد من مماليك الملك الظاهر برقوق إلا من يكون بخدمة السلطان ممّن عُيّن، ومن تأخر بعد ذلك شُنِق، ثم نُودِي على التركمان والشاميين والغرباء بخروجهم من الديار المصرية إلى بلادهم.

وفي يوم الخميس خلع الناصري على الأمير آقبغا الجوهري بآستقراره أستاداراً، وعلى الأمير آلابغا العثماني دواداراً كبيراً، وعلى الأمير أَلْطُنبغا الأشرفيّ رأس نوبة ثانياً، وهي الآن وظيفة رأس نوبة النُّوب، وعلى الأمير جُلبان العلائي حاجباً، وعلى الأمير بلاط العلائي أميرَ جاندار، وعلى شَهْري نائب دوركي[1] باستمراره.

---

(١) ذكر القلقشندي أنه يقال لها دوركي (بفتح الدال وسكون الواو) أو دَبْركي (بفتح الدال وسكون الباء بعدها). وهي مدينة في جهة الشمال والغرب من حلب، على نحو عشر مراحل منها. (انظر صبح الأعشى: ١٣٧/٤، طبعة دار الكتب العلمية).

ثمّ في سلخ جُمادَى الآخرة فَرق الناصري المِثَالاتِ على الأمراء [المقدِّمين][١] وجعلهم أربعةً وعشرين تقدمة على العادة القديمة: أراد بذلك أن يُظْهِر للناس ما أفسده الملك الظاهر برقوق في أيام سلطنته من قوانين مصر، فشكره الناس على ذلك.

ثم نُودِي بالقاهرة بالأمان: «ومن ظُلِم من مدّة عشرين سنة فعليه بباب الأمير الكبير يلبغا الناصريّ، ليأخذ حَقّه».

ثم في يوم السبت أوّلَ شهر رجب وقف أوّل النهار زامرٌ على باب السلسلة تحت الإسطبل السلطاني، حيث هوسكن الناصريّ، وزَعق في زَمْرِه؛ فلما سمعه الناس آجتمع الأمراء والمماليك في الحال، وطَلَعوا إلى خِدْمة الناصريّ ولم يُعْهَد هذا الزَّمْر بمصر قبل ذلك على هذه الصورة وذكروا أنها عادة ملوك التتار إذا ركبوا يزعْقُ هذا الزامِرُ بين يديه، وهو عادة أيضاً في بلاد حلب ـ فآستغرب أهلُ مصر ذلك، وآستمرّ في كلّ يوم مَوْكِب.

وفيه أيضاً رَسمَ الناصريُّ أن يكون رُؤوس نُوَب السِّلاحداريّة والسُّقَاة والجَمَدَارِيّة سِتّة لكل طائفة على ما كانوا أوّلاً قبل سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين، فإن الأشرف هو الذي آستقرّ بهم ثمانية. وخلع الناصري على قطلوبغا الفخري بآستقراره نائب قلعة الجبل عوضاً عن الأمير بَجَاس.

وفي خامسه قَدِم الأمير نُعَيْر بن حَيَّار بن مُهنّاً ملِك العرب إلى الديار المصرية، ولم يحضرُ قطّ في أيام الملك الظاهر برقوق، وقَصَد بحضوره رؤيَةَ الملك المنصور وتقبيل الأرض بين يديه، فخَلَع السلطان عليه، ونزل بالميدان الكبير من تحت القلعة، وأَجْرى عليه الرَّواتب.

---

(١) زيادة عن نزهة النفوس. والمراد بهم أمراء المئات مقدمو الألوف. والمثال: هو أول ما كان يكتب من الأوراق الرسمية إيذاناً باعطاء أحد المماليك أو أحد الأمراء إقطاعاً من الإقطاعات. ثم يخرج المثال من ديوان الجيش ويقدمه ناظر هذا الديوان إلى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل، فإذا شمله السلطان بالموافقة أرسله ناظر ديوان النظر لتسجيله وحفظه ويكتب بذلك مربعة (ورقة مربعة تسمى المربعة الجيشية) فيها اسم المعين على الإقطاع ورتبته وغير ذلك من التفصيلات اللازمة. ثم ترسل المربعة إلى ديوان الإنشاء فيكتب كاتب السر بمقتضاها منشور الإقطاع. [(انظر صبح الأعشى: ١٣/١٥٣ ـ ١٥٥).

وفيه خُلِـع على الأمير آلابُغا العثماني الدوادار الكبير بآستقراره في نظر الأحباس مضافاً لوظيفته و[خلـع أيضاً على] قرقمـاس الطَّشْتَمُري وآستمرّ خازنداراً.

وفي ثامنه خُلِـع على الأمير نُعَيْر خِلْعة السفر. وأَنعِم على الطواشي صواب السعدي شَنْكَل بإمرة عشرة، وآستُرْجِعت منه إمرة طبلخاناه[1]؛ ولم يقـع مثل ذلك أن يكون مُقَدّم المماليك أمير عشرة.

وفيه خَلَـع السلطان الملك المنصور على شخص وعَمِله خَيّاط السلطان، فطلبه الناصري وأخذ منه الخِلْعة، وضربه ضرباً مُبرِّحاً، وأسلَمه لشادّ الدواوين، ثم أَفْرج عنه بشفاعة الأمير أحمد بن يَلْبُغا أمير مجلس؛ فشقّ ذلـك على الملك المنصور، وقال: «إذا لم يُنَفَّذ مرسومي في خَيّاط فما هذه السلطنة؟» ثمّ سكت على مَضَض.

وفي أوّل شعبان أُمِر المؤذّنون بالقاهرة ومصر أن يزيدوا في الأذان، إلّا أذان المغرب: «الصلاة والسلام عليك يا رسول الله» عِدَّة مرّات. وسبب ذلك أن رجلاً من الفقراء المْعتَقَدِين سَمِـع في ليلة الجمعة بعد أذان العشاء: «الصلاة على النبـيّ صلى الله عليه وسلم» وكان العادة في ليلة الجُمعة بعد أذان العشاء يُصَلِّي المؤذنون على النبـيّ صلى الله عليه وسلم مِراراً على المئذنة، فلما سمِـعَ الفقيرُ ذلك قال لأصحابه الفقراء: «أتحبون أن تسمعوا هذا في كل أذان؟» قالوا: «نعم»، فبات تلك الليلة، وأصبـح وقد زَعَـم أنّه رأى رسولَ الله صلى الله عليه وسلّم في منامه يأمره أن يقول لُمحْتَسِب القاهرة نجم الدين الطَّنْبَدِي أن يأمر المؤذنين أن يُصَلُّوا على النبـيّ صلّى الله عليه وسلّم عقيبَ كلِّ أذان؛ فَمَشَى الشيـخ إلى المحتَسِب المذكور وقَصّ عليه ما رآه، فسرَّه ذلك، وأمَرَ به فبَقِي إلى يومنا هذا.

ثم إن الناصريّ أنزل السبعين الذين قرّرهم بالأطباق من مماليك برقوق وفرّقهم على الأمراء ورَسَم أيضاً بإبطال المقدّمين والسوَّاقين من الطَّواشِيّة، ونحوهم،

---

(١) إمرة طبلخاناه: تكون على عدد من الأجناد يتراوح ما بين أربعين وثمانين مملوكاً.

وأنزلهم من عند الملك المنصور؛ فآتّضح أمرُ السلطان الملك المنصور، وعرف كلُّ أحد أنه ليس له أمرٌ ولا نَهْي في المملكة.

* * *

ذكرُ آبتداء الفتنة بين الأمير الكبير يلبغا الناصري وبين الأمير تَمُربُغا الأفضليّ المدعو مِنْطاش:

ولمّا كان سادس عشر شعبان أُشِيع في القاهرة بتنكُّر منطاش على الناصريّ وآنقطع منطاش عن الخدمة، وأظهر أنه مريض، ففَطِن الناصريّ بأنه يُريد [أن] يعمل مَكِيدة، فلم ينزل لعيادته وبعث إليه الأمير أَلطُنبغا الجُوباني رأس نَوْبة كبيراً في يوم الاثنين سادس عشر شعبان المذكور ليعوده في مرضه، فدخل عليه، وسلَّم عليه، وقضى حَقّ العيادة وهمّ بالقيام، فقَبَض عليه منطاش وعلى عشرين من مماليكه، وضرب قَرْقماس دوادار الجوباني ضرباً مُبَرِّحاً، مات منه بعد أيام.

ثم رَكِب منطاش حال مَسْكه للجوبانيّ في أصحابه إلى باب السلسلة، وأخذ جميع الخيول التي كانت واقفةً على باب السلسلة. وأراد آقتحام الباب ليأخذ الناصريّ على حين غَفْلة، فلم يتمكّن من ذلك وأغلق الباب، ورَمَى عليه مماليك الناصريّ من أعلى السور بالنُّشّاب والحجارة، فعاد إلى بيته ومعه الخيول، وكانت دارُه دارَ مَنْجك اليوسفيّ التي آشتراها تَمُربغا الظاهريّ الدوادار وجدّدها بالقرب من مدرسة السلطان حسن، ونَهب منطاش في عَوْده بيتَ الأمير آقْبُغا الجوهريّ الأُستدار وأخذ خيولَه وقماشَه.

ثمّ رَسَم منطاش في الوقت لمماليكه وأصحابه بالطلوع إلى مدرسة السلطان حسن، فطَلَعوا إليها وملكوها، وكان الذي طَلَع إليها الأميرُ تَنْكِزبُغا رأس نوبة والأمير أَزدَمُر الجُو كُنْدار دوادار الملك الظاهر برقوق في عدّة من المماليك وحَمَل إليها منطاش النُّشّاب والحجارة، ورمَوْا على مَنْ كان بالرُّميلة من أصحاب الناصريّ من أعلى المِئذنَتَيْن ومن حول القُبَّة، فعند ذلك أمر الناصريّ مماليكَه وأصحابَه بلُبس السلاح، وهو يتعّجب من أمر منطاش كيف يقع منه ذلك وهو في غاية من قلّة

المماليك وأصحابه. وبَلَغ الأمراءَ ذلك، فطلع كلُّ واحد بمماليكه وطُلْبه إلى الناصريّ.

وأما منطاش فإنّه أيضاً تلاحقت به المماليك الأشرفيّة خُشداشيتُه والمماليك الظاهرية، فعَظُم بهم أمرُه، وقَوِيَ جَأشُه. فأمّا مجيءُ الظاهرية إليه فرجاء لخلاص أُستاذهم الملك الظاهر برقوق، و[أما] الأشرفيّة فهم خُشداشيَّتُه، لأن منطاش كان أشرفيّاً ويلبغا الناصريّ يلبُغاوياً خُشداشاً لبرقوق. وآنضمت اليلبُغاويّة على الناصريّ، وهم يوم ذاك أكابرُ الأمراء وغالبُ العسكر المصري وتجمَّعت المماليك على منطاش حتى صار في نحو خمسمائة فارس معه، بعدما كان في سبعين فارساً في أوّل ركوبه، ثم أتاه من العامّة عالَمٌ كبير، فترامى الفريقان واقتتلا.

ونزل الأمير حُسام الدِّين حُسين بن الكُوراني والي القاهرة والأمير مأمور حاجب الحجاب من عند الناصريّ، ونُودِي في الناس بنَهْب مماليك منطاش، والقبض على مَن قَدرُوا عليه منهم، وإحضاره إلى الناصري؛ فخرج عليهما طائفة من المنطاشيّة فضربوهما وهزموهما، فعادوا إلى الناصري وسار الوالي إلى القاهرة، وأغلق أبوابها. وآشتدّ الحربُ، وخرج منطاش في أصحابه، وتقرَّب من العامّة، ولاطفهم وأعطاهم الذهب، فتعصّبوا له وتزاحموا على آلتقاط النُّشّاب الذي يُرْمى به من أصحاب الناصريّ على منطاش وأَتَوه به وبالغوا في الخدمة لمنطاش، حتى خرجوا عن الحدّ؛ فكان الواحدُ منهم يَثب في الهواء حتى يَخْطَفَ السهمَ قبل أن يأخذه غيرهُ، ويأتي به منطاش، وطائفةٌ منهم تنقُل الحجارة إلى أعلى المدرسة الحسَنيّة وآستمرّوا على ذلك إلى الليل، فبات منطاش ليلة الثلاثاء سابع عشر شعبان على باب مدرسة السلطان حسن المذكورة والرميُ يأتيه من القلعة من أعوان الناصري.

هذا والمماليك الظاهريّة تأتيه من كلّ فَجّ، وهو يَعِدُهم ويمُنِّيهم، حتى أصبح يوم الثلاثاء وقد زادت أصحابه على ألف فارس كلُّ ذلك والناصري لا يكترث بأمر منطاش، و[لا](١) يُصلح أمرَه [وإنما يقبل](١) على التراخي آستخفافاً

---

(١) زيادة تقتضيها استقامة السياق.

بمنطاش، وحواشيه يحرّضونه على سرعة قتال منطاش ويحذّرونه التهاون في أمره.

ثمّ أتى منطاش طوائفُ من مماليك الأمراء والبطّالة وغيرهم شيئاً بعد شيء، فحسُن حالُه بهم، وآشتدّ بأسه، وعظُمت شوكتُه بالنسبة لمَا كان فيه أوّلاً، لا بالنسبة لحواشي الناصريّ ومماليكه؛ فعند ذلك نَدَب الناصريُّ الأمير بَجْمان والأمير قرابُغا الأبو بكري في طائفة كبيرة ومعهم المعلّم شهاب الدين أحمد بن الطُّولوني المهندس وجماعة كبيرة من الحجّارين والنقّابين لينقبُوا بيت منطاش من ظَهْره حتى يدخلوا منه إلى منطاش ويقاتلوه من خَلْفه والناصري من أمامه فَفَطِن منطاش بهم، فأرسل إليهم في الحال عِدّةً من جماعته قاتلوهم حتى هزموهم، وأخذوا قَرابُغا وأَتَوْا به إلى منطاش فرتّب [الناصري] عِدّة رماة على الطبلخاناه السلطانية، وعلى المدرسة الأشرفيّة التي هدمها الملك الناصر فرج، وجعل الملك المؤيّدُ مكانها بيمارستاناً في الصّوة، فرموا على منطاش بالمدافع والنُّشّاب، فقُتِل عدّةٌ من العوامّ، وجُرِح كثير من المنطاشية. هذا وقد آنزعج الناصري وقامَ بنفسه وهيّأ أصحابه لقتال منطاش، ونَدَب من أصحابه من أكابر الأمراء جماعةً لقتاله، وهم الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، والأمير جُمَق آبن الأتابك أيتَمش البَجَاسِيّ في جمع كبير من المماليك، فنزلوا وطردوا العامّة من الرُّمَيْلة؛ فحملَت العامّة من أصحاب منطاش عليهم حَمْلةً واحدة هزموهم فيها أقبحَ هزيمة.

ثم عاد أحمد بن يلبغا المذكور غيرَ مرّة، وآستمرّ القتال بينهما إلى آخر النهار، والرَّمْيُ والقتال عَمّال من القلعة على المدرسة الحسنيّة ومن المدرسة على القلعة. وبينما هم في ذلك خَرَج من عسكر الناصريّ الأمير آقبغا المَارِدِينيّ بطُلْبه وصار إلى منطاش، فتسلَّل الأمراء عند ذلك واحداً بعد واحد، وكلُّ من يأتي منطاش من الأمراء يُوكَّل به واحدٌ يحفظه، ويُبْعث به إلى داره، ويأخذ مماليكه فيقاتل الناصري بهم.

فلمّا رأى حُسين بن الكُوراني الوالي جانبَ الناصريّ قد آتضع، خاف على نفسه من منطاش وآختفى؛ فطلب منطاش ناصر الدين محمد بن ليلى نائب حسين

آبن الكوراني وولّاه ولاية القاهرة، وألزمه بتحصيل النُّشّاب، فنزل في الحال إلى القاهرة، وحَمَل إليه كثيراً من النشاب.

ثم أمره منطاش فنادى بالقاهرة بالأمان والاطمئنان وإبطال المكس والدعاء للأمير الكبير منطاش بالنصر.

هذا وقد أخذ أمرُ الناصريّ في إدبار، وتوجّه جماعةٌ كبيرة من أصحابه إلى منطاش فلمّا رأى الناصريّ عسكَره في قِلّة، وقد نَفَر عنه غالبُ أصحابه، بعث بالخليفة المتوكِّل على الله إلى منطاش يسأله في الصلح وإخماد الفتنة فنزل الخليفة إليه وكلّمه في ذلك، فقال له منطاش: «أنا في طاعة السلطان، وهو أستاذي وآبنُ أستاذي، والأمراءُ إخوتي، وما غريمي إلا الناصريّ، لأنّه حَلَف لي وأنا بسيواس ثم بحلب ودِمَشق أيضاً بأننا نكون شيئاً واحداً، وأن السلطان يحكم في مملكته بما شاء؛ فلمّا حصل لنا النصر وصار هو أتابك العساكر، آستبد بالأمر، ومنع السلطان من التَّحكُّم، وحَجَر عليه، وقَرّب خشداشيتَه اليلبُغاوية، وأبعدني أنا وخشداشِيَّتِي الأشرفية ثم ما كَفَاه ذلك حتى بعثني لقتال الفلاّحين». وكان الناصري أرسله من جملة الأمراء إلى جهة الشرقية لقتال العُرْبان، لمّا عَظُم فسادُ فلاَّحيها.

ثم قال منطاش: «ولم يُعطِني الناصري شيئاً من المال سوى مائة ألف درهم، وأخذ لنفسه أحسنَ الإقطاعات وأعطانِي أضعفَها؛ والإقطاع الذي قَرّره لي يَعْمَل في السنة ستمائة ألف درهم! والله ما أَرْجِع عنه حتى أَقْتُلَهُ أو يَقْتُلَنِي، ويتسلطن ويَستبدّ بالأمر وحدَه من غير شريك». فأخذ الخليفةُ يلاطفُه فلم يَرْجع له وقام الخليفة من عنده وهو مصمِّم على مقالته، وطلع إلى الناصري وأعاد عليه الجواب.

فعند ذلك رَكِب الناصريّ بسائر مماليكه وأصحابه، ونزل بجَمْع كبير لقتال منطاش، وصَفَّ عساكِرَهُ تُجاه باب السلسلة وبَرزَ إليه منطاش أيضاً بأصحابه، وتصادما واقتتلا قتالاً شديداً، وثبت كلٌّ من الطائفتين ثباتاً عظيماً فخرج من عسكر الناصري الأميرُ عبد الرحمن آبن الأتابك منكلي بغا الشمسي صهر الملك الظاهر برقوق بمماليكه، والأمير صلاح الدين محمد بن تَنْكِر نائب الشام، وكان أيضاً من

خواصّ الملك الظاهر برقوق؛ وسار صلاح الدين المذكور إلى منطاش ومعه خمسة أحمال نُشَّاب وثمانون حِمْل مَأْكَل وعشرة الآف درهم. وآنكسر الناصري وأصحابه، وطلع إلى باب السلسلة، فتراجع أمرُه وآنضمّ عليه من بَقِي من خشداشيته اليلبُغاوية، ونَدَب لقتال منطاش الأميرَ أحمد بن يلبغا أمير مجلس ثانياً، والأميرَ قرادِمِرْداش الأحمدي أمير سلاح، والأمير أَلْطُنْبغا المعلّم، والأمير مأمور القَلَمْطاوي حاجب الحجّاب، والجميع يلبُغاوية ونزلوا في جمع موفور من العسكر، وصدموا منطاش صدمة هائلة، وأحمى أظهرَهم مَنْ في القلعة بالرمي على منطاش وأصحابه؛ فأخذ أصحاب منطاش عند ذلك في الرمي من أعلى المدرسة بالنشّاب والنفط، وآلتحم القِتالُ، من فوق ومن أسفل، فآنكسر عسكر الناصري ثانياً، وآنهزموا إلى باب السلسلة.

هذا والعامّة تأخذ النُّشَّاب من على الأرض وتأتي به منطاش، وهو يتقرّب منهم ويترفّق لهم، ويقول لهم: «أنا واحد منكم وأنتم إخواننا وأصحابنا» وأشياء كثيرة من هذه المقولة هذا وهم يبذلون نفوسهم في خدمته، ويتلاقطُون النُّشّاب من الرُّميلة، مع شدة رمي الناصري عليهم من القلعة.

ثم ظَفِر منطاش بحاصل للأمير جركس الخليلي الأمير آخور وفيه سلاحٌ كثير ومالٌ، وبحاصل آخر لبكلمش العلائي، فأخذ منطاش منهما شيئاً كثيراً، فقوِي به؛ فإنّه كان أمرُه قد ضعف من قلّة السلاح لا من قلّة المقاتِلة، لأن غالب من أتاه بغير سلاح.

ثم نَدَب الناصريُّ لقتاله الأميرَ مأموراً حاجبَ الحُجّاب والأمير جُمَق بن أيْتَمُش والأميرَ قَراكسك في عدة كبيرة من اليلبُغاويّة، وقد لاح لهم زوال دولة اليلبُغاوية بحبس الملك الظاهر برقوق، ثم بِكَسْرة الناصريّ من منطاش إن تمّ ذلك؛ فنزلوا إلى مِنطاش وقد بذلوا أرواحهم، فبرز لهم العامة أمام المنطاشية، وأكثروا من رميهم بالحجارة في وجوههم ووجوه خيولهم حتى كسروهم، وعادوا إلى باب السلسلة.

كلّ ذلك والرمي من القلعة بالنُّشّاب والنفوط والمدافع متواصل على

المنطاشية، وعلى مَنْ بأعلى المدرسة الحسنية، حتى أصاب حجر من حجارة المدفع القبةَ الحسنية فخرقها، وقَتلَ مملوكاً من المنطاشية فلمّا رأى منطاش شدّة الرمي عليه من القلعة، أرسل أحضر المعلّم ناصر الدين محمد بن الطَّرابُلُسي ـ وكان أستاذاً في الرمي بمدافع النِّفط ـ فلمّا حضر عنده جرّده من ثيابه ليوسّطه من تأخُّره عنه، فآعتذر إليه بأعذار مقبولة ومضى ناصر الدين في طائفة من الفرسان، وأحضر الآت النفط، وطلع على المدرسة ورمى على الإسطبل السلطاني، حيث هو سكن الناصري، حتى أحرق جانباً من خيمة الناصري وفرّق جمعَهم. وقام الناصريُّ والسلطانُ الملك المنصور من مجلسهما ومضَيا إلى موضع آخر آمتنعا فيه ولم يَمْضِ النهار حتى بلغت عِدَّة فرسان منطاش نحو الألفي مقاتل.

وبات الفريقان في تلك الليلة لا يُبْطِلان الرّمي حتى أصبحا يوم الأربعاء وقد جاء كثير من مماليك الأمراء إلى منطاش ثم خرج من عسكر الناصري الأمير تَمُرباي الحَسْنِيّ حاجب الحّجاب، والأمير قردم الحسني رأس نوبة النُّوَب في جماعة كبيرة من الأمراء، وصاروا إلى منطاش من جملة عسكره، وغالب هؤلاء الأمراء من اليلبُغاوية.

ثم ندب الناصريّ لقتال منطاش الأميرَ أحمدَ بن يلبغا أميرَ مجلس، والأمير قرا دمرداش الأحمدي أمير سلاح، وعَيَّن منهم جماعة كبيرة؛ فنزلوا وصدموا المنطاشية صدمة هائلة انكسروا فيها غيرَ مرّة، وآبن يلبغا يعود بهم، إلى أن ضعف أمره، وآنهزم وطلع إلى باب السلسلة، هذا والقوم يتسللون من الناصري إلى منطاش، والعامة تُمْسِك مَنْ وجدوه من التُّرك ويقولون له: «ناصريّ، أم منطاشِيّ؟» فإن قال: «ناصري» أنزلوه من على فرسه وأخذوا جميع ما عليه وأتوا به إلى منطاش.

ثم تكاثرت العامة على بيت الأمير أَيْدكَار حتى أخذوه بعد قتال كبير وأَتَوْا به إلى منطاش، فأكرمه منطاش وبينما هو في ذلك جاءه الأمير أَلْطُنْبُغا المعلّم بطُلْبِه ومماليكه، وكان من أجل خُشْداشية الناصري وأصحابه، وصار من جملة المنطاشية، فُسرَّ به منطاش.

ثم عَيّن له ولأيْدكار موضعاً يقفان فيه ويُقاتلان الناصري منه. وبينما منطاش في ذلك أرسل إليه الأمير قرا دمرداش الأحمدي أمير سلاح يسأله في الحضور إليه طائعاً فلم يأذن له، ثم أتاه الأميرُ بلُّوط الصرغتمشي بعد ما قاتله عِدّة مرار، وكان من أعظم أصحاب الناصري.

ثم حضر إلى منطاش جُمَق بن أيتمش وآعتذر إليه، فقَبِل عذرَه وعظُم أمر منطاش، وضعُف أمر الناصريّ، وآختل أمره، وصار في باب السِلْسِلة بعدد يسير من مماليكه وأصحابه ونَدِم الناصريّ على خَلْع الملك الظاهر برقوق وحبسه لمّا عَلِم أن الأمر خرج من اليلبُغاوية وصار في الأشرفية حيث لا ينفعه الندم.

فلمّا أَذّن العصر قام الناصريّ هو وقرا دِمرداش الأحمدي أمير سلاح وأحمد آبن يلبغا أمير مجلس وآقبغا الجوهري الأستادار والأبغا العثماني الدوادار والأمير قراكسك في عدّة من المماليك، وصَعِدَ إلى قلعة الجبل ونزل من باب القرافة. وعندما قام الناصريّ من باب السلسلة وطلَع القلعة ونزل من باب القرافة، أعلم أهلُ القلعة منطاشَ، فَرِكبَ في الحال بمن معه، وطلع إلى الإسطبل السلطانيّ ومَلَكه، ووقع النهبُ فيه، فأخذوا من الخيل والقُماش شيئاً كثيراً. وتفرّق الزُّعْرُ والعامّة إلى بيوت المنهزمين، فنهبوا وأخذوا ما قَدروا عليه، ومنعهم الناسُ من عِدّة مواضع؛ وبات منطاش بالإسطبل[١].

وأصبح من الغد، وهو يوم الخميس تاسع عشر شعبان، وطلع إلى السلطان الملك المنصور حاجي، وأعلمه بأنه في طاعته، وأنه هو أحقّ بخدمته لكونه من جملة المماليك الذين لأبيه الأشرف شعبان، وأنه يَمتثِل مرسومَه فيما يأمره به، وأنه يريد بما فعله عِمارَةَ بيت الملك الأشرف ــ رحمه الله ــ فسُرَّ المنصورُ بذلك هو وجماعة الأشرفية، فإنهم كانوا في غاية ما يكون من الضّيق مع اليلبُغاوية من مدّة سنين.

(١) أي الإسطبل السلطاني، دلالة على أنه قد أضحى الرجل القوي في البلاد. وكان الإسطبل السلطاني عادة يتخذ مقراً للأمير الكبير أتابك العساكر.

ثم تقدّم الأمير منطاش إلى رؤوس النُّوَب بجمع المماليك وإنزالهم بالأطباق من قلعة الجبل على العادة ثم قام من عند السلطان ونزل إلى الإسطبل بباب السلسلة وكان نَدب جماعة للفَحْص على الناصري ورُفقته، ففي حال نزوله أُحضر إليه الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، والأمير مأمور القلمطاوي، فأمر بحبسهما بقاعة الفِضّة من القلعة، وحَبَس معهما أيضاً الأمير بَجْمان المحمّدي وكَتَب منطاش بإحضار الأمير سُودون الفخريّ الشيخونيّ النائب من ثغر الإسكندرية ثم قَدِم عليه الخبرُ بأنّ الأمراء الذين توجّهوا في أثر الناصريّ أدركوه بِسْرِيَاقُوس وقبضوا عليه وبعد ساعة أُحْضر الأمير يلبغا الناصريّ بين يديه، فأمَر به، فَقُيِّد وحُبِس أيضاً بقاعة الفِضّة، ثم حُمِل هو والجُوبانِيّ في آخرين إلى سجن الإسكندرية فحبَسوهم وأخذ الأميرُ منطاش يتتبّع أصحابَ الناصريّ وحواشيه من الأمراء والمماليك.

فلمّا كان يوم عشرين شعبان قَبضَ على الأمير قَرا دِمِرْداش الأحمدي أمير سلاح، فأمَر به منطاش، فقُيِّد وحُبِس. ثم قَبَض منطاش على جماعة كبيرة من الأمراء، وهم: الأمير أَلْطنبُغا المعلِّم، والأمير كشلي القَلَمْطَاوي، وآقبُغا الجوهريّ، وأَلْطُنْبُغا الأشرفيّ، وآقبغا العثماني، وفارس الصرغتمشي، وكمشبغا، وشيخ اليوسفيّ، وعَبْدوق العلائي، وقُيِّد الجميع وبعث بهم إلى ثغر الإسكندرية، فحبِسُوا بها.

ثم في حادي عشرينه أنعم منطاش على الأمير إبراهيم بن قُطْلُقْتَمُر الخازندار بإمرة مائة وتقدمة ألف، وآستقرّ أمير مجلس عوضاً عن أحمد بن يلبغا دَفْعةً واحدةً من إمرة عشرة ثم أخلع السلطانُ الملك المنصور على الأمير منطاش باستقراره أتَابَك العسكر ومدَبِّر الممالك عوضاً عن يَلْبُغا الناصري المقبوض عليه. ثم كتب منطاش أيضاً بإحضار قُطلُوبُغَا الصَّفَوِيّ نائب صَفَد، والأمير أَسَنْدَمُر الشرفيّ، ويعقوب شاه، وتمان تمر الأشرفي، وعَيَّن لكل منهم إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية.

ثم في ثاني عشرينه قَبَض على الأمير تمرباي الحسني حاجب الحُجَّاب بديار مصر، وعلى الأمير يلبغا المنجكيّ، وعلى إبراهيم بن قُطْلقتمر أمير مجلس الذي

ولّاه في أمسه، ثم أطلقه وأخرجه على إمرة مائة وتقدمة ألف بحلب لأمر ٱقتضى ذلك.

ثم في ثالث عشرين شعبان المذكور قَبَض منطاش على أَرسلان اللَّفّاف، وعلى قراكسك السيفيّ، وأَيدَكَار العُمَريّ حاجب الحجّاب، وقَرْدَم الحسنيّ، وآقبغا المَارِدِينيّ وعدّة من أعيان المماليك اليَلبُغاوية وغيرهم.

ثم قَبَض على الطواشي مُقْبِل الروُّميّ الدَّواداري الزِّمام، وجَوْهر اليلبُغاوي لالا السلطان الملك المنصور ثم قَبَض منطاش على الطواشي صَنْدل الروميّ المَنْجَكِي خازندار الملك الظاهر برقوق وعذَّبه على ذخائر برقوق وعَصرَه مِراراً حتّى دلّ على شيء كثير، فأخذها منطاش وَتَقوّى بها.

وفي ثامن عشرينه وصل سُودون الشيخوني النائب من سجن الإسكندريّة فأمره منطاش بلزوم بيته [بطّالاً][1].

ثم أنفق منطاش على مَن قاتل معه من الأمراء والمماليك بالتدريج، فأعطى لمائة واحد منهم لكل واحد ألف دينار، وأعطى لجماعة أُخَر لكلّ واحد عشرة الآف درهم، وُدوَنهم لكل واحد خمسة الآف درهم، ودُونهم لكل واحد ألف درهم، ودُونهم لكلّ واحد خمسمائة درهم.

وظهر على منطاش الملل من المماليك الظاهرية والتخوُّف منهم؛ فإنه كان قد وعدهم بأنه يُخْرِج أستاذَهم الملك الظاهر برقوق من سجن الكَرَك إذا ٱنتصر على الناصريّ، فلم يفعل ذلك، ولا أنعم على واحد منهم بإمرة ولا إقطاع، وإنما أخذ يُقَرِّب خُشداشيته ومماليكه وأولاد الناس؛ فَعَزّ عليهم ذلك في الباطن، وفَطِن منطاش بذلك، فعاجلَهم بأن عمل عليهم مكيدةً؛ وهي أنه لَمّا كان يوم الثلاثاء ثاني شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة المذكورة طلب سائرَ المماليك الظاهريَّة على أنّه ينظر في أمرهم ويُنْفِق عليهم ويترضّاهم؛ فلمّا طلعوا إلى القلعة أَمَر منطاش فَأَغْلَق عليهم بابَ القلعة، وَقُبِض على نحو المائتين منهم.

---

(١) زيادة عن نزهة النفوس.

حدّثني السَّيفي إينال المحمودي الظاهري قال: «كنت من جُملتهم؛ فلمّا وقفنا بين يَدَي منطاش، ونحن في طَمْعة النَّفقة والإقطاعات، ظهرَ لِي من وجه منطاش الغَدْر، فتأخَّرتُ خلفَ خشداشيتي؛ فلَمّا وقـع القبضُ عليهم رميتُ بنفسي إلى الميدان، ثم منه إلى جهة باب القرافة، وآختفيتُ بالقاهرة». اِنتهى.

ثم بعث منطاش بالأمير جُلْبان الحاجب، وبَلاط الحاجب، فقَبضَ على كثير من المماليك الظاهريّة، وسُجِنوا بالأبراج من قلعة الجبل.

قلت: لا جرم، فإنه مَنْ أعان ظالماً سُلِّط عليه وفي الجملة فإن الناصريّ كان لحواشي برقوق خيراً من منطاش. غير أنّه لكل شيء سبب: وكانت حركةُ منطاش سبباً لخلاص الملك الظاهر برقوق، وعوده إلى مُلكه على ما سيأتي ذكرهُ. ثم أمر منطاش فنُودي بالقاهرة أن مَنْ أحضر مملوكاً من مماليك برقوق فله كذا وكذا، وهدّدَ مَن أَخْفَى واحداً منهم.

قلت: وما فعله منطاش هو الحزم؛ فإنّه أزال من يخشاه، وقَرَّب ممالِيكه وأصحابه؛ وكاد أمره أن يتَمّ بذلك لو ساعدتْه المقادِيُر وكيف تساعده المقاديرُ وقد قُدِّر بعَوْد برقوق إلى ملكه بحركة منطاش وبركوبه على الناصريّ[1].

(١) إذا فهمنا من تعليق المؤلف هنا أنه يثني على سياسة منطاش في تقريب مماليكه وأصحابه وإزالة من يخشاه من أخصامه ـ هذا بالرغم من ميل المؤلف إلى برقوق ـ فلعله بهذا الحكم ينسجم مـع القاعدة التي سادت في تلك الفترة من العصر المملوكي وهي أن السلطة باتت مشاعاً لكل أمير متغلب. هذه القاعدة التي كان برقوق قد عمل جاهداً على إرسائها بتقويضه للاتجاه الوراثي الذي بدأه المنصور قلاوون. وبالرغم من أن رفض مبدأ التوريث في الحكم المملوكي سمـح بوجود سلاطين أقوياء على رأس السلطة وإبعاد الأطفال الذين يصلون بحكم التوريث، فإن هذه القاعدة ـ مع غياب قضية كبرى يتبناها الحاكم كمجابهة غزو خارجي صليبـي أو مغولي، ومـع تفاقم الأزمة الاقتصادية ـ هذه القاعدة أدخلت البلاد في حالة شبه دائمة من الفوضى والصراعات الدموية الداخلية التي كانت تندلـع كلما لاح لأحد الأمراء أمل بالتوصل إلى السلطة، أو كلما وجد الأمراء المحرومون من إنعامات السلطان أو الأتابك الكبير فرصة للانتقام. وهكذا فإن ما فعله منطاش من محاولة القضاء على الظاهرية واليلبغاوية والاعتماد فقط على أخصائه من الأشرفية كان سبباً في قيام حلف جديد ضده مؤلف من الظاهرية الجراكسة واليلبغاوية الأتراك، أضيف إليهم أعداد غفيرة من عامة الناس والتجار الذين كانوا يعانون من تدهور الوضـع الاقتصادي وكثرة الضرائب والمكوس التي أعادها منطاش أو تلك التي استجدّها. وتجدر الإشارة هنا إلى =

ثم في ثالث شهر رمضان قَبَضَ منطاش على سُودون النائب وألزمه بمال يَحْمِله إلى خِزانته. وفيه شَدّد الطلب على المماليك الظاهريّة، وألْزَمَ سودون النائب المتقدّم ذكره بحمل ستمائة ألف درهم كان أنعم عليه بها الملك الظاهر برقوق في أيام سلطنته.

ثم خَلَع على حسين بن الكوراني بعوده إلى ولاية القاهرة، وحرّضه منطاش على المماليك الظاهريّة.

ثم قَدِمت الأمراء المطلوبون من البلاد الشاميّة، وخَلَع منطاش عليهم، وأنعم على كلّ منهم بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية دَفْعة، ولم يَسْبِقْ لهم قبل ذلك أخذُ إمرة عشرة بديار مصر.

وفيه ظَفِر منطاش بذخيرة كانت للملك الظاهر برقوق بجوار جامع الأزهر.

وفيه أفرج منطاش عن الأمير محمود بنِ علي الأستادار بعد ما أخذ منه جملةً كبيرة من المال ثم أمسك منطاش جماعةً من أعيان المماليك الظاهريّة ممّن كانوا ركبوا معه في أوائل أَمْره، وبهم كان آستفحلَ أمرُه، وأضافهم إلى مَنْ تقدّم من خشداشيّتِهم، وحبس الجميعَ بأبراج قلعة الجبل، ولم يَرِقَّ لأحد منهم.

قلت: لعله تَمثّل بأبيات المتنبي: [الكامل]

لا يخدَعَنْك من عدوّك دمعُه ... وآرحَمْ شبابك من عدو تَرْحمُ

لا يَسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى ... حتى يُراقَ على جوانبه الدمُ

وبينما منطاش في ذلك ورد عليه البريد بخروج الأمير نُعَيْر [بن حيَّار بن مهنّا أمير العربان] عن الطاعة غضباً للناصريّ، وأنه آتفق هو وسولي بن دُلْغادِر ونهبا بلاداً كثيرة من الأعمال الحلبيّة، فلم يَلْتَفت منطاش إلى ذلك وكَتَب لهما يستعطفهما على دخولهما تحت الطاعة.

= أن مثل هذه السياسة نفسها التي اتبعها منطاش كانت سبباً واضحاً وراء هزيمة برقوق الأولى أمام تحالف منطاش والناصري. وبهذا المعنى فإن التاريخ يعيد نفسه وتتكرر الأحداث بتوفر الأسباب نفسها.

ثم بعد أيام ورد البريدُ أيضاً بخروج الأمير بزْلار العُمَري الناصري حسن نائب الشام عن طاعة منطاش غَضَباً للأمير يلبغا الناصري، فكَتَبَ إليه أيضاً مكاتبة خَشَّنَ له فيها.

ثم أخذ منطاش فيما يفعله في أمر دِمَشق وغيرها ـ على ما سيأتي ذكره ـ بعد أن يُقَعِّدَ له قواعدَ بمصر فبدأ مِنطاش في اليوم المذكور بالقبض على الطواشي صواب السَّعدي المعروف بشَنْكَل مقدّم المماليك السلطانية.

وخلَع على الطواشي جَوْهر وأعاده لتقدمة المماليك. ثم أنعم على جماعة من حواشيه ومماليكه بإقطاعات كثيرة؛ وأنعم على جماعة منهم بتقدمة ألف، وهم: ولده الأمير ناصر الدين محمد بن منطاش، وهي أحسن التقادم، والأمير قطلوبُغا الصَّفَوي، وأسندمر بن يعقوب شاه، وتمان تمر الأشرفي، وأيدكار العمري، وأسندمر الشرفي رأس نوبة منطاش، وجنتمر الأشرفي، ومَنْكَلي باي الأشرفي، وتُكا الأشرفي، ومنكلي بغا خازندار منطاش، وصَراي تمر دوادار منطاش، وتَمربغا الكَريمي، وألطُنْبُغا الحلبيّ، ومبارك شاه.

ثم أنعم على جماعة كبيرة بإمرة طبلخاناه، وعشرينات وعشرات؛ فممن أنعم عليه بإمرة طبلخاناه: الشريف بَكْتمر الحسني، وأبو بكر بن سُنْقر الجمالي، ودِمرداش القَشْتَمري، وعبد الرحمن بن منكلي بُغا الشمسي على عادته أوّلاً، وجُلْبان السعدي، وآروس بغا صلغيه، وإبراهيم بن طشتمر الدوادار، وسربُغَا الناصري، وتنكز الأعور الأشرفي، وصراي تمر الأشرفي، وآقبغا المنجكي، ومَلِكتمر المحمدي، وقرابغا السيفي، وقطلوبغا الزيني، وتمربغا المنجكي، وأرغون شاه السيفي، ومقبل السيفي منطاش أمير سلاح، وطيبرس السيفي رأس نوبة، وبيرم خجا الأشرفي، وألطنبغا الجربُغاوي، ومنجك الزيني، وبُزْلار الخليليّ، ومحمد بن أسَنْدَمر العلائي، وطَشْبغا[1] السيفي منطاش، وإلياس الأشرفي، وقطلوبغا السيفي، وشيخون الصرغتمشي، وجُلبان السيفي، وألطنبغا الطازي، وإسماعيل السيفي، وحسين بن الكوراني.

---

(١) في نزهة النفوس: «طاس بغا السيفي» وفي السلوك: «طاش بغا السيفي».

وأنعم على كل مّمن يُذْكر بإمرة عشرين، وهم: غريب الخطائي، وبايجي[١] الأشرفي، ومنكلي بغا الجُوباني، وقرابغا الأحمدي، وآق كبك السيفي، وفرج شادّ الدواوين، ورمضان السيفي، ومحمد بن مغلطاي المسعودي والي مصر.

وأنعم على كل ممن يذكر بإمرة عشرة [وهم]: صلاح الدين محمد بن تنكِز زيادة على ما بيده، وخضر بن عمر بن بكتمر الساقي، ومحمد بن يونس الدوادار، وعليّ الجَرَكْتَمُري، ومحمد بن رجب بن محمد التركماني، ومحمد بن رجب بن جنتمر[٢] بن عبد الغني، وجوهر الصلاحي، وإبراهيم بن يوسف برلغي، ولؤلؤ العلائي الطواشي، وتَنْكِز العثماني، وصراي تَمُر الشرفي الصغير، ومنكلي بُـغَا المنجكي، وآق سنقر الأشرفي ـ رأيت أنا المذكور في دولة الملك الأشرف برسباي في حدود سنة ثلاثين وثمانمائة وقد شاخ ـ وجاركس القرابغاوي، وأسنبغا التاجي، وسنقر السيفي، وكزل الجوباني، وقرابغا الشهابي، وبك بلاط الأشرفي، ويلبغا التركماني، وأرنبغا الأشرفي، وحاجي اليلبغاوي، وأرغون الزيني، ويلبغا الزينيّ، وتمر الأشرفي، وجنبغا الشرفي، وجقمق السيفي، وأرغون شاه البكلمشي، وأَلْطُنْبغا الأشقر، وصراي السيفي، وألطنبغا الإبراهيمي، وآقبغا الأشرفي، وأُلْجيبغا السيفي. اِنتهى.

ثم في خامس عشر شهر رمضان نودي على الزُّعْر بالقاهرة ومصر: مَن حمل منهم سيفاً أو سكِّيناً أو شالق بحجر وُسِّط. وحُرِّض الوالي عليهم، فقطع أيدي ستة منهم في يوم واحد.

وفي يوم عشرين شهر رمضان ورد البريد بأن بُزْلار نائب الشام مسكه الأمير جَنْتَمُر أخوطاز، فكاد منطاش أن يَطِيرَ من الفرح بذلك، لأن بزلار كان من عظماء الملوك ممن كان الملك الظاهر برقوق يخافه، ونفاه إلى الشام، فوافق الناصريّ، فولاه الناصري نيابة الشام دفعة واحدة مخافةً من شرّه؛ وكان من الشجعان حسب ما يأتي ذكره في الوفيات.

(١) في السلوك: «باينجي».
(٢) في السلوك: «محمد بن منكوتمر عبد الغني» وفي نزهة النفوس: «محمد بن رجب منكوتمر عبد الغني».

ولمّا أن بلغ منطاش هذا الخبرُ قلع السلاح عنه وأمر أمراءه ومماليكه بقلع السلاح، فإنهم كانوا في هذه المدّة الطويلة لابسين السلاح في كلّ يوم.

ثمّ في الحال قبض منطاش على جُمَق بن أيْتَمش البَجَاسيّ وعلى بيرم العلائي رأس نوبة أيتمش.

وفيه قَدِم سيف[1] الأمير بُزْلار المقدّم ذكره. وكان من خبره أن منطاش لمّا آنتصر على الناصريّ وملك مصر أرسل إلى الأمير بُزْلار المذكور بحضوره إلى مصر في ثلاثة سُروج لا غير على البريد، فأجابه بزلار: «لا أحضر إلا في ثلاثين ألف مقاتل»، وخاشنه في رَدّ الجواب، وخرج عن طاعته؛ فخادعه منطاش حسب ما تقدّم ذكره، وكتب في الباطن للأمير جَنْتَمُر أخي طاز أتابك دِمَشق بنيابة دمشق إلى أن قَبَض على بزلار المذكور، ثم سيّر إليه التشريف بذلك. وكتب إليه أن محمد ابن بَيْدَمر يكون أتابك دمشق عِوضَه، وجبريل حاجب دِمَشق فلمّا بلغ جنتمر ذلك عرّف الأمراء المذكورين الخبر، وآتّفق مع جماعة أُخَر من أكابر أمراء دمشق وركبوا على بزلار المذكور على حين غفلة وواقعوه، فلم يثبت لهم، وآنكسر ومُسِك وحُبِس بقلعة دمشق. وأرسل جنتمر سيفه إلى منطاش، واستقر عوضه في نيابة دمشق، فسّر منطاش بذلك غايةَ السرور.

ولم يتمّ سرُورُه، وقَدِم عليه الخبر بما هو أَدهى وأمرّ، وهو خروجُ الملك الظاهر برقوق من سجن الكرك، وأنه آستولى على مدينتها ووافقه نائبها الأمير حسام الدين حسن الكجكني، وقام بخدمته، و[أنه] قد حضر إلى الملك الظاهر برقوق آبنُ خاطر أمير بني عُقبة من عرب الكرك ودخل في طاعته؛ وقَدَم هذا الخبر من آبن باكيش نائب غزة. فلمّا سمع منطاش ذلك كاد يهلك، وآضطربت الديار المصرية، وكثُرت القالَة بين الناس، وآختلفت الأقاويل، وتشغّب الزُّعر.

وكان من خبر الملك الظاهر برقوق أن منطاش لمّا وثب على الأمر[2] وأقهر

---

(١) كان هذا كناية عن هزيمة الأمير صاحب السيف أو مقتله.

(٢) في الأصل: «الأمير» وهو خطأ.

الأتابك يلبغا الناصري وحبسه وحبس عدَّة من أكابر الأمراء، عاجَلَ في أمر الملك الظاهر برقوق بأن بعث إليه شخصاً يُعرف بالشهاب البريدي ومعه كتبٌ للأمير حُسام الدين الكجكني نائب الكرك وغيره بقتل الملك الظاهر برقوق من غير مراجعة، ووعده بأشياء غير نيابة الكرك.

وكان الشهاب البريديّ أصله من الكرك، وتزوج ببنت قاضي الكرك القاضي عماد الدين أحمد بن عيسى المقيّريّ الكركي. ثم وقع بين الشهاب المذكور وبين زوجته، فقام أبوها عليه حتى طلّقها منه، وزوجها بغيره. وكان الشهاب مغرماً بها، فشقّ ذلك عليه، وخرج من الكرك، وقدم مصر، وصار بريدياً. وضرب الدهر ضَرَباته حتى كان من أمر منطاش ما كان، فاتصل به الشهاب المذكور ووعده أنه يتوجّه لقتل الملك الظاهر برقوق؛ فجهزه منطاش لذلك سراً، وكتب على يده إلى الأمير حسام الدين الكجكني نائب الكرك كتباً بذلك، وحثّه على القيام مع الشهاب المذكور على قتل برقوق، وأنه يُنزله بقلعة الكرك ويُسكِنه بها حتى يتوصّل لقتل الملك الظاهر برقوق.

وخرج الشهاب من مصر، ومضى إلى نحو الكرك على البريد حتى وصل قرية المقُيّر[1] بلد صهره القاضي عماد الدين قاضي الكرك الذي أصله منها، فنزل بها الشهاب، ولم يكتُم ما في نفسه من الحِقد على القاضي عماد الدين، وقال: «والله لَأخْرِبن دياره وأزيد في أحكار أملاكه وأملاك أقاربه بهذه القرية وغيرها». فٱستوحش قلوبُ الناس وأقاربُ عماد الدين من هذه الكلام، وأرسلوا عرّفوه بقصد الشهاب وما جاء بسببه قبل أن يصل الشهاب إلى الكرك ثم ركب الشهاب من المقيرّ وسار إلى الكرك حتى وصلها في الليل وبعث للنائب مَنْ يصيح به من تحت السور، فمنعوه من ذلك. وأحسّ الكجكني بالأمر، فلمّا أصبح أحضره إلى دار السعادة، وقرأ كتاب السلطان الذي على يده، وكتاب منطاش، ومضمونهما أمور أُخَر غير قتل الظاهر برقوق؛ فٱمتثل النائب ذلك بالسمع والطاعة.

(١) بلد قريب جداً من الكرك، كما جاء في نزهة النفوس.

فلمّا آنفضّ الناس أخرج الشهاب إليه كتابَ منطاش الذي بقتل برقوق؛ فأخذه الكجكني منه ليكون له حُجّة عند قتله السلطان برقوق، ووعده بقضاء الشغل وأنزل الشهاب بمكان قلعة الكرك قريباً من الموضع الذي فيه الملك الظاهر برقوق، بعد أن آستأنس به ثم قام الكجكني من فوره ودخل إلى الملك الظاهر برقوق ومعه كتاب منطاش الذي بقتله، فأوقفه على الكتاب؛ فلمّا سمعه الملك الظاهر كاد أن يهلك من الجزع، فحلف له الكجكني بكل يمين أنه لا يسلِّمه لأحد ولو مات، وأنه يُطْلِقه ويقوم معه؛ وما زال به حتى هدأ ما به، وطابت نفسه، وآطمأنّ خاطرُه.

هذا وقد آشتهر في مدينة الكَرَك مجيء الشهاب بقتل الملك الظاهر برقوق، لخفّة كانت في الشهاب المذكور وأخذ القاضي عماد الدين يخوِّف أهلَ الكرك عاقبةَ قتل الملك الظاهر برقوق وينفِّرهم عن الشهاب حتى خافوه وأبغضوه وكان عماد الدين مطاعاً في أهل بلده، مسموع الكلمة عندهم، لِمَا كانوا يعهدون من عقله وحسن رأيه. وثَقُل الشهاب على أهل الكرك إلى الغاية، وأخذ الشهاب يُلِحُّ على الأمير حُسام الدين نائب الكرك في قتل الملك الظاهر برقوق، وبقي النائب يُسوِّف به من وقت إلى وقت، ويُدافعه عن ذلك بكلّ حجّة وعُذر؛ فزاد الشهاب في القول حتى خاشنه في اللفظ، فعند ذلك قال له الكجكني: «هذا شيء لا أفعله بوجه من الوجوه حتى أكتبَ إلى مصر بما أعرفه وأسأل عن ذلك ممّن أثِق به من أصحابي من الأمراء».

ثمّ أرسل البريد إلى مصر بأنه لا يدخل في هذا الأمر، ولكن يحْضر إليه مَن يتسلَّمه منه ويفعل فيه ما يُرْسَمُ له به. وكان في خدمة الملك الظاهر غلامٌ من أهل الكرك يُقَال له عبد الرحمن، فنزل إلى جماعة في المدينة وأعلمهم أن الشهاب قد حضر لقتل أستاذه الملك الظاهر. فلمّا سمعوا ذلك آجتمعوا في الحال، وقصدوا القلعة وهجموها حتى دخلوا إلى الشهاب المذكور وهو بسكنه من قلعة الكرك، ووثبوا عليه وقتلوه، ثم جرّوه برجله إلى الباب الذي فيه الملك الظاهر برقوق. وكان نائب الكرك الكجكني عند الملك الظاهر، وقد ابتدأوا في الإفطار بعد أذان

المغرب، وهي ليلة الأربعاء عاشر شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة المقدّم ذكُرها، فلم يشعُر الملك الظاهر والكجكني إلا وجماعة قد هجموا عليهم وهم يدعون للملك الظاهر بالنصر، وأخذوا الملك الظاهر بيده حتى أخرجوه من البُرْج الذي هو فيه، وقالوا له: «دُسْ بقدمك عند رأس عدوّك»، وأَرَوْه الشهاب مقتولاً ثم نزلوا به إلى المدينة فُدهِش النائب ممّا رأى، ولم يجد بُداً من القيام في خدمة الملك الظاهر وتجهيزه وآنضمَّ على الملك الظاهر أقوامُ الكرك وأجنادها، وتسامع به أهلُ البلاد، فأَتَوْه من كلِّ فجّ بالتقادم والخيول، كلُّ واحد بحسب حاله وأخذ أمرُ الملك الظاهر برقوق من يوم ذلك في آستظهار على ما سيأتي ذكُره[1].

وأمّا أمر منطاش فإنه لمّا سمع هذا الخبر وتحققّه عَلِم أنه وقع في أمر عظيم، فأخذ في تدبير أحواله فأوّل ما آبتدأ بمسك الأمير قرقماس الطشتمري الخازندار وأحد أمراء الألوف بديار مصر، وبمسك الأمير شاهين الصرغتمشي أمير آخور، وبمسك قطلوبك أستادار الأتابك أيتمش البجاسيّ، وعلى جماعة كبيرة من المماليك الظاهريّة، وتداول ذلك منه أياماً.

ثم أنعم منطاش على جماعة من الأمراء بأموال كثيرة، ورسم بسفر أربعة الآف فارس إلى مدينة غزّة صحبة أربعة أمراء من مقدّمي الألوف بالديار المصرية، وهم: أسندمر اليوسفي، وقطلوبغا الصفوي، ومنكلي باي الأشرفيّ، وتمربغا الكريمي، وأنفق في كلِّ أمير منهم مائة ألف درهم فِضّة ثم عَيَّن منطاش مائة مملوك للسفر صحبةَ أمير الركب إلى الحجاز وآستمرّ منطاش في عمل مصَالحِه، إلى أن كان يوم سابع شوّال خلع السلطان الملك المنصور على الأمير منطاش المذكور، وفوّضَ إليه تدبير الأمور، وصار أتابك العساكر كما كان يلبغا. أراد منطاش بذلك إعلام

(١) وزاد الجوهري في نزهة النفوس رواية أخرى وهي أنه «لما تحقق الناصري زوال دولته كتب بإطلاق الملك الظاهر، ولما تحقق منطاش الظفر والغلب كتب بقتل الظاهر؛ فسبق قاصد الإفراجِ قبل قاصد القتل بشيء يسير. فلما ورد المرسوم من منطاش بالقتل لم يلتفتوا إليه وقتلوا قاصده».
وذكر ابن دقماق في الجوهر الثمين أن الكركيين لما «أخرجوا السلطان برقوق بايعوه يوم الثلاثاء تاسع رمضان، فحكم بالكرك، وتسامع به الناس والعربان وهرب إليه جماعة من مماليكه».

الناس أنه ليس له غرض في السلطنة، وأنه في طاعة الملك المنصور آبن أستاذه.

ثمّ خلـع الملك المنصور أيضاً على الأمير قطلوبغا الصَّفَوِي المقدّم ذكرهُ في الأربعة أمراء المعينين للسفر بآستقراره أمير سلاح، وعلى تمان تمـر الأشرفيّ باستقراره رأس نوبة النوب، وعلى أسندمر بن يعقوب شاه أمير مجلس، وعلى أَلْطُنبغا الحلبـي دواداراً كبيراً، وعلى تُكَا الأشرفيّ رأس نوبة ثانياً بتقدمة ألف، وعلى إلياس الأشرفيّ أمير آخور بإمرة طبلخاناه، وعلى أرغون شاه السيفي رأس نوبة ثالثاً بإمرة طبلخاناه، وعلى تمربغا المنجكي رأس نوبة رابعاً بإمرة طبلخاناه، وعلى قطلوبغا الأرْغُوني أستاداراً، وعلى جَقْمق شادّ الشراب خاناه ثم خلـع على تمان تمر رأس نوبة بنظر البيمارستان المنصوري، وعلى أَلْطُنبغا الحلبـي الدوادار الكبير بنظر الأحباس. ثم بطل أمر التجريدة المعيّنة إلى غزة خوفاً من المماليك لئلا يذهبوا للملك الظاهر برقوق.

ثم في تاسـع شوّال خَلَـع على الأمير أَيْدكار بآستقراره حاجب الحُجّاب، وعلى أمير حاج بن مغلطاي حاجباً ثانياً بتقدمة ألف.

وفيه سَمَّر منطاش أربعةً من الأمراء، وهم: سودُون الرمَّاح أمير عشرة ورأس نوبة، وألطنبغا أمير عشرة أيضاً، وأميران من الشام، ووُسِّطوا بسوق الخيل في عاشره لميلهم إلى الملك الظاهر برقوق.

ثم أخلـع منطاش على تَنْكِز الأعور بآستقراره في نيابة حماة عوضاً عن طُغاي تمر القبلاوي.

وفيه[1] حُمل جهاز خَوَنْد بنت الملك الأشرف شعبان أخت الملك المنصور هذا لتُزَفّ على الأمير الكبير منطاش، وكان [الجهاز] على خمسمائة جمل وعشرة قُطُر بغال ومشى الحجاب وغالب الأمراء أمام الجهاز، فخلـع عليهم منطاش الخِلَـع السَّنِيّة وبنى بها من ليلته، بعد أن آهتمّ بالعُرس آهتماماً زائداً وعندما زُفّت إليـه عَلّق

(١) في السلوك ونزهة النفوس: «في ثاني عشر شوّال».

منطاش على شَرْبوشها[١] ديناراً زنتُه مائتا مِثقال، ثم ثاني مرّة ديناراً زنته مائةُ مثقال، وفَتحَ للقصر باباً من الإسطبل بسبب ذلك بجوار باب السرّ، هذا مع ما كان منطاش فيه من شُغل السرّ من آضطراب المملكة بعد مَسْكه الناصريّ وغيره.

وفيه أخْرَج [منطاش] عدّةً من المماليك الظاهريّة إلى قُوص وبينما منطاش في ذلك قدم عليه الخبر بأن الأمراء المقيمين بمدينة قُوص من المنفِيّين قبل تاريخه خرجوا عن الطاعة، وقبضوا على والي قُوص وحبسوه، وآستَوْلوْا على مدينة قوص، وآنضم عليهم جماعة كبيرة من عُصاة العُربان؛ فندَبَ منطاش لقتالهم تمربغُا الناصري، وبِيرَم خَجَا، وآروس بُغا من أمراء الطبلخاناة في عدّة مماليك.

ثم قَدِم الخبرُ بأن الأمير كَمَشْبغا الحموي اليلْبُغاوي نائب حلب خرج عن الطاعة، وأنه قبض على جماعة من أمراء حلب بعد أن حارب إبراهيم بن قُطْلُقْتَمر الخازندار، وقَبضَ عليه ووسَّطه هو وشهاب الدين أحمد بن أبي الرضا قاضي قضاة حلب الشافعي، بعد أن قاتلوه ومعهم أهلُ بانقوسا[٢]، فلمّا ظَفِر بهم كمشبغا المذكور قَتَل منهم عِدّة كبيرة.

قلت: وإبراهيم بن قطلقتمر هذا هو صاحب الواقعة مع الملك الظاهر برقوق لمّا آتفق مع الخليفة هو وقُرْط الكاشف على قتل الملك الظاهر، وقبض عليهما الظاهر، وعزل الخليفة وحبسه سنين، وقد تقدّم ذكُر ذلك كله؛ وهو الذي أنعم عليه منطاش في أوائل أمره بإمرة مائة وتقدمة ألف بمصر، وجعله أمير مجلس عوضاً عن أحمد بن يلبغا، ثم أخرجه بعد أيام من مصر خوفاً من شرّه إلى حلب على إمرة مائة وتقدمة ألف، فدام بها إلى أن كانت منيتُهُ على يد كَمَشْبغا هذا.

ثم قَدِم الخبرُ على منطاش بأن الأمير حسام الدين حسن بن باكيش نائب غزّة

---

(١) الشربوش: قلنسوة طويلة مثلثة الشكل تشبه التاج، تجعل على الرأس بغير عمامة. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٩٧).

(٢) من قرى حلب. سميت باسم جبل بانقوسا القائم في ظاهر حلب من جهة الشمال. (معجم البلدان) وقال ابن الشحنة في الدرّ المنتخب: إنها حارة كبيرة ظاهر حلب من جهة الشرق والشمال، بها جوامع ومساجد وحمامات وأسواق وخانات، وهي الآن (أي زمن المؤلف المتوفى سنة ٨٩٠هـ) بندر عظيم.

جمع العشران[١] وسار لمحاربة الملك الظاهر برقوق، فسُرّ منطاش بذلك.

وفي اليوم[٢] وَرَدَ عليه الخبرُ أيضاً بقوّة شَوْكة الأمراء الخارجين عن طاعته ببلاد الصعيد، فأخرج منطاش في الحال الأميرَ أَسندمر بن يعقوب شاه أمير مجلس في نحو خمسمائة فارس نجدةً لمن تقدّمه من الأمراء إلى بلاد الصعيد فسار أسندمر بمن معه في ثالث عشرينه؛ وفي يوم مَسِيره ورد البريدُ من بلاد الصعيد بآتفاق ولاة الصعيد مع الأمراء المذكورين.

وكان من خبرهم أنه لمّا آستقر أبو درقة في ولاية أُسْوَان سار إلى آبن قُرْط، وآتّفق معه على المخامرة، وسار معه إلى قوص، وأفرج عمن بها من الأمراء المقدّم ذكُرهم. وكان عِدّة الأمراء الذين بقُوص زيادة على ثلاثين أميراً، وعدّة كبيرة من المماليك السلطانية الظاهرية فلما بلغ خبُرهم الأميرَ مبارك شاه نائب الوجه القبلي آجتمع معه أيضاً نحو ثلاثمائة مملوك من الظاهرية وآتفقوا على المخامرة أيضاً وآستمالَ مبارك شاه عرب هوارة وعربَ آبن الأحدب، فوافقوه، وآستولوا على البلاد فلمّا خرجت تجريدةُ منطاش الأولى لهم آنتهت إلى أسيوط، فَقَبض عليهم مبارك شاه المذكور، وأفرج عمّن كان معهم من المماليك الظاهرية فلما بلغ منطاش ذلك أخرج أسندمر بن يعقوب شاه كما تقدّم ذكرُه، وسار إليهم من الشرق، وتوجّه إلى جهة الصعيد بمَن معه، فلَقِيه الخارجون عن الطاعة، فواقعهم أسندمر بمن معه، فكسروه، فرَسم منطاش بخروج نجدة لهم من الأمراء والمماليك وأجناد الحلَقة وبينما هو في تجهيز أمرهم جاء الخبرُ أن أسندمُر واقع مبارك شاه ثانياً وكَسره، وقَبض عليه، وأرسله إلى منطاش، فقَدِم مقيداً، فرسم منطاش بحبسه في خِزانة شمائل.

ثمّ في يوم سابع عشرينه عيّن منطاش تجريدة إلى جهة الكَرَك، فيها أربعة وقيل خمسة أمراء من مقدّمي الألوف، وثلاثمائة مملوك ثم أخرج منطاش الأمير بلُّوط الصرغتمشي والأمير غريب لكشف أخبار الملك الظاهر برقوق بالكرك.

---

(١) المراد عشائر العربان. ويستعمل المؤلف أيضاً لفظ «العشير» للدلالة على العشائر من العربان.

(٢) أي في الثاني والعشرين من شهر شوّال سنة ٧٩١هـ، كما في نزهة النفوس والسلوك.

وأما الملك الظاهر برقوق فإنه لما أنزله عوامّ الكرك من قلعتها إلى المدينة وقاموا في خدمته، وأتته العربان، وصار في طائفة كبيرة، ووافقه أيضاً أكابرُ أهل الكرك، قويت[1] شَوكتُه بهم، وعَزم على الخروج من الكرك، وبرّز أثقاله إلى ظاهر الكرك فاجتمع عند ذلك أعيانُ الكرك عند القاضي عماد الدين أحمد بن عيسى المقيّري قاضي الكرك وكلموه في القيام على الملك الظاهر برقوق مراعاة للملك المنصور حاجّي، وللأمير منطاش، وآتفقوا على قبضه وإعلام أهل مصر بذلك، وأنهم يعتذرون لمنطاش أنه لم يخرج من حبسه بالكرك إلا باجتماع السفهاء من أهل الكرك، ليكون ذلك عذراً لهم عند السلطان وبعثوا ناصر الدين محمداً أخا القاضي عماد الدين المذكور، فأغلق باب المدينة، وبَقِي الملك الظاهر برقوق داخل المدينة، وحِيلَ بينه وبين أثقاله ومعظم أصحابه.

فلمّا قام الملك الظاهر برقوق ليركب فرسه بلغه ذلك وكان القاضي علاء الدين عليّ كاتب سر الكرك، وهو أخو القاضي عماد الدين، يكتب للملك الظاهر في مدة خُروجه من حبس الكرك، وبالغ في خدمته، وآنضمّ عليه؛ فلما رأى ما نزل بالملك الظاهر، وبلغه آتفاقُ أهل المدينة مع أخيه القاضي عماد الدين على القبض على الملك الظاهر برقوق، أعلم الملك الظاهر بذلك، وقَوّى قلبه، وحَرّضه على السير إلى باب المدينة فركب معه برقوق، وسار حتى وصل إلى الباب، فوجده مُغْلقاً وأخوه ناصر الدين قائم عند الباب، كما أمره أخوه عماد الدين قاضي الكرك؛ فما زال علاء الدين بأخيه ناصر الدين المذكور حتى فتح له الباب، وخرج بالملك الظاهر منه ولَحِق ببقية أصحابه ومماليكه الذين كانوا حضروا إليه من البلاد الشامية فأقام الملك الظاهر بالثنيَّة[2] خارج الكرك يوماً واحداً، وسار من الغد في يوم ثاني عشرين شوال إلى نحو دمشق، ونائبها يوم ذاك جنتمر أخو طاز، وقد وصل إليه الأمير الطنبغا الحلبي من مصر نائباً بحلب عوضاً عن الأمير كمشبغا الحموي، فاستعدّوا لقتال الملك الظاهر، ومعهما أيضاً حسام الدين حسن بن باكيش نائب غزة بعساكرها.

---

(١) في الأصل: «فقوي».

(٢) في الأصل: «التنية» بالتاء المثناة. وما أثبتناه عن السلوك.

ثم أقبل الملك الظاهر برقوق بمن معه، فآلتقوا على شَقْحَب قريباً من دمشق، واقتتلوا قتالاً شديداً، كسروا فيه الملك الظاهر غير مرّة، وهو يعود إليهم ويقاتلهم إلى أن كسرهم، وآنهزموا إلى دمشق، وقتل منهم ما يزيد على الألف ـ قاله المقريزي ـ فيهم خمسة عشر أميراً وقُتِل من أصحاب الملك الظاهر ستون نفساً، ومن أمرائه سبعة نفر؛ فهي أعظم وقعة كانت للملك الظاهر برقوق في عمره.

وركب الملك الظاهر أقفية الشاميين إلى دمشق، فآمتنع جَنْتَمر بقلعة دمشق وتوجّه من أمراء دمشق ستة وثلاثون أميراً، ونحو ثلاثمائة وخمسين فارساً، وقد أُثْخِنُوا بالجراحات، ومعهم نائب صفد، وقصدوا الديار المصرية.

فلم يمض غيرُ يوم واحد حتى عاد آبنُ باكيش نائب غَزّة بجماعة كبيرة من العُربان والعشير لقتال الملك الظاهر وبلغ الملك الظاهرَ ذلك فأرسل الوالد وقلمطاي لكشف الخبر، فعادا إليه بسرعة بحضور آبن باكيش؛ فركب الملك الظاهر في الحال وخرج إليه وآلتقى معه وقاتله حتى كسره، وأخذ جَميعَ ما كان معه من الأثقال والخيول والسلاح، فتقوّى الملك الظاهر بذلك وأتاه عدة كبيرة من مماليكه الذين كانوا بالبلاد الشامية في خدمة أمراء الشام، ثم دخل في طاعته الأمير جبريل حاجب حجاب دمشق، وأمير على بن أَسَنْدمر الزَّيني، وجَقْمَق الصفوِيّ، ومُقْبِل الرومي، وصاروا من جملة عسكره فعند ذلك ركب الملك الظاهر إلى دمشق، وحصرها وأحرق القُبْيبات وأخربها، فهلك في الحريق خلق كبير. وأخذ أهل دمشق في قتال الملك الظاهر برقوق، وأفحشوا في أمره بالسب والتوبيخ، وهو لا يفتر عن قتالهم؛ وبينما هو في ذلك أتاه المدد من الأمير كمشبغا الحمويّ نائب حلب، ومن جملة المدد ثمانون مملوكاً من المماليك الظاهرية البرقوقية فلما بلغ جنتمر مجيئهم أخرج إليهم من دمشق خمسمائة فارس ليحُولوا[1] بينهم وبين الملك الظاهر، فقاتلتْهم المماليك الظاهريّة وكسرتهم، وأخذوا جَميع ما كان معهم، وَأَتَوْا بهم إلى أستاذهم الملك الظاهر، ففرح بهم غاية الفرح.

---

(١) في الأصل: «ليحيلوا».

قال الوالد: فعند ذلك قوي أمرنا وآستفحل. وآستمرّوا على حصار دمشق؛ وبينما هم في ذلك، وإذا بِنُعَيْر قد أقبل في عربانه يريد قتال الملك الظاهر برقوق، فخرج الملك الظاهر وقاتله فكسره، واستولى على جميع ما كان معه. فقَوِي الملك الظاهر بما صار إليه من هذه الوقائع من الخيل والسلاح، وصار له بَرْك كبير بعد ما كان معه خيمة صغيرة لا غيرُ، وكانت مماليكه في أخصاص، وكلٌّ منهم هو الذي يخدُم فَرسه بنفسه، والآن فقد صاروا بالخِيَم والسلاح والغِلمان هذا ومماليك الملك الظاهر يَتَداول مجيئهم إليه شيئاً بعد شيء ممن كان نفاهم الناصري ومنطاش إلى البلاد الشامية.

ووصل الخبر بهذه الوقائع كلِّها إلى منطاش في خامس عشر ذي القعدة، فقامت قيامة منطاش لما سمع هذه الأخبار. وأخذ [منطاش] في تجهيز الملك المنصور حاجي للسفر لبلاد الشام لقتال الملك الظاهر برقوق، وأمر الوزير مُوَفَّق الدين بتجهيز ما يحتاج إليه السلطان، فلم يجد في الخزانة ما يُجهِّز به السلطان، وآعتذر بأنّ المال آنْتُهِب وتفرّق في هذه الوقائع، فقبل عذره. وسأل منطاش قاضي القضاة صدر الدين المُنَاوِي الشافعي، وكان ولّاه قضاء القضاة قبل تاريخه بمدة يسيرة بعد عزل ناصر الدين آبن بنت الميلق، وقال له: «أقرِضني مال الأيتام»، وكانت إذ ذاك أموالاً كثيرة، فآمتنع المُناوي من ذلك، ووعظه، فلم يؤثّر فيه الوعظ، وختم على جميع مال الأيتام. ثم رَسَم منطاش لحاجب الحُجّاب ولناصر الدين محمد بن قَرَطاي نقيب الجيش بتفرقة النقباء على أجناد الحَلْقة، وحثّهم على التجهيز للسفر وبينما هم في ذلك قدم عليه الخبر بكسرة آبن باكيش نائب غزة ثانياً من الملك الظاهر برقوق، وأَخذِ الملك الظاهر ما كان معه، فاشتدّ عند ذلك الاضطرابُ وكَثُر الإرجافُ ووقع الاهتمام بالسفر، وأزعج أجناد الحلقة. وآستدعى منطاش الخليفة المتوكِّل على الله والقضاة، والشيخ سراج الدين عمر البُلْقِيني، وأعيان الفقهاء، ورتبوا صورة فُتْيا في أمر الملك الظاهر برقوق، وآنفضوا من غير شيء.

وفي اليوم ورد على منطاش [خبر] واقعة صَفَد وكان من خبرها أن مملوكاً من

مماليك الملك الظاهر برقوق يقال له يَلْبُغا السالميّ كان أسلمه الظاهر إلى الطواشي بَهادُر الشهابي مقدّم المماليك، فرباه بهادر ورتّبه خازنداره. وآستمر على ذلك إلى أن نَفَى الملك الظاهر بهادر إلى البلاد الشامية، فصار يَلْبُغا السالمي المذكور عند صواب السعدي شَنْكل، لمّا آستقر مقدم المماليك بعد بهادر المذكور، وصار دواداره الصغير فلما قَبَض الناصريّ على شَنْكل المذكور، خَدَم يلبغا السالميّ هذا عند الأمير قُطْلُوبك النظامي نائب صفد، وصار دواداره وسار مع أهل صفد سيرة حميدةً، إلى أن قدم إلى صفد خبر الملك الظاهر برقوق، وخروجه من حبس الكرك، جمع النظامي عسكر صفد ليتوجّه بهم إلى نائب دمشق نجدةً على الظاهر، وأبقى يلبغا السالمي بالمدينة، فقام يلبغا السالمي في طائفة من المماليك الذين آستمالهم، وأفرج عن الأمير إينال اليوسفي نائب حلب كان، وعن الأمير قَجْماس أبن عم السلطان الملك الظاهر برقوق، ونحو المائتين من المماليك الظاهرية من سجن صَفد، ونادى بشعار الملك الظاهر برقوق، وأراد القبض على الأمير قُطْلوبك النِّظامي فلم يثبت النظامي، وفرّ في مملوكين؛ فآستولى السالميّ ومَنْ معه على مدينة صفد وقلعتها، وصار الأمير إينال اليوسفي هو القائم بمدينة صفد، والسالمي في خدمته، وأرسَلُوا إلى الملك الظاهر بذلك. وكان هذا الخبر من أعظم الأمور على منطاش، وزاد قلقُه، وكثرت مقالَة الناس في أمر الملك الظاهر، ثم تواترت الأخبارُ بأمر الملك الظاهر.

وفي حادي عشرينه ورد الخبر على منطاش بوصول نائب غزة حُسام الدين بن باكيش، وصحبته الأمير قُطْلُوبك النِّظامي نائب صفد المقدّم ذكره، والأمير محمد ابن بَيْدَمر أتابك دمشق، وخمسة وثلاثون أميراً من أمراء دمشق، وجَمْعٌ كبير ــ من الأجناد هُزِمُوا الجميع من الملك الظاهر برقوق، وقدموا إلى القاهرة وهم الذين قاتلوا برقوقاً مع جَنْتَمر نائب الشام، وقد تقدّم ذكر الواقعة ــ فرسم منطاش بدخولهم القاهرة.

وفي هذا اليوم آستدعى منطاش الخليفة المتوكل على الله والقضاة والعلماء بسبب الفُتْيا في الملك الظاهر برقوق وفي قتاله، فكَتَب ناصر الدين الصالحي موقِّع

الحُكم فُتْيا في الملك الظاهر برقوق تتضمّن [السؤال][١] عن رجل خلع الخليفة والسلطان، وقتل شريفاً في الشهر الحرام والبلد الحرام وهومُحرِمٌ، يعني عن أحمد بن عجلان صاحب مكة، واستحل أخذ أموال الناس وقَتل الأنفس، وأشياء غير ذلك ثم جعل الفُتْيا عشر نسخ، فكتب جماعة من الأعيان والقضاة.

ثم رسم منطاش بفتح سجن قديم بقلعة الجبل كان قد آرتدم وسجن فيه عدّة من المماليك الظاهرية المقبوض عليهم قبل تاريخه.

ثم وجد منطاش ذخيرة بالقاهرة للأمير جركْس الخليلي في بيت جمال الدين[٢] أستاداره، فيها خمسمائة ألف درهم، ونحو خمسين ألف دينار[٣]، فأخذها منطاش، ثم أخذ أيضاً من مال أبن جركس الخليلي نحو ثلاثمائة ألف دينار مصرية.

و[فيه] دخل الأمراء المنهزمون من الشام إلى القاهرة، وهم: قُطلوبك النِّظامي نائب صفد، وتَنْكز الأعور نائب حماة، ومحمد بن أيدمر أتابك دمشق، ويلبغا العلائي أحد مقدّمي دمشق، وآقباي الأشرفي نائب قلعة الروم[٤]. ومن الطبلخانات: دمرداش الأطروش وَالي الولاة، وأحمد بن تَنْكز، وجوبان[٥] الخاصكي الأشرفي، وقطلوبك جَنْجَق[٦]، وخيربك[٧]. ومن العشرينات آقبغا الوزيري، وأزْدَمُر القَشْتَمريّ، وقنق الزَّيني، ومَنْكلي بغا الناصري، وآقبغا الإينالي،

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في السلوك ونزهة النفوس: «عماد الدين إسماعيل بن المشرف أستادار جركس الخليلي».

(٣) في السلوك والنزهة: «فيها ستمائة ألف درهم ونحو الخمسين ألف دينار».

(٤) في السلوك ونزهة النفوس: «نائب قلعة المسلمين» وقلعة الروم: كانت من قلاع حلب، وكانت مقراً لخليفة الأرمن. افتتحها الملك الأشرف خليل بن قلاوون وسماها قلعة المسلمين. (التعريف بالمصطلح الشريف: ص ٢٣٢.

(٥) في الأصل: «وجوبك». وما أثبتناه عن السلوك والنزهة.

(٦) في السلوك: «قطلوبغا جبجق» وفي النزهة: «قطلوبغا ججق».

(٧) في السلوك والنزهة: «وجبرائيل».

وأحمد بن ياقوت[١] ومن العشرات: أَسَنْبُغا[٢] العلائي، وطغاي تمر الأشرفي، ومصطفى البَيْدَمُري، وقرابغا السيفي من أمراء صفد، وتغري بَرْمش الأشرفي، ومنجك الخاصّكي، وقجقار السيفي[٢].

ومن أمراء حماة: جنتمر الإسعرديّ، وألطنبغا الماردينى، وبكلمش الأرغوني القرمي، وأسنبغا الأشرفي، وحسين الأيتمشي ومن المماليك عدّة مائتين وعشرين نفراً.

وفي يوم قدم هؤلاء أفرج منطاش عن الأمير قرقماس الطشتمري، واستقر خازنداراً على عادته، وعن شيخ الصفوي الخاصكي، وعن أرغون السلاّمي، ويلبغا اليوسفيّ، ونزلوا إلى دورهم.

ثم نُودِي بأمر منطاش أن الفقهاء والكتّاب لا يركب أحد منهم فرساً، وأن الكُتّاب الكبار يركبون البغال.

ثم رسم بأخذ أكاديش الحمّالين وخيل الطواحين الجياد، ورسم بتَتَبُّع المماليك الجراكسة، فطلبهم حسين بن الكوراني وأخذهم من كل موضع.

ثم رسم منطاش بتخشيب المماليك الظاهرية المسجونين بقلعة الجبل في أيديهم وأرجلهم.

ثم في حادي عشرينه آجتمع الأمراء وأهل الدولة مع الأمير منطاش وآتّفقوا على آستبداد السلطان الملك المنصور حاجّي بالأمر، وأثبتوا رُشْدَه بحضرة القضاة والخليفة، فَرسَم السلطان بتعليق الجاليش على الطبلخاناه ليعلم الناس بسفر السلطان إلى الشام لقتال الملك الظاهر برقوق.

ثم أحضر منطاش نسخَ الفَتْوَى في الملك الظاهر برقوق، وقد أُزيد فيها: «وآستعان على قتال المسلمين بالكفّار»، وحضر الخليفة المتوكّل على الله، والقضاة

---

(١) كذا أيضاً في نزهة النفوس. وفي السلوك: «أحمد بن يانوق».

(٢) جاء السياق في السلوك على النحو التالي: «... ومن أمراء صفد: تغري بردي الأشرفي، ومنجك الخاصكي، وقجقار السيفي».

الأربعة، والشيخ سراج الدين عمر البُلقِينيّ، وولده جلال الدين عبد الرحمن قاضي العسكر، وآبن خلدون المالكي، وآبن الملقن، وقاضي القضاة بدر الدين محمد بن أبي البقاء، وجماعة أخر؛ فحضر الجميع بحضرة السلطان الملك المنصور بالقصر الأبلق[١] وقُدّمت إليهم الفتوى فكتبوا عليها بأجمعهم كتابة شنيعة[٢] على قدر النهي، وآنصرفوا إلى منازلهم.

ثم نُودي على أجناد الحلقة للعرض، وهُدِّد مَن تأخر منهم. وكُتب لعرب البحيرة بالحضور للسفر مع السلطان إلى الشام.

ثم خلع منطاش على أمير حاج بن مغلطاي الحاجب باستقراره أُستاداراً. ثم أنعم السلطان على الأمراء القادمين من الشام لكل أمير مائة ومقدم ألف بفرس بقماش ذهب، ولمن عداهم بأقْبِية، ورتّب لهم اللحم والجامكيات والعَلِيق، وأخَذ منطاش يستعطفهم بكل ما تصل إليه القدرة.

وفي سابع عشرينه أُخْليت خزانة الخاص بالقلعة وسُدَّت شبابيكها وبابها وفُتح من سقفها طاقة، وعُملت سجناً للمماليك الظاهرية.

ثم في يوم السبت أوّل ذي الحجة من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة قدم الخبر على منطاش من الصعيد بأن العسكر الذي مع أسندمر بن يعقوب شاه واقع الأمراء الظاهرية بمدينة قُوص وكسرهم وقبض عليهم، فسر منطاش بذلك، وخفّ عنه بعض الأمر، ودُقّت البشائر لذلك ثلاثة أيام.

وفيه أنفق منطاش على الأمراء نفقة السفر، فأعطى لكل أمير من أمراء الألوف مائةَ ألف درهم فضة، وأعطى لكل أمير من أمراء الطبلخانات خمسين ألف درهم فضة. ثم أمر منطاش بسدّ باب[٣] الفرج أحد أبواب القاهرة وخوخة أيدغمش.

---

(١) القصر الأبلق: أحد قصور القلعة، بناه السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٣هـ. (خطط المقريزي: ٢/ ٢٠٩).

(٢) عبارة السلوك: «فكتبوا عليها بأجمعهم وانصرفوا». وعبارة النزهة: فكتب الحاضرون بأجمعهم عليها ما يقتضيه الشرع وانصرفوا إلى منازلهم».

(٣) هو أحد الأبواب الثلاثة التي في الجهة الغربية من القاهرة. (انظر خطط المقريزي: ١/ ٣٨٠).

ثم قبض منطاش على متّى بَطْرك النصاري وألزمه بمال، وعلى رئيس اليهود وألزمه أيضاً بمال. فقرّر على البطرك مائة ألف درهم، وعلى رئيس اليهود خمسين ألف درهم.

ثم طلب منطاش الشيخ شمس الدين محمد الرِّكْراكي المالكي وألزمه بالكتابة على الفتوى في أمر الملك الظاهر برقوق، فامتنـع من الكتابة غاية الامتناع، فضربه منطاش مائة عصاة وسَجَنه بالإسطبل.

ثم في خامس عشر ذي الحجة برز الأمراء الشاميون من القاهرة إلى ظاهرها للتوجه إلى الشام أمام العسكر السلطاني. وفيه قبض منطاش على الخليفة المخلوع من الخلافة زكريا، وأخذ منه العهد الذي عَهِده إليه أبوه بالخلافة، وأشهد عليه أنه لا حَقَّ له في الخلافة.

ثم قَدِمت الأمراء ما خلا أسندمر بن يعقوب شاه من تجريدة الصعيد ومعهم المماليك الظاهرية الذين كانوا خرجوا عن الطاعة بقوص مقيدين، فخلـع منطاش على الأمراء، وأخذ المماليك وغرَّق منهم جماعة في النيل ليلاً، وأُخْرِج بستة من الجب بالقلعة موتى خنقاً.

ثم قدم الأمير أسندمر بن يعقوب شاه من بلاد الصعيد ومعه الأمراء الخارجون عن الطاعة وهم: الأمير تَمُرباي الحسني، وقرابغا الأبوبكري، وبُجْمان المحمدي، ومنكلي الشمسيّ، وفارس الصرغتمشيّ، وتمربغا المنجكيّ، وطوجي الحسني، وقرمان المنجكي، وبيبرس التمان تمري، وقراكسك السيفيّ، وأرسلان اللّفاف، ومقبل الرومي، وطغاي تمر الجِركتمري، وجرباش التمان تمري الشيخي، وبغداد الأحمدي، ويونس الإسعردي، وأردبغا العثماني، وتنكز العثماني، وبلاط المنجكي، وقرابغا المحمدي، وعيسى التركماني، وقراجا السيفي، وكمشبغا اليوسفي، وآقبغا حطب، وبك بلاط، فأُوقفوا الجميـع بين يدي السلطان ومنطاش زماناً، ثم أمر بهم فحبسوا. وأفرج عن جماعة: منهم الأمير قنق باي الألجائي اللالا، وآقبغا السيفي، وتمرباي الأشرفي، وفارس الصرغتمشي وخَلـع عليهم. ثم سَجَنَ منطاش بخزانة

شمائل وخزانة الخاص التي سُدَّ بابُها قبل تاريخه الأميرَ محمود بن على الاستادار، وآقبغا المارديني، وآيدمر أبو زلطة، وشاهين الصرغتمشي أمير آخور، وجمق بن أيتمش البجاسي، وبطا الطولو تمري الظاهري، وبهادر الأعسر، وعِدّة كبيرة من الأمراء والمماليك الظاهرية.

وفيه ألزم منطاش سائر مباشري الديوان السلطاني وجميع الدواوين بأن يحمل كل واحد خمسمائة درهم وفرساً، وقرّر ذلك على الوظائف لا على الأشخاص، حتى من كان له عشرة وظائف في عِدّة دواوين يحمل عن كل وظيفة خمسمائة درهم وفرساً، فنزل بالناس ما لم يعهدوه، فتوزّعوا ذلك فجاء جملة الخيل التي أُخذت من المباشرين خيلاً وعيناً ألفَ فرس.

ثم أحضر منطاش من ألزم من أجناد الحلقة للسفر فأعفاهم، على أن يُحضِر كلٌّ منهم فرساً جيّداً؛ فأحضروا خيولهم، فأخذ جِيادها، وردّ ما عداها.

ثم ألزم منطاش رؤوس نُوَب الحجاب وغيرها بحَمْل كل واحد منهم خمسة[١] الآف درهم وعدتهم أربعة.[٢].

وفي يوم الاثنين سابع عشر ذي الحجة من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة نزل السلطان الملك المنصور حاجي من قلعة الجبل ومعه الأمير الكبير منطاش وتوجّها بالعساكر إلى الرّيْدانية خارج القاهرة بتَجَمُّل عظيم إلى الغاية.

فلمّا نزلا بالمخيّم استدعى منطاش قاضي القضاة صدر الدين محمد المُناوِي الشافعي إلى الريدانية وألزمه بالسفر معه إلى الشام، فآمتنع من ذلك وسأل الأعفاء فأُعفِيَ. وخلعَ على قاضي القضاة بدر الدين محمد بن أبي البقاء بآستقراره عوضه في قضاء ديار مصر على أن يُعطِي مال الأيتام ويُعطِي من ماله مائة ألف درهم أخرى فضة، وخلع عليه، ودخل القاهرة من باب النصر بالتشريف.

---

(١) كذا أيضاً في النزهة. وفي السلوك: «خمسين ألف درهم».

(٢) وزاد في السلوك: «ثم استقرّ على كل واحد أربعة عشر ألف درهم، وأفرج عنه».

قلت: هذا هو الكريم الذي تكرم بماله ودينه.

ثم رسم منطاش بحبس الخليفة زكرياء والأمير سُودون الشيخوني النائب بقاعة الفضة من القلعة.

ثم نزل الوزير موفّق الدين أبو الفرج وناصر الدين [محمد بن](١) الحسام [شاد الدواوين] إلى خان(٢) مسرور بالقاهرة حيث هو مُودَع مال الأيتام، وأخذ منه بأمر منطاش ثلاثمائة ألف درهم، وأَلزما أمين الحُكم بالقاهرة أن يحصل تتمّة خمسمائة ألف درهم. وأُلزم أمين الحكم بمصر(٣) أن يحمل مائة ألف درهم، وأُلزم أمين الحكم بالحسينيّة أن يحمل مائة ألف درهم قَرْضاً، كلُّ ذلك حسب إذن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن أبـي البقاء.

وفيه آستدعى منطاش القضاة إلى الرَّيْدانية بكرة، فأُجلسوا بغير أكل إلى قريب العصر، ثم طُلِبوا إلى عند السلطان، فعقدوا عَقْدَهُ على بنت الأمير أحمد آبن السلطان حسن بصداق مبلغه ألف دينار وعشرون ألف درهم.

وعقدوا أيضاً عقد الأمير قطلوبغا الصفوي على آبنة الأمير أيدمر الدوادار.

وفي ثاني عشرينه رحل الأمير الكبير منطاش في عدّة الأمراء جاليشاً(٤) للسلطان، ثم رحل السلطان الملك المنصور والخليفة والقضاة وبقية العساكر، بعد أن أُقيم نائب الغيبة بالقلعة الأمير تكا الأشرفي ومعه الأمير دمرداش القَشْتَمُريّ، وأقيم بالإسطبل(٥) السلطاني الأمير صراي تمر، وبالقاهرة الأمير قُطلوبغا الحاجب،

---

(١) في الأصل: «ناصر الدين أبـي الحسام» والتصحيح والزيادة عن السلوك ونزهة النفوس.

(٢) ينسب هذا الخان إلى مسرور أحد خدام القصر لصلاح الدين الأيوبـي بالقاهرة. وقد أدركه المقريزي عامراً، وهو يتألف من مكانين: أحدهما كبير وثانيهما صغير، وكان يقال لهما الفندق الكبير والفندق الصغير. ويشتمل الكبير منهما على تسعة وتسعين بيت للسكنى ومسجد جامع. وكان فيه أيضاً مودع الحكم الذي فيه أموال اليتامى. (خطط المقريزي: ٢/٩١).

(٣) المراد مصر القديمة أو الفسطاط.

(٤) أي طليعة جيش السلطان.

(٥) أي في مقرّ الأتابك الكبير منطاش.

وجعل منطاش أمر الولاية والعزل إلى صراي تمر[١].

ثم رحل السلطان من العكرشة[٢] إلى جهة بُلْبَيْس، فتقنطر عن فرسه، فتطيّر الناس من ذلك بأنه يرجع مقهوراً، وكذلك كان.

ثم سار السلطان وسائر العساكر إلى غزة في ثامن المحرم من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وعليهم آلةُ الحرب والسلاح.

وأما أمراء الديار المصرية فإن منطاش أمر قبل خروجه حسين بن الكوراني بالاحتفاظ على حواشي الملك الظاهر برقوق؛ فأخذ آبن الكوراني يتقرّب إلى منطاش بكل ما تصل قدرته إليه: من ذلك أنه توجّه إلى قاعة[٣] البيسريّة بين القصرين حيث هو سكن الخَونْدات إخوة الملك الظاهر برقوق الكبرى والصغرى أم الأتابك بيبرس، وهجم عليهن بالقاعة المذكورة، وأَخَذ بيبرس من أمّه أخذاً عنيفاً، بعد أن أفحش في سبّهنّ، وبالغ في ذم الملك الظاهر والحطّ منه؛ وأخذ الخوندات حاسرات هن وجواريهنّ مسبيّات يسحبهنّ بشوارع القاهرة وهنّ في بكاء وعويل حتى أبكَيْن كلَّ أحد، وحصل بذلك عبرة لمن آعتبر؛ ولا زال يسحبهنّ على هذه الصورة إلى باب زويلة، فصادف مرورهنّ بباب زويلة دخول مقبل نائب الغيبة من باب زويلة، فلما رأى مقبل ذلك أنكره غاية الإنكار، ونَهَر حسين بن الكُوراني على فعله ذلك، وردهن من باب زويلة، بعد أن أركب الخوندات وسترهن إلى أن عُدن إلى قاعة البيسرية، فكان هذا من أعظم الأسباب في هلاك حسين بن الكوراني على ما يأتي ذكره في سلطنة الملك الظاهر برقوق الثانية إن شاء الله تعالى.

---

(١) أي توكيداً لسلطات منطاش باعتبار أن صراي تمر هذا عين نائباً عنه أثناء غيابه؛ علماً أن أمر الولاية والعزل إنما كان يجب أن يكون بيد نائب الغيبة الذي ينوب عن السلطان.

(٢) العكرشة: بركة لها حوض لا يزال موجوداً إلى الآن ضمن أراضي أبي زعبل شرقي مساكنها. (محمد رمزي).

(٣) ذكرها المقريزي باسم الدار البيسرية (خطط: ٢/٦٩) وهي من إنشاء الأمير بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي أحد مماليك بيبرس البندقداري سنة ٦٥٩هـ.

ثم نادى حسين بن الكوراني على المماليك الظاهرية أنّ مَنْ أحضر مملوكاً منهم كان له ألفا درهم.

وأما السلطان الملك المنصور ومنطاش فإن الأخبار أتتهما بأن الأمير كمشْبُغا الحموي نائب حلب لم يزل يبعث يَمُدّ الملك الظاهر من حلب بالعساكر والأزواد والآلات والخيول وغير ذلك، حتى صار لبرقوق بَرْك عظيم؛ ثم خرج من بعد ذلك من حلب بعساكرها وقدم على الملك الظاهر لنصرته، فعظم أمر الملك الظاهر به إلى الغاية، وكثرت عساكره، وجاءته التركمان والعربان والعشير من كلّ فجّ فلما بلغ ذلك منطاش جدّ في السير هووالسلطان والعساكر إلى نحو الملك الظاهر برقوق.

وبلغ الملك الظاهر مجيء الملك المنصور ومنطاش لقتاله، فترك حصار دمشق وأقبل نحوهم بعساكره ومماليكه حتى نزل على شقحب، ونزل العسكر المصري على قرية المليحة، وهي عن شقحب بنحو البريد، وأقاموا بها يومهم وبعثوا كشافتهم، فوجدوا الملك الظاهر برقوقاً على شَقْحب؛ فتقدم منطاش بالسلطان والعساكر إلى نحوه، بعد أن صف منطاش عساكر السلطان ميمنة وميسرة، وقَلْباً وجَناحين، وجعل للميمنة رديفاً، وكذلك للميسرة، هذا بعد أن رتّب الملك الظاهر برقوق أيضاً عساكره، غير أنه لم يتصرف في التعبية كتصرف منطاش لقلة جنده.

ووقف منطاش في الميمنة على ميسرة الظاهر برقوق، وآلتقى الفريقان في يوم الأحد رابع عشر للمحرم في سنة اثنتين وتسعين وتصادما، وآقتتل الفريقان قتالاً عظيماً لم يقع مثله في سالف الأعصار. وحمل منطاش من الميمنة على ميسرة الظاهر، وحمل أصحاب ميمنة الظاهر على ميسرة الملك المنصور، وبذل كلّ من الفريقين جهده، وثبتت كلّ طائفة للأخرى، فكانت بينهما حروب شديدة آنهزم فيها ميمنة الملك الظاهر وميسرته، وتبعهم منطاش بمن معه، وثبت الملك الظاهر في القلب، وقد آنقطع عنه خبر أصحابه، وأيقن بالهلاك وبينما هو في ذلك لاح له طلائع السلطان الملك المنصور، وقد انكشف الغُبار عنه، فحمل الملك الظاهر

بمن بَقِي معه على الملك المنصور، فأخذه وأخذ الخليفة المتوكل على الله والقضاة والخزائن؛ ومالت الطائفة التي ثبتت معه على أثقال المصريين، فأخذوها على آخرها، وكانت شيئاً يخرج عن الحد في الكثرة.

ووقع الأمير قجماس آبن عم الملك الظاهر في قبضة منطاش ولم يتعوّق [منطاش] واستمرّ[١] في أثر المنهزمين وهو يظن أن الملك الظاهر أمامه إلى أن وصل إلى دمشق وبها نائبها الأمير جنتمر أخو طاز فقال له منطاش: «قد كسرنا الظاهر برقوقاً، وفي الغد يقدم السلطان الملك المنصور، فآخرج إلى لقائه» فمشى ذلك على جنتمر. وآحتار منطاش فيما يفعل في الباطن، ولم يعرف ما حصل بعده للملك المنصور، ومع هذا كله في نفسه أن الملك الظاهر برقوق قد آنكسر.

وأما أمر السلطان الملك الظاهر برقوق وأصحابه فإن الأمير كمشبغا نائب حلب كان على ميمنة الملك الظاهر برقوق، فلما آنهزم من منطاش تمّ[٢] في هزيمته إلى حلب وتبعه خلائق من عساكر حلب وغيرها، وفي ظن كمشبغا أن الملك الظاهر قد آنكسر وتبعه في الهزيمة الأمير حسام الدين حسن الكُجْكُني، نائب الكرك، ومعه أيضاً عدة كبيرة من عساكر حلب والكرك، فسار بهم إلى الكرك، كما سار كمشبغا إلى حلب، فلم يصل كل واحد من كمشبغا والكجكني حتى قاسى شدائد ومحناً. هذا مع أنهم قطعوا رجاءهم من نصرة الملك الظاهر برقوق، غير أن كل واحد ينظر في مصلحة نفسه فيما يأتي.

وأما الملك الظاهر فإنه لم يتأخر عنده إلا نحو من ثلاثين نفراً، أعني من المماليك الظاهرية الذين كانوا معه عند أخذه الملك المنصور. وأما من بَقِي من التركمان والغَوْغاء فأزيد من مائتي نفر.

ولما قَصد الملك الظاهر السلطان الملك المنصور حاجّياً والخليفة والقضاة وأخذهم ومَلَكَ العصائب السلطانية، وقف تحت العصائب؛ فلما رآه المنصور

(١) عبارة الأصل: «فلم يتعوّق ومرّ في أثر المنهزمين. . .» والتعديل والزيادة عن نزهة النفوس.

(٢) أي استمرّ على ذلك، وهو فصيح

آرتاع، فسكّن الملك الظاهر رَوْعه، وآنسه بالكلام، وسلّم على الخليفة والقضاة، وبَشَّ في وجوههم وتلطّف بهم؛ فإنه لمّا رآه الخليفة كاد يَهْلك من هيبته، وكذلك القضاة؛ فما زال بهم حتى طمأن خواطرُهم.

هذا بعد أن سَلبَت النَّهابةُ القضاة الثلاثة جميعَ ما عليهم، قبل أن يقع بصر الملك الظاهر عليهم، ما خلا القاضي الحنبلي ناصر الدين نصر الله، فإنه سَلِم من النهب، لعدم ركوبه وقت الحرب، ولم يركب حتى تحقَّق نُصْرة الملك الظاهر برقوق، فعند ذلك ركب وجاء إليه مع جملة رُفْقته وأما مباشرو الدولة فإنهم كانوا توجهوا الجميع إلى دمشق، هذا بعد أن قُتِل من الطائفتين خلائقُ كثيرة جداً يطول الشرح في ذكرها.

وآستمر الملك الظاهر واقفاً تحت العصائب السلطانية، والملك المنصور والخليفة بجانبه وتلاحق به أصحابُه شيئاً بعد شيء، وتداول مجيئُهم إليه، وجاءه جمع كبير من العساكر المصرية طوعاً وكرهاً: فإنه صار الرجل منهم، بعد فراغ المعركة، يقصد العصائب السلطانية، فيجد الملك الظاهر تحتها، فلا[1] يجد بُداً من النزول إليه وتقبيل الأرض له، فإن خافه الملك الظاهر قَبَض عليه، وإلاّ تركه من جملة عسكره.

وآستمرّ الملك الظاهر برقوق يومه وليلته على ظهر فرسه بسلاحه، وحوله مماليكهُ وخواصُّه.

قال الوالد فيما حكاه بعد ذلك لمماليكه وحواشيه: «وبات كلٌّ منا على فرسه، على أن غالبنا به الجراح الفاشية المُنْكية، وهو مع ذلك بسلاحه على فرسه [و] لم يَغْفُ أحدٌ منا تلك الليلة، من السرور الذي طَرقَنا، وأيضاً من الفكر فيما يصير أمرنا بعد ذلك إليه؛ غيرَ أننا حصل لنا ولخيولنا راحةٌ عظيمة، ببياتنا تلك الليلة في مكان واحد. وتشاورنا فيما نفعل من الغد، وكذلك السلطان الملك الظاهر، فإنه أخذ يتكلّم معنا فيما يُرتِّبه من الغد، في قتال منطاش ونائب الشام؛ فما أصبح باكُر نهار

(١) في الأصل: «فلم».

الاثنين إلا وقد رتبنا جميع أحوالنا، وصار الملك الظاهر في عسكر كثيف، وتهيّأنا لقتال منطاش وغيره. وبعد ساعة إذا بمنطاش قد أقبل من الشام في عالَم كبير، من عسكر دمشق وعوامِّها وممن تراجع إليه من عسكره بعد الهزيمة، فتواقعنا، فحصل بيننا وقعة من شروق الشمس إلى غروبها، ووقع بيننا وبينهم قتالٌ لم يعُهد مثله في هذا العصر. وبذل كلٌّ منا ومنهم نفسه، فقاتلنا عن أرواحنا لاعن أستاذنا، لأننا تحقّق كل منا أنه إن انهزم بعد ذلك لا بقاء له في الدنيا، والمنطاشية أيضاً قالوا كذلك. وآنكسر كل منا ومنهم غير مرة وتراجع. هذا والملك الظاهر يكرُّ فينا بفرسه كالأسد ويشجِّع القوم ويعدهم ويُمنيهم ثم قصدني شخص من الأمراء يقال له آقبغا الفيل، وحَمَل عليَّ، فحملتُ عليه وطعنتُه برمحي ألقيتُه عن فرسه، فرآه الملك الظاهر، فسأل عني، فقيل له: تَغْري بَرْدي، فتفاءل بآسمي. وقال ما معناه: الله لا يُنوِّلْني ما في خاطري إن كنتُ ما أُرقِّيك إلى الرتب العالية». انتهى.

قلت: ومعنى اِسم تغري بردي باللغة التركية: «الله أعطى»، فلهذا تفاءل الملك الظاهر به، لمّا قيل له «تغري بردي».

واستمر كلٌّ من الطائفتين تبذل نفسها لنُصرة سلطانها إلى أن أرسل الله سبحانه وتعالى في آخر النهارِ ريحاً ومطراً في وجه منطاش ومنَ معه، فكانت من أكبر الأسباب في هزيمته وخِذلانه. ولم تغرب الشمس حتى قُتِل من الفريقين خلائقُ لا يُحصيها إلا الله تعالى: من الجند والتُّركمان والعُرْبان والعامّة. وَوَلّى منطاش هو وأصحابه مُنهزماً إلى دِمَشق، على أقبح وجه.

وعاد الملك الظاهر برقوق بمماليكه إلى مخيّمه بالمنزلة المذكورة، ولم يكن في أحد من عسكره مَنَعَة أن يتبع منطاش ولا عسكره. وآستمرّ الملك الظاهر بمزلة شَقْحب سبعة أيام، حتى عَزَّت عنده الأقوات، وأُبيعت البَقسماطة[1] بخمسة دراهم فضة، وأبيع الفرس بعشرين درهماً، والجمل بعشرة دراهم، وذلك لكثرة الدواب وقلّة العَلَف. وغَنِم أصحاب الملك الظاهر أموالاً جزيلة.

---

(١) البقسماط: نوع من الخبز يخبز ويجفف. ويقال له في المغرب بشماط.

وفي مدة إقامة الملك الظاهر بشقحب، قَدِم عليه جماعة كبيرة من الأمراء والتركمان والعربان والمماليك.

ثم جَمَع الملك الظاهر مَنْ معه من الأمراء والأعيان بحضرة الخليفة والقضاة، وأشهد على الملك المنصور حاجى بخلع نفسه من السلطنة، وحكم بذلك القضاة.

ثم بُويِع الملك الظاهر برقوق بالسلطنة وأثبت القضاةُ بيعتَه وخلع على الخليفة والقضاة.

ثم وُلِّي الأميرُ إياس الجِرْجاوي نيابةَ صفد، والأمير قُدَيد القَلمطاوي نيابة الكرك؛ والأمير آقبغا الصغير نيابة غَزّة.

ثم تهيّأ الملك الظاهر للعَوْد إلى الديار المصرية، ورحل من شقحب، فأتاه عند رحيله منطاش بعسكر الشام ووقف على بُعد؛ فآستعدّ الملك الظاهر للقائه فلم يتقدّم منطاش.

ثم وَلّى [منطاش] إلى ناحية دمشق، فأراد الملك الظاهر أن يتبعه، فمنعه من ذلك أعيانُ دولته وقالوا له: «أنت سلطان مصر أم سلطان الشام! امضِ إلى مصر وآجلس على تخت الملك، فتصير الشام وغيُرها في قبضتك». فصوّب الملك الظاهر هذا الرأي، وسار من وقته بمن معه من الملك المنصور والخليفة والقضاة إلى جهة الديار المصرية.

ثم أرسل الملك الظاهر يأمر منصور حاجب غزة بالقبض على حُسام الدين حسن بن باكيش نائب غزة، فقبض عليه وآستولى على مدينة غزة وقيّد آبن باكيش المذكور وبعث به إلى الملك الظاهر، فوافاه بمدينة الرملة فأوقفه بين يديه ووبّخه، ثم ضربه بالمقارع، ثم حمله معه إلى غزّة فضربه بها أيضاً ضرباً مُبرِّحاً. وكان يوم دخول السلطان الملك الظاهر إلى غزة يومَ مستهلّ صفر من سنة آثنتين وتسعين وسبعمائة.

وأمّا أمر الديار المصرية، فإنه أشيع بكسرة الملك الظاهر لمنطاش، يوم رابع

عشر المحرم، وهويوم الوقعة، قاله الشيخ تقي الدين المقريزي ـ رحمه الله ـ وهذا شيء من العجائب.

وفي هذه الأيام ورد من الفيُّوم محضرٌ على نائب الغَيْبة مُفْتَعلٌ بأن حائطاً سقط على الأمراء المسجونين بالفيُّوم، ماتوا تحته، وهم: الأمير تمرباي الحسني حاجب الحجّاب، وقرابغا الأبو بكري أحد مقدَّمِي الألوف، وطوغاي تَمُر الجَرَكْتَمُري أحد أمراء الألوف أيضاً، ويُونُس الإسعردي الرماح الظاهريّ، وقازان السيفيّ، وتَنْكِز العثماني، وأردبغا العثمانيّ، وعيسى التركمانيّ.

قال المقريزي: هذا والكتبُ المزوّرة تَرِد على أهل مصر في كل قليل، بأنّ السلطان الملك المنصور آنتصر على الملك الظاهر برقوق، ومَلَك الشام، وأنّ الظاهر هَرَب، فدقَّت البشائرَ لذلك أياماً، ولم يَمْشِ ذلك على أعيان الناس، مع أن الفتنة لم تزل قائمةً في هذه المدة بين الأمير صَرَاي تَمُر نائب الغيبة وبين الأمير تُكَا الأشرفيّ المقيم بقلعة الجبل، وكل منهما يحترز من الآخر.

وآتّفق مع ذلك أن الأمراء والمماليك الظاهريّة الذين سُجِنوا بخزانة الخاصّ من القلعة زرعوا بَصَلاً في قصريَّتَيْن فخّار وسقوهما، فنجب بصَلُ إحدى القصريّتين ولم يَنْجُب الآخر؛ فرفعوا القصريّة التي لم ينجب بصلُها، فإذا هي مثقوبة من أسفلها وتحتها خُلُوٌّ؛ فما زالوا به حتى آتّسع وأفضى بهم إلى سِرْداب مشَوْا فيه حتى صَعِد بهم إلى طبقة الأشرفية[1] من قصور القلعة القديمة، وكان منطاش سدّ بابها الذي يُنزل منه إلى الإسطبل السلطاني فعاد الذين مشَوْا وأعلموا أصحابهم، فقاموا بأجمعهم وهم نحو الخمسمائة رجل ومشوا فيه ليلة الخميس ثاني صفر، وقد عملوا عليهم الأميرَ بُطَا الطولُوتَمُري الظاهري رأساً، وحاولوا[2] باب الأشرفية حتى فتحوه، فثار بهم الحُرّاس الموكّلون بحفظ الباب، وضربوا مملوكاً يُقال له تَمُربغا فقتلوه، وكان آبتدأ بالخروج، فبادر بُطا بعده ليخرج فضربه الحارس ضربة كما ضرب تمربغا

(١) أي القاعة الأشرفية.

(٢) في الأصل: «وحاربوا». والتصحيح عن السلوك.

قبله، سقط منها بطا إلى الأرض، ثم قام وضرب بقيده الرجلَ الحارسَ ضربةً كما ضربه فصَرَعه، وخرج البقيّة. وصرخوا المماليك: «ياتُكَا يا منصور» وجعلوا قيودَهم سلاحَهم، يقاتلون بها. وقصدوا الإسطبل السلطاني، فآنتبه صَرَاي تمر، فسمع صياحَهم «تُكا يا منصور»، فلم يشكّ أنّ تُكا ركب عليه ليأخذه بغتة، لِما كان بينهما من التخاصم. وقَوِي خَوفُه، فنهض في الحال ونزل من الإسطبل من باب السلسلة، وتوجّه إلى بيت الأمير قطلوبغا الحاجب، وكان قريباً من الإسطبل بالرُّمَيْلة ومَلَك بطا ورُفْقتُه الإسطبل، وآحتوى على جميع ما كان فيه من قُماش صَرَاي تمر وخيله وسلاحه، وقبض على المنطاشيّة، وأفرج عن المحبوسين من الظاهريّة، وأخذ الخيولَ التي كانت هناك. وأمر في الوقت بدقّ الكوسات، فدقّت في الوقت نحو ثُلُث الليل الأوّل فآستمروا على ذلك إلى أن أصبحوا يوم الخميس. ونَدِم صَرَايّ تمر على نزوله من الإسطبل، ولبِسَ هو وقطلوبغا الحاجب آلةَ الحرب، وأرسلوا إلى تُكا بأن يُقاتل المماليك الظاهرية من أعلى القلعة، وهم يقاتلونهم من تحت؛ فرَمَى تُكا عليهم من الرفرف والقصر، وساعده الأميرُ مقبل أمير سلاح ودِمرْداش القَشْتَمُري بمن معه من مماليكهم والمماليك المقيمين بالقلعة، فقاتلهم المماليك الظاهريّة. وتسامعت المماليك الظاهرية البّطالة ومَنْ كان مختفياً منهم، فجاؤوهم من كل مكان، وكذلك المماليك اليلبُغاوية، وغيرهم من حواشي الملك الظاهر برقوق، ومن حواشي يلبغا الناصريّ وغيره من الأمراء الممسوكين، وكبسوا سجن الدَّيْلَم، وأخرجوا مَن كان به محبوساً من المماليك وغيرهم. ثم بعثوا إلى خِزانة شمائل فكسروا بابها وأخرجوا مَن كان بها أيضاً من المماليك اليلبُغاويّة والظاهريّة وغيرهم، ثم فعلوا ذلك بحبس الرحبة، فقَوِي أمرُ بُطا ورفقته وكثر جمعهم، فخاف حسين بن الكوراني وهرب وآختفى.

ثم ركب الأمير صراي تمر والأمير قطلوبغا حاجب الحّجاب في جمع كبير من مماليكهم وغيرها وخرجا لقتال بُطا وأصحابه فنزل بطا بمن معه، وقد تهيّأ للقتال، وقد صار في جمع كبير، وآجتمعت عليه العوام لمعاونته فلما تصافَفا خامر جماعة من المنطاشيّة وجاؤوا إلى بُطا وصدم بطا المنطاشية فكسرهم، فآنحازوا إلى مدرسة

السلطان حسن فلما رأى تُكا ذلك خرج إلى الطبلخاناه ورمى على بطا وأصحابه بالنُّشاب ومدافع النفط؛ فنزل طائفة من الظاهرية إلى بيت قطلوبغا وملكوه، ونقبوا منه نقباً طلعوا منه إلى المدرسة الأشرفية بالصُّوّه، وصعدوا إلى سطحها تجاه الطبلخاناه السلطانية ورموا على مَنْ بالطبلخاناه من أعوان تُكا فانهزموا. فملك الظاهرية الطبلخاناه وحاصروا مَن هو بمدرسة السلطان حسن وكان بها طائفة من التركمان قد أعدّهم منطاش لحفظها فصاحوا وسألوا الأمان لشدة الرمي عليهم بمكاحل النفط، فٱنهزم عند ذلك أيضاً مَنْ كان من الرماة على باب المدرج أحد أبواب القلعة، وسارت الظاهرية واليلبغاوية إلى بيوت الأمراء فنهبوها.

كلُّ ذلك والقاهرة في أَمْن مع عدم [وجود] مَن يحفظها. ولم يمض النهار حتى وصل عددُ الظاهرية إلى ألف، وأمدّهم ناصر الدين أستادار منطاش بمائة ألف درهم. ثم طلب بُطا ناصر الدين محمد بن العادليّ، وأمره أن يتحدّث في ولاية القاهرة عوضاً عن ٱبن الكوراني، فدخلها ٱبن العادلي ونادَى فيها بالأمان والدعاء للملك الظاهر برقوق، فسُرَّ الناس سروراً زائداً.

ثم في يوم الجمعة ثالث صفر سَلّم الأمير تُكا قلعة الجبل إلى الأمير سُودون الشيخوني النائب. ثم أقام بُطا في ولاية القاهرة منجك المنجكي، عوضاً عن ابن العادلي، فركب ودخل القاهرة ونادى أيضاً بالأمان والدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق.

وفيه نزل الأمير سُودون النائب من القلعة ومعه تُكا الأشرفيّ ودمرداش القَشْتَمُري ومُقبل السيفي أمير سلاح إلى عند الأمير بُطَا، فقبض بُطَا عليهم وقيّدهم؛ وبالغ في إكرام الأمير سودون النائب، وبعثه إلى الأمير صراي تمر؛ فنزل سودون إلى صراي تمر، وما زال به حتى كفَّه عن الرمي وأخذه هو وقطلوبغا وسار، فتكاثر العامّة عليهما يريدون قتلهما، والأمير سُودون النائب يمنعهم من ذلك أشدّ المنع، فلم يلتفتوا إليه، ورجموهما رجماً متتابعاً كاد يهلك الجميع، فٱحتاجوا إلى الرمي بالنشّاب عليهم وضَرْبِهم بالسيوف، فقُتِل منهم جماعة كبيرة، فطلع سُودون النائب

بهما وبمن كان معهما إلى الإِسطبل، فقيّدهم بطا أيضاً وسجنهم، وأمر بمن في المدرسة من المقاتلة فنزلوا كلُّهم.

وأذهب الله تعالى الدولة المِنطاشية من مصر في نحو ثلاثة أيام كأنها لم تكن ورَكِب الأمير سُودون الشيخوني النائب وعبرَ إلى القاهرة، والمنادِي يُنادي بين يديه بالأمان والدعاء للملك الظاهر برقوق. وأرسل إلى خطباء الجوامع فدعوا له في خطبة الجُمعة. وأطلق بُطا زكرياء المخلوع عن الخلافة والشيخ شمس الدين محمد الركراكِيّ المالكيّ وسائر مَن كان بالقلعة من المسجونين. وصار بُطا يتتبع المنطاشية ويقبض عليهم كما كان منطاش يتتبع الظاهريّة ويقبض عليهم.

وفي أثناء ذلك قَدِم أحمد بن شكر الدليل وأشاع الخبرَ بالقاهرة بأنّ الملك الظاهر برقوقاً قادمٌ إلى الديار المصرية ثم قدم جُلْبان العيسوي الخاصّكي وأخبر برحيل الملك الظاهر برقوق من مدينة غزّة في يوم الخميس ثاني صفر، فدُقّت البشائر، وتَخَلّق الظاهريةُ بالزعفران. وكتب بُطا للسلطان يخبِره بما آتفق، وأنهم ملكوا ديار مصر، وأقاموا الخطبة باسمه، وبجميع ما وقع لهم مفصَّلاً، وبعثوا بهذا الخبر الشريفَ عِنان بن مغامس، ومعه آقبغا الطولوتمري المعروف باللَّكّاش أحد المماليك الظاهريّة، في يوم السبت رابع صفر ثم كتب بُطا إلى سائر الأعمال بالقبض على المنطاشيّة والإفراج عن الظاهريّة وإرسالهم إلى الديار المصرية.

ثم طلب بُطا حسين بن الكُوراني في الإسطبل؛ فلما طلع أراد المماليك الظاهرية قَتْلَه لقُبْح ما فعل فيهم، فشَفَع فيه سُودون النائب.

ثم خلع عليه بُطا وأعاده إلى ولاية القاهرة وأمره بتحصيل المنطاشية؛ فنزل في الحال ونادى: «مَنْ قَبَضَ على مملوك منطاشي أو أشرفيّ فله كذا وكذا». ثم قَبَض بُطا على الأمير قطلوبغا، والأمير بوري صهر منطاش، والأمير بيدمرشادّ القصر، والأمير صلاح الدين محمد بن تَنِكز وحبسهم بالقلعة ثم حصّن بُطا القلعة تحصيناً زائداً ورتّب الرماة والنفطية والرجال حتى ظنّ كلُّ أحد أنه يمنع الملك الظاهر من طلوع القلعة.

قلت: وكان الأمر كما ظنّه الناس، حسب ما حكاه الوالد بعد ذلك، كما سنذكره الآن في محلّه.

قال: وكثر الكلام في أمر بُطا ثم أمر الفخريَّ بن مكانس بعمل سِماط في الإسطبل السلطاني، فصار الأمراء والمماليك بأجمعهم يأكلون منه في كل يوم عند الأمير بُطا.

ثم قَدِم كتابُ الملك الظاهر إلى بُطا على يد سيف الدين محمد بن عيسى العائديّ يأمره بتجهيز الإقامات إليه.

ثم قَدِم كتاب الملك الظاهر بتفصيل الوقعة بينه وبين منطاش، ثم قَدِم كتاب آخر عقيبَه كلُّ ذلك ولم تطمئن النفوس بعود الملك الظاهر إلى ملكه ولا آرتفع الشكّ، بل كان بُطا يخشى أن يكون ذلك مكيدة من مكايد منطاش، وهو ينتظر جوابَ كتابه للملك الظاهر، حتى قَدِم آقبغا الطولوتمري اللّكّاش، وقد ألبسه الملك الظاهر خِلْعة سنيّة شَقّ بها القاهرة، فعند ذلك تحقّق كل أحد بنُصرة الملك الظاهر برقوق ونُودِي بالأمان والاطمئنان، ومن ظُلم أو قُهر فعليه بباب الأمير بُطا.

ثم قبض بطُا على حسين بن الكوراني وقيّده بقَيْد ثقيل جداً ونُهبِت دارُه، وصار الصارم يأخذ آبنَ الكُوراني في الحديد، كما يُؤخذ اللصوص، ويضربه ويعصره. ثم نُقِل من عند الصارم الوالي إلى الأمير ناصر الدين محمد بن آقبغا آص شادّ الدواوين، فعاقبه أشدَّ عقوبة.

وفي تاسعه قَدِم تَغْرِي بَرْدِي البشبغاويّ الظاهريّ، وهو والد كـاتبه، إلى القاهرة بكتاب السلطان يتضمّن السلامَ على الأمراء وغيرهم وبأمور أخر.

وأما ما وعدنا بذكره من أمر بُطا، وأنه كان حدَّثُته نفسُه بملك مصر في الباطن [فقد]، حكى لي الوالد ــ رحمه الله ــ قال: لما قَدِمتُ إلى مصر، تلقّاني بُطا وسلّم عليّ وعانقني، وأخذ يسألني عن أستاذنا الملك الظاهر برقوق، وكيف كانت الوقعة بينه وبين منطاش، وصار يفحص عن أمره حتى رابني أمرُه؛ فكان من جملة ما سألني عنه بأن قال: يا أخي تَغْرِي بَرْدِي، مـع أستاذِنا صِبيانٌ مِلاحٌ شجعان

أم مماليك ملفّقة!؟ فقلت: مع أستاذنا جماعة إذا أجْرَوْا خيولهم هدموا باب السلسلة أنقابها[١]، وأقلُّهم أنت وأنا. إيش هذا السؤال!؟ أما تعرف أَغَواتِك[٢] وخُشداشيّتَك!؟ فقال: صدقتَ، وكم مثلنا في خجداشّيتنا عند أستاذنا! وأخذ ينتقل بـي إلى كلام آخر بما هو في مصالـح السلطان الملك الظاهر. اِنتهى.

وعند قدوم الوالد إلى الديار المصريّة تزايد سرورُ الناس وفرحُهم، وتحقّقوا عَود الملك الظاهر إلى مُلكه.

ثم قَدِم تَنْبك الحسنيّ الظاهريّ المعروف بتَنْم من الإسكندرية، وكان أرسله بُطا لنائب الإسكندرية وقد آمتنـع من الإفراج عن الأمراء المسجونين إلّا بكتاب السلطان.

ثم أَلْزَمَ بطا الفخرَ بنَ مكانس بتجهيز الإقامات والشُّقَق الحرير للفرش في طريق الملك الظاهر حتى يمشي عليها بفَرَسه عند قدومه إلى القاهرة.

ثم قَدِم من ثغر دِمياط الأمير شيـخ الصفويّ، وقبق باي السيفيّ، ومقبل الروميّ الطويل، وأَلْطُنبغا العثماني، وعبدوق العلائي، وجرجي الحسنيّ، وأربعة أمراء أُخَر.

وفي عاشره شُدِّد العذابُ على آبن الكورانيّ وأُلزِم بحمل مائة ألف درهم فضة ومائة فرس ومائة لُبس حربـيّ.

وفي حادي عشر صفر قَدِم البريدُ بنزول السلطان الملك الظاهر إلى منزلة الصالحية، فخرج الناس أفواجاً إلى لقائه، ونُودِي بزينة القاهرة ومصر، فتفاخر الناس في الزينة، ونزل السلطان بعساكره إلى العِكْرِشة في ثالث عشر صفر.

(١) كذا وردت. ولعلها: «من أنقابها» تعبير عاميّ.

(٢) الأغوات: جمـع «أغا» أو «آغا». كلمة تركية من المصدر «أغمق» ومعناه الكبر وتقدّم السنّ. وقيل إنها من الكلمة الفارسية «أقا». وتطلق في التركية على الرئيس والقائد وشيـخ القبيلة. كما تطلق على الخادم الخصي الذي يؤذن له بدخول غرف النساء. (تأصيل ما ورد في تاريـخ الجبرتي من الدخيل: ص ١٧؛ والألقاب الإسلامية: ١١٨) والخشداشية من المماليك هم الذين ينشؤون في خدمة سيد واحد، فهم إخوة في الولاء له. (راجـع فهرس المصطلحات).

وأمّا أمر منطاش وما وقع له بعد ذلك، وبقيّة سياق أمر الملك الظاهر برقوق، ودخوله إلى القاهرة، وطلوعه إلى قلعة الجبل، وجلوسه على تخت المُلك، يأتي ذكُر ذلك كلّه مفصّلاً في ذكر سلطنته الثانية من هذا الكتاب، بعد أن نذكر من تُوفِّي من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة التي حَكَم في غالبها على مصر الملك المنصور حاجيّ، ثم نعود إلى ذكر الملك الظاهر وسلطنته الثانية ــ إن شاء الله تعالى ــ.

وأما الملك المنصور حاجيّ فإنه عاد إلى ديار مصر صحبةَ الملك الظاهر برقوق محتفظاً به وهو في غاية ما يكون من الإكرام، وطلَع إلى القلعة وسكَن بها بالحوش السلطانيّ على عادة أولاد الأسياد، ودام عند أهله وعياله إلى أن مات بها في ليلة الأربعاء تاسع عشر شوّال سنة أربع عشرة وثمانمائة، ودُفِن بتربة جدّته لأبيه خوند بركة بخطّ التبّانة بالقرب من باب الوزير خارج القاهرة، بعد أن تسلطن مرّتين. وكان لُقِّب في أوّل سلطنته بالملك الصالح وفي الثانية بالملك المنصور، ولا نعلم سلطاناً غُيِّر لقبُه غيَره. ومات الملك المنصور هذا عن بضع وأربعين سنة؛ وقد تعطَّلت حركتُه وبَطلَت يداه ورجلاه مدّة سنين قبل موته. وكان ما حصل له من الاسترخاء من جهة جواريه على ما قيل: إنهنَّ أطعمنه[١] شيئاً بَطلَت حركتُه منه، وذلك لسوء خُلقه وظُلمه[٢].

حدّثني غيرُ واحد من حواشي الملك الظاهر برقوق ممّن كان يُباشر أمر الملك المنصور المذكور قال: كان إذا ضرب أحداً من جواريه يتجاوز ضربُه لهنّ الخمسمائة عصاة؛ فكان الملك الظاهر لمّا يسمع صياحَهنّ يُرسل يشفَع فيهنّ، فلا يمُكنه المخالفة فيُطلق المضروبة، وعنده في نفسه منها كمين، كونه ما آشتفى فيها. وكان له جوْقة مغانٍ[٣] كاملة من الجواري، كما كانت عادة الملوك والأمراء

(١) في الأصل: «إنهم أطعموه».

(٢) ذكر ابن إياس في بدائع الزهور «أنه مات وهو مقعد في الفراش مما حصل له في يوم وقعة شقحب لما كبس عليه الظاهر برقوق».

(٣) المراد بالمغاني: المغنيات. وهي صيغة جمع كثيرة الاستعمال في العصر المملوكي: نجدها في كتابات المقريزي وابن تغري بردي وابن دقماق وغيرهم.

تلك الأيام، نحو خمس عشرة واحدة، يُعْرَفْن من بعده بمغاني المنصور وكنَّ خدَمْن عند الوالد بعد موته فلمّا صار الملك الظاهر برقوق يَشفع في الجواري لمّا يسمع صياحَهنّ، بَقِي المنصور إذا ضرب واحدة من جواريه يأمر مغانِيَه أن يزفُّوا بالدُّفوف، وتَزْعَق المواصيل[١]، فتصيح الجاريَة المضروبة فلا يسمعها الملك الظاهر ولا غيُره؛ فَفَطِن بذلك حريمُ الملك الظاهر وأعلموه الخبرَ، وقُلْن له: «إذا سَمِع[٢] زَفَّ المغاني في غير وقت المغنى، فيعلم [أن] السلطان يضرب جوارِيَه وخَدَمه» فعلم الظاهر ذلك؛ فصار كُلّما سَمِع المغانيَ تَزُفُّ، أرسل إليه في الحال بالشفاعة؛ وله من ذلك أشياء كثيرة. وكان الملك الظاهر ــ قبل أن يَتَكَسَّح[٣] ــ يُرسل خلفَه في مجلس أُنْسه ويُنادمه في غالب الأوقات؛ وتكرر ذلك منه سنين. وكان إذا غَلَب عليه السُّكْر تَسفَّه على الملك الظاهر، ويُخاطبه بآسمه من غير تحشُّم، فيبتسم الملك الظاهر ويقول لحواشي الملك المنصور: «خُذُوا سيِّدي أمير حاج ورُدُّوه إلى بيته»، فيقوم على حاله، وهو مستمرٌّ في السَّبِّ والّلعن، فيعظُمُ ذلك على حواشي الملك الظاهر، ويُكَلِّمون الملك الظاهرَ في عدم الاجتماع به، فلا يلتفت إلى كلامهم، فيُصْبِح المنصور يعتذر للسلطان فيما وقع منه في أمسه فلمّا تكرر منه ذلك غير مَرّة، تركه وصار لا يجتمع به إلاّ في الأعياد والمواسم؛ فلما بَطلَت حركتُه اِنقطع عنه بالكليّة.

* * *

(١) لم نجد هذا الجمع في كتب اللغة التي بين أيدينا. ولعله صيغة عامية للفظ: واصلة، وهي المرأة البغيّ. أو لعله أراد بالمواصيل النساء اللواتي يرافقن المغنيات عادة في الإنشاد والغناء. ولعل هذه الصيغة العامية مشتقة من اللفظ الفصيح: الوصيلة، بمعنى الرفقة.

(٢) عبارة الأصل: «إذا سمع السلطان زف المغاني في غير وقت المغنى، فيعلم السلطان أنه يضرب جواريه وخدمه». والتعديل لإيضاح المعنى.

(٣) أي قبل أن يتكسّح الملك المنصور أمير حاج.

السنة التي حكم في أولها الملك الظاهر برقوق

إلى ليلة الاثنين خامس جمادى الأخرة، وحكم في باقيها الملك المنصور حاجِّي، ولم يكن له في سلطنته إلا مجرّد الاسم فقط والمتحدِّث في المملكة الأتابك يلبغا الناصريّ ثم تَمُربغا الأفضلي الأشرفيّ المدعو منطاش.

وهي سنة إحدى وتسعين وسبعمائة.

وفيها كان خَلْـع الملك الظاهر برقوق من السلطنة وسلطنة الملك المنصور هذا كما تقدم ذكُره.

وفيها في ذي الحِجّة كانت وقائـع بين الملك الظاهر برقوق وبين جنتمر نائب الشام بعد خروجه من سجن الكرك.

وفيها تُوُفِّي خلائق كثيرة بالطاعون والسيف. وكان الطاعونُ وقـع بالديـار المصرية في أيام الفتنة، فكان من أجل ذلك أشدّ الطواعين وأعظمها خَطْباً لِما دها النـاسَ من شدّة الـطاعون وأهـوال الوقـائـع. فممّن قُتِل من الأعيـان: القاضي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن أبـي الرضا قاضي قضاة الشافعيّة بحلب. وخبره أن الملك الظاهر برقوقاً لما خرج من سجن الكَرَك ووافقه الأمير كمشبغا الحموي نائب حلب، ثار عليه شهاب الدين هذا محاماةً لمنطاش، وجمـع أهل بانقوسا وحّرضهم على قتال كمشبغا المذكور، وأفتى بجَوَاز قتال برقوق فرَكِب كمشبغا، وقاتلهم، فكسرهم، وقتل كثيـراً من البَانْقُـوسيّة ممّن ظفِـر به، ففَـرَّ شهاب الدين هذا إلى ظاهر حلب، فأُخِذ قريباً من حلب، وأُتِيَ به إلى كمشبغا فقتله صَبراً، وعمره زيادة على أربعين سنة. أثنى على عِلْمه القاضي علاء الدين بن خطيب الناصريّة والشيـخ تقيّ الدين المقريزيّ رحمهما الله. وذكر عنـه قاضي القضـاة بدر الدين محمود العينيّ ــ رحمه الله ــ مساوىء وقبائـح، نسأل الله تعالى السلامةَ في الدِّين، ذكرناها في ترجمته في تاريخنا المنهل الصافي.

قلت: والجمـع بين هذه الأقوال هو أنه كان عالماً. غيرَ أنه كان خبيثَ اللسان، يرتكب أموراً شنيعة مشهورة عنه عند الحلبيين.

وتُوُفِّي قتيلاً الأمير صارم الدين إبراهيم آبن الأمير قُطْلُقْتَمُر الخازندار بحلب: قتله أيضاً الأمير كمشبغا الحموي بحلب، وقد قام بنُصْرة منطاش وقاتل كمشبغا، فلمّا ظَفِر به كمشبغا وسّطه في شوال. وإبراهيم هذا هو الذي كان وقع له مع الملك الظاهر برقوق ما وقع، لمّا آتفق مع الخليفة المتوكّل على الله، ووافقهما الأمير قُرْط الكاشف على قتل الملك الظاهر برقوق؛ ونَمّ عليهم وظَفِر بهم برقوق، وخلع الخليفةَ، وحبَسه، ووسّط قُرْط الكاشف، وحبس إبراهيم هذا مُدّة، ثم أطلقه لأجل أبيه قطلقتمر، ثم أنعم عليه بإمرة. فلمّا خُلع الملك الظاهر وحُبِس، قام عليه إبراهيم هذا وآنضم مع الناصريّ ومنطاش، وصار من جملة أمراء الطبلخاناة ثم كان مع منطاش على الناصري فلمّا ملك منطاش الديار المصرية أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بديار مصر، وآستقرّ أميرَ مجلس عوضاً عن الأمير أحمد بن يَلْبُغا، فلم يقنع بذلك، وبدا منه أمور، فأخرجه منطاش بعد أخذه الإمرة بدون السبعة أيام إلى حلب أميرَ مائة ومقدَّم ألف بها، فدام بها حتى ثار أهل بانقوسا على كمشبغا نائب حلب ووافقهم إبراهيم هذا، فظَفِر به كمشبغا ووسَّطه.

قلت: ما كان جزاؤه إلا ما فعله به كمشبغا. وكان شُجاعاً، غير أنه كان يحب الفتن ويُثير الشرور ــ عفا الله تعالى عنه ــ.

وتُوُفِّي الشيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن أبي يزيد بن محمد المعروف بمولانا زادة السِّيراميّ العجميّ الحنفي والد العّلامة محبّ الدين محمد آبن مولانا زادة في يوم الأربعاء حادي عشر المحرّم بالقاهرة. وكان إماماً مُفْتَنّاً في علوم كثيرة؛ وهو أوّل من وَلِي درس الحديث بالمدرسة الظاهريّة البرقوقية، ودام على ذلك إلى أن مات في التاريخ المقدّم ذكُره.

وتُوُفِّي الأمير سيف الدين تُلَكْتَمُر بن عبد الله أحد أمراء الطبلخانات بالطاعون في جُمادىَ الأول. وكان من خواصّ الملك الظاهر برقوق.

وتُوُفِّي قتيلاً الأمير سيف الدين جاركس بن عبد الله الخليلي اليلبُغاوي الأمير آخور الكبير وعظيم دولة الملك الظاهر برقوق: قُتِل في محاربة الناصريّ خارج

دِمَشق، في يوم الاثنين حادي عشر شهر ربيع الأول؛ وبقتله تخلْخلت أركانُ دولة الملك الظاهر برقوق. وكان أميراً مُهاباً عاقلاً عارفاً خبيراً سَيُوساً. وله بالقاهرة خان يعرف بخان الخليلي(١)، ومآثر بمكة وغيرها. وخلّف أموالاً كثيرة أخذها منطاش وفرّقها في أصحابه.

وتُوفِّي الأمير يُونس بن عبد الله النَّورُوزِي اليلبغُاوي الدوادار الكبير: قتله الأمير عنقاء بن شَطِّي أمير آل مِرا بخَربة اللصوص وهو عائد إلى الديار المصرية، بعد انهزامه من الناصري. وكان أيضاً أَحدَ أركان الملك الظاهر برقوق، وإليه كان تدبير المملكة. وكان خَدمه وباشر دواداريَّته من أيام إمْرته. وكان عاقلاً مدبِّراً حازماً. وهو صاحب الخان(٢) خارج مدينة غزّة، وغيره، معروفة عمائرُه بآسمه، ولا يحتاج ذلك إلى التعريف به، فإننا لا نعلم أحداً في الدولة التركيّة سُمِّي بيونس الدوادار غيره، ثم دوادار زماننا هذا الأمير يُونُس الدوادار السيفيّ آقباي، اِنتهى.

وتُوفِّي الأمير سيف الدين بزلار بن عبد الله العُمَريّ ثم الناصري نائب الشام قتيلاً بها. وكان أصله من مماليك الملك الناصر حسن: اشتراه، وربّاه مع أولاده، وقرأ القرآن، وتأدّب، ومَهَر في الخط المنسوب، وبَرَع في عدة علوم لا سيما علم الفلك والنجوم، مع تقدُّمه في أنواع الفروسية، والشجاعة المُفْرِطة، وأنواع الملاعيب، مع ذكاء وفطنة، وذوق وعقل، ومحاضرة حسنة، وحُسنِ شِكالة(٣) ولاه الملك الظاهر برقوق نيابة الإسكندرية، ثم عزله وجعله من جملة

---

(١) انظر خطط المقريزي: ٢/ ٩٤.

(٢) المراد بذلك «خان يونس» في فلسطين. وقد أرسل الظاهر برقوق دواداره الأمير يونس النوروزي لبناء قلعة في ذلك الموضع، وبنيت القلعة عام ٧٨٩هـ على شكل نزل، ولذلك أطلق عليها اسم الخان. وكانت القلعة أشبه بمجمع حكومي كامل، وكانت تقيم فيها حامية من الفرسان، وفيها مسجد تطل مئذنته من فوق أسوار القلعة، وأقيم فيها نزل للمسافرين وإسطبل للخيول. ويبدو أنه بعد مرور نحو ثلاثمائة عام على إنشاء القلعة استطابت إحدى الحاميات الإقامة فيها مع أسرها، ثم جاء آخرون وسكنوا خارج الأسوار، فنشأت بذلك مدينة خان يونس. (الموسوعة الفلسطينية: ٢/ ٣١٦).

(٣) كذا في الأصل. ولعل الصواب: «حسن شاكلة» أي حسن طبع وسجيّة؛ إلا إذا كان المؤلف يريد بذلك حسن الشكل، ويستعمل بذلك تعبيراً عامياً على عادته في كثير من المواضع في هذا الكتاب.

أمراء الألوف بالديار المصرية، ثم خافه، فقبض عليه ونفاه إلى طرابُلُس. فلمّا كانت نَوْبة الناصرية[١]، ٱتفق مع جماعة قليلة من أصحابه ومَلَك طرابُلُس من نائبها أَسَنْدَمُر، ووافق الناصريَّ على قتال الملك الظاهر برقوق فلمّا ملك الناصريّ مصر خلع عليه بنيابة دِمَشق، فوَلِي دمشق، ودام بها إلى أن قبض منطاش على الناصريّ؛ فغَضِب بُزْلار المذكور للناصري، وخرج عن الطاعة. فخادعه منطاش، وأرسل مُلَطِّفات إلى جَنْتَمُر بنيابة دمشق، فٱتّفق أمراء دمشق مع جنتمر ووثبوا عليه على حين غفلة، فركب وقاتلهم، وكاد يهزمهم لولا تكاثروا عليه ومسكوه وحبسوه بقلعة دمشق، حتى أرسل منطاش بقتله فقُتِل، وسنُّه نيِّف على خمسين سنة وكان من محاسن الدنيا. حدَّثني الشيخ موسى الطرابُلسيّ قال: «لمّا نفاه الملك الظاهر برقوق إلى طرابلُس، صَحِبْتُه، أقعُد لتكبيسه، فأجد أضلاعَه صفيحة واحدة». انتهى.

وتُوُفِّي الشيخ المعتَقد حسن الخبّاز الواعظ. كان صاحب الشيخ ياقوت الشاذليّ، وتلقّن منه، وتزوّج بٱبنته، وترك بيع الخبز، وٱنقطع بزاويته خارج القاهرة، وجلس للوعظ حتى مات في حادي عشرين شهر ربيع الآخر، ودُفِن بالقرافة. وكان للناس فيه ٱعتقاد حسن، ولوعظه تأثير في القلوب.

وتُوفِّي الأمير سيف الدين سُودون المظفريّ أتابك حلب قتيلاً بها بيد مماليك الأمير يلبغا الناصري، حسب ما تقدم ذكرُه في ترجمة الملك الظاهر برقوق. وكان أصله من مماليك قُطلوبغا المظفّري أحد أمراء حلب، وبها نشأ، وخدم الأمير جُرْجي الإدريسيّ نائب حلب وصار خازنداره، ثم صار من جملة أمراء حلب ثم وَلّاه برقوق حجوبية حلب ثم أتابكاً بها، ثم نقله إلى نيابة حَماة، ثم إلى نيابة حلب بعد القبض على يلبغا الناصريّ، ثم عزله الظاهر عن نيابة حلب بالأمير يلبغا الناصريّ المذكور وجعله أتابك حلب، فكان بينهما مباينةٌ كبيرة. وكان الناصري يزدريه؛ ودام على ذلك حتى بلغ الظاهرَ خروجُ الناصري عن الطاعة، وكتب ملطّفاً لسُودون المظفري هذا بنيابة حلب على عادته، وأرسل الملك الظاهر بصلحهم؛ فلمّا دخل سودون المذكور إلى دِهليز دار السعادة أخذته سيوف مماليك الناصري حتى قُتِل.

(١) المراد بذلك قيام يلبغا الناصري ومنطاش على الظاهر برقوق.

وتُوفِّي الأمير سيف الدين صَرَاي الطويل، أحد أعيان المماليك اليلبُغاوية، خارج القاهرة في شهر ربيع الأوّل. وكان أحد أمراء الطبلخاناة بالديار المصرية.

وتُوفِّي قاضي القضاة جمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن سليمان بن خير السكندريّ المالكي في يوم الأربعاء رابع عشر شهر رمضان، وكنيته أبو القاسم. مولده بالإسكندرية في يوم الأحد سابع جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وبها نشأ، وطلب العلم، وسَمِع الحديث، وتفقّه بأبيه وغيره، وبَرَع في الفقه والأصول، وشارك في غيره، وجلس مع الشهود بالثغر، ثم ولي به نيابة الحكم، ثم نُقل إلى قضاء الديار المصرية، عوضاً عن قاضي القضاة علم الدين سليمان بن خالد البساطيّ بعد عزله في سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة. وحُمدت سيرته إلى الغاية، ودام مدة سنين إلى أن عُزِل بالقاضي ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون؛ ثم أعيد بعد ذلك إلى أن مات قاضياً؛ وتولّى بعده تاج الدين بَهْرَام بن عبد الله بن عبد العزيز الدَّمِيريّ.

وتُوفّي إمام السلطان الملك الظاهر برقوق الشيخ شرف الدين عثمان بن سليمان بن رَسُول بن يوسف بن خليل بن نوح الكَرَاديّ (بتخفيف الراء المهملة) الحنفيّ المعروف بالأشقر، في يوم الخميس رابع عشرين ربيع الآخر. كان أصله من [تركمان][1] البلاد الشمالية، وآشتغل بها. ثم قَدِم القاهرة في عُنفوان شبابه في الدولة الأشرفيّة شعبان بن حسين، وآشتغل بها على علماء عصره، حتى شارك في عِدّة فنون. وصَحِب الملك الظاهر في أيام إمرته، فلما تسلطن الملك الظاهر قرّره إمامه؛ وتقدم في دولته، ثم ولي قضاء العسكر، ثم مشيخة الخانقاه البِيبرسيَّة، إلى أن مات. وكان حسن الهيئة جميلَ الطريقة؛ وهو والد القاضي محبّ الدين محمد بن الأشقر كاتب سِرّ الديار المصرية الآن. وقد سألتُ من ولده المذكور عن أصل آبائه فقال: أصلنا من بلاد القِرم، وكان جدّي عالماً مفتناً، وكان والد جدّي ملكاً بتلك البلاد، انتهى.

(١) زيادة عن إنباء الغمر.

وتوفي الأمير سيف الدين إشقْتَمُر بن عبد الله المارِدينيّ الناصري، نائب حلب والشام غيرَ مرّة، بطّالاً بحلب في شوّال كان أصله من مماليك صاحب ماردين، وبعثه إلى الملك الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، فربّاه الناصر وأدّبه. وكان يَعرف ضَرْب العُود، ويُحسن الموسِيقى، وكان ماهراً في عِدّة فنون، فقرّبه أستاذُه الملك النَاصر حسن، وجعله من أعيان خاصّكيّته، ثم أَمَّره. ثم تنقَّل بعد موت أستاذه في عدة وظائف إلى أن ولّاه الملك الأشرف شعبان نيابة حلب بعد وفاة قطلوبُغا الأحمديّ، فباشرها نحو سنة ونصف، وعُزِل بالأمير جُرْجِي الناصري الإدريسيّ ثم ولي نيابة طرابُلس عوضاً عن قَشتَمُر المنصوريّ ثم أُعيد بعد مدة إلى نيابة حلب عوضاً عن قشتمر المنصوريّ المذكور، في سنة إحدى وسبعين [وسبعمائة] بعد قتل يلبغا أستاذ الملك الظاهر برقوق ـ وكان إشقْتمر خُجداش يلبغا وصاحبه ومن أقرانه ـ فباشر نيابة حلب مدّة، ثم عُزل وأُعيد إلى نيابة طرابلس والسواحل[1] عوضاً عن أَيْدَمُر الدوادار ثم أعيد إلى نيابة حلب مرّة ثالثة في سنة أربع وسبعين [وسبعمائة] فباشر نيابة حلب إلى أن عُزِل في سنة خمس وسبعين بالأمير بَيْدمُر الخُوارَزْمِيّ. وتولى نيابة دمشق، فباشر نيابة دمشق أربعة أشهر، وعُزِل وأعيد إلى نيابة حلب رابع مرّة، فطالت مدَّته في هذه الولاية. وغزا سِيس[2] وفتحها في سنة ست وسبعين، وكان فتحاً عظيماً، وسُرّ الملك الأشرف شعبان بفتحه، وفيه يقول الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب: [السريع]

الملك الأشْرفُ إقباله ... يهدِي له كلَّ عزيز نَفِيسْ
لمَّا رأى الخضراء في شامةٍ ... تختَال والشقراءُ عجباً تَمِيسْ
وعَايَن الشَّهْباءَ فِي مُلْكه ... تَجري وتُبدِي مايَسُر الجَلِيسْ
ساق إلى سوق العِدَى أَدْهماً ... وساعد الجيشَ على أخذِ سِيسْ

واستمرّ على نيابتها إلى أن عُزِل بالأمير مَنْكلي بُغا الأحمديّ البلديّ، وقُبِض عليه وحُبِس بالإسكندرية، ثم أُطلِقَ وتوجه إلى القدس بطالاً؛ كل ذلك وإلى الآن

(١) المراد: السواحل الشامية.
(٢) سيس: مدينة في تركيا في إيالة أطنة.

لم يكن برقوق من جملة المماليك السلطانية، بل كان في خدمة مَنْجك، ثم من بعده في خدمة الأسياد أولاد الملك الأشرف شعبان. ثم أُعِيد إلى نيابة حلب خامس مرة عوضاً عن تمرباي الأفضليّ الأشرفيّ في سنة إحدى وثمانين، ثم نُقِل [إشقتمر] بعد عشرة أشهر إلى نيابة دمشق، عوضاً عن بَيْدَمُر الخُوَارَزْميّ في سنة آثنتين وثمانين، فدام بدِمَشق إلى أن عُزِل في محرم سنة أربع وثمانين؛ وتوجّه إلى القدس بطّالاً، فدام بالقدس إلى أن أعِيد إلى نيابة دمشق ثالث مرة، من قِبَل الملك الظاهر برقوق في سنة ثمان وثمانين؛ ثم عُزِل بعد أربعة أشهر ورُسِم له أن يتوجّه إلى حلب بطّالاً، فدام بحلب إلى أن مات. وكان فيه كل الخِصال الحسنة لولا حُبُّه لجمع المال.

وتُوُفّي الشيخ الإمام العلاّمة بدر الدين محمد آبن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البُلْقِينيّ الشافعيّ، قاضي العساكر، في يوم الجمعة سابع عشر شعبان، ودُفِن بمدرسة[1] أبيه بحارة بهاء الدين قراقوش. وكان أعجوبةً في الذكاء والحفظ، مفتنّاً في عِدّة علوم. وهو أسنُّ من أخيه قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البُلْقِينيّ. وكان له نظم ونثر؛ ومما يُنْسَب إليه من الشعر: [الرمل]

كسروا الجرّة عمدا [و] سقوا الأرضَ شرابا
قلتُ والإسلام دِيني ليتني كنت ترابا

وتُوُفّي العلامة شمس الدين محمود بن عبد الله النَّيْسابُوريّ الحنفيّ المعروف بابن أخي جار الله، في سابع جُمادَى الأولى. وكان عالماً مفتنّاً في علوم كثيرة.

وتُوفّي تاج الدين عبد الله (وقيل: أمين الدين) بن مجد الدين فضل الله بن أمين الدين عبد الله بن رِيشة القبطيّ المصريّ ناظر الدولة، في سادس جُمادَى الأولى.

---

(١) أنشأها الشيخ سراج الدين عمر البلقيني بالقرب من منزله في حارة بهاء الدين سنة ٧٩٥هـ. (انظر الضوء اللامع: ٦/٨٩). وهذه المدرسة لا تزال باقية إلى اليوم باسم جامع البلقيني بشارع بين السيارج الذي كان يعرف قديماً بحارة بهاء الدين قراقوش. (محمد رمزي).

وتُوفّي الأمير قرا محمد التُّركمانيّ صاحب الموصل، قتيلاً، في هذه السنة. وهو والد قرا يوسف صاحب تِبْريز، وَجدّ بني قرا يوسف ملوك العراق، الذين خَرِبت بغدادُ وغيرُها في دولتهم وأيامهم.

وتُوفّي الأمير الطواشي سابق الدين مثقال بن عبد الله الجماليّ الحبشيّ الزِّمام؛ وأصله من خدّام الملك الأمجد والد الأشرف شعبان. تنقّل في عدِة وظائف إلى أن صار زماماً للدور السلطانية؛ فلمّا أن قُتِل الملك الأشرف عزله أَينَبك البدريّ وولّى عوضه مقبلاً الرومي الطواشي اليلبُغاويّ. ودام مثقال بطّالاً سنين، وصادره برقوق، وحصل له مِحن، ثم أفرج عنه فصار يتردّد إلى مكة والمدينة إلى أن مات بِبدْر من طريق الحجاز في ذي القعدة، ودُفِن عند الشهداء في ليلة الجمعة تاسع عشرينه.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وعشرون إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وأربعة أصابع، والله تعالى أعلم.

* * *



المصـادر والمراجـع

الجزء الحادي عشر

١ ــ الأعلام، لخير الدين الزركلي ــ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦.
٢ ــ الألقاب الإسلامية، لحسن الباشا ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧.
٣ ــ إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر العسقلاني ــ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦.
٤ ــ الانتصار لواسطة عقد الأمصار، لابن دقماق ــ دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٥ ــ بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس ــ سلسلة النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية، فيسبادن ١٩٦٠ ــ ١٩٦٣.
٦ ــ بلدان الخلافة الشرقية ــ تأليف لسترانج ــ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤.
٧ ــ تاريخ ابن قاضي شهبة ــ تحقيق عدنان درويش ــ دمشق ١٩٧٧.
٨ ــ تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، لأحمد السعيد سليمان ــ دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤.
٩ ــ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، لمحمد قنديل البقلي ــ الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٤.
١٠ ــ الجوهر الثمين، لابن دقماق ــ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي ــ عالم الكتب، بيروت ١٩٨٥.
١١ ــ الخطط التوفيقية الجديدة، لعلي باشا مبارك ــ الهيئة المصرية العامة، القاهرة ١٩٨٠ ــ ١٩٨٦.
١٢ ــ خطط الشام، لمحمد كرد علي ــ مطبعة الترقي، دمشق ١٩٢٧.
١٣ ــ الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار) ــ دار صادر، بيروت.
١٤ ــ الدارس في تاريخ المدارس، للنعيمي ــ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.
١٥ ــ دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) ــ إصدار كتاب الشعب، القاهرة.
١٦ ــ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني ــ تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٧.
١٧ ــ الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة ــ دار الكتاب العربي، دمشق ١٩٨٤.

١٨ ـ الدولة المملوكية، لأنطوان ضومط ـ دار الحداثة، بيروت ١٩٨٠.
١٩ ـ ذيل تذكرة الحفاظ، لأبـي المحاسن الحسيني الدمشقي ـ دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٠ ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، لخليل بن شاهين الظاهري ـ باريس ١٨٩٤م.
٢١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي ـ (ج ١ ـ ٢) تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٥٨ ـ (ج ٣ ـ ٤) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشـور، القاهـرة ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢.
٢٢ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي ـ دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣ ـ صبـح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي ـ طبعة المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٣ ـ وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.
٢٤ ـ الضوء اللامـع لأهل القرن التاسـع، للسخاوي ـ دار مكتبة الحياة، بيروت.
٢٥ ـ قضايا لغوية في ضوء القراءات القرآنية، للشيـخ صبحي الصالـح ـ منشورات الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، بيروت.
٢٦ ـ القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، لمحمد رمزي ـ دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤.
٢٧ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة ـ دار الفكر، بيروت ١٩٨٢.
٢٨ ـ الكليّات، للكفوي ـ تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ـ وزارة الثقـافة والإرشـاد القومي، دمشق ١٩٨٢.
٢٩ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري ـ تحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦.
٣٠ ـ المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، لياقوت الحموي ـ تحقيق وستنفيلد، جوتنجن ١٨٤٦.
٣١ ـ المعارف، لابن قتيبة ـ دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٢ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريـخ الإسلامي، للمستشرق زامباور ـ مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١.
٣٣ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي ـ دار صادر، بيروت ١٩٨٤.
٣٤ ـ معجم متن اللغة، للشيـخ أحمد رضا ـ دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.
٣٥ ـ المعجم الوسيط، إعداد مجمـع اللغة العربية بالقاهرة.
٣٦ ـ ملحق دوزي: Supplément aux Dictionnaires arabes. 2vols. Paris-Leyden 1927.
٣٧ ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، لابن تغري بردي ـ الهيئة المصرية العامة، القاهرة.
٣٨ ـ الموسوعة الفلسطينية ـ إعداد هيئة الموسوعة الفلسطينية: أحمد المرعشلي، عبد الهادي هاشم، أنيس صايـغ ـ دمشق ١٩٨٤.
٣٩ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي ـ طبعة كاليفورنيا للمستشرق وليم بوبر ـ وطبعة دار الكتب المصرية.

٤٠ ــ نزهة النفوس والأبدان في تواريـخ الزمان، للخطيب الجوهري ــ تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠.

٤١ ــ نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري ــ دار الكتب المصرية ١٩٥٥.



فهرس المحتويات



فهرس المحتويات